

مصر والشرق الأدنى القديم

(١٢)

التاريخ والتأريخ

دراسة في ماهية التاريخ وكتابته
ومذاهب تفسيره ومناهج البحث فيه

الأستاذ الدكتور
محمد بسيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

دار المعرفية الجامعية
٤ شارع ستيفن الأنباري
الاسكندرية



التاريخ والتاريخ
دراسة في ماهية التاريخ وكتابته
ومذاهب تفسيره ومناهج البحث فيه

مصر والشرق الأدنى القديم

(١٢)

التاريخ والتأريخ

دراسة في ماهية التاريخ وكتابته
ومذاهب تفسيره ومناهج البحث فيه

الأستاذ الدكتور
محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

دار المعرفية الجامعية
١٠ شارع ستيرز الأنوارية
الإسكندرية



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com

رابطہ بدیل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،

مولانا وسيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

[اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على

ابراهيم وآل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما

باركت على ابراهيم وآل ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد]

إهداء

الى من هو اعز من نفسى

الى زينة الدنيا ، ودعوة الآخرة

الى ولدى ابراهيم

اهدى هذه الدراسة

تقديم

التاريخ هو المصدر الأساسى للمعرفة الانسانية ، وهو ذلك السفر الخاند الذى يحو بين دفتيه كل التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى مرت بها البشرية ، منذ أن قدر الله تعالى للانسان أن يبدأ حياته على الأرض ، وحتى يغير الله الأرض غير الأرض ، ومن ثم فالانسان هو الوحيد - بين الكائنات الحية - ذو التاريخ ، وهو الكائن الحى الوحيد الذى يصنع التاريخ ، ويصنعه التاريخ .

ولاريب فى أن الانسان قد بدأ يكتب تاريخه منذ أن نقش على الحجر ، ثم بعد أن كتب على الورق ، ايماننا منه بأن تسجيل تاريخه ، لأمر جد عظيم ، ذلك لأن التاريخ ، سواء أدرك ذلك أو لم يدرك ، انما هو - كما يقول ابن خلدون فى مقدمته المشهورة - فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا -

ومن هنا كانت أهمية التاريخ ، فهو يبحث فى المجتمع الانسانى ، وفى حكايته ، وكيف أصبح كما هو الآن ، ويدهى أن معرفتنا لما كانت عليه المجتمعات فى الماضى ، انما تبصرنا بالعوامل التى تؤثر فيها ، فضلا عن التيارات والقوى التى تحركها ، الى جانب الدوافع والمصادمات التى تشكلها - عامة كانت أم خاصة - انه بحث تتناول فيه الطبيعة البشرية فى كل وقت ، وهنسا تبرز أهمية تراجم الشخصيات التاريخية ، ويتضح - بالتالى - ما تقدمه قراءة تلك التراجم من فائدة ، فضلا عما تقدمه من متعة عقلية .

فالتاريخ لا يتناول حياة القادة فحسب ، وانما يمكن أن يقال - على

صورة ما - انه يتكون من رواسب حياة الملايين من الرجال والنساء، من غمار الناس وأواسطهم ، ممن لم يظفوا أسماء لامة في صفحات التاريخ . وانما حسبهم أنهم قدموا نصيبهم من المشاركة في بناء تاريخ أممهم ، الأمر الذى يجعل مادة التاريخ أشبه ما تكون بالشعب المرجانية ، التى تتكون من حياة ملايين المخلوقات البحرية الصغيرة ،والتى قد تكون قليلة الأهمية .

وهكذا يمكن القول : انه لا غنى للإنسان عن دراسة ماضيه ، باعتباره كائنًا اجتماعيًا ، ومن ثم ينبغى عليه أن يعرف تاريخ تطوره القريب والبعيد ، فضلاً عن تاريخ آثاره المادية ، وغير المادية .

على أن دراسة أحداث التاريخ - بارزها وماخفى منها في الأعماق - ليس لها في حد ذاتها - من حيث هى حوادث مجردة - كبير فائدة ، ما لم تتفاعل مع الفكر الإنسانى ، ذلك أن حوادث التاريخ إنما تصبح ذات قيمة ، عندما ينطقها المؤرخ بعد خرس ، باستفساره أياها ، والحاحه فى سؤالها ، عن قدر مسئوليتها ، ومدى تأثيرها ، فى تغيير وضع الإنسان وتوجيه مصيره .

ومن ثم ، فالتاريخ إذن غاية وضالته ، أن يفهمه الناس ، وأن يربطوا الأسباب بالمسببات ، وأن يجعلوا من كإمل الواقع المتشعب ، والمتراعى الاطراف ، شيئاً له نظامه وانسجامه - اضطراراً والزماً - بحكم التسلسل والتولد المنطقى ، ذلك لأن التاريخ إنما هو بناء منطقى لعالم الإنسان .

ولارىب فى أن الفكر الوضعى لا بد وأن يتأثر بطبيعة العصر الذى يعيشه - سلباً وإيجاباً ، بدرجة أو بآخرى - وهذا التأثير المحتوم ينعكس على معطياته الفكرية ، سواء كانت صيغة هذا التأثير بشكل تقبل لقيم العصر وأوضاعه ومناهجه ورؤاه ، أو رفض لها وتمرد عليها ، وفى كل من الحالين إنما يقوم الجانب للتأثيرى الانفعالى ، والاسقطات للظاهرة والخفية فى الوعى واللاوعى ، بدوره فى الرؤية التى يمارسها الفكر تجاه الأوضاع والأحداث والأشياء .

فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الفكر مفسراً للتاريخ ، وتفسير التاريخ

— فيما نعلم — إنما هو توسيع للتطويل صوب الماضي والمستقبل اللذين يبدآن كثيرا عن الحصر والضيظ والتعطيل ، فإن لنا ، دونما ريب ، أن نتصور كم سيجيء هذا التفسير مطبوعا بطابع العصر الذى يعيشه المفسر ، وكيف أن الأشياء والوقائع والأحداث فى الماضى والمستقبل ، سوف تأخذ اللون الذى يجد المفسر نفسه مضطرا الى النظر من خلال زجاجته التى اسقطت عليها مواضع العصر ، الظلال والأضواء ؟ وهذا بدوره سوف يؤدي الى أن تبعد التفسيرات الوضعية — وليس السماوية — بدرجة أو باخرى ، عن العلمية ، فضلا عن الموضوعية والحياد .

ومن هنا ، فإن أية نظرة سريعة تجاه معطيات الفكر الفلسفى الراهن ، وعروض المكتبة المعاصرة ، إنما تطلعننا على حشد كبير من الأبحاث والمؤلفات المتعلقة بنظريات التفسير الوضعى للتاريخ ، والتي تختلف طبقا لوجهة نظر أصحابها .

وهكذا بدأ عدد من المفكرين يحاولون تقنين التاريخ على أساس علمى ، يهدف الى ارساء قواعد ثابتة ، تصبح معها أحداث التاريخ مجرد تفاصيل أو تجارب ، ينتظمها ما تضمنته هذه القواعد من مقدمات ونتائج ، وهكذا ظهر عدد من المذاهب المختلفة لتفسير التاريخ ، يكاد يجمعها طابع واحد هو : أنها تنظر للتاريخ على أنه تطور للمجتمع ، قبل أن يكون سجلا لأعمال الأفراد ، وإن اختلفت فيما بينها فى تحديد الاتجاه الذى يسلكه هذا التطور ، والدافع الذى يكمن وراءه ، والنتيجة التى يهدف إليها .

ويدهى أن التاريخ لا يدرس عفوا ، ولا يكتب اعتباطا ، ويدهى أيضا أنه ليس كل من يحاول الكتابة فى التاريخ يصبح مؤرخا ، كما يتصور بعض الناس ، أو كما يتخيل بعض الكتاب . حينما يسطرون صفحات طويلة عن أحداث ماضية كانت أو معاصرة ، ويظنون بذلك أنهم يكتبون تاريخا ، ماداموا قد أمسكوا بالقلم والقرطاس ، ودارت لهم المطابع ، وملاّت كتاباتهم زفوف المكتبات ، ذلك لأنه من الضرورى أن تتوافر فى المؤرخ الصفات الضرورية ، وأن تتحقق له الظروف التى تجعله قادرا على دراسة التاريخ وكتابته .

ومن هنا فلقد وضع العلماء صفات خاصة للتاريخ ، بعضها يتصل
 بشخصية المؤرخ ، وبعضها الآخر يتصل بقدراته العلمية ، ذلك لأن البحث
 العلمى انما هو موهبة فنية يمنحها الله تعالى لبعض الناس ، ولا يمنحها
 لآخرين ، ومن ثم فليس الاطلاع ، ولا جمع المادة العلمية وترتيبها
 بالعناصر الكافية وجدها لانتاج بحث علمى أو رسالة أكاديمية فى التاريخ
 وانما يجب أن تتوفر القدرة على البحث عند المؤرخ أولا ، ذلك لأن جمع
 المادة العلمية وترتيبها ، شئ ، وتفسيرها وإبراز أهميتها ، واستخلاص
 النتائج شئ آخر ، بل ان هذا الأمر الآخر انما هو الصعب والمهم فى
 كتابة الرسائل العلمية والأبحاث التاريخية .

وانطلاقا من كل هذا ، فان الباحث يجب أن يكون له مقدرة يستطيع
 أن يستقل بها فى فهم الحقائق وفى تفسيرها ، كما أن فهمها وتفسيرها شئ
 قابل للاختلاف من شخص لآخر ، فاذا لم يكن الباحث قد وهب هذه
 المقدرة ، فهو دون المستوى اللازم للمناهج العلمى المطلوب .

وليس هناك من ريب فى أن هناك خصالا خلقية معينة يجب توافرها
 فيمن يتعرض لمهمة البحث العلمى ، أهمها : الصدق والأمانة والاخلاص
 والنزاهة والشجاعة ، ذلك لأنه من البديهيات الملم بها علميا أنه يستحيل
 على مؤرخ الحقائق العلمية أن يكون انسانا مزورا ، أو كاذبا ، أو غير
 معبر عما تنص عليه الوثائق التاريخية .

ولعل مما تجدر الإشارة اليه هنا ، أن الثقافة الاسلامية انما قد أبدعت
 فى تقويم الرجال فنا قائما بذاته ، هو «الجرح والتعديل» ، فقد كان
 المسلمون يأخذون الأخبار من أفواه الرجال ، وما قيدوه فى نسخهم ،
 ناظرين دائما الى هيئة الرجل وصلاحه ، فهم لم يكونوا يفصلون بين علم
 الفرد وسلوكه ، فالفرد - فى نظرهم الصائب - وحدة متكاملة ، يؤثر فيها
 سلوكه على عمله ، أو العكس ، ولا مناص من بحث حاله بحثا متقصيا ،
 يتناول أدق تفاصيل حياته الذهنية والسلوكية ليتمكن قبول نقله أو رفضه ،
 وما نطن - علم الله - أن ثقافة فى الأرض قامت على مثل هذا الأساس
 النقدى المنهجى النزيه ، فذلك شئ انما تفرد به المسلمون وحدهم .

وهناك صفات أخرى تتصل بقدرات المؤرخ العلمية ، اذ اشترط العلماء

أن تكون لدى المؤرخ قدرات واستعدادات تدريبية في الناحية اللغوية والعلمية تتصل بصفة خاصة بفرع التاريخ الذى يدرسه ، ذلك لأن توفر الصفات الخلقية النبيلة فى المؤرخ ، ليست وحدها بكافية لأداء عملية التاريخ ، وإنما تكملها عملية الاستعداد العقلى والعملى لأداء هذه المهمة ، ولأريب فى أن أول جوانبها قدرة المؤرخ اللغوية ، وخاصة لغة العصر ، التى كتبت بها وثائقه ، ذلك لأن اللغة هى وسيلة التعبير ، ومن ثم فعلى المؤرخ أن يحس بمدلولها ، وما تريد أن تعبر عنه ، وهكذا كان على دارس التاريخ الفرعونى - مثلاً - أن يعرف اللغة المصرية القديمة ، وعلى دارس التاريخ الإسلامى أن يجيد اللغة العربية ، وهكذا .

ومن البدهى أن ملكة النقد إنما هى من الصفات الضرورية للمؤرخ ، فلا يجوز له أن يقبل كل ما هو مكتوب ، أيا كان صاحبه من ذوى الشهرة والرين ، وعليه أن يتمسك بالمقولة الحققة ، أن كل رجل يؤخذ من قوله ، ويرد عليه ، ماعدا سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ ، فهو وحده المعصوم عن أن يقول ، إلا ما هو حق وهدى ، وهدى ربنا - جل جلاله - فى قوله تعالى عن نبيه الكريم ﷺ «وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى» (١) ، وروى عنه ﷺ أنه قال : «لا أقول إلا حقا» (٢) .

وعلى المؤرخ كذلك ألا يصدق كل وثيقة أو مصدر ، بغير الدرس والفحص والاستقصاء ، فياخذ ما يثبت له أنه الصدق ، ويترك ما دون ذلك ، حتى أن كان هذا الصدق لا يتفق مع عواطفه الشخصية أو الوطنية ،

(١) سورة النجم آية ٤ (٢) روى الامام أحمد فى مسنده (١٦٢/٢) عن عبد الله بن عمرو ، أنه قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ ، أريد حفظه ، فنهتنى قريش فقالوا : انك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ بشر ، يتكلم فى الغضب ، فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «أكتب فوالذى نفسى بيده ، ما خرج منى إلا الحق» ، وروى الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «لا أقول إلا حقا» ، قال بعض أصحابه : فانك تداعبنا يا رسول الله ؟ قال : «إني لا أقول إلا حقا» (مسند الامام أحمد ٢/٣٤٠ ، تحفة الأحوذى ٣/٣١٦ ، سنن ابن ماجه ١/٥٨٩ ، تفسير ابن كثير ٤/٣٨٣ (بيروت ١٩٨٦) ، وانظر : محمد بيومى مهران : السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث - بيروت ١٩٩٠ ص ١٩٤ - ١٩٥) .

فالحق أحق أن يتبع ، ولا ريب في أن كل وثيقة أو مصدر يؤخذ منه ، ويرد عليه ، الا القرآن الكريم ، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد» (٣) .

وفي الواقع أن المؤرخ اذا اعوزته ملكة النقد ، سقطت عنه صفته ، واصبح مجرد شخص يحكى كل ما يبلغه ، على أنه حقيقة واقعة ، ومن ثم فمن الواجب على المؤرخ أن يفهم آراء الغير ، وأن يكون دقيقا في نقل عباراته ، فكثيرا ما يقع بعض الباحثين في أخطاء جسيمة بالنسبة لآراء الآخرين ، اما لخطأ في النقل أو لسوء فهم — كما أن على المؤرخ أن يفتح عينيه وقلبه لما يقرأ ، وأن يكون على حذر ، فلا يسلم بكل ما قرره باحثون من قبله من آراء ، وانما عليه أن يفكر فيها طويلا ، وأن يمعن النظر في كل ما يذهب اليه بفكر ثاقب ، وعقل متفتح ، وما أكثر الأمثلة التاريخية التي خالف فيها اللاحقون السابقين .

وانطلاقا من كل هذا ، فمن أوجب واجبات المؤرخ أن يدرس بنفسه الأحداث والأسباب التي أدت إليها ، ثم يقارن النصوص بعضها ببعض ، وأن يبرز في كل مراحل البحث شخصيته ، بصفة ايجابية مؤثرة ، ولكن حذار من المبالغة في ذلك ، ثم حذار من أن يحاول بالحق وبالباطل أن يصل الى ما يريد ، فهذا ما يجب أن يبعد عنه طالب العلم ، البعد كل البعد ، فالحق أحق أن يتبع .

هذا ومن المعروف أن التاريخ انما يتصل بكثير من فروع المعرفة الانسانية ، ومن ثم فعلى من يتصدى لكتابة التاريخ أن يقوم بتحصيل هذه المعرفة ، ذلك لأنه ان أحسنها ، فهو بالتالى انما يحسن ما يكتبه من الدراسات التاريخية ، ذلك لأن المؤرخ قد يصادف في دراسته للماضى مسائل في الفلسفة والقانون والاقتصاد وغيرها ، وبقدر ما تتعدد معرفته بفروع المعرفة المختلفة ، بقدر ما يكون أكثر استعدادا لعمله كمؤرخ .

(٣) سورة فصلت : آية ٤٣ ، وانظر : سورة البقرة : آية ٢٥٢ ، آل عمران : آية ٣ ، ٦٢ ، النساء : آية ٨٧ ، الكهف : آية ٦٣ ، فاطر : آية ٣١ ، الزمر : آية ٢ ، ٤١ ، الجاثية : آية ٦ ، محمد : آية ٢٠ .

وقد اصطلح العلماء على تسمية هذه المعارف المختلفة باسم «العلوم المساعدة» أو «العلوم الموصلة» ، وهى بطبيعة الحال تختلف بالنسبة للباحث باختلاف العصر أو الموضوع مجال البحث ، فدارس التاريخ القديم مثلا ، انما تختلف علومه المساعدة عن دارس التاريخ الوسيط ، وهذه تختلف عن دارس التاريخ الاسلامى أو الحديث .

وبدهى أنه ليس من الضروري أن يستخدم المؤرخ كل العلوم المساعدة فى أبحاثه ، وانما يمكن الافادة منها ، طبقا لمقتضى الحال ، بما يخدم الموضوع الذى يدرسه ، أو المرحلة التاريخية التى يعالجها ، فمن الممكن أن يستخدم المؤرخ أحد العلوم المساعدة عند دراسته لموضوع بذاته ، ولا يستخدمها عند دراسته لموضوع آخر ، أو يستخدمها بشكل محدود .

وأخيرا ، وليس أخرا ، فلقد تعرضت هذه الدراسة لموضوعات مختلفة عن التاريخ وكتابته ، وعن مقومات هذه الكتابة ، فضلا عن منهج البحث التاريخى ، وان أعطت أهمية خاصة لكتابة الرسائل الجامعية (الماجستير والدكتوراه) ، وكل ما يبغيه صاحبها أن يكون فيها بعض النفع ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

«وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب» .

دكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

بولكلى - رمل الاسكندرية فى
الاول من ذى القعدة عام ١٤١١هـ
الخامس عشر من مايو عام ١٩٩١م

الفصل الأول

التاريخ : ماهيته وأهدافه ومكانته
بين الفنون والعلوم

(١) تعريف التاريخ :

يدل لفظ «التاريخ» على معانٍ متفاوتة، ففي لغة القرآن الكريم — أى لغتنا العربية — تأتى كلمة التاريخ والتأريخ والتواريخ بمعنى الاعلام بالوقت ، وتاريخ شئ من الاشياء قد يدل على وقته الذى ينتهى اليه .
• مضافا اليه ما وقع خلال هذا الوقت من حوادث ووقائع ^(١) .

ويقول شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى (٨٣١ — ٨٩٠ هـ = ١٤٢٧ — ١٤٩٧ م) : التاريخ فى اللغة الاعلام بالوقت ، يقال : أرخت الكتاب وورخته ، أى بينت وقت كتابته ، وفى الاصطلاح : التعريف بالوقت الذى تضبط به الاحوال من مولد الرواة والائمة ووفاة وصحة وغفل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم فى ابتدائهم وحالهم واستقبالهم بويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملعة — وتجديد فرض ، وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة ، وربما يتوسع فيه لبدىء الخلق وقصص الانبياء ، وغير ذلك من أمور الامم الماضية وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتى ، أو دونها كبناء جامع أو مدرسة أو قنطرة أو رصيف أو نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد أو خفى سماوى كجراد وكسوف وخسوف ، أو أرضى كزلزال وحريق وسيل وطفوفان وقحط وطاعون وموتان وغيرها من الايات العظام والعجائب الجسام .

والحاصل : أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التمييز والتوقييت عما كان فى العالم ، وأما موضوعه فالانسان والزمان ، ومسائله

(١) محمد عواد حسين : صناعة التاريخ — مجلة عالم الفكر — المجلد الخامس — العدد الاول ١٩٧٤ ص ١١٥ .

أحوالها المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة
للإنسان وفي الزمان^(٣) .

ويقول الجوهري : التاريخ تعريف الوقت ، والتورخ مثله ، يقال :
أرخت وورخت ، وقيل اشتقاقه من الأرخ ، يعني بفتح الهمزة وكسرهما ،
وهو الأنثى من بقر الوحش ، لأنه شيء حدث كما يحدث الولد ، هذا
وقد فرق عبد الملك الباهلي الأصمعي (٧٤٠ - ٨٣١هـ) بين اللغتين ، فقال :
بتوتميم يقولون : ورخت الكتاب تورخا ، وتقول قيس : أرخته تأريخا ،
وهذا يؤيد كونه عربيا ، وقيل أنه ليس بعربي محض ، بل هو معرب
مأخوذ من «ماه روز» بالفارسية ، ومعني «ماه» القمر ، و «روز»
اليوم ، وكان الليل والنهار طرفة ، قال «أبو منصور الجواليقي»
(١٠٧٣ - ١١٤٤) في كتابه «المعرب من الكلام الأعجمي» يقال : ان
التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي ، وإنما أخذه المسلمون عن أهل
الكتاب ، وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة ، كتب في خلافة عمر ،
رضي الله عنه ، فصار تاريخا إلى اليوم^(٣) .

وعلى أية حال ، فلقد أكد جب H. Gibb : أن لفظ تاريخ ، إنما
هو لفظ عربي ، بمعنى العهد أو الحساب أو التوقيت ، أي تحديد الوقت
وتحديد الشهر^(٤) .

ويقول أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب (٨٨٨ - ٩٥٨هـ) في كتابه
«المخراج» : تاريخ كل شيء آخره ، فيؤرخون بالوقت الذي فيه حوادث
مشهورة ، ونحوه قول «إبراهيم بن العباس الصولي» (٧٩٢ - ٨٥٧هـ) :
تاريخ كل شيء نهايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه ، ومنه قيل لفلان
تاريخ قومه ، أما لكون إليه المنتهى في شرف قومه - كما قال الطبري -

(٢) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الأعلان بالتوبيخ
لن ذم التاريخ - بيروت - دار الكتاب العربي - ١٩٨٣ ص ٦ - ٧ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٦ - ٧ .
(٤) هـ. جب : علم التاريخ - تعريب لجنة ترجمة دائرة المعارف
الإسلامية - بيروت - دار الكتاب اللبناني - ١٩٨١ ص ٢٦ - ٢٧ .

وذلك بالنظر لاضافة الامور الجلييلة من كرم أو فخر أو نخوة ما أتيه ،
واما لكونه ذاكرًا للاخبار وما شاكلها (٥) .

وعلى أية حال ، فلفظ التاريخ ، انما يدل على معانٍ متفاوتة ، فهو
— في نظر الكتاب — انما يشتمل على المعلومات التي يمكن معرفتها عن
نشأة الكون كله ، بما يحويه من أجرام وكواكب ، ومن بينها الارض ،
وما جرى على سطحها من حوادث الانسان (٦) ، ومن ثم فقد بدأ
المؤرخون الاقدمون كتاباتهم عن نشأة الارض — فعمل ذلك مؤرخو
التوراة ، كما جاء في سفر التكوين (٧) — وفعله المؤرخون المسلمون
كالطبري (٢٢٤ — ٣١٠هـ) وابن الاثير (٥٥٥ — ٦٣٠هـ) وابن كثير (٧١٠ —
٨٧٤هـ) كما فعله بعض المؤرخين المحدثين ، مثل «هربرت جورج ويلز»
(١٨٦٦ — ١٩٤٦م) ، حيث بدأ كتابه «الموجز» (٨) — وكذا المعالم — (٩)
بدراسة نشأة الكون ، والارض وما ظهر على سطحها من مظاهر الحياة
المختلفة ، ثم تدرج في عرض تواريخ الامم والشعوب والخضارات
المختلفة منذ نشأتها حتى العصر الحديث ، معبرا في ذلك عن وحدة
البشرية ، على الرغم من جزئيات تواريخها وتفصيلاتها (١٠) .

على أن جمهرة المؤرخين انما تذهب الى أن معنى التاريخ انما يقتصر
على بحث واستقصاء حوادث الماضي ، كما يدل على ذلك لفظ (Historia)

(٥) السخاوي : المرجع السابق ص ٧ .

(٦) حسن عثمان : منهج البحث التاريخي — القاهرة — دار المعارف
١٩٦٥ ص ١١ .

(٧) انظر : الاصحاحات العشر الاولى من سفر التكوين .

(٨) هـ جـ ويلز : موجز تاريخ العالم — ترجمة عبد العزيز توفيق
جاويد ، ومراجعة محمد مامون نجا — القاهرة — مكتبة النهضة المصرية
١٩٦٧ ، وانظر الاصل :

H. G. Wells, A Short History of the World, (Penguin Books), 1965.

(٩) هـ جـ ويلز : معالم تاريخ الانسانية — المجلد الاول — ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد — القاهرة — لجنة التأليف والترجمة والنشر —
١٩٦٧ ، وانظر الاصل :

H. G. Wells, The Outline of History, London, 1963.

(١٠) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١١ .

المستمد من الأصل اليونانى القديم ، أى كل ما يتعلق بالانسان منذ بدأ يترك آثاره على الصخر والارض^(١١) بتسجيل أو وصف أخبار الحوادث التى ألت بالشعوب والافراد ، غير أن هذا الماضى ليس ماضيا قارا ذا حدود معينة ثابتة .

ومن ثم فقد عرف فريق آخر التاريخ : بأنه ذلك الذى يجرى مطلق مجرى الحوادث الفعلى الذى يصنعه الابطال والشعوب ، والتى وقعت منذ أقدم العصور ، واستمرت وتطورت فى الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر^(١٢) .

على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب الى أن التاريخ انما هو «علم الماضى» غير أن الماضى انما هو وعاء لكل مظاهر الكون بمختلف أشكالها وأنواعها ، يتسع للجيولوجيا ، ولعل تطوّر الحياة ونشوءها وارتقائها ، ولعلم الفلك وغيره ، ولكل صنف من أصناف الكائنات ، من جماد ونبات وحيوان ، وهذا التاريخ له علماءؤه ، وله اختصاصيوه ، ومن هنا فقد حاول البعض زيادة الايضاح فقالوا : انه معرفة الماضى الانسانى ، ثمادته اذن هى ما جرى فى الزمن السالف^(١٣) .

فالتاريخ إذن : هو المصدر الأساسى للمعرفة الانسانية ، وهو ذلك السفر الخالد الذى يحوى بين دفتيه التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى مرت بها البشرية منذ قدر الله للانسان أن يبدأ حياته على الارض ، وحتى يغير الله الارض غير الارض .

11. C. Oman, in the Writing of History, London, 1939, p. 2.

(١٢) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٢ ، ف. هرنشو : علم التاريخ - ترجمه وزاد عليه عبد الحميد العبادى ، القاهرة ، ١٩٣٧ ص ٨ .
(١٣) شاكز مضطفى : التاريخ هل هو علم أم فن ؟ مجلة عالم الفكر المجلد الاول - العدد الاول - ١٩٧٤ ص ١٧٤ وانظر تعريفات أخرى فى : و. ن. ولس : المدخل الى فلسفة التاريخ - ترجمة أحمد حمدي محمود - القاهرة ١٩٦٢ ، وانظر الاصل :

W. N. Walsh, Introduction to the Philosophy of History, London, 1951.

هذا ويتناول التاريخ حياة الانسان - من حيث هو انسان - وليس موضوعه حياة الانسان - من حيث هو كائن حي - فذلك شأن العلوم البيولوجية التى تبحث فى أثر الزمن فى الكائنات الحية من حيث النمو والتطور والانحلال ، أما الانسان فهو الوحيد بين الكائنات الحية الذى يدرك معنى الزمن ، وبالتالي فالانسان هو الوحيد ذو التاريخ ، وهو الكائن الحى الوحيد الذى يصنع التاريخ ويصنعه التاريخ ، ومن ثم فاذا تناول المؤرخون بعض الاحداث الطبيعية ، مثل حدوث زلزال أو فيضان ، فانما يهدفون من وراء ذلك الى دراسة أثر تلك الاحداث الطبيعية على الانسان بالذات (١٤) .

(٢) غاية التاريخ وأهدافه :

يقول المسعودى (ت ٣٤٥هـ - ٩٥٧م) عن التاريخ : انه علم يستمتع به العالم والجاهل ، ويستعذب موقعه الأحقق والماثل ، فكل غريبة منه تعرف ، وكل أعجوبة منه تستظرف ، ومكارم الأخلاق ومعاليها منه تقتبس ، وآداب سياسة الملوك وغيرها منه تلتبس ، يجمع لك الاول والاخر ، والناقص والوافر والبادى والحاضر ، والموجود والغابر ، وعليه مدار كثير من الاحكام ، وبه يتزين فى كل محفل ومقام (١٥) .

ويقول ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ) : اعلم أن فن التاريخ عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الامم فى أخلاقهم ، والانباء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياساتهم حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا (١٦) .

ويقول أبو الفرج الاصبهاني (٨٩٧ - ٩٦٧) فى مقدمة كتابه الاغانى

(١٤) عادل حسن غنيم وجمال محمود حنجر : فى منهج البحث التاريخى - الاسكندرية - دار المعرفة الجامعية - ١٩٨٩ ص ١٣ - ١٤ .
 (١٥) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر - الجزء الاول - بيروت ١٩٧٣ ، أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ - الاسكندرية - مؤسسة الثقافة الجامعية ص ١٠٤ .

(١٦) مقدمة ابن خلدون - دار القلم - بيروت ١٩٨١ ص ٩٠ .

ان القارىء اذا تأمل ما فيه (أى التاريخ) من الفقر ونحوها ، لم يزل منتقلا بها من فائدة الى فائدة ، ومتصرفا منها بين جد وهزل ، وآثار والمثيرة ، وسير وأشعار ، متصلة بأيام العرب المشهورة ، وأخبارها المتنادين معرفتها ، وتحياج الاحداث الى دراستها ، ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها ، اذا كانت مفتحة من غرر الاخبار ، ومفتحة من عيونها ، ومأخوذة من مظاهرها ، ومنقولة عن أهل الخبرة بها (١٧).

ويقول المقرئى (٧٦٦ - ٨٤٥ = ١٣٦٤ - ١٤٤٢م) فى كتابه «الواعظ والاعتبار بذكر الخط والاثار» : ومنفعته (أى التاريخ) أن يشرف المرء فى وقت قصير على ما كان من الحوادث والتغيرات فى الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة ، فتنهذب بتدبير ذلك نفسه ، وترتاض أخلاقه فيتحب للخير ويقطعه ، ويكره الشر ويجتنبه (١٨) .

ولعل ابن الاثير (٥٥٥ - ٦٣٠ = ١١٦٠ - ١٢٣٢م) انما قد فصل القول أكثر من غيره فى مفهوم العبرة أو المعزى من دراسة التاريخ ، فجعلها منافع دنيوية وأخرية ، فأما الدنيوية ، فمنها أن الانسان لا يخفى أنه يحب البقاء ، ويؤثر أن يكون فى زمن الاحياء ، فياليت شعرى ، أى فرق بين ما رآه أمس أو سمعه ، وبين ما قرأه فى الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين ؟ فاذا ظالمها فكأنه حاضرهم ، واذا علمها فكأنه حاضرهم ، ومنها أن الملوك ومن اليهم الامر والنهى اذا ما وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ورأوا مدونة فى الكتب يتناولها الناس ، فيرونها خلف عن سلف ، ونظروا الى ما أعقبت من سوء الذكر ، وقبيح الاحدثة ، وخراب البلاد ، وهلاك العباد ، وذهاب الاموال ، وفساد الاحوال ، استقبحوها وأعرضوا عنها وأطرحوها ،

(١٧) أبو الفرج الاصفهاني : الاغانى - الجزء الاول - القاهرة

١٩٢٩ ، أحمد محمود صبحي : المرجع السابق ص ١٠٤ .

(١٨) نفس المرجع السابق ص ١٠٤ .

واذا رأوا مسيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن ممالكهم وبلادهم عمرت ، وأموالها درت ، استحسبوا ذلك ورغبوا فيه ، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه ، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء ، وخلصوا بها من الممالك ، واستصانوا نفائس المدن وعظيم الممالك ، ولو لم يكن فيها غير هذا ، لكفى به فخرا •

ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها ، فانه لا يحدث أمر ، الا قد تقدم هو أو نظيره ، فيزداد بذلك عقلا ، ويصبح لأن يقتدى به أهلا ، ومنها ما يتجمل به الانسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها ، ونقل طريقة من طرائقها ، فترى الاسماع مصغية اليه ، والوجوه مقبلة عليه ، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره ، مستحسنة ما يذكره •

وأما الفوائد الاخرية ، فمنها أن العاقل اللبيب اذا تفكر فيها ، ورأى تقاب الدنيا بأهلها ، وتتابع نكباتها الى أعيان قاطنيها ، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم ، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم ، فلم تبق على جليل وحقير ، ولم يسلم من نكدها غنى ولا فقير ، زهد فيها وأعرض عنها ، وأقبل على التزود للآخرة منها ، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص وسلم أهلها من هذه النقائص •

ومنها التخلق بالصبر والتأسي ، وهما من مصاسن الاخلاق ، فان العاقل اذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبى مكرم ، ولا ملك معظم ، بل ولا أحد من البشر ، علم أن يصيبه ما أصابهم وينوبه ما نابهم ، ومن أجل هذه الحكمة وردت القصص في القرآن المجيد ، قال تعالى «ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» فان ظن قائل أن الله سبحانه وتعالى ، أراد بذكرها الحكايات والاسمار ،

بعد تمسك من أقوال الزينج بمحكم سببها حيث قالوا : هذه أساطير
الأولين (١٩) .

ويقول السخاوى : وأما فائدته (أى التاريخ) فمعرفة الامور
على وجهها ، ومن أجل فوائده أنه أحد الطرق التى يعلم بها النسخ
في أحد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما ، ويقول محمد
ابن ابراهيم بن ساعد بن الاكفانى في «ارشاد القاصدين الى أسنى
المقاصد» : وكتب التاريخ ينتفع بها في الاطلاع على أخبار الملوك
والعلماء والاعيان وحدث الحداث في الماضى من الزمان ، وفي ذلك
ترويح لل خاطر ، وعبر لاولى الابصار .

ويقول الموفق أبو الحسن على بن أبى بكر الخزرجى في مقدمة «تاريخ
اليمن» : حدانى على جمعه ما رأيت من افعال الناس لفن التاريخ ، مع
شدة احتياجهم اليه ، وتعويلهم عليه في كثير من الامور ، ولما يندرج في
ضمنه من المواعظ والاداب ، وتفصيل شوابك الاحكام والانساب ، قال :
ولولا معرفة التاريخ ما اتصل أحد من الخلف بشيء من أخبار السلف ،
ولا عرف فاضل مفضول ، ولا امتاز معروف عن مجهول .

ويقول المزمز الكنائى الحنبلى : لاشك في جلالة علم التاريخ ، وعظم
موقعه من الدين ، وشدة الحاجة الشرعية اليه ، لان الاحكام الاعتقادية
والمسائل الفقهية ، مأخوذة من كلام الهادى من الضلالة ، والمبصر من
العمى والجهالة ، والنقلة لذلك هم الواسطة بيننا وبينه ، فوجب البحث
عنهم ، والفحص عن أحوالهم ، وهذا أمر مجمع عليه ، والعلم المتكفل
بذلك ، هو علم التاريخ ، ولهذا قيل انه من فروض الكفاية (٢٠) .

وعلى أية حال ، فإن الامر الذى لا ريب فيه ، أن الجامعات الان في كل
أنحاء العالم ، انما تمتلئ بأعداد كبيرة من الطلاب الذين يدرسون في

(١٩) ابن الاثير : الكامل في التاريخ - المجلد الاول - بيروت - دار
صادر ودار بيروت - ١٩٦٥ ص ٦ - ٩ .
(٢٠) السخاوى : المرجع السابق ص ٧ ، ٢٩ - ٣٠ ، ٥٥ .

أقسام التاريخ «بمرحلة الليسانس» فضلا عن مرحلة الدراسات العليا، للحصول على درجتى الماجستير (M. A. Thesis) (M. A = Master of Arts) والدكتوراه (Doctorate) ، وليس هناك من شك فى أن هذه الأقسام ، انما تعمل على تكوين أجيال متخصصة فى الدراسات التاريخية بين طلاب كليات الاداب فى كل الجامعات ، وهكذا يفتح التاريخ لهم مستقبلا أكاديميا (Academic) ثم ان هناك ميلا أمام معلمين أحسن اعدادهم لهذه المادة فى كليات ومدارس من كل المستويات وتحيط بهيئة التدريس وظائف ثقافية معينة يشغلها أمناء المكتبات وموظفو السجلات وأمناء المتاحف وسكرتاريو المعاهد وموظفو الخدمة الاجتماعية ، ولا مرأ فى أن تلك الوظائف آخذة الان فى الازدياد،تبعاً لمطالب العصر الاجتماعية.

وثمة مهنة أخرى — ذات أهمية لا ريب فيها — وهى مهنة الصحافة وغيرها من وسائل الاعلام ، كالاذاعة والتلفزيون ، وانها لمزية كبرى لسففى الشؤون السياسية ولمراسلى الشؤون الخارجية والحربية أن يكونوا قد توفروا على دراسات تاريخية ، وذلك أن كثيرا جدا من الشؤون التى عليهم أن يتناولوها تفتقر الى ذلك الاساس ، لكى يتفهمها هؤلاء ويشرحونها ، وليس يخلو من مفزى أن تكون طائفة من أهدر الصحفيين الذين أسهموا بقسط كبير فى تكوين رأى عام أريب فى الشؤون العامة ، توفرت جميعا على أساس من الدراسة التاريخية ، ولو لم يتوفر لاولئك الصحفيين خلفية من هذه الدراسة التاريخية ، إكان تقريرهم للحوادث ، وتعقيبيهم عليها أقل وزنا .

وربما كان أهم من ذلك الخدمة المدنية التى تتزايد أهميتها اليوم فى كل البلاد ، تبعاً لتزايد المصالح العامة ، ويعد احدى السبل المسلم بأهميتها لتولى المناصب الكبرى ، وذلك حق إذ أنه يهيم الخلفية المناسبة لأغلب الشؤون التى علينا تناولها فى الوظائف الادارية^(٢) .

(٢١) ل . راوس : التاريخ : أثره وفائدته — ترجمة مجد الدين

وأما بالفنبة لرجال السياسة ، فالتاريخ أكثر من ضروري لمباشرة أعمالهم بمهارة وجدية ، فإن جهل ذوى المناصب الكبرى في المجال السياسي بالتاريخ ، إنما نتيجته المؤكدة جهلهم بفهم تطورات العالم السياسية بعقلية تاريخية ، ومثالنا على ذلك بريطانيا التي دفعت ثمنها باهظا لجهل قادتها قبل الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) بحقائق التاريخ الاوربي ومتجهاته ، ولم يكن أنصار العزلة في أمريكا خيرا من أولئك ، ذلك لان انسحاب أمريكا في عام ١٩٢٠م من مكانها الطبيعي في السياسة الدولية ، إنما قد أفصى في النهاية الى اعتداء اليابان وألمانيا ، ونشوب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) (٢٢) .

غير أن أهمية التاريخ أهم من ذلك وأخطر بكثير ، أنه يبحث في المجتمع الانساني ، وفي حكايته ، وكيف أصبح الانسان كما هو الان ، وأن معرفة ما كانت عليه المجتمعات في الماضي ، وكيف تطورها لتتبعصرن بالعوامل التي تؤثر فيها ، فضلا عن التيارات والقوى التي تحركها الى جانب الدوافع والمصادمات التي تشكلها - عامة كانت أم خاصة - أنه بحث تتناول فيه الطبيعة البشرية في كل وقت ، وهنا تبرز أهمية تراجم حياة الشخصيات التاريخية ، ومن ثم يتضح مقدار ما تقدمه قراءة تلك التراجم من فائدة ، فضلا عما تقدمه من متعة عقلية ، فالتاريخ لا يتناول حياة العظماء من الافراد وحسب ، فلقد يقال على صورة ما أنه يتكون من روايب حياة ملايين من الرجال والنساء الذين تقل أهميتهم ، والذين لم يخالفوا اسما ، بل قدموا فقط حصتهم من المشاركة ، ان حياة هؤلاء لتجعل مادة التاريخ أشبه بالشعب المرجانية التي تتكون من حياة ملايين من المخلوقات البحرية الصغيرة القليلة الاهمية (٢٣) .

وهكذا يمكن القول : أنه لا غنى للانسان عن دراسة ماضيه باعتباره

حفنى ناصف ، ومراجعة محمد أحمد أنيس - القاهرة - مؤسسة سجل العرب - ١٩٦٨ ص ٥ - ٦ وانظر الاصل :

A. L. Rowse, The use of History, London, 1946.

(٢٢) - نفس المرجع السابق ص ٤ .

== (٢٣) - نفس المرجع السابق ص ١٥ .

مكائنا اجتماعيا ، نؤمن ثم ينبغى عليه أن يعيرف تاريخ تطوره وتاريخ أعماقه وآثاره^(٢٤) ، على أنه يجب أن نلاحظ أن دراسة الاحداث التاريخية — بارزها وما خفى منها في الاعماق — ليس لها في حد ذاتها — من حيث هي حوادث مجرد — كبير فائدة ، ما لم تتفاعل مع الفكر الانساني ، ذلك أن الحوادث انما تصبح ذات قيمة عندما ينطقها المؤرخ بعد خرس ، باستفساره اياها ، والباحه في سؤالها ، عن قدر مسؤوليتها ومدى تأثيرها في تغيير وضع الانسان وتوجيه مصيره ، فالتاريخ اذن غايته ومضالته أن يفهم ، وأن يربط الملل بالمعاملات والاسباب بالمسببات ، وأن يجد من كامل الواقع المتشعب والمتراعى الاطراف ، شيئا له نظامه وانسجامه — اضطرارا والزاما — بحسب التسلسل والتوالد المنطقي ، فالتاريخ بناء منطقي لعالم الانسان^(٢٥) .

وانطلاقا من كل هذا ، وبناء عليه ، فمن واجب المؤرخ أن يدرس — مثلا — العوامل التي أدت الى حدوث الغارات والحروب وما لابس ذلك ، وما خلفته من الآثار ، ويتتبع — مثلا — حركة الكشف الجغرافي في أخريات القرن الخامس عشر الميلادي ، وما ترتب على ذلك من تغيير طريق التجارة العالمي بين الشرق والغرب ، وما أدى اليه من تدهور أعم وارتفاع أخرى ، وينبغي عليه — مثلا — أن يتبين أثره في هيئة الحاكمين وفي مجموع الشعب ، كما عليه — مثلا — أن يدرس الاسباب التي أوجدت أنواعا من الادب ، أو ألوانا جديدة من فنون التصوير والنحت والعمارة ، أو أساليب جديدة من فنون الموسيقى ، وأن يبين الى أي مدى ارتبط ذلك كله بالعصر ، وبالبيئة وبالبعقرات الادبية والفنية التي أوجدت هذه النماذج المبتكرة في مختلف مجالات الادب والفن ، وما الى ذلك من أوجه النشاط الانساني ، ومقومات الحضارة^(٢٦) .

وإذا كان الامر كذلك ، فانه ينبغى — كي يكون البناء متين الاساس

(٢٤) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٥ .

(٢٥) محمد الطالبي : التاريخ ومشاكل الغد — مجلة عالم الفكر —

المجلد الخامس — العدد الاول ١٩٧٤ ص ١٤ — ٢٥ .

(٢٦) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٥ .

وفى مأمن من مزلق الخيال — أن لا يهمل المؤرخ فى مظهر من مظاهر الواقع ، ذلك لان الاغفال هنا قد يؤدى الى عدم الفهم ، أو الى شر من ذلك ، الى سوء الفهم ، واشادة قصور من ورق ، سرعان ما تتهار ، وتسلم أصحابها الى أوحش العواقب ، اذ أنه يستحيل عليه — مثلاً — أن يفهم الانسان فهما صحيحا مفيدا اليوم وغدا — والانسان هو موضوع علم التاريخ — اذ اكتفى بالحصاء الكوارث ، واذا اجتهد فى وضع قوائم الحوادث ، ذلك لان الانسان لا يفهم ما لم نعتن كذلك بحياته الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والسياسية والعقدية والادبية والفنية بصفة عامة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته ، ومن ثم فان المؤرخ انما يلجأ اليوم الى تخصص أدق ، حتى يتمكن من أداء رسالة التاريخ على وجهها الصحيح ، أى حتى يتمكن من اعانتنا على فهم ذاتنا أكثر فأكثر (٢٧) .

ولعل السبب فى ذلك ، أن التاريخ — كما يقول سير تشارلز فيرث — ليس فرعاً من التحصيل يدرس لذاته ، ولكنه نوع من المعرفة يفيد الناس فى حياتهم اليومية ، وأن غاية كل مناحى التاريخ — فيما يرى سير ووالتر رالى — هى تعليمنا ، عن طريق عبر الماضى ، الحكمة التى قد توجه أعمالنا ورغباتنا ، الامر الذى دفع «بيكون» أن يبحث مزايأ أنواع الدراسات المختلفة ، وأن يقول : قراءة التاريخ تلقن الناس دروساً فى الحكمة ، وعلى أن يقول «سيلى» عبارته المشهورة التى طال الجدال حولها : «التاريخ هو السياسة الماضية ، والسياسة هى التاريخ الحاضر» .

غير أن التاريخ لا يمكن أن يؤدى وظائفه هذه ، الا بشرط مطابقتها للواقع ، حتى لا يكون بناء الحاضر والمستقبل على مقدمات واهية تومن أسف ، فان توفر هذا الشرط الذى يحظم به كل مؤرخ مخلص لعمله ، ليس عسيراً فحسب ، بل هو مستحيل تماماً فى كافة العلوم الانسانية ، وفى التاريخ على وجه الخصوص ، ومن ثم فان كل كتابة للتاريخ — مهما

احتطنا — ليست هي الحقيقة الكاملة ، ذلك لان التاريخ الذى نكتبه ليس أبدا عين الحقيقة فى ذاتها المجردة .

ثم هناك مشكلة الوثائق التى يعتمد عليها المؤرخ فى كتابة التاريخ فهذه الوثائق لا تمثل أبدا كل الواقع — مهما كان التاريخ الذى نكتبه قريبا أو بعيدا — وخاصة اذا ما كان بعيدا ، فان ما يبلغنا من وثائق لا يحيط بجميع نواحيه ، ذلك أن يد الدهر ، ويد الانسان ، وأنواع الصدف فى النهاية ، انما تضمن البقاء للبعض ، بينما تعرض البعض لآخر للتلطف ، الأمر الذى يترك ثقبوا فى نسيج التاريخ تكثر أو تقل ، ويتسع خرقها ويزيد بمرور الزمن أو يضيق ، وكل هذا يختم فى النهاية بألوان من التحريف لاسيما عندما يستعين المؤرخ بالخيال ليرتق الفتق ويملا البياض ، ويرغو الثقب .

ومع ذلك ، فهناك أخطر من هذا كله ، فقد يقصد أحيانا ، لأسباب شتى ، التزوير عن قصد بطرق مختلفة ، تتراوح أحيانا ، ما بين التدليس الصراح ، والافتراء السافر ، الى الاغفال المدبر ، وغض الطرف ، واسدال الستر ، ومن أسف ، فان الامثلة على هذا جد كثيرة ، تجدها فى أقدم عصور البشرية ، كما تجدها فى عصرنا الحاضر هذا (٢٨) .

(٣) مكانة التاريخ بين الفنون والعلوم :

فى أخريات القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، قام جدل شديد بين رجالات العلم والتاريخ والادب فى وصف التاريخ بصفة العلم ونفيها عنه ، وكان الجدل على أشده فى أوروبا ، وقد ظل هكذا محتدما زمنا ، وخاصة فى ألمانيا ، حيث أمسى جزءا من مناهضة شهيرة بين المؤرخين والفلاسفة ، ومن ثم فقد انقسم العلماء الى فريقين :

ذهب الفريق الاول — ومنهم وليام ستانلى جيفونز (William Stanley Gevons) (١٨٣٥ — ١٨٨٢م) — أن التاريخ لا يمكن أن يكون علما ،

(٢٨) نفس المرجع السابق ص ٢٩ — ٣٠ ، وانظر عن فلسفة التاريخ :

أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ١٢٣ — ١٢١ .

وكذا K. Jaspers, The Origin and Goal of History, p. 232, 271.

وكذا B. Croce, History, its Theory and Practice, pp. 51-83, 104-153.

لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمساعدة والفحص والاختبار والتجربة ، ومن ثم فلن نستخلص من دراسته قوانين علمية يقينية ثابتة ، على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلم الطبيعة أو الكيمياء مثلا ، ومما يبعد التاريخ عن صفة العلم - في نظرهم - قيام عنصر المصادفة ، ووجود عنصر الشخصية الانسانية وحرية الارادة ، مما يهدم الجهود الرامية الى اقامة التاريخ على أسس علمية ، على نحو ما يفعل علماء الطبيعة أو الكيمياء وأضرابهم .

هذا ويذهب رجال الادب الى أنه - سواء أكان التاريخ علما أم لم يكن - فهو فن من الفنون ، وأن العلم لا يمكنه أن يعطينا عن الماضي ، سوى العظام المعروفة اليابسة ، وأنه لا بد من الاستعانة بالخيال لكي تنشر تلك العظام ، وتبعث فيها الحياة ، ثم هي بحاجة كذلك الى براعة الكاتب حتى تبرز في الثوب اللائق بها^(٢٩) فمثلا لا يستطيع المعلم الطبيعي أن يفسر لنا حريق موسكو في عهد «نابليون بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) في عام ١٨١٢م ، على أساس قوانين الاشتعال ، ولا بد من تدخل المؤرخ أو الأديب ، لكي يصف لنا الحريق وما تركه من آثار ، وقبل ذلك لا بد من تدخل المؤرخ لكي يشرح لنا الاسباب والظروف السياسية والعسكرية التي أدت الى ذلك الحريق ، وهكذا فكل من المؤرخ وعالم الطبيعة إنما يشرح الأحداث بطريقته ، وكل منهما يكمل الآخر ، وكلاهما ضروري لتقدم المعرفة الانسانية^(٣٠) .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن المدرسة التاريخية إنما تصر على التفرقة بين التاريخ والعلوم الطبيعية ، وتتضح هذه التفرقة عند «فيلهلم فيندلباند» (Wilhelm Windelband) الذي ميز بين علوم «واضعة

(٢٩) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٦ ، ف. هرنشو : المرجع السابق ص ٣ - ٤ .

(٣٠) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٦ ، وكذا

F. M. Fling, The Writing of History, An Introduction to Historical Method, New Haven, Yale Un. Press, 1926, p. 20.

للقوانين» وبين علوم «مصورة للأفكار» ، فالعلوم الطبيعية واضحة للقوانين ، لأنها تهدف الى صياغة قوانين عامة ، وأما العلوم الانسانية ، ومناهجها مختلفة ، فهي «مصورة أفكار» ، ومنها «علم التاريخ» ، وتدرس العلوم واضحة القوانين ما يتكرر على نمط واحد ، بينما تدوس العلوم «مصورة الأفكار» — كالتاريخ مثلا — ما حدث مرة ، ولا يحدث مرة أخرى .

• وإذا نظرنا الى طريقة تفكير كل من العالم والمؤرخ ، لوجدنا العالم انما يهدف الى المعرفة ، وهذه هي غاية العلم ، بينما يهدف المؤرخ الى التقويم ، ومن ثم فيمكن أن يعمد التاريخ من علوم القيم ، فالأحكام الاخلاقية التي يصدرها المؤرخون ، والتي تشكل ما يعرف باسم «حكم التاريخ» تجعل هذا العلم قريبا من علم الاخلاق .

هذا وقد اكتملت النزعة التاريخية عند المفكر الايطالي «بنديتو كروتشه» (Benedetto Croce) الذي انتقد الاسس التي تستند اليها النزعة الطبيعية ، أما الاهتمام بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات التاريخية ، فلا يجعل التاريخ — في نظره — الا مجرد سرد ، أو تقويم ، حيث الاهتمام بمجرد التحليل والتصنيف ، دون بحث عما وراء القصص فلا يعد تاريخا ، وانما هو مجرد تسجيل للوقائع الماضية الحية^(٣١) .

على أن هناك من اعتمد على أن التاريخ انما يهتم أساسا بتسجيل الماضي ، حيث يسمى المؤرخ الى تقديم وصف دقيق للفترة الطويلة التي عاشها الانسان على الارض ، وهو بذلك انما يصف الحوادث بطريقة موضوعية ، ويحاول أن يربطها في سياق زمني ، بغية تقديم قصة مستمرة من الماضي الى الحاضر ، الأمر الذي دفع الى تطوير المعرفة التصويرية Idiographic في التاريخ ، ومن ثم فقد ذهب الكثيرون الى القول بأن

(٣١) أحمد محمود صبحي : المرجع السابق ص ٣٩ .

التاريخ لا يعد علما ، وإنما هو منهج له تطبيقاته في ميادين مختلفة من ميادين المعرفة (٣٣) .

ويرى «هرنشو» (Hearnshaw) أنه على الرغم من أننا لا نستطيع أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة ، على غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعية ، فإن هذا لا يجوز أن يجرد التاريخ من صفة العلم ، وأن العجز عن بلوغ أغراض محددة في دراسة «المتيورولوجيا» Metallurgy مثلا ، بسبب عدم دقة قوانينها ، لا يجوز نفى صفة العلم عنها ، ومن ثم ، فالرأي عنده ، أنه يكفي في استناد صفة العلم إلى موضوع ما ، أن يمضى الباحث في دراسته ، مع سعيه لتوخي الحقيقة ، وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد طرح عنه هو النفس ، وباعد نفسه عن كل افتراض سابق ، مع إمكان التصنيف والتبويب فيه (٣٣) .

ويرى «لويس جوتشالك» (Louis Gottschalk) في كتابه «كيف تفهم التاريخ» : من المؤكد أن التاريخ علمي في منهجه ، فإن ملايين الحقائق التاريخية يمكن أن تقرر بحيث تقنع غير المختصين والخبراء سواء بسواء فالمنهج التاريخي علمي في حدوده أي أن نتائجه تخضع للتحقيق والاتفاق بين الخبراء وعم الاتفاق بينهم ، عن فهم وإدراك (٣٤) .

على أن هناك فريقا ثالثا إنما يذهب إلى أن التاريخ علم من العلوم ، فالأورخ الأنجليزي «ج.ب. بيوري» (J. B. Bury) (١٨٦١ - ١٩٢٧م) يقول في محاضراته الافتتاحية في كامبردج (تاريخ حرية الفكر) : أن التاريخ قد عانى من كونه جزءا من الأدب ، بينما التاريخ علم لا أكثر

(٣٢) محمد علي محمد : علم الاجتماع والمنهج العلمي - الاسكندرية دار المعرفة الجامعية - ١٩٨٨ ص ١٣٩ ، وكذا E. G. Seignobes, Methode Historique Applique aux Seince Social, Paris, 1907.

(٣٣) ف. هرنشو : المرجع السابق ص ٦ - ٧ ، حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٦ - ١٧ .
(٣٤) حسان حلاق : مقدمة في منهج البحث التاريخي - بيروت دار النهضة العربية ١٩٨٦ ص ٦٣ .

ولا أقل ، وأن وقائمه ، يمكن أن تدرس موضوعيا كوقائع الجيولوجيا والفلك ، أى أن تدرس على أنها أشياء خارج الذات ، إذ لا يقضى قيام علم على أساس ذاتي ، وأن الوقائع التاريخية يمكن أن تجمع وتصنف وتفسر ، كما هو الحال في أى علم ، ثم يقول : ما بقى التاريخ يعد أدباء ، فليس في الامكان التثبت جديا من الصدق ومن الدقة ، ثم يورد عبارة أكثر حزما ، يقول فيها : أحب أن أذكركم أن التاريخ ليس فرعاً من الأدب (٣٥) .

هذا وقد كرر هذا التأكيد — قبل بيورى وبعمده — جميع أولئك المؤرخين الذين أصروا أمام انتصارات العلوم الطبيعية وفوزها بتسليم الجميع ، وبقيادة الرفاه الانساني ، على الصاق التاريخ بالعلم الطبيعي ووضع عنوان «العلم» على بابهِ بالمسامير ، وقد كانوا يريدون من خلال هذا التوكيد على علمية التاريخ نفى تلك الريبة التي تلاحقهم حول قيمة التاريخ العلمية ، ومن ثم فقد ذهب «كارل همبيل» Carl Hempel الى : أن التاريخ يمكن أن يستوعب فردية وقائع لا تقبل ولا تريد عن الطبيعة والكيمياء ، وأن المؤرخ يستطيع أن يفسر اغتيال القيصر تماما ، كما يفسر الجيولوجى زلزالا ، إذ يبين أن الحادثة لم تقع مصادفة وانما وفقا لظروف معينة ، فمنطق التفسير واحد في جوهره في كل من التاريخ والعلوم الطبيعية ، وليست النبوءة في التاريخ تكنية ، ولكنها تنبؤ علمى قائم على افتراض قوانين عامة لا غنى للمؤرخ عنها ، وأن كانت هذه القوانين لا تعنى الحتمية وانما تدع مجالا للامكان والاحتمال (٣٦) . والى مثل هذا ذهب «باتريك جاردنر» في كتابه «طبيعة التفسير

(٣٥) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٤ ، ١٠١ : راوس : المرجع السابق ص ٨٢ ، وكذا

T. R. Tholfsen, Historical Thinking, p. 218.

(٣٦) أحمد صبحى : المرجع السابق ص ٢٤ — ٢٥ ، وكذا

C. Hempel, The Functions of General Laws in History

التاريخي» (٣٧) و «وليم دراى» فى كتابه «القسوانين والتفسيرات فى التاريخ» (٣٨) .

واذن ، فالتاريخ الحديث اليوم سوف يعنى ما قد يسمى بالتاريخ الجديد ، وذلك لكى يتيسر التمييز بينه وبين التاريخ القديم ، فالتاريخ الجديد : تاريخ يكتبه أولئك الذين يعتقدون أنه ليس قسما من «العلوم الادبية» ، وأنه ليس مجرد قصة طريفة مفيدة ومسلية ، وانما هو نوع من العلوم ، وهذا العلم – ككثير من العلوم الاخرى – انما هو من ابتكار القرن التاسع عشر الميلادى الى حد كبير (٣٩) .

هذا وقد آثار الذين ينادون بأن التاريخ ليس علما أمرين ، الواحد: أن المؤرخ لا يلاحظ الظواهر التى يدرسها بطريقة مباشرة ، وانما عن طريق السمع والنقل عن الآخرين ، أو الاخذ عن بعض الوثائق التى كتبها أشخاص شاهدوا هذه الظواهر أو سمعوا عنها ، وبدهى أن نتعامل مع هذه الطريقة بحذر ، فضلا عن الشك فى نتائجها ، ذلك لان كثيرا ما يشوه البعض الحقائق عند نقلها ، خاصة تلك الحقائق التى تضرب بأغوار بعيدة فى الزمان والمكان .

وأما الأمر الثانى : فليس من حقنا أن نطلق على أى بحث نظرى اسم البحث العلمى، إلا اذا أمكن استخدامه فى التنبؤ بالمستقبل، وبمعنى آخر : إلا اذا مكنا من الكشف عن بعض العلاقات أو القوانين العامة التى يمكن تطبيقها على الظواهر ، مهما اختلفت أزمانها وأماكنها ، الأمر الذى لا يمكن تحقيقه فى التاريخ، ذلك لاننا لانستطيع القول بأن المؤرخ يمكنه أن يستخلص القوانين العامة التى تمكنه من التنبؤ بالحوادث قبل وقوعها .

(٣٧) انظر :

Patrick Gardiner, Theories of History, London, 1954

(٣٨) انظر :

William Dray, Laws and Explanation in History

(٣٩) راوس : المرجع السابق ص ٨٣ .

غير أن الذين يتبنون فكرة «التاريخ العلمي» ، أو الدعوة الى أن التاريخ إنما شأنه شأن أى علم آخر ، إنما يردون على القضية الأولى بأن التاريخ إنما قد أخذ فعلا بعض الشيء من العلوم الاستقرائية، ذلك لأن المؤرخين اليوم يبتعدون عن مجرد وصف الحوادث وتتابعها، محاولين تفسيرها ، فضلا عن الكشف عن العناصر الجوهرية في النظم السياسية والاجتماعية ، بغية أن يقفوا على أسباب الظواهر التاريخية ، وبهذا أصبحوا أشبه بعلماء الاجتماع، وأن خلفوهم في الاعتراف بتأثير العوامل الفرعية ، وعلى أية حال ، فإن المؤرخين اليوم لا يعتمدون على سماع الأخبار ونقلها ، ولا يقبلون الخبر ، الا بعد نقده وتمحيصه ، والا بعد المقارنة بين مختلف الروايات ، رغبة في الوصول الى حقيقة تاريخية مجردة من كل طابع شخصي ، وهكذا ضاقت الهوة التي تفصل التاريخ عن العلوم التجريبية منذ أن طبق المؤرخون أساليب التفكير الاستقرائي على بحوثهم ، فهم يبدأون بجمع الوثائق وتحليلها ، ثم وضع الفروض التي يمكن التأكد من صدقها ، عن طريق الحوادث التاريخية ، وقد تكون الوثائق ناقصة ، وهنا تبدو حاجة المؤرخ الى المقارنة حتى يستطيع التثبت من صدق توقعاته .

وأما القضية الثانية ، فيذهبون في الرد عليها الى أنه يجب التوسع في مفهوم العلم ، صحيح أن العلم لا يدرس سوى العلم أو الكلى، وأنه يكشف عن العلاقات السببية التي توجد بين الاشياء ، ولكنه صحيح كذلك أن تعريف العلم على هذا النحو إنما يخرج منه بعض البحوث النظرية التي لا شك في أنها علمية ، كعلم الجيولوجيا الذي لا يدرس سوى حالات خاصة عندما يبين الاطوار الخاصة التي مرت بها طبقات الارض في مختلف العصور ، والواقع أنه ليس ثمة فارق كبير بين التاريخ وعلم الجيولوجيا ، فالتاريخ إنما يدرس ماضى المجتمعات الانسانية ، ويعرس علم الجيولوجيا ماضى الكرة الارضية ، وهذا الى أن التاريخ — كما أشرنا آنفاً — إنما يدرس الحوادث الماضية ، فضلا عن الكشف عن العلاقات السببية التي توجد بينها ، لتفسيرها وتحليلها .

على أن التاريخ بمعناه العام إنما يبحث في الظواهر الإنسانية ،
 الحاضرة والماضية ، ومن ثم فهو يدرس ماضى الطبيعة وماضى المجتمعات
 ويمكن معالجة جميع الظواهر على أساسين ، الواحد نظري ، والاخر
 تاريخي ، فمثلا يستطيع العالم دراسة تاريخ الارض والمجموعة
 الشمسية ، والقوانين التي تخضع لها هذه الاجرام في الماضى والحاضر
 والمقبل ، وأما التاريخ بمعناه الضاغط ، فرسم صورة واضحة عن
 الإنسانية ، اعتمادا على ما تركه الانسان من آثار مادية وأدبية ودينية ،
 فإظهار التاريخ ظاهرة اجتماعية في جوهرها ، وإن كانت محدودة
 الزمان والمكان ، بمعنى أن التاريخ لا يعالج نشأة الديانات بصفة عامة ،
 مثلا ، وإنما يدرس كيف ظهرت إحدى الديانات كالاسلام أو المسيحية ،
 كما لا يقف التاريخ عند دراسة المجتمعات الإنسانية ، وإنما يدرس
 حياة الافراد أيضا ، الى جانب تأثيرهم في أحوالهم أو عصورهم ، ومن
 ثم فهو يؤرخ لأبطال التاريخ الذين خلقوا فوق عصورهم ، وقادوا
 أممهم ، وطبعوها بطابع خاص (٤٠) .

وهكذا ، ومنذ أعلن «ليوبولد فون رانكه» (Leopold Von Ranke)
 (١٧٩٥ - ١٨٨٦م) - أشهر مؤرخى الالمان في القرن التاسع عشر ، مؤسس
 المدرسة العلمية الألمانية - أن التاريخ يبين بوضوح وبساطة كيف
 انبثقت الأشياء ، وأن الغاية القصوى منه أن يصور ما حدث بالضبط ،
 وأن يستبعد المؤرخ جميع عواطفه ليصبح تاريخه صورة صادقة للحوادث
 كما حدثت دونما زيادة أو نقصان ، ودونما أى تدخل منه ، وهذا يعنى
 أن يكون رائده الموضوعية المطلقة والتجرد التام ، وهذه من مطالب
 المدرسة الوضعية فى التاريخ .

وهكذا اعتبر المؤرخون أنهم ظفروا أخيرا بمنتهى الموضوعية التى
 يطلبها العلم ، وأن «رانكه» إنما أعلن ميلاد «التاريخ العلمى» ، ولم
 يبق عليهم الا تحديد الطريق الذى يصلون به الى «ماحدث بالضبط» .

غير أن «رائكة» من ناحية أخرى ، إنما يعتبر الواقعة التاريخية فردية ، لها طابعها الذي تتفرد به ، ومن ثم لا تتماثل واقعتان ، ولا تتدرجان تحت نوع ، كما يندرج الأفراد في العلوم الطبيعية ، ذلك لأن الديمقراطية أثينا — مثلا — ليست هي الديمقراطية بمفهومها الحديث ، ومن ثم فلا تندرج الوقائع التاريخية تحت مقولات عامة ، وأن التعلق بالمقولات العامة فزعة صورية تتنافى مع واقعية الدراسة التاريخية (٤١) .

ولعل سائلا يتساءل : إذا لم يكن التاريخ علما بالمفهوم الفيزيائي للعلم ، فما هو التاريخ إذن ، وما منهجه ؟

إن الفرق بين العلم والتاريخ هو الفرق بين الممكن والواقع ، بين الكلى والجزئى ، بين المنهج الاستقرائى والمنهج الحسمى ، ذلك لأن التاريخ لا يستدل ، أنه يسرد ، ولكنه لا يقف عند مجرد السرد الظاهرى إذ أن موقف المؤرخ إنما هو أقرب الى موقف الفنان ، حيث يتمثل كلاهما الواقع بنظرة فردية ، فمثلا ، إذا أردت أن تدرك عن قرب تاريخ رجل صقلى من العصر الحجرى الحديث ، فحاول أن تكون صقليا من نفس العصر ، أى أن تفكر مثل تفكيره ، فإن لم تستطع أو لا تريد أن تكون كذلك فاقنع نفسك بالوصف والتصنيف الى جماجم وآلات ورسوم تخص أناس العصر الحجرى الحديث ، ولكن ذلك لا يشكل تاريخا .

وأما إذا لم تستطع أن تدخل فى فكر الصقلى ، ولا أن تفكر كما يفكر ، وأن تعمق فى أسلوب حياته وفكره الى حد أن تجعل أفكاره كما لو كانت لك ، فليس ذلك تاريخا ، قد يندرج ذلك تحت علم آخر ، كعلم الاجناس أو الآثار ، وهكذا ينصح «كروتش» من يعجز عن أن يتعاش

(٤١) شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ١٨٨ ، محمد صبحى : المرجع السابق ص ٣٥ ، وكذا

T. R. Tholfsen, Op. Cit., pp. 457-185.

مع العصر ، أو الفرد الذى يؤرخ له ، أن لا يصبح مؤرخا ، حيث تعوزه البصيرة التاريخية^(٤٢) .

على أننا يجب أن نلاحظ ، أن التاريخ - فيما يرى هرنشو - ليس علم تجربة واختبار ، ولكنه علم نقد وتحقيق ، وأن أقرب العلوم الطبيعية شيئا به هو «علم الجيولوجيا» ، بل إن «ادولر كلر» انما يذهب الى أن الهوة التى تفصل المؤرخ عن للجيولوجى ، ليست أصق أو أكثر من تلك التى تفصل الجيولوجى عن الفيزيائى ، ذلك لأن كلا من الجيولوجى والمؤرخ انما يدرس آثار الماضى ومخلفاته ، لكن يستخلص ما يمكنه استخلاصه عن الماضى والحاضر ، سواء بسواء ، ويميز عمل المؤرخ عن الجيولوجى من حيث اضطراب الاول الى أن يدرس ويفسر العامل البشرى الارادى الانفعالى ، حتى يقترب ، قدر الامكان ، من الحقائق التاريخية ومن ثم فالتاريخ مزاج من العلم والادب والفن فى آن واحد^(٤٣) .

وهكذا يمكن القول بأن التاريخ بما يتميز به من صفات مرنة ، باستطاعته أن يحوى كل العلوم ، اذ بإمكان المؤرخ ، ضمن اختصاصه أن يكون مؤرخا للشعوب والدول والاحداث ، وفى نفس الوقت يمكن أن يكون مؤرخا للعلوم والهندسة والطب والفلك والرياضيات ، ذلك لانه كان ، وما يزال ، هناك تاريخ للهندسة وتاريخ للطب وتاريخ للفلك والكيمياء والفيزياء والرياضيات ، وبمعنى آخر ، فإن التاريخ باستطاعته أن يستوعب مختلف العلوم والاداب ، وهو الوحيد القادر على احتوائها فى قلبه التاريخى المميز ، فالملاحظ أن هناك تاريخا للعلوم كالهندسة والطب مثلا ، ولكن ليس فى المقابل هندسة تاريخية أو طب تاريخى بواقعا هناك تاريخ للطب^(٤٤) .

(٤٢) أحمد صبحى : المرجع السابق ص ٣٢ - ٣٣ ، وكذا

B. Croce, History as the Story of Liberty, 1941.

(٤٣) ف. هرنشو : المرجع السابق ص ١٢ - ١٣ ، حسن عثمان :

المرجع السابق ، ص ١٧ ، وكذا

E. Carr, What is History (Penguin Book), 1961.

(٤٤) حسن هلاق : المرجع السابق ص ٦٣ .

الفصل الثانى

المذاهب المختلفة فى تفسير التاريخ

لأريب في أن الفكر الوضعي لا بد وأن يتأثر بطبيعة العصر الذي يعيشه — سلبا وإيجابا ، وبدرجة أو بأخرى — وهذا التأثير المحتمل ينعكس على معطياته الفكرية ، سواء كانت صيغة هذا التأثير بشكل تقبل لقيم العصر وأوضاعه ومناهجه ورؤاه ، أو رفض لها وتمرد عليها ، ففي كلتا الحالتين يلعب الجانب التأثيري الانفعالي ، والاسقاطات الظاهرة والخفية في الوعي والملاوعي ، دوره في الرؤية التي يمارسها الفكر تجاه الأوضاع والاحداث والأشياء .

فإذا ما حدث ، وكان الفكر مفسرا للتاريخ ، وتفسير التاريخ — فيما نعلم — توسيع للتحليل صوب الماضي والمستقبل اللذين يندان كثيرا عن المحصر والضبط والتحديد ، فإن لنا أن نتصور كم سيجيء هذا التفسير مطبوعا بطابع العصر الذي يعيشه المفسر ، وكيف أن الأشياء والوقائع والاحداث ، في الماضي والمستقبل ، ستأخذ اللون الذي يجد المفسر نفسه مضطرا إلى النظر من خلال زجاجته التي أسقطت عليها مواضع العصر الظلال والأضواء ، وهذا يؤدي — بدوره — إلى أن تبعد التفسيرات الوضعية — بدرجة أو بأخرى ، عن العلمية والموضوعية والحياد (١) .

ومن هنا فإن أية نظرة سريعة تجاه معطيات الفكر الفلسفي الراهن، وعروض المكتبة المعاصرة ، اتما تطلعا على حشد كبير من الأبحاث والمؤلفات المتعلقة بنظريات التفسير الوضعي للتاريخ (٢) ، والتي تختلف طبقا لوجهة نظر أصحابها .

(١) عماد الدين خليل : التفسير الاسلامي للتاريخ — بيروت — دار العلم للملايين — ١٩٨٣ ص ١٠ — ١١ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨ .

وهكذا بدأ عدد من المفكرين يحاولون تقنين التاريخ على أساس علمي يهدف الى ارساء قواعد ثابتة تصبح معها الحوادث التاريخية مجرد تفاصيل أو تجارب ينتظمها ما تضمنته هذه القواعد من مقدمات ونتائج، وهكذا ظهر عدد من التفسيرات — بجانب التفسير الفردي للتاريخ، الذي يمجّد الأشخاص البارزين ويضخم من دورهم — يجمعها طابع واحد هو : أنها تنظر للتاريخ على أنه تطور للمجتمع ، قبل أن يكون سجلا لأعمال الأفراد — وأن اختلفت فيما بينها في تحديد الاتجاه الذي يسلكه هذا التطور والدافع الذي وراءه ، والنتيجة التي يهدف اليها (٣) .

وسوف نتعرض هنا بالمناقشة للمذاهب التالية في تفسير التاريخ :

- ١ — التفسير الديني ٢ — التفسير الفردي ٣ — التفسير النفسي
- ٤ — التفسير الطبيعي ٥ — التفسير المادي ٦ — التفسير الحضري
- ٧ — التفسير الأخلاقي ٨ — التفسير الاسلامي .

(١) التفسير الديني :

يذهب أصحاب هذا التفسير الى أن حركة التاريخ إنما تقوم على معتقدات دينية لعبت دورا حاسما في تقدم الانسان وبناء حضارته .

ولاريب في أن المعتقدات الدينية إنما كان لها أثرها في حركة التاريخ — سواء كانت هذه المعتقدات سماوية أو انسانية — وتاريخ الاديان — السماوية والانسانية — خير شاهد على ذلك ، ولنأخذ مثالين على ذلك ، الاول بشرى (وضمى) من مصر الفرعونية ، والثاني سماوى من بلاد العرب عند ظهور الاسلام ، دين الله الحنيف .

فلنأخذ في مصر الفرعونية — وعلى أيام الوثنية — فتمتدنا نصوص الدولة الحديثة (١٥٧٥ — ١٠٨٧ ق.م) أن المبود الوثني «أمون» إنما كان — في نظر القوم — هو الذي يمنح الفرعون البأس والنصر، ويمعطيه

(٣) لطفي عبد الوهاب : مناهج الفكر التاريخي — بيروت — مكتب كريدية — ١٩٧٩ ص ٨٠ ، ٧ .

كل الاراضى والبلاد الاجنبية خاضعة ذليلة تحت قدميه ، وأن هناك ما يشير الى أن الفرعون انما كان يطلق تفويضا الهيا من آمون الذى كان يبعثه بقوة وحزم ليقضى على أعدائه ، وقد عبرت بعض الأدلة الاثرية على ممارسة آمون لهذا الاختصاص بتقديمه سيف خشبي للفرعون ليذبح به أعداءه ، وفي الواقع ، فإن حروب الدولة الحديثة انما كانت حروبا دينية ، بقدر ما كانت حروبا وطنية ، أو على الأقل فإن القوم وقت ذاك انما كانوا يظهرونها ، وكأنها ذات صبغة دينية ، وأنها كانت تحت لواء آمون ، أكثر من غيره من معبودات القوم ، نرى ذلك واضحا في حرب التحرير ضد الهكسوس وفي حروب فراعين الدولة الحديثة ، كما نرى القوات المصرية على أيام رمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٣٤ ق م) تنتظم في فيالق أربعة ، تحمل أسماء معبودات أربع (أمون ورع وبتاح وست) (٤) .

وهكذا اعتقد المصريون القدامى أن الفضل في انتصاراتهم ، ثم في تكوين الامبراطورية المصرية الشاسعة انما يرجع الى الاله الملك الذى قاد الجيوش ، والى الاله آمون الذى بارك تلك الحروب ، وأغار سيقفه وعلمه الالهى للملك لى يقود الجيوش في طريقها الى المعركة ، ومن ثم فقد كان على تلك الجيوش أن تدفع ما عليها من دين لآمون ، بعد أن يتم لها النصر على العدو ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة ، لانه قد رعاها وحماها من الخطر (٥) ، هذا فضلا عن أن القوم انما كانوا مطالبين بأن يزدوا من القرابين التى يقدمونها اعترافا بجميل آمون ، وقد أدى ذلك - مع مرور الايام - الى زيادة ثروة آمون وزيادة كبيرة ، ويمرور الزمن تكونت ملكية خاصة بآمون ، ذات نظام يشبه نظام

(٤) محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الثالث - الاسكندرية - دار المعرفة الجامعية ١٩٨٨ ص ١٣٥ - ١٣٦ ، وكذا
A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 189.
J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 243 F. وكذا
H. Goedicke, JEA, 52, 1960, p. 72-80. وكذا
5. J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 185.

الحكومة ، فكان لها خزائنها ومخازنها ، وعندها مصانمها وموظفوها ، ولها اداراتها وعبيدها ، ثم سرعان ما شملت هذه الاملاك مناطق أخرى في خارج مصر ، وخاصة في النوبة التي أصبحت ذهبها وقفا على أمون ، الامر الذى أدى الى زيادة قوة كهان أمون ، وأن يصبح لهم في البلاد نفوذ سياسى كبير ، لاريب في أنه يفوق غيرهم من طبقات الشعب ، بل وأن يهدد هذا النفوذ بعض الفراعين في بعض الاحايين (٦) .

وفي شبه الجزيرة العربية ، وفي الثلث الاخير من القرن السادس الميلادى (٥٧١م) تهدى مكة المكرمة الى الدنيا كلها ، أشرف الخلق جميعا مولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ ، وما أن يمضى حين من الدهر وحتى يسبح الله فضله على الدنيا فينزل الوحي بالقرآن الكريم ، وهناك ، وفي مكة المكرمة ، وفي بيت رسول الله ﷺ تبدأ الدعوة الى الاسلام ، دين التوحيد المطلق ، ومن هناك ، ومن هذه الارض الطيبة — من الحجاز الشريف — تنتشر راية الاسلام الى جميع أنحاء المعمورة ، تدعو الى التوحيد والحب والعدل والائفاء والمساواة ، وكل ما هو طيب وجميل .

وفي حياة الرسول الأعظم ﷺ تقوم في بلاد العرب — ولأول مرة في تاريخ هذه الدنيا — بفضل الله ، وبهداية رسول الله ﷺ ، تقوم قوة عظمى ، لم ينبغ لأحد مثلها من قبل في بلاد العرب ، التي كان أمرها مفرقا بين قوى متناحرة ، وعشائر بعضها لبعض عدو ، فإذا هي الآن — بهدى الاسلام ، وبنبوة محمد ﷺ — دولة موحدة ، لها زعيم واحد ، وقائد سياسى واحد ، وقائد عسكري واحد ، لا ينازعه سلطانه أحد ، لان سلطانه فوق مستوى البشر ، فهو لسان السماء — وهو نبي الله ، وكل في دولته مأمور بطاعته ، كما يطيع الله تعالى ، يفتديه بحياته ، بل وتهون عليه حياته في سبيل ما أمر به ، تطلعا الى الجنة التي وعد الله المتقين من عبادِهِ ، وأعدّها للشهداء من المجاهدين ، وهكذا أصبحت شبه

(٦) انظر عن كهانة أمون (محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٢٧ - ١٥٤ ، ٣٣٣ - ٣٤٨) .

الجزيرة العربية دولة واحدة ، تدين بدين واحد ، وتعبداً برب واحد ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير (٧) .

ولا ريب في أن الحروب في الاسلام إنما كانت حروباً دفاعية ، تستهدف أمرين : صد العدوان ودفعه ، ثم حماية الدعوة حتى تصل إلى الناس كافة (٨) .

وعلى أية حال ، فما كان بعيداً في منطق الحياة أن تغلب القلة المؤمنة كثرة كافرة ، لكن الاسلام — بتقريره حق العقيدة ، وعدم الاكراه في الدين ، أصلاً من أصول دعوته — استصفى من قريش والموالي بمكة وسابقي الانصار ، الجنود الاولين لحزب الله ، لم ينتظروا حتى يحسبوا حساباً بالكسب أو الخسارة ، بل استجابوا لداعي الاسلام بمحض ارادتهم ، عن اعتقاد راسخ وضمير حر ، فما عادوا بحيث يخشون فيه لومة لائم ، أو يبالغون الموت في سبيل ما آمنوا أنه الحق من ربهم .

ومن هنا كان قول المقداد بن عمرو لرسول الله ﷺ قبيل معركة بدر ، وهو يستشير أصحابه : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغمام لجالدنا معك دونه حتى نبلغه .

ويقول سعد بن معاذ والله لكانك تريدنا (أي الانصار) يا رسول الله ، قال : أجل ، قال : قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض

(٧) محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم — الاسكتندنزية — دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩ ص ٢٢ — ٢٣ .
(٨) انظر عن الحرب في الاسلام (محمد بيومي مهران : السيرة النبوية الشريفة — الجزء الثاني — بيروت — دار النهضة العربية — ١٩٩٠ م ص ٤٥ — ٥٠) .

يا رسول الله لما أردت فتحك منك ، فوالذي بيمينك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخفضته لخصفاه منك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، أنا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله» (٩) .

وهكذا كان المسلمون يخوضون حروبهم في سبيل الله بمعقيدة راسخة وإيمان قوى بأن للمحاربين في سبيل الله إحدى الصنيتين ، النصر أو الشهادة ، وقد جاء في الصحيحين : «تكفل الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي ، بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه ، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة» ، هذا إلى إيمان لا حدود له بقول الله تعالى «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» (١٠) .

وهكذا كان للدين الإسلامي دوره الكبير في ذلك الامتداد الإسلامي إلى بلدان مختلفة ، وفي تلك الانتصارات التاريخية الحاسمة التي حققها المسلمون الذين كلنوا — قبل الإسلام — يفتقدون وسائل التقدم والنصر لكن المعقيدة الإسلامية هي التي دفعت حركة التاريخ أمامهم .

غير أن ذلك لا يحى أن العامل الدينى إنما يظل — دائما وأبدا — يفعل عمله في كيان الأمم ، فالعقائد الدينية لا تكون أبدا مؤثرة ودافعة ، وإنما تتأثر بالأمم فقرات من الضعف والتأخر بسبب ابتعادها عن تعاليم الدين ، وانشغالها بأمور الدنيا ، الأمر الذى يضعف أثر العامل الدينى في حركة الشعوب ، غير أن الدين إنما يظل في أعماقها حتى تراجع

(٩) نفس المرجع السابق من ١٠٤ ، وانظر : ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ١٧٣/٢ - ١٧٤ (بيروت ١٩٨٥) ، الواقدي : المغازي ٤٨/١ - ٤٩ (بيروت ١٩٨٤) ، ابن هشام : سيرة النبي ١٠٧/٢ - ١٠٨ .
(١٠) سورة التوبة : آية ١١١ .

نفسها ، أو يقوم فيها مصلح أو داعية فتعاود تمسكها بدينها ، ومن ثم يستعيد الدين أثره القوى في حركة تلك الشعوب .

وهكذا فالتفسير الدينى للتاريخ يمكن استخدامه بشكل خاص في حالة ارتباط أمة من الأمم ببعيدتها حيث تؤدي تلك العقيدة دورها في تقدم الإنسان وتطوره ، أو تدفعه الى استغلال الدين لصالح قضايا دنيوية أو سياسية^(١١) .

(٢) التفسير الفردى :

ويذهب أصحاب هذا التفسير الى أن عظماء الرجال هم الذين يحركون التاريخ ، وهم الذين ينهضون بأممهم ، وهم الذين يسيطرون على ما يحيط بهم من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية ، ومن البدعى أن لعظماء الرجال دورهم في صنع التاريخ^(١٢) .

غير أن معظم المؤرخين كانوا — وما يزال بعضهم حتى الان — يبالغون في أهمية الدور الذى يقوم به الافراد في صنع الاحداث التاريخية ، وهى مبالغة جعلت من هؤلاء الافراد في أغلب الاحايين عمالقة وربما آلهة ، تدور حولهم المجتمعات بكل ما فيها من حوادث ، وبكل ما لها من تاريخ ، وبكل ما تمر به من تطور ، بحيث كدنا ننسى أن فى هذه المجتمعات أفرادا آخرين ، لهم ارادة وعقول ، وعواطف ومصالح ، وأن هناك نظروفا قد تساير كل هذه ، وقد تعارضها ، وقد تطغى عليها ، وحقيقة أن هذه المبالغة من بعض المؤرخين الذين دفعوا بها الى أبعاد غير معقولة ، انما قد تجعلنا نعيد النظر فى كتاباتهم ، بل قد تغرينا بالتخلّى كلية عن التفسير الفردى الذى مسخوا به التاريخ مسخا ، وخرجوا عن طريقه بالمجتمعات والافراد عن حجمها الطبيعى لتبدو لنا ، وكأنها كائنات من عالم أسطورى .

(١١) عادل حسن غنيم وجمال محمود جبر : المرجع السابق ص ٥٧ .
(١٢) نفس المرجع السابق ص ٥٧ .

ومع ذلك ، فيجب أن نحترس من الاندفاع الى النقيض الاخر، ذلك لان الدور الذى يقوم به الافراد انما يمثل فى الواقع بعدا من الابعاد التى يجب ألا نتجاهلها ، اذا كان للصورة التاريخية التى نرسمها أن تمثل الحقيقة ، فالتاريخ ملئ بالمواقف التى لا يمكن أن نفسرها فى ضوء الظروف الطبقيّة أو الجماعية فحسب ، وانما لزاما علينا — لمكى تفهمها على حقيقتها — أن نرد جانبها منها الى تصرفات الافراد الذين أمسكوا بزمام الامور تحت هذه الظروف ، سواء أكان هؤلاء الافراد أنبياء ، أو كانوا ساسة أو قوادا أو مصلحين أو مخترعين، أو زعماء من أى طراز — والدور الذى قام به هؤلاء الافراد فى توجيه مقدرات الامور فى المجتمعات التى ظهروا فيها ، دور لا يمكن أن نخرجه نهائيا من الاعتبار ، ومصدق ذلك أننا نجد فى تاريخ المجتمعات مواقف كثيرة لا تؤدى فيها الظروف المتشابهة الى نتائج متشابهة لسبب واحد ، هو أن الأفراد الذين وجد فى أيديهم زمام الامور ، لم يوجهوا هذه الظروف أو ينتفعوا بها بطريقة واحدة أو بدرجة واحدة ، ولناخذ مثلا على ذلك من التاريخ الحديث ، مما حدث فى روسيا فى عام ١٩١٧ م ، وفى ألمانيا فى عام ١٩١٨-١٩١٩ م .

لقد تعرض كل من البلدين لهزيمة حربية من الخارج ، ونشبت فيها ثورة على الوضع الطبقي القديم فى الداخل ، غير أن الثورة نجحت فى روسيا ، وفشلت فى ألمانيا ، وكان أوضح الاسباب فى ذلك هو اختلاف القادة فى الثورتين ، ففي روسيا كان أول عمل قام به البلاشفة ، بعد استيلائهم على الحكم هو : تحطيم الاساس القانونى للنظام الذى أطاحوا به واقامة تنظيم جديد يرتكز على مبادئهم ، ويخضع لتوجيههم ومن ثم فقد أبعدوا عن السلطة كل من لم يثقوا به ، بل وضمروا بيد من حديد على كل الحركات المعادية للثورة .

وأما فى ألمانيا ، فقد كان الامر على النقيض ، فبعد انهيار النظام الامبراطورى فى أعقاب هزيمة ١٩١٨ م وقع زمام الامور فى يد الحزب الاشتراكى ، غير أن «ايبيرت» وأعوانه من زعماء الحزب لم يكن لديهم من صفات القادة ما يمكنهم من توجيه الثورة فى طريق النجاح ، وهكذا

وجدوا أنفسهم في حالة ارتباك تدفعهم فيها الجماهير بحسب ما لا من أن يدفعوا هم الجماهير ، كما أبقوا على الاسس القانونية والدعائم الطبقية للنظام القديم ، فتركوا زعماء الاحتكار الصناعي في مراكز السيطرة الاقتصادية وأبقوا على القوانين المدنية والجنائية ، التي كانت تعكس سيطرة هذه الطبقة في ظل النظام الامبراطوري ، ولم يغيروا من موظفي العهد القديم الا في أضيق الحدود وحتى بعد أن دبرت بعض المؤامرات ضد حكومتهم كان موقفهم من مدبريها غاية في اللين الذي يخرج عن حدود الرحمة أو التآلف السياسي ، الى نطاق التهاون وعدم الحكمة كما حدث في مؤامرة «كاب» أو في مؤامرة «هتلر - لوتندورف» في عام ١٩٢٢م ، وهكذا ففقت جمهورية «فايمار» دعائمها منذ اليوم الاول لقيامها ، ولم تكن حركة النازيين التي أطاحت بها في عام ١٩٣٣م ، الا الضربة الاخيرة التي قصت على شكل كان قد فقد موضوعه قبل ذلك بخمسة عشر عاما (١٣) .

وعلى أية حال ، فدور الفرد في التاريخ ليس دورا مجردا ، غير متأثر بما حوله من أوضاع داخلية وخارجية ، وانما هو محصلة لتفاعل عدد من المؤثرات تجسدت في النهاية في دور هذا الزعيم أو ذاك ، وهناك شروط لا بد من توافرها لظهور الزعيم ، وحسن أدائه لدوره ، منها أن يكون عصر ظهوره يسمح بتفوق بعض الافراد على غيرهم ، ومنها أن تتجمع ظروف موضوعية مختلفة - داخلية وخارجية - تهيب الجو المناسب لبروز الزعيم ، ومنها أن يتمكن فرد بعينه من تفهم الظروف واستشعار آمال أمته وآلامها (١٤) .

ولاريب في أن التاريخ انما يسجل لنا أسماء كثير من الرجال الذين أثروا في مجتمعاتهم ، بدرجة أدت الى أن يكونوا على رأس عصور تميزت عن غيرها - مما سبقها أو لحق بها - وآخرين كانوا علامة مميزة في تاريخ أممهم .

(١٣) لطفي عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٨ - ١٠ .

(١٤) هادل تحسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص

خفى التاريخ المصرى القديم : كان مينا ومنقوتب الاول وأحمس الاول — كما تظهر مسورهم فى معبد الرمسوم فى طيبة المصرية (الاقصر) — مؤسسين للدولة القديمة والوسطى والحديثة من تاريخ مصر للمرعونية على التوالى ، فالثلاثة يبدأون تقريبا من خط الصفرمويحاولون جاهدين ، إقامة دولة متينة البنيان ، على انقاض أمة ممزقة بين عشرات الموحداث المتناحرة ، ومن ثم ضمن العدل أن يوضع كل منهم على رأس حقبة كاملة من تاريخ مصر القديمة ، وهكذا رأينا تماثيل هؤلاء الملوك الثلاثة على أيام الرعامسة ، تنصدر تماثيل غيرهم ، باعتبارهم قادة للحضارة المصرية القديمة •

وفى القارىخ العراقى القديم ، كان سرجون الاول وحمورابى مثلا ، علامة مميزة فى تاريخ ميزوبوتاميا •

وفى التاريخ اليونانى والرومانى : كان الاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر كذلك •

وفى التاريخ الاسلامى : كان الفاروق عمر : رضوان الله عليه ، مثلا يحتذى للحاكم العادل الحازم الكفو ، كما كان الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الجنة ، فى غروسيته وعدالته وزهده ، وامامته فى العلم والتقى ، كما كان عمر بن عبد العزيز ، مثلا فريدا للعدالة فى دولة بنى أمية ، كما كان الرشيد مثلا لعظمة الدولة العباسية •

وفى التاريخ المصرى الحديث : كان محمد على وسعد زغلول وجمال عبد الناصر أمثلة بارزة (١٥) •

(١٥) لاريب فى أننا حين نذكر بعض الاسماء العظيمة التى أثرت فى حركة التاريخ الانسانى ، لن نقعرض للانبياء ، والا فاعظم هذه الاسماء — على وجه اليقين — انما هم اولو العزم من الرسل : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم ، بل أننا حين نذكر أعظم الاسماء قاطبة فى تاريخ الانسان ، فلن يكون هذا العظيم ، سوى مولانا وميدنا محمد رسول الله ﷺ ، فليس قبله ولا بعده عظيم فى تاريخ هذه الدنيا •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه ليس ضرورياً أن يكون القائد أو الزعيم متسماً بمواهب معينة لا بد من توافرها ، فقد يكون لدى القائد مكونات القيادة المطلوبة ، غير أن توفر الظروف قد يتيح له أن يؤدي دوراً مميزاً ، لكنه لا يصل الى مرتبة القادة الذين يتحلون بكثير من الصفات التي تتيح لهم أن يؤديوا أدواراً حاسمة في التاريخ .

وليس ضرورياً أن تكون صفات القائد صفات ايجابية أو خلقية ، فبينما كان عدل الفاروق عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، هو أبرز صفاته ، فإن همجية «تيمورلنك» ودكتاتورية «هتلر» وروح «تشرشل» الاستعمارية ، كانت كلها عوامل أساسية في بروزهم ، لكن تلك الصفات السلمية كانت في النهاية نفس العوامل التي قضت على مطامعهم ومخططاتهم .

وهناك من الزعماء من يتحلى بكثير من الصفات التي تؤهلهم للقيادة غير أن عدم توفر الظروف الموضوعية لا يتيح لهم أداء الدور الذي يريدون ، ومن هؤلاء عفيما يرى البعض ، عمر بن عبد العزيز ، على أن هناك من الزعماء من تتوفر فيهم كثير من صفات القيادة ، فيتمكنون عند توفر تلك الظروف الموضوعية من أداء دورهم ، فإذا ما تغيرت الظروف فلأنهم سرعان ما يفشلون في متابعة انجازاتهم ومن هؤلاء ، جمال عبدالناصر .

والخلاصة أن دور عظماء الرجال دور هام وواضح في حركة التاريخ غير أن هذا الدور مرتبط في النهاية بالظروف الموضوعية التي تتيح لهؤلاء العظماء أن يؤديوا دورهم ، وإلى المدى الذي تستمر فيه تلك الظروف فعالة ومؤثرة (١٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن التفسير الفردي للتاريخ انما قد تعرض لحملة من الباحثين الذين يشادون بالتفسير الجماعي ،

(١٦) عادل حسن غنيم وجمال محمود حजर ، المرجع السابق ص ٥٨ - ٥٩ .

وخاصة أولئك الذين يربطون التاريخ بتطور الظروف المادية التى يمر بها المجتمع ممثلا فى شتى طبقاته ، ونقطة البدء فى هذا التفسير أن فردا واحدا - أو حتى مجموعة من الافراد - لا يمكن أن يكون لديهم - كأشخاص لا يمثلون إلا أنفسهم - القوة المادية التى تمكنهم من السيطرة على مجريات الامور فى مجتمع بأكمله ، الا اذا توافرت فى هذا الفرد ، أو هؤلاء الافراد ، صفات معينة تجعلهم يمثلون مصالح طبقة أو أكثر من طبقات المجتمع الذى يظهرون فيه ، بحيث تدعم هذه المصالح وتنمو بالالتفاف حولهم ، وتشجيعهم على الحصول على مراكز الرياسة أو الزعامة ، وتأييد حقهم فى القبض على زمام الامور - وهكذا يصبح تعضيد المبدأ أو النظام الذى يسيرون عليه أمرا ضروريا لهذه الطبقة أو الطبقات ، كما يصبح الابقاء عليهم فى مراكزهم هذه غاية تستحق أن يدافع عنها ، ويكافح فى سبيلها .

وانطلاقا من كل هذا ، فالافراد الذين تتكون منهم الحكومات لا يمثلون مراكزهم هذه بصفة فردية ، أو بناء على تفويض من قوى الهية خارجة عن مجتمعهم ، وانما هم فى حقيقة الامر ممثلون لطبقات معينة وصلت بقدرتها فى الدفاع عن حقوقها ، وبراعتها فى الانتفاع بالظروف المحيطة بها ، والفرص التى أمامها فى سوق المساومة الاجتماعية مع الطبقات الاخرى الى مركز الصدارة أو السيادة الذى يمكنها من السهر على مصالحها ورعايتها ودعمها - وهم حين يصدرون قوانينهم أو يقومون بأعمالهم الداخلية أو يمارسون سياستهم الخارجية فى اتجاه أو فى آخر ، انما تكون تصرفاتهم تعبير خارجى عن احتكاك مصالحهم كطبقة بمصالح الطبقات الاخرى التى تكون الشق الاخر من المجتمع ، ونفس الشيء يقال عن الاتجاهات التى تتخذها تصرفات الطبقة المحكومة فى شتى صور اتفاقها أو اختلافها مع حكوماتها .

وهكذا يصبح من المبعث - فى ضوء هذا التفسير - أن نقتصر على الترجمة للافراد أو ذكر أعمالهم وتصرفاتهم ، سواء كانوا من صفوف

الحكام أو المحكومين ، دون النظر الى البواعث الطبقيّة التي أدت اليها ، لأن ذلك لن يعطينا سوى نتائج الاحتكاك أو الصراع الاجتماعي مجردة من مقدماتها ، وهذه لن تزيد — في خير صورها — على مجموعة من الحوادث لا يربط بينها سوى التتابع الزمني .

على أن هذا التفسير رغم الاخطاء التي ينطوي عليها ، فقد أظهر لنا محركا آخر يكمن وراء التطور الاجتماعي ، هو المصالح الطبقيّة ، وما يقوم بينها من تنافر أو توافق ، وقد ألقى هذا دون شك ضوءا جديدا على مراحل كثيرة من التطور التاريخي ، بعد أن ظلت حتى وقت قريب تفهم وتعالج من ناحية واحدة ، وهكذا بدأت تتضح أمامنا عناصر كانت خافية أو غامضة من قبل ، وكانت هذه العناصر بمثابة بعد جديد أسهم في مواقف تاريخية كثيرة كان ينقصها التجسيم .

ومثالنا على ذلك : المقاومة التي لقيها داعية التوحيد « اخناتون » (١٧) (١٣٦٧ — ١٣٥٠ ق م) من كهنة آمون ، ومن القائد « حور محب » (الملك حور محب فيما بعد ١٣٣٥ — ١٣٠٨ ق م) الذي وقف في صفهم ، لم تعد مجرد ثورة دينية على ملك أراد احلال عبادة جديدة (١٨) محل العبادة الوطنية القديمة ، وانما ظهر لها وجه آخر ، وهو الصراع بين طبقتين هما : كهنة الدين القديم ، وأصحاب الدعوة الجديدة — وعلى رأسهم الفرعون — بما يملكون من نفوذ وأتباع ، حول امتيازات الكهنة القديمة من أرضين واسعة كانت توقف على آمون — اله الدولة الرسمي — ومن رسوم كانت تفرض على التجار الذين يبيعون سلعهم للذين يؤمنون معابده ومن هدايا ونذور للمعبود ، وكل ذلك كان يذهب في النهاية الى هؤلاء الكهنة ، وغير هذه من جوانب الكسب المادي ، وما يصحبه من تقوية لراكزهم الاجتماعية (١٩) .

(١٧) قدم الباحث دراسة مفصلة عن اخناتون (انظر محمد بيومي مهران : اخناتون : عصره ودعوته - القاهرة ١٩٧٩) .
(١٨) نفس المرجع السابق ص ٢٨٩ — ٤٨٤ .
(١٩) لطفي عبد الوهاب : المرجع السابق ص ١١ — ١٣ .

وما أن أغلقت معابد الآلهة في أنحاء الامبراطورية المصرية بمصودرت ممتلكاتها ، وعطلت شعائرها وضرب الحجز على خزائن الكهنوت ومحييت كلمة «الآلهة» - بدأ الكهنة يتكتلون ، وأصبح النزاع بين الفرعون والكهانة على أشده ولم يعد إختلاطون يتسامح مع الآلهة وخاصة أمون - استغل ذلك كله الحاقدون من كهان أمون ، والمتنفعون من معابده ، وبقايا أبناء الارستقراطية القديمة الذين ساءهم أن يسود عليهم محدثو النعمة من أنصار الدعوة الجديدة ، وبقايا الكهنة العاديين الذين ارتبطت مصالحهم بمعابد الارياب المطينين ، وطالت مؤامرات هؤلاء وهؤلاء ، واستمروا يهونون من شأن الدعوة الجديدة ، ويشوهون أهدافها ويوقدون نار الفتنة في البلاد ، حتى جعلوا طوائف الشعب تحمل في قلوبها كل البغض للدعوة الجديدة ولصاحبها ، حتى أثقلوا كاهله بالاحزان ، وجعلوه يحس بخيبة لا حدود لها ، وكان ذلك كله واحدا من أهم أسباب عدم انتشار الدعوة بين العامة من الناس ، ثم القضاء عليها بعد موت الداعية في عام ١٣٥٠ ق م (٢٠) .

وهكذا فما قيل عن هذا المثال : انما ينطبق دون شك على عشرات غيره ، وان اختلفت التفاصيل ، بل يكاد ينطبق على شتى مراحل التطور التاريخي ، وهي تشير ، في أغلب الاحيان ، الى أن الظروف التي تمر بها المجتمعات ممثلة في طبقة أو أكثر من طبقاتها ، وما يقوم بين هذه الطبقات من تآلف وترابط وصراع وتنافر ، هو المحرك الاول للتطور التاريخي ، والى أن التفسير الفردي للتاريخ كان في الواقع نظرا للامور من جانب واحد ، وتجاهلا لجوانب أخرى لا ينبغي تجاهلها (٢١) .

(٢٠) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٣٥٢ ، ٣٩٠ ، عبد العزيز صالح : الوجدانة في مصر القديمة ص ٢١ ، وكذا J. H. Breasted, A History of Egypt, New York, 1946, p. 280, 391. F. Daumas, Le Civilisation De L'Egypte Pharaonique, Paris, 1956, p.326. C. Aldred, A Khenaten, Pharaoh of Egypt, London, 1972, p. 62-63. Freud, Moses and Monotheism, Trans. by K. Jones, N. Y, 1939, p. 21,25.

(٢١) لطفي عبد الوهاب : المرجع السابق ص ١٤ .

(٢) التفسير النفسي :

ويعنى هذا التفسير أن تكون لمشاعر الزعماء أو الجماعات أو الشعوب ردود فعلها النفسية التي تترك آثارها على حركة التاريخ ، ويضرب المؤرخون أمثلة كثيرة على أهمية التفسير النفسى للتاريخ ، ومنها : تلك المعصية الجاهلية فيما قبل الاسلام ، والشعبية فى الاسلام ، وحملات نصارى أوروبا لتخليص قبر السيد المسيح ، عليه السلام فى فلسطين من أيدي المسلمين (الحروب الصليبية) ، والآثار الكبيرة التي تركها سقوط القسطنطينية فى عام ١٤٥٣م على الممالك الاوربية بصفة خاصة (٣٢) .

وإذا عدنا الى الوراء ، الى عام ٥٣٩ ق.م ، وتذكرنا مدى الاثر النفسى الذى تركه سقوط بابل فى هذا اليوم ، على الشعوب السامية لرأينا مدى أثر العامل النفسى على تلك الشعوب ، حيث انتهت فيه سيادة العناصر السامية ، وبدأت سيادة العناصر «الهندو - أوربية» - من فرس واغريق ورومان - والتي استمرت ما يقرب من اثنى عشر قرنا ، حتى جاء الاسلام الحنيف ، فحسرت الارض والقوم من ذل الاستعمار ، فضلا عن تحرير العقول من وثنية الماضى البغيضة ، وبدأ القوم يؤمنون بالله الواحد الاحد ، الذى لا شريك له ، له الملك والحمد ، وهو على كل شىء قدير (٣٣) .

والامر كذلك فى مصر ، حين استولى الفرس عليها فى عام ٥٢٥ ق.م ، ويحدثنا التاريخ أن قمبيز (٥٢٥ - ٥٢٢ ق.م) أراد أن يسخر من الفرعون «بسماتيك الثالث» (٥٢٦ - ٥٢٥ ق.م) فأجلسه على عرش رمزي ، ثم أمر أن تمر أمامه ابنته على رأس مجموعة من فتيات الاسرات العريقة يرتدين زى الاماء ، ويحملن الجرار فوق رؤسهن ، ثم ابن بسماتيك وخلفه ألفان من خيرة شباب مصر ، مربوطين فى حبال من أعناقهم ، ولجزم

(٢٢) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص

٦٠ - ٦١ .

(٢٣) محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة -

القاهرة - دار المعارف ١٩٧٦ ص ٣٤٤ .

في أنفواهم ، مسوقين الى مصيرهم التعس ، وشهد بسماتيك ذلك كله ،
 وكظم غيظه ، ولم يظهر جزعه ، حتى رأى أحد رجال بلاطه المترفين في
 خرق بالية ، يسأل الناس ويستجديهم ، فدمعت عيناه ، وعجب قعبيز من
 ذلك ، وحين سألته عن السبب ، جاءه الجواب : «أى ابن كيروش ، أن
 خطبى أكبر من أن يشتثير دموعى ، ولكن أمر الرجل أثار شجونى» (٢٤) .

وعلى أية حال ، فلا ريب أن العوامل النفسية ، كالحب والكراهية
 والحقد ومركبات النقص ، إنما تترك آثارها على تصرفات وسلوكيات
 بعض الزعماء والقادة ، أكثر منها على تصرفات الجماعات والشعوب ،
 وذلك لان تأثيرها على الشعوب إنما هو — فى الاغلب الاعم — وقتى ،
 لا يشكل عاملا أساسيا فى حركة التاريخ .

هذا ويذهب كثير من المؤرخين الى أن التفسير النفسى إنما يساعد
 على تفسير أهمية حادثة تاريخية لفرد ، ولكنه لا يفسر الحادثة ذاتها ،
 ومن ثم فمهمة المؤرخ ليست فى البحث عن الحالة النفسية لفرد ، وإنما
 فى الحالة النفسية للمجتمع ، وعلى سبيل المثال ، فإن الذى يهم المؤرخ
 هو معرفة الآثار النفسية لهزيمة ١٩٦٧م على الامة العربية ، أكثر منه
 على نفسية «جمال عبد الناصر» فى أعقاب تلك الهزيمة ، وبالتالي يكون
 التفسير النفسى أكثر مصداقية كلما طبقناه على الجماعات ، لا الزعماء
 والقادة ، وإن كان التفسير النفسى للتاريخ فيما يتصل بالزعماء والقادة
 إنما يساعدنا على فهم المؤثرات المختلفة التى دفعت هذا الزعيم مثلاً ،
 الى اتخاذ قرار بعينه أو تبني اتجاه بذاته ، وإن كان ذلك ليس بالضرورة
 تعبيراً عن الصالة النفسية للمجتمع الذى يقوده الزعيم ، فقد يقدم
 الزعيم على اتخاذ خطوة كبرى تتفق ومصلحه هو ، بدعوى أنها تخدم

(٢٤) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث — الاسكندرية
 ١٩٨٨ ص ٦٦٥ .

مصالح شعبه ، وقد تؤيد ظواهر الامور في حينه هذا الادعاء ، ثم يتضح بعد ذلك أن نتائج تلك الخطوة لم تكن أبدا في صالح الشعب (٢٥) .

(٤) التفسير الطبيعي :

ويراد به تفسير التاريخ وفقا لقوانين محددة مماثلة للقوانين في العلوم الطبيعية ، ومن ثم فقد أتجه أصحابه الى عدة اتجاهات ، منها : التفسير الجغرافي للتاريخ ، ويعتبر العوامل الجغرافية المختلفة هي التي تؤثر في نشاط الانسان وتاريخه ، ومنها : التفسير الانثروبولوجي للتاريخ : ويعتبر الاجناس المتميزة هي التي تصنع حركة التاريخ ومنها : تفسير الدورات التاريخية : وتذهب الى نظام دوري ثابت في حياة الانسان أو الامم ، وهو ما يعبر عنه أحيانا بأن التاريخ يعيد نفسه .

هذا ويمكن فهم تفسير الدورة التاريخية ، اذا قسمنا حياة الانسان الى ثلاثة أقسام : الحياة الداخلية وتتمثل في مشاعر الانسان وغرائزه ، وهذه الحياة لا أثر للزمن فيها ، والحياة العقلية للانسان : ويمثل تاريخها خطا بيانيا متصاعدا على الدوام ، والحياة الخارجية للانسان : وتتمثل في النشاط الانساني الخارجي - اجتماعيا كان أو اقتصاديا أو سياسيا - وتتأثر هذه الحياة الخارجية بعوامل الزمن ، وهي الحياة التي تمر بتلك الدورية التي تتراوح بين الصعود والهبوط ، وبين المد والجزر .

ولنأخذ الاستعمار العالمي كمثال : وهنا نجد الاستعمار العالمي الحديث قد بدأ في الدول الأوروبية في فترات متقاربة ، وكان الاستعمار الاسباني أسبق الجميع ، غير أنه لم يلبث أن ضعف ، ثم جاء الاستعمار الفرنسي الذي بلغ أوجه في القرن الثامن عشر الميلادي ثم كان الاستعمار البريطاني الذي بلغ أشده في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

(٢٥) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص

هذا وقد شهدت المرحلة التالية للصرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) انحصار الاستعمار العالمى رويدا رويدا ، وتحصول الدول الاستعمارية - خاصة بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م) - الى دول من الدرجة الثانية ، وهذا يعنى أن الاستعمار العالمى انما قد مر بدورية معينة ، بدأت بنشأته ثم صعدته الى قمته ، ثم انحدره بعد ذلك (٣٧) .

(٥) التفسير المادى :

وهو التفسير الذى يعنى أن حركة التاريخ تقوم على الجوانب المادية البحتة والذى تعتمد على عدة عناصر : منها قوى الانتاج ، ويقصد بها نشاط الانسان الناتج من محاولاته استخدام الطبيعة أو السيطرة عليها ، لتطوير انتاجه الاقتصادى فى مختلف جوانبه ، ومنها : علاقة الانتاج ، ويقصد به ذلك الجانب من نشاط الانسان بينه وبين الآخرين فى اطار العملية الانتاجية ، والذى يأخذ أشكالا مختلفة ، طبقا للقوى الانتاجية السائدة ، ومنها : وسائل الانتاج ، أى الوسائل التى تتم بها العملية الانتاجية ، كالالات والمعدات والمصانع والقوى المحركة والطرق ووسائل المواصلات المختلفة ، ومنها : أهداف الانتاج ، أى ما يهدف اليه الافراد من تلك العملية الانتاجية التى يقومون بها .

وعلى أية حال ، فرغم اعترافنا بأهمية العوامل المادية فى حركة التاريخ ، غير أننا لا يمكن أن نضع تلك العوامل فى المرتبة الاولى ، ذلك لان للعوامل الاخرى تأثيرها فى حركة التاريخ كذلك ، بل ان لبعضها الدور الحاسم فى حركة التاريخ فى مرحلة يعينها من تاريخ البشرية (٣٨) .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن هناك مذاهب مادية كثيرة فى تفسير الوقائع التاريخية ، فلقد رد كل من «ابن خلدون» (١٣٣٢ -

(٢٦) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص

٥٩ - ٦٠ .

(٢٧) المرجع السابق ص ٦٢ - ٦٣ .

١٤٠٦م) و «وونتسكيو» (١٦٨٩ - ١٧٥٥م) على سبيل المثال هذه الوقائع الى عوامل بيئية جغرافية ، كذلك أشار «باك» الى أهمية القوى الفيزيائية وأثرها على انتاج الثروة ، بل لقد شاع التفسير المادى بوجه عام — والاقتصادى بوجه خاص — لدى مفكرى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فلفقد أشار «هارنجتون» الى أن أشكال الحكومات تستند الى حيازة وتوزيع الاراضى ، كما أشار «جارينه» فى فرنسا ، و «دارليمبل» فى انجلترا ، الى أثر ملكية الاراضى على السياسة ، وفى الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، كان الاشتراكيون — من أمثال فورييه وسان سيمون وبرودان — يؤكدون أثر الظروف الاقتصادية على السياسة فى عصرهم (٢٨) .

مع ذلك فهؤلاء لا يعدون روادا للنظرية الماركسية — كهيجل مثلا — لانهم جميعا لم يراعوا عوامل التطور فى التفسير ، ومن ثم فان منطق «الديالكتيك» هو وحده الذى يصلح لتفسير ديناميكية التاريخ بجميع مظاهره ، بل لقد عد «كارل ماركس» هذه المذاهب المادية صورا من النزعة «اليتافيزيقية» لأنها تجعل من الظواهر — طبيعية أو انسانية — أشياء منعزلة ، وتخصمها لمقولة العلية ، بصورتها وجمودها ، دون اعتبار للتشابه بين الظواهر أو التفاعل بين المعلوم والمعلوم والعلة .

وعلى أية حال ، فجميع المذاهب المادية تشترك فى عيب جوهري : ان المادية فيها آلية ، حيث أخفقت فى أن تصل الى أن العوامل المادية انما تفهم فى ضوء مقولات التاريخ ، فلا يكفى بيان أثر الملكية الخاصة على النظام السياسى ، لان الملكية الخاصة انما تتغير فى كل حقبة تاريخية فى سلسلة من العلاقات الاجتماعية المختلفة ، كما أن العوامل الجغرافية تشكل فقط الاطار العام الذى ينبثق عنه موارد الانتاج ، لان الظروف

(٢٨) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٢٦ ، وانظر Darlymple, As Esasy Towards a General History of Feudal Property in Great Britain, 1750.
Garnier, De la Propriete dans ses rapports avec le droit Politique, 1792.

الطبيعية تمنح الامكان ، دون أن تفيد الواقع الفعلى ، فليس الامر مجرد خضوبة التربة لتفسير نشأة حضارة ما ، وانما يلزم أن تكون الموارد الطبيعية خاضعة لتحكم الانسان واستثماره ، ثم ما يلزم عن ذلك من تنوع الانتاج وتوزيع الملكية ، وهذه بدورها يتحكم فيها تقسيم العمل ، فضلا عما يستثير الانسان من احتياجات ، فليست موارد الانتاج قوانين ثابتة دائمة ، ولكنها تتغير وفقا لحياتة الانسان في مجتمعه ، وعلاقته بسائر قوى الانتاج ، وليست العوامل المادية مؤثرات حتمية ولكنها أفعال الانسان ، وعلاقاته المادية مع آخرين (٣٩) .

هذا وكان «كارل ماركس» (Karl Marx) (١٨١٨ - ١٨٨٣م) من أبرز أصحاب نظرية التفسير المادى للتاريخ ، وان لم يكن هو منشؤها ، وانما أخذ ماديته من آخرين كثيرين سلكوا السبيل نفسه ، بوصف فلسفته في القالب الذى اقترحه دياكتيك هيغل ، فالمادة التاريخية البسيطة يمكن أن ترى كاملة النمو في بحث أعده «هولباخ» (Holbach) وطبع قبل قرن وهى أيضا مدينة بالكثير الى الفيلسوف الهولندى «باروخ سبينوزا» (B. Spinoza) (١٦٣٢ - ١٦٧٧م) ، وقد أعاد «فويرباخ» (Feuerbach) تقرير شكل مجدد منها ، على أيام «كارل ماركس» نفسه ، ويمكن أن نرى النظرة الى التاريخ الانسانى على أنه دراسة للحرب بين طبقات المجتمع عند «سانت سيمون» (Saint Simon) ، وقد اعتنقها الى حد بعيد مؤرخون فرنسيون من معاصريه، مثل «تيرى» (Thierry) و «مجنيه» (Mignet) وكذلك «جيزو» (Guizot) .

وكان «سيسموندى» (Sismondi) أول من وضع النظرية العلمية لحتمية حدوث الازمات الاقتصادية حدوثا منتظما ، وأما النظرية العلمية لظهور الطبقة الرابعة (Fourth Estate) فقد اتخذها دون ريب أوائل الشيوعيين ، ودعا اليها في المانيا على أيام «كارل ماركس» كل من «فون

(٢٩) أحمد محمود صبحى ، المرجع السابق ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ، وانظر

E. Seligman, The Economic Interpretation of History, p. 61.

شتاين» (Von Stein) و «هيس» (Hess) ، وأما التسلسل المطلق للطبقة العاملة (دكتاتورية البروليتاريا) فقد وضع «بابيوف» (Babuef) خطوته الكبرى بشكل ظلال في آخر عقود القرن الثامن عشر ، ثم وضع هذه الفكرة بشكل واضح في القرن التاسع عشر ، وبأشكال مختلفة كل من «فايتلنج» Weitting و «بلانكي» (Blanqui) ، وقد زاد في إيضاح المركز الضاخر والمستقبل للعمل وأهميتهم في الدولة الصناعية «لوي بلون» (L. Blanc) واشتراكيو الدولة الفرنسيون بشكل أكثر تكاملا ، مما يوافق «ماركس» على قراره .

وأما نظرية القيمة المبنية على العمل ، فتستمد من «لوك» (Locke) و «آدم سميث» (A. Smith) والاقتصاديين القدامى المحافظين (الكلاسيكيين) ، وأما «نظرية الاستغلال وقيمة الفائض» (Theory of Exploitation and Surplus Value) ومعالجتها بسيطرة الدولة سييطرة مباشرة ، فيمكن أن ترى عند كل من «فورييه» (Fourier) وفي كتابات الاشتراكيين الأوائل مثل «بري» (Bray) و «تومبسن» (Thompson) و «هولجسكن» (Hologskin) (٢٠) .

ونستطيع أن نضيف هنا إلى أن محاولات عديدة أخرى ، قد نسقت في إطار فكري ، أو نفذت عبر تجربة عملية ، شهدها تاريخ الشرق ، قبل قرون عديدة لمعطيات هؤلاء ، نكتفي منها بالإشارة إلى حركات مزدوك ، على أيام الملك الفارسي «قباد» (٤٨٨ - ٥٣١م) ، و «بابك الخرمي» على أيام الخليفة «المعتصم» (٨٣٢ - ٨٤٢م) والقرامطة في الربع الأول من القرن العاشر الميلادي .

(٢٠) عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ - ترجمة كاظم الجوادى الكويت ص ٨٧ - ٨٨ ، فردريك انجلز : التفسير الاشتراكي للتاريخ ، ترجمة راشد البراوى - بيروت ١٩٦٨ . وانتظر : عماد خليل : المرجع السابق ص ٤٠ - ٤١ وكذا

Isaih Berlin, Karl Marx and his Life Envirenment, pp. 14-15.

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن «كارل ماركس» انما يبدأ كتابه «رأس المال» بأن يسأل : ما هو المبدأ الذي يحكم كل العلاقات بين البشر ؟

ثم يجيب على ذلك ، بأنه الهدف المشترك الذي يسعى كل الناس لبلوغه ، وهو انتاج الوسائل التي يديمون بها حياتهم ، وبعد الانتاج تبادل الاشياء التي أنتجوها ، فان على الانسان أن يعيش ، ثم يستطيع أن يبدأ يفكر ، ومن ثم فالذي يقرر للتغير الاجتماعي لا يوجد في أفكار الناس عن الحقيقة الابدية والعدالة الاجتماعية ، وإنما فيما يحصل من تغير في أسلوب الانتاج والتبادل ، ومن ثم تطرح الماركسية الفروض الرئيسية التالية :

أولا : يدخل الناس ، في غمرة الانتاج الاقتصادي الاجتماعي ، في علاقات معينة ، ويضطرون الى أن يكونوا ظروفًا معينة ، تتلق مع مرحلة معينة من تطور القوى الفكرية ، وثانيا : أن ظروف الانتاج — اذا أخذت ككل — تكون الكيان الاقتصادي للمجتمع ، وهذه هي القاعدة المادية التي يقام عليها بغير للقوانين والانظمة السياسية ، التي يرجع اليها بعض أشكال الوعي السياسي ، وثالثا : ليس وعي الانسان هو الذي يمين أشكال الوجود ، بل ان أشكال الحياة الاقتصادية والاجتماعية هي التي تعين الوعي . ورابعا : أن قوى الانتاج المادية انما تصطدم — بعد أن تبلغ مرحلة معينة من التطور — مع ظروف الانتاج الموجودة ، أي مع نظام الانتاج الذي تعمل في ظله — وخامسا : أن تاريخ المجتمع — منذ وجوده وحتى الان — انما هو تاريخ صراع طبقات ، كانت تقف موقف المعارضة للدائمة لبعضها ، وتقوم بحروب لا انقطاع لها ، تنتهي اما باعادة بناء المجتمع كليا ، أو بتدمير الطبقات المتصارعة ، ويطبق هذا الاسلوب في البحث نرى أن التاريخ انما يدل على أن تطور المجتمع الانساني سار من نظام المشاعية البدائية أو الجماعية الى نظام الطبقات متمثلا في انقسام المجتمع الى سادة وعبيد في العصور القديمة ، والى سادة واقطاعيين وأقنان في العصر الاقطاعي ، ورأسماليين وعمال أجراء في العصر الحديث ، وأن هذا التطور يتجه — بفعل القوانين التي تتحكم

فيه — الى نظام جديد تزول فيه المصالح الاقتصادية المتضاربة ، أى علاقات الجماعات بقوى الانتاج (٣١) .

وفي المقدمة التى صدر بها «ماركس» كتابه «نقد للاقتصاد السياسى» نلتقى بتركيز شامل للعلاقات الاساسية بين الانتاج وبين الحركة السياسية ، وفي رسالته الى أنتكوف (ديسمبر ١٨٤٦م) يؤكد مسألة استبعاد الحرية الانسانية فى صياغة واختيار القوى الانتاجية التى هى أساس الابنية التاريخية والحضارية (٣٢) .

وعلى أية حال ، فان مفهوم المادية عند «كارل ماركس» لم يكن هو نفس المفهوم عند الفلاسفة الماديين ، مجرد اعتبار المادة الحقيقة الموضوعية الوحيدة ، ولكنها تعنى عنده (أى ماركس) من حيث علاقتها بالانسان المتطور ، والتى يعد الانتاج أهم مظهر لهذه العلاقة ، ومن ثم تصبح المادة لديه عمليا لفظا مرادفا للاقتصاد (٣٣) ، ثم يرى أن يتحرر العقل من النظام الصراعى — بين رأس المال والعمال — الذى يعيش فيه ، ويحتتم عليه الحروب ، عليه أن يقضى على الاستعمار أولا ، ثم يفرغ لتنظيم اقتصادى جديد ، يسلم فيه مفتاح المصنع ومفتاح الدكان للدولة ، ويقضى على الحرب الصامتة بين صاحب المصنع والعامل ويحول المجتمع الى أسرة واحدة — أى الى مجتمع ذى طبقة واحدة ، هى طبقة العمال — والحكومة الى أب ، والعالم الى دول متآخية ، وبذلك يصبح سوق الشرف هو العمل والانتاج ، لا الكسب والاستغلال ، ويتحول الانسان مرة أخرى الى جده البدائى المسالم الذى كان يحارب الطبيعة القاسية (٣٤) .

(٣١) عماد خليل : المرجع السابق ٤٤ — ٤٥ ، عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ٨٩ — ٩٠ ، فردريك أنجلز : المرجع السابق ص ١٧ — ١٨ (من مقدمة المترجم) .

(٣٢) انظر التفاصيل فى : نفس المرجع السابق ص ١١٩ — ١٢١ .

(٣٣) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٢٩ ، وكذا

B. Russell, History of Western Philosophy, p. 812.

(٣٤) مصطفى محمود : الله والانسان — القاهرة ١٩٥٧ ص ٩٢ ،

محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث — القاهرة ١٩٨١ ص ٣١٦ .

ثم سرعان ما يتسع مفهوم الاقتصاد عند «ماركس» ليشمل عمليات التملك والانتاج والتوزيع والاستهلاك في تفاعلها مع الانسان ، وماينتج عن ذلك من علاقات اجتماعية ، ثم ليشمل أيضا العوامل التكنولوجية والجغرافية والجنسية ، وكل هذه تفرض نفسها على صور الفكر ومظاهر الثقافة ، فالدين والفلسفة والفن في مجتمع ما ، انما كل هذا على ما عليه أساليب التكنولوجيا والاقتصاد ، وليس الجدل بين المدارس الفلسفية أو حركات الإصلاح الدينى أو الثورات السياسية الا انعكاسات لواقع النشاط البشرى ممثلا في الانتاج والعلاقات المادية ، ومن ثم فان أى تغيير في الظروف المادية لابد أن يجلب معه تفسيرات هامة في الانظمة السياسية والتشريعية والايديولوجية ، بينما هذه الانظمة ليست بقادرة من تلقاء نفسها على احداث تأثير جوهري في عملية التطور الاجتماعى .

غير أن ذلك لا يعنى أن العوامل الاخرى ليس لها أى أثر ، ذلك لان العامل الاقتصادى انما يتفاعل معها ، ومن ثم فان «ماركس» و«انجلز» لم يقصدا تفسير التاريخ في ضوء مصطلحات الاقتصاد وحده ، ولكن الاعتبار الاجتماعى انما هو من الأسس في تقدم الانسان ، وان كان العامل الاقتصادى هو الرئيسى بينها (٣٥) .

هذا وقد بلغ ذىوع التفسير الاقتصادى (المادى) للتاريخ حدا جعل بعض المؤرخين يشيرون اليه ، باعتباره قضية مسلما بها ، ومن ثم فقد امتد هذا التفسير الاقتصادى الى مختلف المجالات في مختلف العصور ، فاليه ترجع الحروب الصليبية وقيام البروتستانتية والثورات الامريكية والفرنسية والحرب الاهلية الامريكية والحركات الاستقلالية القومية في أوروبا والامريكتين ، وقد يكون في ذلك بعض الحق ، ولكن بعض المؤرخين قد تجاوزوا الحدود الى شئ من الشطط والتعسف ، فلقد أغفلت العوامل الاخرى اغفالا يكاد يكون تاما ، ليكون العامل الاقتصادى هو الوحيد في تفسير التاريخ ، رغم أن كلا من «ماركس» و«وانجلز» ، كما أشرنا

آخفا ، لم يدعيا الصحة المطلقة للاعتبارات الاقتصادية الى حد استبعاد
العوامل الاخرى (٣٦) .

وعلى أية حال فهناك عدة نقاط ضعف في نظرية التفسير المادى
للتاريخ ، منها (أولا) أن مذهب «ماركس» — شأنه في ذلك شأن غيره
من المذاهب الفلسفية — انما يستند الى بعض قضايا يعدها مسلمات
لا تحتاج الى استدلال ولا تقبل الشك ، وقد اعتبر ماركس مذهبه ذات
طبيعة تخالف سائر المذاهب الفلسفية ، ومن ثم فهو يجبرها جميعا ، وأن
مذهبه — وان كان ماديا — فهو يختلف عن سائر الفلاسفة الماديين ،
والواقع انه — وان افترق عنهم في منحى المذهب — لا يختلف عنهم في
الاسس والمسلمات .

ومنها (ثانيا) أن نظريته يسودها منطق الحتمية القاسية التى تتعبد
فيها حرية الارادة الانسانية ، فالقوى الاقتصادية أقوى من سيطرة
الافراد ، بل ارادة الطبقات ، ومع هذه الجبرية القاسية التى لا يملك
أى فرد ازاءها شيئا ، فان ماركس ادعى أنه — من الناحية العملية —
يعمل على تغيير العالم الذى وقف الفلاسفة جميعا عند حد تفسيره (٣٧) .

ومنها (ثالثا) أن ما أغرى ماركس بفكرته المادية ، ما كان للمعلوم
الطبيعية من بريق خارجى ، ولما كان هو نفسه يتصور أن الانسان مجرد
آلة ، فلقد حاول أن يصوغ القوانين الاجتماعية على غرار القوانين
الطبيعية ، ولكى يبلغ غايته فلقد حرف الحقائق ، فقد كان في ذهنه هدف
واحد ، وهو أن يثبت أن أسلوب الانتاج في الحياة المادية هو الذى يعين
الطابع العام لطرف الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية ، فانسائه

(٣٦) نفس المرجع السابق ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ، وكذا

E. Seligman, Op. Cit., pp. 62-63, 70-86, 144.

(٣٧) احمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٣٩ — ٢٤١ ، كارل
بوبر : عقم المذهب التاريخى — ترجمة الدكتور عبد الحميد صبرة ص
٦٦ — ٦٨ .

مجرد تماما من حرية الارادة ، وهدفه الوحيد الحصول على وسائل الراحة المادية ، وأن الطريق لتحقيقها هو القاعدة الحقيقية التى عليها يرتفع صرح حياته الفردية والجماعية ، وحين تتغير هذه القاعدة يحصل تغير كامل فى البناء القائم عليها ، ولذا فان وسائل الانتاج هى الحكم الفصل الحقيقى الذى يقرر مصير البشر ، والنتيجة الطبيعية لهذا أننا سنكون ملزمين بأن نقر بأن الجماعة وحدها هى الحقيقة ، وأن الوجود المستقل للأفراد هو مجرد وهم .

ومنها (رابعا) أن الرابطة بين التغير الاجتماعى وعملية التطور الاقتصادى أقل بكثير — تأثيرا وبساطة وكفاية — مما يقره علم النفس الماركسى الذى يفتقر الى الكفاءة ، والذى ربما هو الضعف القاتل للحتمية كلها ، فلقد أكد ماركس أن الانسان يستجيب للتغيرات التى تدخل فى نظام الانتاج ، وأما كيف تدخل ؟ فهو لا يقول لنا، لانه يتكلم كما لو كان الاسلوب الفنى المتغير فى الانتاج هو نفسه يوضح نفسه، ان ماركس يتجاهل تعقيدات التعود من جهة ، والنفور من جهة أخرى ، فهو يبسط النظرات التى تتجمع حول الانظمة، فالماسك والاخلاص بالنسبة للعائلة ، والمهنة والامة ، كلها خاضعة للطبيعة الاقتصادية ، وهكذا فالحل الذى استهدفته هذه المحاولة انما يستبعد تأثير عوامل أخرى كثيرة جدا (٣٨) .

ومنها (خامسا) أن «كول» يرفض الاعتراف بأن العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد الذى يقرر الكيان الاجتماعى لاية أمة فيقول فى كتابه «معنى الماركسية» : من السهل أن نتبع التشابه الكبير بين الهياكل الاقتصادية التى تبني عليها أنواع المجتمعات المختلفة وتنظيمها السياسى وأجهزتها الاجتماعية، وأن نرى كيف كيفت الهياكل السياسية والاجتماعية فى الماضى وفقا لتغير الظروف الاقتصادية الاساسية ، الا أنه من الخطر

(٣٨) عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ٩٢ — ٩٣، عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٥٠ — ٥١ .

أن تؤكد على هذا الى حد مفرط في البعد، وليست الحال قط أن المجتمعات التي في مستوى واحد في أسلوب انتاج ، يجب أن يكون لها حثما نفس الانظمة أو نفس الاشكال الاجتماعية للعائلة ، والعلاقات الجماعية والمنظمات السياسية والدينية ، أو الافكار الخاصة بالقيم والاخلاق ، فلتقد أظهرت بحوث الانثروبولوجيا (علم الانسان) أشكالاً حضارية مختلفة جدا ، لا يمكن قط أن تفسر تفسيراً اقتصادياً محضاً ، وأن أقصى ما يثبت هذا التشابه بينها إنما هو مجرد الاقتناع بأن الانظمة الاجتماعية تتأثر بالظروف الاقتصادية ، ذلك لان الأساس الاقتصادي إنما هو عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة ، حتى ولو كان أهم العوامل (٣٩) .

ومنها (سادساً) أنها نظرية واحدة في التفسير التاريخي ، اذ تجعل العوامل الروحية والفكرية تابعة للعامل الاقتصادي ، وهي بذلك تغفل الصفة الفردية للواقعة التاريخية ، وفي الواقع ليست أحادية التفسير هي التي تصلح للانسان ، وإنما منهج تكامل العوامل الذي يثبت تكافؤ العوامل ، ثم تفاعلها ، ثم بروز أهمية أحدها في عصر دون آخر ، وفي مجتمع دون آخر ، أما اخضاع المجتمعات العشائرية أو حركات الإصلاح الديني لتصورات عصر النظام الرأسمالي ، ففيه تعسف في التفسير .

ومنها (سابعاً) أن ماركس - وكذا انجلز - قد عرض المادة التاريخية ، باعتبارها تفسيراً لواقع التاريخ ، وتحليلاً علمياً له ، ومع ذلك تخلط نظريته بين عالم الواقع وعالم القيم ، فبالرغم من أنه ينتقد الرأسمالية على ما تتضمنه من متناقضات ، وليس على ما يصيب العمال من ظلم ، فإنه يبشر بالشيوعية باعتبار مجتمعه هو الذي تتحقق السعادة فيه للإنسانية ، فهو مجتمع يمنح العمال أمل تحقيق الفردوس على الأرض بهذه نبوءة أخلاقية تزرع لها بأسس ادعى أنها علمية موضوعية

(٣٩) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٥٥ ، عبد الحميد صديقي : المرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٤ ، وكذا

P.G.D.H. Cole, The Meaning of Marxism, p. 57.

وبالتالى فتنظرية ماركس نظرية فى التطور ، وليس فى التقدم ، فهو لا يصف الواقع ، وانما يتنبأ بأفضلية المجتمع اللابقي ، حيث نهاية آلام البشر، وذلك حكم تقييمي يتعارض مع النزعة العلمية الواقعية^(٤٠).

ومنها (ثامنا) اذا كان أسلوب الانتاج هو العامل الحاسم فى حياة الفرد أو المجتمع ، وجب أن يتصرف الاشخاص أو المجتمعات التى تواجه نفس النوع من المشاكل الاجتماعية ، وفق نفس الاسلوب ، لكن الذى يحدث فى كثير من الاحايين ، انما هو العكس ، فمثلا كانت الولايات الاغريقية ، فيما بين عامي ٧٣٣ ، ٣٢٥ قبل الميلاد ، تواجه مشكلة زيادة السكان ، فقامت بطلبها بطرق مختلفة ، فبعضها مثل «كورنثوس» و «خاليسيس» لجأ الى حلها باغتصاب ارضين زراعية فى الخارج — فى صقلية وجنوب ايطاليا — بينما لجأت ولايات أخرى الى التغيير فى طريقة حياتها ، كما فعلت اسبرطة حين هاجمت اقرب جيرانها من الاغريق واحتلت اراضيهم ، غير أن نتيجة ذلك انما كانت حروباً لا تنتهى مع شعوب مجاورة ، الامر الذى أدى الى أن تعيش اسبرطة حياة عسكرية من رأسها الى قدمها ، ولجأت أثينا الى وقف تصدير انتاجها الزراعى ، ثم طورت أنظمتها السياسية بحيث تعطى حصة عادلة من القوة السياسية للطبقات الجديدة التى أوجدها هذا التجديد الاقتصادى ، وبتعبير آخر ، فقد تفادى رجال الحكم فى أثينا من ثورة اجتماعية ، بأن قاموا بثورة اقتصادية وسياسية ، وهكذا يمكننا أن نقدم الكثير من الامثلة التاريخية على تنوع «ردود الاعمال» ازاء تحديات الازعاج المادية^(٤١).

ومنها (تاسعا) أن النظرة المادية للتاريخ التى جاء بها «ماركس» انما تذهب الى أن اتجاهات وافكار عصر ما، انما هى نتاج مرحلة التطور الاقتصادى التى تم بها الوصول اليها ، ومن ثم فليس هناك قانون

(٤٠) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٤١) عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ٩٦ - ٩٨ ، عماد الدين

خليل : المرجع السابق ص ٥٢ - ٥٣ ، وكذا

Arnold Toynbee, A Study of History, London, 1948, p. 4.

مطلق أو أخلاق مطلقة في هذا العالم ، وإنما هي انعكاسات لاسلوب الانتاج ، وهذا يؤدي بدوره الى تناقض خطير في هذه النظرية ، فهو من ناحية لا يرى شيئا أبدا ، ومن ناحية أخرى ، فهو يعبر عن فكرته عن التاريخ على أنها مطلقة ، الامر الذي لم يستطع أحد من تلاميذ ماركس أن يزيله ، وهكذا ، فإذا كانت فلسفة عصر ما ناتجة عن البيئة المادية له ، فبالطبع فإن فلسفة ماركس لا يمكن أن تكون صحيحة ومنطبقة على كل الأزمنة ، لأنها هي أيضا انعكاس لعصره ، وكل ما جاء به ربما كان ملائما لزمه ، وليس للعصور التالية له ، فمع تغير الزمن لا بد لفلسفته أن تتغير ، غير أن الماركسيين لا يقبلون ذلك ، اعتقادا منهم أن نظراته صحيحة في كل الأزمان ، أى أنها قيم دائمة للمجتمع الانساني ، لا تتغير بتغير الزمن (٤٢) .

ومنها (عاشرا) أن ماركس يخضع حركة التاريخ — بدولها وحضاراتها وتجاربها — لاحتية تبادل وسائل الانتاج وانعكاسه على الظروف ، وأن كل وضع تاريخي مآله الزوال بمجرد هذا التبدل الديناميكي الدائم ، ثم ما يلبث ماركس أن يقع في تناقض أساسي مع نظريته عندما يقرر «الدوام» و «الثبات» لمرحلة حكم الطبقة العاملة (البروليتاريا) حيث لا زوال بعدها ، وهذا يشبه — في إحدى جوانبه — الديالكتيك الهيجلي ، الذي يؤول بحركة العالم الى السكون وعدم التغير ، بمجرد بلوغها مرحلة تجلي المتوحد (٤٣) .

ومنها (حادى عشر) أننا اذا افترضنا — طبقا للتفسير المادى — أن الاخلاق في عصر معين هي مجرد انعكاس لاسلوب الانتاج الذى يعيش فيه جماعة الناس ، نتج عن ذلك أن الاخلاق في كل حقبة تاريخية تالية ، لا بد أن تكون — حتما — أسهى من أخلاق العصر الذى سبقتها ، طبقا لما يراه ماركس من أن النظام الاقتصادى الذى يوجد في حقبة معينة من

(٤٢) عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ١٢٢ ، عماد الدين خليل : المرجع السابق .
(٤٣) نفس المرجع السابق ص ٢٥٥ .

التاريخ يحل محله دائما نظام أرفع ، لان قوى الانتاج الجديدة المتولدة فيه قد نجحت في هدمه ، وبما أن النظام الاقتصادي الجديد الناشئ من القديم ، هو بصورة عامة تقدمي ، ويصور درجة أرفع من العدالة الاجتماعية ، فمن الواضح أنه يجب أن يأتي معه بأخلاق أسمى ، لو كان التاريخ سجلا لتقدم مستمر من جميع نواحيه ، ولكنه بنفس المقدار سبجاً لفساد وانحطاط ، ورغم الخطوات الهائلة التي خطاها الانسان في تسخير قوى الطبيعة لخدمة حاجاته المادية ، ورغم التقدم الذي يحرزه العلم في كل يوم ، في شكل اختراعات لا تخطر في الخيال ، فان الانسان ليس بخير أبدا من ناحية الاخلاق ، ومن ثم ، فمن أجل هذا الخطأ في مسألة التقدم البشري ، يجب أن نفرق بين تقدم الفن الآلى والتقدم الاخلاقي ، وبين المدنية والحضارة (٤٤) .

(٦) التفسير الحضاري :

يخالف «أرنولد توينبي» (Arnold Toynbee) نهج المؤرخين الذين يعتبرون الامم المستقلة أو الدول القومية مجالات للدراسة التاريخية ، ويرى : أن المجتمعات الاعظم اتساعا في الزمان والمكان من الدول القومية أو دول المدن المستقلة ، أو أية جماعات سياسية أخرى ، هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخية ، وبمعنى آخر ، أن المجتمعات الاعظم اتساعا في الزمان والمكان من الدول القومية أو دول المدن المستقلة أو أية جماعات سياسية أخرى ، هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخية وبمعنى آخر ، أن المجتمعات — وليس الدول — هو الوحدات الاجتماعية التي يجب أن يعنى بها دارسو التاريخ .

ثم يدرس «توينبي» بعد ذلك ما إنطوى عليه التاريخ الحضاري من المجتمعات دراسة مقارنة ، فيقرر وجود عدد محدد من الوحدات

(٤٤) نفس المرجع السابق ص ٥٩ ، عبد الحميد صديقي : المرجع السابق ص ١١٥ - ١٢٠ ، وانظر
Joal, A Guide to the Modern Wickedness, pp. 262-263.

الاجتماعية التى تميزها خصائص معينة ، وتجمعها أطوار حضارية متشابهة وتصلح وحدها للدراسة التاريخية ، وهو يفرق بين المجتمعات البدائية والحضرية ، فى أن عدد الحضارات المعروفة أقل بكثير من عدد المجتمعات البدائية التى وجدت واندثرت منذ فجر التاريخ البشرى ، وأن الجماعة التى يتكون منها المجتمع البدائى ، والرقمنة الجغرافية التى تسكنها ، ومدى عمرها ، كل ذلك أصغر وأقل بكثير مما تبينه المؤرخ فى كيان الحضارات المعروفة ، التى من أهمها : الحضارة المصرية والسومرية والبابلية والحيثية والميتوئية والهلمينية والايرائية والمربية الاسلامية والهندية والصينية والاندليانية والمانيانية والارثوذكسية المسيحية - البيزنطية والروسية - والحضارة الغربية ، وان كان أكثر هذه الحضارات قد اندثرت .

ثم يتناول «توينبى» - يحذر شديد - افتراض علم النفس الاجتماعى بوجود صلة وثيقة بين قيمة الخصائص النفسية وطبيعة المزايا الفزيولوجية المتفاوتة فى الاجناس البشرية المختلفة ، ويذهب الى أن علم النفس الاجتماعى لم يتجاوز بعد مرحلة الطفولة ، وبالتالي لا يصح الوثوق المطلق بنتيجة أبحاثه ، ثم يستعرض بعد تحفظه هذا عددا من النظريات العرقية ، ويبين - على ضوء ما قدمته الاجناس المختلفة من مشاركة فى انتاج الحضارات المتعددة - اخفاق تلك النظريات الانثنولوجية فى تفسير عملية النشوء الحضارى ، ومن ثم فالقول بتفوق الجنس الابيض بفروعه الثلاثة - النوردى والالبينى والأيبيرى - والادعاء بأن أبناء هذا الجنس هم الذين أنشأوا الحضارات وأمدوها بالمعجزات فى شتى مناحى الابداع ، والقول بامتياز الجنس الجرمانى على غيره من العناصر ، كل هذه الأحوال وغيرها تنهافت عند الوقوف على نتائج الدراسة الحضارية المقارنة التى تبين أن جميع الاجناس : الابيض - بفروعه الثلاثة - والبولينزى - الكورى واليابانى - والاسمر والاصفر والاحمر - ماعدا الاسود - قد أسهمت فى العمران الحضارى .

هذا ويرى «توينبى» أيضا أن نظرية البيئة الجغرافية لا يمكن الإخذ

بها كذلك ، الا اذا قامت حضارة مستقلة في بيئات متماثلة جغرافيا ،
 صحيح ان حضارتين أو ثلاثة على الاكثر - المصرية والسومرية
 والسندية - من مجموع احدى وعشرين حضارة نشأت بصورة مستقلة
 في بيئات متماثلة جغرافيا ، ولكنه صحيح كذلك أن نشوءها على هذا
 الشكل لا يصح اتخاذه قاعدة وانما حالة شاذة لا يصح اتخاذه قاعدة
 ومن ثم فان البيئة الجغرافية وحدها ليست عاملا أساسيا في نشوء
 الحضارات الاولى ، فهناك مثلاً أحواض أنهار تشبه وديان النيل ودجلة
 والفرات جغرافيا ، لم تنشأ فيها حضارة مستقلة مطلقا ، ولكن عندما
 استوطنتها جماعات - كالاوربيين المحدثين - وعرفت كيف تستجيب
 استجابة ناجحة لتحدي البيئة الطبيعية هناك - نشأت فيها حضارات ،
 لم يتمكن السكان القدامى من انشائها بدافع البيئة الجغرافية وحدها .

ويذهب «توينبى» الى أن الحضارات قد نشأت في بيئات مختلفة ،
 فقد تكون البيئة الطبيعية التي تساعد على قيام الحضارات بيئة رسوبية
 - كما في مصر والسند والعراق - وقد تكون هضبة - كما في موطن
 الحضارة الحثية والمكسيكية - أو قد تكون أرخبيلية - كما في حضارتى
 الاغريق واليابان - وهذا يدل على أن أى نوع من المناخ والطوبوغرافية
 يمكن أن يكون بيئة طبيعية مساعدة للنشوء الحضارى ، عندما يتوفر
 الحافز الاساسى ، ومن ثم فان السبب في نشأة الحضارات متعددة كما
 أنه ليس وحدة مستقلة ، ولكنه علاقة مشتركة .

ثم يعرض «توينبى» لعمليات «التحدى والاستجابة» وأثرها في نشوء
 الحضارات ، حيث يبين أن أصول هذه العلاقة تتجلى في التراث الدينى
 - الميثولوجى ، حيث تتعدد الشواهد على ماكان للتحديات من أثر فعال في
 شتى مناحى الابداع والتكامل ، كما في قصة الحية ، وهناك نوع من
 الحضارات ينشأ نتيجة تحد بشرى يتمثل في تجدى الفئة المسيطرة في
 المدنية المتفجرة للبروليتاريا الداخلية المتخيلة عن تلك الفئة بسبب فشلها ،
 والبروليتاريا الخارجية التي تقمع على حدود المواطن الحضارية ، والتي
 تتحضر لتقويض سيطرتها المتداعية ، وهو تحد قرينه الاستجابة الظاهرة

المؤدية الى نشأة حضارة جديدة عن الحضارة الزائلة ، وهناك حضارات عليها أن تتغلب — الى جانب التحدى البشرى — على عقبات في المواطن الجغرافية الجديدة التى تستوطنها ، والتى لم تكن من قبل موطناً للحضارة الزائلة ، وهناك حضارات كان عليها أن تتحدى البيئة الطبيعية — كما فى حوض النهر الاصفر — ومن هذا النوع الحضارة المصرية ، حيث استجابت جماعات — بعد انتهاء عصر الجليد — لتحدى البيئة الطبيعية برحيلها الى وادى النيل ، حيث النهر العظيم والدلتا الخصيبة والمناخ الملائم ، وتغلبت عليها وسخرتها لاغراضها ، وأنشأت الحضارة المصرية العظيمة ، والامر كذلك الى حد قريب ، فيما يتصل بنشأة الحضارة السومرية .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن لهذه التحديات — البشرية والطبيعية — مدى معين لا يتعداه ، حتى تكون الاستجابة الخلاقة ممكنة . فهى ليست مما يعجز البشر عنه ، ولا مما ينقاد له بسهولة ، ولكنها مما يثير أقصى طاقته على الكفاح ، وأن يفيد من هذا الكفاح ، فالرخاء المفرط فى البيئة غندو الحضارات اللدود ، ولذا ظلت الشراذم البشرية فى «نياز الاند» مثلاً ، بدائية فى حياتها ، كثيرها من المناطق الاستوائية الدافقة بالخيرات الطبيعية ، وفى نفس الوقت كان قسوة العوائق فى البيئة قسوة خارقة انما تشل كذلك النشاط الانسانى ، وتسقط الاجنة الحضارية قبل تكاملها فى بطون الارضين العاقرة التى تحملها مدة ثم تلفظها عاجزة ضعيفة ، ومن ثم فقد ظل سكان بعض المناطق القطبية — كالاسكيمو — والصخراوية — كالبديو — عاجزين عن اللحاق بأدنى المستويات الحضارية . وهكذا يبدو واضحاً أن الدافع الحيوى فى عمليات النشوء الحضارى ، هو الاستجابة الظاهرة لتحدى البيئة المناسبة^(٤٥) .

وعلى أية حال ، فدور النمو فى الحضارات ليس امتداداً طبيعياً

(٤٥) منح خورى : التاريخ الحضارى عند توينبى — بيروت — دار العلم للملايين ١٩٦٠ ص ١١ — ٤٦ ، عماد خليل : المرجع السابق ص ٧٠ — ٧٧ .

ملازما لدور النشوء ، ومن ثم فهناك عدد من المجتمعات نشأت فيها حضارات، بولكتها توقفت عن النمو لمعجز الاقلية فيها عن مغالبة التحديات القاهرة في بيئاتها الطبيعية الصارمة — كمناطق الاسكيمو والبدو — أو البشرية — كالحيط البشرى للمجتمعين العثماني والاسبارطى — كذلك لا يكفى أن تكون الاستجابات ناجحة بذاتها ، وانما يجب أن تستثير تحديات جديدة ، تتبعها استجابات جديدة ناجحة ، وهكذا يتكامل النمو .

ثم يتناول «توينبى» النظريات الشائعة التى تفسر النمو الحضارى، ويقيسه بمقياس ما تحققه الامة المتحضرة من انتصارات على البيئة الخارجية ، وهى انتصارات فى ميادين الفتوحات الجغرافية والصناعات والعلوم التقنية ، ويرى أن هذه النظريات تخطئ بين الاغراض والجواهر وتعتبر التقدم «الكفى» سببا للازدهار ، وهو فى أكثر الاحايين ، ظاهرة سقوط وانحلال ، فالتوسع الجغرافى مثلا ، يحدث عادة فى زمن الفهضات العسكرية فى تاريخ الحضارات ، وهو زمن «الدولة الجامعة» التى تؤسسها الاقلية المسيطرة للمتمويض عن الانتصارات البهائية (٤٦) .

وأما عن سقوط الحضارات وانحلالها ، فان «توينبى» يدحض أهم الآراء التى ترد السقوط الحضارى الى أسباب حتمية خارجة عن قدرة الانسان وارايدته ، ومن ثم فهو ينقضى السقوط على الاسس التالية :-

١ — المبدأ القائل بصيرورة الكون الى الشيخوخة ، وانتهائه الى العدم المحتوم ، ويرى — مع الطبيعيين — أن هذا لن يحدث الا فى الابد السحيق ، ومن ثم فهو يستبعد تأثيره الفعلى على سقوط الحضارات .

٢ — الخضوع للمؤثرات البيولوجية ، ولناموس الكائنات الحية فى

(٤٦) نفس المرجع السابق ص ٧٧ - ٧٨ ، أرنولد توينبى : دراسة فى التاريخ ١١٩/٣ ، وانظر الاصل

A. Toynbee, A Study of History, London, Oxford Univ. Press, 1948.

الولادة والموت ، مروراً بأدوار العصر المختلفة ، والرأى عند توينبى أن المجتمعات ليست كائنات عضوية ، ومن ثم فهي لا تخضع لنواميسها .

٣ - التقيد بقانون التشابه ، أو مبدأ الحركة الدورية في التاريخ، ويرى «توينبى» أن التشابه أو التكرار ظاهرة تتجلى في مجرى الحوادث التاريخية ، ولكن الدولاب الذى يحمل عربة التاريخ ، ويدور على نفسه دورة رتيبة ، لا يستبقى العربة في إطاره الثابت المحدود ، بل يدفعها نحو غايتها الكبرى في حركة تقدمية مستمرة .

٤ - فقدان السيطرة على المحيط الانسانى ، والعجز عن صد الاعتداءات الخارجية على كيان الحضارات ، ويرى «توينبى» أن هذه الظاهرة ليست في الواقع سبباً للسقوط ، ولكنها نتيجة انهيار سابق كان قد حدث في قلب الحضارات نفسها ، ويجد الدليل القاطع على هذا الانتحار الحضارى في تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية .

٥ - النقص في الميادين العلمية والتقنية ، ويرى «توينبى» أن سقوط الحضارات هو العلة ، وأن التأخر في الميادين التقنية هو النتيجة .

على أن الرأى عند «توينبى» أن سقوط الحضارات انما يرجع الى أمور ثلاثة ، أولها : ضعف القوة الخلاقة في الاقلية الموجهة ، وانقلابها الى سلطة تعسفية ، وثانيها : تخلى الاكثرية عن موالاته الاقلية الجديدة المسيطرة ، وكفها عن محاكاتها ، وثالثا : الانشقاق وضياح الوحدة في كيان المجتمع كله (٤٧) .

ومن البدهى أن نظرية «أرنولد توينبى» في تفسير التاريخ لم تسلم من نقد كثير من الباحثين ، وأشهرهم «بقرم سوروكين» و«بيتر جيل» (٤٨) .

(٤٧) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٨١ - ٨٣ ، منح خورى : المرجع السابق ٤٠/٤ .

(٤٨) انظر : P. Geyl, Toynbee and Sorokin, The Pattern of The Past, (Beacon Press) 1949, P: 107-126.

وكذا : منح خورى : التاريخ الحضارى عند توينبى ص ١٠٧ - ١١٢ .

فأما «سوروكن» فالرأى عنده أن النظرية متهافئة في مبدأين أساسيين، أولهما : اعتبار الحضارة وحدة معقولة للدراسة التاريخية ، وثانيهما : اعتبار الادوار الحضارية من النشوء الى النمو ثم السقوط ثم الانحلال أساسيا لفلسفته التاريخية •

ويذهب «سوروكن» الى أن «توينبى» لايعنى بالحضارة مجرد مجال للدراسة التاريخية ، وانما يعنى نظاما موحدا أو كيانا كليا مرتبطة أجزاءه بعضها ببعض الآخر ، ارتباطا سببيا بحيث تستتبع التغير في الجزء الواحد تغيرا في الكل ، وبالعكس ، فان الحضارات — كما يقول توينبى — هي كيانات كلية بجميع أجزائها ملتحمة بعضها ببعض الآخر، وجميعها مؤثرة بعضها في البعض الآخر ، ومن خصائص هذه الحضارات في دور النشوء أن تكون جميع نشاطات حياتها الاجتماعية ، ومظاهرها المختلفة منسقة في كيان اجتماعي واحد ، كيان تنسجم فيه العناصر الاقتصادية والسياسية والثقافية بعضها مع البعض الآخر في حياة الجسم الاجتماعي النامي^(٤٩) •

ويرى «سوروكن» أنه لو صح افتراض «توينبى» أن الحضارات كيانات حقيقية،لاستلزم التغير في أحد مقوماتها تغيرا في مجموع المقومات الأخرى ، ومن ثم فان حضارات «توينبى» ليست كيانات حقيقية ببديل ما يذكره هو نفسه ، من أن الظواهر الاقتصادية والتقنية كثيرا ما تتغير في الحضارة الواحدة وتبقى الظواهر الأخرى ثابتة ، أو أن العكس هو الذي يحدث أحيانا ، أو أن الظواهر الاقتصادية في حالات أخرى تتغير في اتجاه ، بينما تتغير العناصر الباقية في اتجاه مقابل ، بل ان توينبى انما يذهب الى أن العنصر الديني أو الفني أو السياسي كثيرا ما يبدو مستقلا عن غيره من العناصر في ذلك الكل الحضاري ، ومن ثم فان «توينبى» — فيما يرى سوروكن — انما يقوض بنفسه أساس نظريته

(٤٩) أرنولد توينبى : دراسة في التاريخ ٣/٣٨٠ •

القبائل : بأن الحضارات وحيدة حقيقية ملتزمة الأجزاء بعضها مع البعض الآخر .

ثم يذهب «سوروكن» الى عدم وجود الوحدة الحضارية ، حتى في ذلك الانسان الواحد ، فضلا عن وجودها في مجالات ثقافية ، كالحضارة الهلينية أو الصينية ، وأن ما يسميه «توينبى» وحدة حضارية ، إنما هو مجال ثقافي توجد فيه معا عناصر عديدة من الانظمة والتكتلات «الاجتماعية - الثقافية» ، الكبيرة والصغيرة ، منسجمة في جانب منها ، ومتجاورة أو متباينة في الجانب الآخر .

ومن ثم فإن مبدأ الادوار الحضارية في التفسير التوينبى إنما يصبح فاسدا من أساسه ، فيما ليس في أصله بنية حية كاملة ، لا يمكن أن يولد وينمو ويموت ، وبالتالي لا يصح اعتبار التفسير التوينبى نظرية في التطور الحضارى ، بقدر ما هي نظرات تقييمية لاعراض التقدم أو التأخر الحضارى .

ثم ينتهى «سوروكن» الى أن هناك أخطاء أخرى في مبدأ توينبى (الوحدة الحضارية - الادوار الحضارية) منها (أولا) أن تقسيم توينبى الحضارات الى دنيا وعليا ، والى مجهضة ومتوقفة ومتحجرة ، تقسيم اعتباطى لا يعتد به ومنها (ثانيا) تفاوت مدد الادوار المختلفة التى تمر بها الحضارات يصبح هو الآخر تفاوتاً مصطنعاً لا تقره حقيقة الظواهر التاريخية ، ولقد ظلت عملية الحياة الحضارية نفسها : متى وكيف نشأت سرا مغلقا ، كان على «توينبى» أن يعنى به قبل أن يعنى بدراسة أعراض المرض والانحلال والموت ، ومنها (ثالثا) أن اعتبار «توينبى» دور النشوء الحضارى فترة سلام دائم ، لا يؤيده واقع الاحداث التاريخية ، وهو مردود بأكثر من شاهد ، فضلا عن أن أدوار الانحلال في عدد من الحضارات ، كانت في أحوال كثيرة ، أعمر بالسلام من أدوار النشوء والازدهار . ومنها (رابعا) أن ما يستند «توينبى» الى الحضارات - بتأثير فلسفة «اشبلنجر» على تفسيره للتاريخ - من الخصائص

الغالبية المميّزة (جمالية عند الاغريق ، دينية عند اليهود ، آلية تقنية عند الغربيين) يدحضه كذلك الواقع التاريخي ، فقد كانت الحضارة الغربية متميزة بطابع ديني ، ولم تكن آلية تقنية على الاطلاق ، وكانت الحضارة الاسلامية — من القرن الثامن الى الثالث عشر الميلادي — متميزة بطابع علمي ، لا تدانيها فيه الحضارة الغربية ، ومن ثم فإن ما يسميه «توينبي» خصائص مميزة لطابع الحضارات ، ليس في الواقع سوى أحوال حضارية متبدلة تتناوبها الحضارات المختلفة ، وليست وقفا على واحدة منها دون الأخرى ، ومنها (خامسا) ينتزع «توينبي» أغلب شواهد من تاريخ الدول القومية ، مع أنه لا يعترف بها كوحدات للدراسة التاريخية ، وكان عليه أن ينتزعها من تاريخ الحضارات ، لو صح وجودها كوحدات مستقلة ، ففي عمله هذا أذن تناقض صريح^(٥٠).

بقيت الإشارة الى أن «أرنولد توينبي» — رغم كل هذا — فإنه يقترب بنا خطوات واسعة صوب الرؤية الصحيحة ، والنظرة الأكثر انفتاحا ، عندما يضع على ساحة الصراع والحركة ، طرفي المسألة،وهما: البيئة والانسان والجماعة ، ويعطى للجانب الآخر اختياره وحرية في تقرير المصير .

وأما «جورج غلهم فردريك هيغل» (G. W. F. Hegel) (١٧٧٠ — ١٨٣١م) فيقصر الصراع على نطاق الأفكار ، ويورده الى ميثيئة العقل الكلي الذي يعمل من خلال العالم نفسه ، لا من واقع فوقى ، كما قد يتوهم البعض ، فيقربه خطأ من التصور الدينى ، وهو بهذا يجرد الانسان والجماعة البشرية من اختيارها الصر ، ودورها الارادى فى حركة التاريخ ، والماديون يفعلون الشيء نفسه ، ولكن على مستوى المادة التى يجد الانسان والجماعة البشرية أنفسهم حيالها غير قادرين

(٥٠) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٨٩ — ٩٢ ، أرنولد توينبي : المرجع السابق ص ٣٨٠ .

على تغيير منطقها الجدلي الصارم الذي يمضى لغايته خوفاً لاختيار أو تدخل بشرى في علاقته الديالكتيكية^(٥١) .

غير أن أياً من رواد المذاهب التفسيرية الثلاثة للتاريخ (المادية والمادية والحضارية) لم يأتوا بجديد في أهم معطياتهم على الإطلاق ، وهو التأكيد على أن محور المفاعلية الحضارية ، وأس الاسس في الحركة التاريخية ، هو الصراع أو الجدل (الديالكتيك) أو تصالور النقيض المتقابلة .

وأما الموقف الاسلامي — مستمداً من كتاب الله — فبمجرد أن نرجع الى واقعة خلق آدم ، سنلتقى بقوله تعالى «واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين»^(٥٢) ، فالصراع اذن من أول لحظة ، لأن ذلك هو جوهر الحياة البشرية وتميزها عن سائر الحيوان الأدنى أو الأرقى^(٥٣) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك تفسيرين للتاريخ يرتبطان — الى حد كبير — بالقرآن الكريم ، هما : التفسير الأخلاقي والتفسير الاسلامي ، وأن كان للثاني أشد ارتباطاً بالقرآن من الاول .

(٧) التفسير الاخلاقي :

لعل من الجدير بالاشارة هنا أن اصطلاح «حكم التاريخ» ، هو لفظ كثير التداول على الألسنة ، خاصة عندما تختل الموازين ، ويكثر الجدل

(٥١) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٥٢) سورة البقرة : آية ٣٤ - ٣٦ .

(٥٣) انظر عن أنواع الصراع ، كما جاء في القرآن الكريم : الانبياء :

آية ٣٥ طه : آية ١٢٣ - ١٢٤ ، العنكبوت : آية ٢٤ - ٣ ، ص : آية ٢٤ ، البروج :

آية ١٠ ، وانظر : عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٢٣٣ - ٢٥١ .

حول تقويم شخصية تاريخية ، فان لم ينل فرد جليل القدر ، عظيم الشأن قدره بين الناس ، بل ربما انقلبوا عليه ، وطاردوه ، مع صواب آرائه ، حتى مات شريدا طريدا ، وربما قتيلا شهيدا ، فان عزاء الناس بعد موته ، حين تتبين حكمته ، وسداد آرائه ، قيل : ان التاريخ قد حكم له ، والعكس صحيح ، فاذا ما أحاطت بالشخص بطول زائفة ، اصطنمها لنفسه ، وروجتها له حاشية من الاتباع ، وجماهير من الغوغاء حتى تأسف القلة الرائدة من اضطراب الاحكام ، وانقلاب الموازين ، فان العزاء أيضا في «حكم التاريخ» الذي سيحكم عليه بما هو أهل له . على أن هناك تناقضا في مقولة «حكم التاريخ» هذه ، ذلك أن مفهوم التاريخ انما له دلالة الى الماضي ، بينما ينطوى القول بحكم التاريخ على المستقبل ، فحكم التاريخ فينا ، أى حكم الاجيال القادمة علينا ، فكيف هو يتعلق بالماضى ، بينما تتعلق أحكامه بالمستقبل ؟ وهنا قد يقال ، ولكن التاريخ لا يحكم علينا ، الا بعد أن نصبح جزءا من الماضى ، ومن ثم ندخل في مجال موضوعه ، ولكن هل يصدر التاريخ أحكاما على من اصطلاح على تسميتهم : أنهم دخلوا التاريخ ، وهنا يذهب الباحثون الى مذهبين مختلفين .

الاول : يعارض أصحابه ادانة الشخصيات التاريخية ، مادام صاحبها قد مات وهو على كرسى الحكم - وهذا هو الاغلب - فانه لم يحاكم في حياته ، فان كان طاغية فان أحدا من المؤرخين من مواطنيه ، لا يجرؤ على نقد أفعاله ، وقد جرب «كروتشه» صاحب هذا الاتجاه ذلك على أيام «موسولينى» (١٨٨٣ - ١٩٤٥م) (٥٤) .

والثانى : أن الحكم على من أصبحوا في ذمة التاريخ ، لاسيما اذا ما مر على وفاتهم زمن طويل ، أكثر موضوعية من الحكم عليهم في حياتهم والعكس صحيح أن قرب العهد بوفاتهم ، إذ أن مرجل الأحداث مازال

(٥٤) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٩٠ - ٩١ ، وكذا

B. Croce, History of Liberty, p. 47.

يفلى ، فلا تتضح الرؤية السياسية ، فضلا عن أن ضحاياها مايزالون على قيد الحياة ، وبالتالي فهم يؤثرون عاطفيا على حكم المؤرخ ، بخلاف من أصبح هو وضحاياها في ذمة التاريخ ، مثل شيرلمان أو نابليون^(٥٥) .

وعلى أية حال ، فإن حكم التاريخ لا يتعلق بالمسيرة الشخصية ، مادامت لا تتعلق بأعمال الشخصية التاريخية العامة ، وعلى العكس فإن كثيرا من مؤسسى الدول — كما لاحظ ابن خلدون بحق — تكون حياتهم الشخصية على درجة كبيرة من الاستقامة لأن شدة الصراع لا تدعهم في حالة من الدعة ، حتى ينغمسوا في الترف والملذات ، مع أن حياتهم العامة انما تتطوى على شيء كثير من الظلم وسفك الدماء ، حتى يقرس المهابة في قلوب الرعية ، على نحو ما ادعى مؤسس الدولة العباسية السفاح (١٣٢ — ١٣٦هـ) والمنصور^(٥٦) (١٣٦ — ١٥٨هـ = ٧٥٤ — ٧٧٥م) .

ولعل سائلا يتساءل : لماذا يحجم المؤرخون عن إصدار أحكام أخلاقية ، ولماذا اتهم «كروتش» من يفعل ذلك منهم بأنه تجرد من الحاسة التاريخية ؟

ولعل الاجابة تكمن في نقاط ، منها (أولا) أن كثيرا من المؤرخين انما يذهبون الى أن التقويم الاخلاقي خروج عن الموضوعية، لان مهمة المؤرخ — فيما يرى رائكه — تصوير الواقع ، كما كان صورة مطابقة بقدر الامكان ، فالوصف التاريخي صورة تقريرية ، بينما الاحكام التاريخية تقديرية ، ومن ثم فاذا كان التاريخ علما ، فان من خصائص العلم التجرد عن الاهواء الذاتية ، وأن انتماء الذات والموضوع الى مقولة واحدة (هى الانسان) في التاريخ ، لا يعنى التهاون في الموضوعية بومنها (ثانيا) أن الانسان يميل الى تشخيص ما هو عام بومن ثم فاذا ما اعتبرنا الزعيم أو الحاكم حصيلة مجتمعه ، وكانت الكوارث نتيجة خطأ شعب بأكمله ، فإن المؤرخ لن يجد سوى شخص الحاكم أو الزعيم يحمل له

55. E. Carr, What is History, Penguin, 1961, p. 78.

(٥٦) - أحمد محمود صبحي : المرجع السابق ص ٩٦ - ٩٧ .

مسئولية هذه الشرور ، وعلى سبيل المثال ، فشرور الحرب العالمية الثانية ، والكوارث التي حاقّت بألمانيا ، قد أُلقيت تبعيتها على «أدولف هتلر» (١٨٨٩ - ١٩٤٥م) ، بينما قد شارك في خلق العسكرية الألمانية والنزعة العنصرية كثير من العلماء والمفكرين والفلاسفة الألمان .

ومنها (ثالثا) أن الاحكام التاريخية قد تتعوق المؤرخ عن أن يتعمق في فهم الشخصيات - موضوع دراسته - فضلا عن أن في ذلك اضعاف تصورات الحاضر وتقييماته على الماضي ، ذلك لأن التقويم انما ينطوى على معايير نسبية ، تختلف من عصر الى آخر ، بل من مجتمع الى آخر ، ومن ثم يتعذر حكم التاريخ موضوعيا أو محايدا ، الأمر الذي دفع كثيرا من المؤرخين أن ينصبوا أنفسهم قضاة لمحاكمة الشخصيات التاريخية ، بدعوى الحياد من جهة ، واستقلال التاريخ عن الاخلاق من جهة أخرى وقد ذهب «هيجل» الى أن معنى الدولة خارج عن نطاق التقييم الاخلاقي العادي للأفراد ، وهذا ينطوى على اعتبار شخصيات التاريخ السياسية والعسكرية فوق مستوى القيم الاخلاقية .

على أن هذه الاعتبارات - مع وجاهتها الى حد ما - لا تعنى أبدا أن تصبح الحراسة التاريخية لا طعم لها ، أو أن يصبح المؤرخ بليد الجس ، والا فلا قيمة للدراسات التاريخية ، وانما أريد لهذه الاعتبارات أن تضع على حكم المؤرخ قيودا تكون بمثابة قانون أو تشريع يلتزم به القاضي ، فليس من حقه أن يجحد عنه بومعنى آخر ، أن يتساءل المؤرخ قبل أن يصدر حكمه : هل لزم عن هذه الشرور انجازات حضارية أفادت الإنسانية عامة ، ووطن الزعيم خاصة ؟ وهل لم يجد هذا الزعيم بديلا عن الطرق التي سلكها حتى يجنب وطنه ما وقع بسببه من ويلات الحروب والمظالم والاعتقال والتعذيب ؟ وهل أسرف في سفك الدماء والتخريب والهدم دون مبرر ، وفي ضوء مثل هذه التساؤلات ، لا يجد المؤرخ حرجا في أن يدين أمثال نيرون (٣٧ - ٦٨م) وجنكيزخان (١١٦٧ - ١٢٢٧م) من الساسة والقواد الذين لم تتطو أعمالهم على أية قيمة حضارية ، بل على العكس هدم لكل حضارة ، بل ليس من حرج على

المؤرخ أن يحاكم أولئك الذين تسببت رغباتهم في كوارث لأوطانهم ،
ما كانت هذه لتقع لولا مجرد شهوة التسلط والحكم ، وما أكثرهم في
عصور التاريخ المختلفة •

على أن هناك وجها آخر للنظر ، يذهب أصحابه الى أن المؤرخين
حين يتجاهلون التقويم الاخلاقي انما يفرضون هذا الحياء على الدراسات
التاريخية ، بينما لم يفترضه الاشخاص - موضوع الدراسة - ليس
لان أعمالهم منافية للاخلاق فحسب ، بل لانهم أيضا انما يتلمسون
مبررات أخلاقية لتبرير شروهم ، والواقع أن قليلا أو كثيرا من كتب
التاريخ ، انما كتبت تمجيذا للفرد - سواء أكان ذلك عن رغبة أو رهبة -
كما أن تطويع الماضي لمقتضيات الحاضر - أى النزعة المثالية التى تريد
أن تجعل التاريخ عصريا - أفليس من واجب المؤرخ أن يعيد الحق الى
نصابه ، باعادة تقويم الشخصيات التاريخية ، ومن ثم اصدار الاحكام
الاخلاقية ، حتى يظل لفظ «حكم التاريخ» ، كما تتصوره الاذهان ، سلطة
مهابة تتجاوز حدود الزمان والمكان هى سر هيبة التاريخ ، وقد استه (٥٧) •

وهنا نلحظ من الاهمية بمكان الإشارة الى أن هناك نوعين من حكم
التاريخ ، الواحد : أخلاقى ، والثانى : غير أخلاقى •

وأما الاخلاقى فيمثلته العرض التاريخى لقصص القرآن الكريم ،
والذى يهدف الى أمرين : الحق والموعظة كما تحددهما الآية الكريمة
«وجاءك في هذا الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين» (٥٨) ، بل ربما تكاد
الموعظة أن تكون فى المحل الاول من الاعتبار ، «لقد كان فى قصصهم
عبرة لأولئى الالجب ما كان حديثا يفترى» (٥٩) ، وهكذا استبدل القرآن
مقولاتى الزمان والمكان فى قصص التوراة (العهد القديم) مقولة الموعظة
أو الذكرى أو الهدى ، وكان لابد أن يتخذ القرآن طابعا أخلاقيا حتى

(٥٧) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٩٢ - ٩٥ •

(٥٨) سورة هود : آية ١٢٠ •

(٥٩) سورة يوسف : آية ١١٢ •

نبتين فيه الموعظة ومن ثم فقد قصص للتوراة من كثير مما جاء فيها من كباثر منسوبة الى الانبياء ، وأبرزهم في صورة تليق بهم ، لانهم الاسوة الحسنة للناس جميعا .

والواقع أن من يقرأ ما كتب عن الانبياء في توراة يهود المتداوله اليوم ، ليصاب بالغثيان ، والا فكيف يتصور عاقل ما ترويه التوراة من أن ابراهيم عليه السلام قد هاجر بزوجه «ساره» الى مصر ، يطلب فيها الشبع والرى من بلاد كنعان التي ضربها القحط والجفاف ، وعندما أشرف على تخوم مصر ، اتفق معها أن تقول : انها أخته ، وليست زوجته لان المصريين ان علموا أنها زوجته قتلوه ، وأما ان كانت أخته ، فمن أجلها أكرموه (٦٠) .

وسرعان ما يحدث ما توقعه أبو الانبياء ، عليه السلام ، فبرت ساره بوعدھا ، وأخذت الى نيت الملك وثال ابراهيم خيرا بسببھا ، اذ أسبغ عليه فرعون بسبب ساره وأقر نعمه من غنم وبقر واثن وحمير وجمال وائمة ، غير أن المصائب مرعان ما توالى على ملك مصر وقومه ، مما اضطره الى أن يستدعى ابراهيم ويؤنبيه على فعلته هذه ، ثم أمر بطرده هو وزوجه ، وان سمح له بأن يأخذ ما كان قد أعطاه من قبل (٦١) .

وهكذا كان ابراهيم المجاهد بنفسه وولده وماله ، والذي حطم الأصنام ، وتجدى الجبابرة الطغاة ، وألقى به في النار ، فأنجاه الله في كفاح طويل ، وجهاد موصول ، كان للناس اماما ، وعلى مدارجه أو من نسبه درج الانبياء (٦٢) ، ابراهيم العظيم هذا لم تراه توراقيهود — وليست توراة موسى — الا رجلا لا هم له سوى الغنم والبقر والاثن والجمال

(٦٠) التوراة : سفر التكوين ١٢/١٠ - ١٣ .

(٦١) تكوين ١٢/١٤ - ٢٠ .

(٦٢) انظر : سورة التوبة : آية ١١٤ ، النحل : آية ١٢٠ - ١٢٢ ، مريم :

آية ٤١ - ٤٨ ، الانبياء : آية ٥١ - ٧٣ ، العنكبوت : آية ١٦ - ٢٧ ، الصفات :

آية ٨٣ - ٩٩ ، الممتحنة : آية ٤ .

والاماء والعبيد ، متخذاً من الوسائل أخطأ ، ومن الطرق أحقرها ، فحاشا
ابراهيم العظيم أن يكون سفيها ، وحاشا لسارة أن تكون بغيا (٦٣) .

ومن ثم فإن القرآن الكريم انما يحرص على أن يقدم لنا ابراهيم
عليه السلام ، على أنه كان وحده أمة من الامم ، جامعا لكل الفضائل
النبيلة ، يقول تعالى «ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من
المشركين ، شاكرا لانعمه ، اجتباها وهداه الى صراط مستقيم ، وأكثناه
في الدنيا حسنة ، وأنه في الآخرة لمن الصالحين» (٦٤) ، ومن هنا كان
ابراهيم في القرآن الاسوة الحسنة للمؤمنين جميعا «لقد كان لكم أسوة
حسنة في ابراهيم والذين معه» (٦٥) .

وينظر القرآن الى ابراهيم — عليه الصلاة والسلام — على أنه أبو
الانبياء فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الانبياء — بعد ابراهيم —
فمن ذريته وشيعته (٦٦) ، وهذه مرتبة لابراهيم لا يعلو عليها أية رتبة ،
ذلك أن الله تعالى انما أخرج من صلبه أنبياء بررة ، حملوا الراية ،
وتوارثوا المشعل ، فكان منهم : اسماعيل واسحاق ويعقوب ، وكان يحيى
والميسع وزكريا والياس ، وكان داود وسليمان ويوسف وهارون ، وكان
موسى وعيسى ومحمد — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين (٦٧) ، بل
ان القرآن انما يقول لسيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ «ثم أوحينا
اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا» (٦٨) ، ويقول «ومن يرغب عن ملة
ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وأنه في الآخرة
لمن الصالحين» (٦٩) ، وابراهيم — في نظر القرآن — أحد أولى المعزم

(٦٣) انظر : محمد بيومي مهران : لبرائيل — الجزء الثالث —
الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٦٧ — ١٨٢ .

(٦٤) سورة النحل : آية ١٢٠ — ١٢٢ .

(٦٥) سورة الممتحنة : آية ٤ .

(٦٦) ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ١/١٦٧ (بيروت ١٩٦٥) .

(٦٧) سورة الانعام : آية ٨٣ — ٨٧ .

(٦٨) سورة النحل : آية ١٢٣ .

(٦٩) سورة البقرة : آية ١٣٠ .

الخمس: محمد وإبراهيم ونوح وموسى وعيسى (٤٧) - وهو - في نظر المسلمين - أفضل الأنبياء والمرسلين - بعد سيدنا محمد - وليس أدل على هذه الأفضلية من أن المسلمين يصلون على إبراهيم وآله ويباركونهم ، كما يصلون على نبيهم محمد وآله ويباركونهم ، كما علمهم نبيهم ﷺ (٤٨) .

ويدهى أن ما يقال عن إبراهيم في القرآن ، يقلل من غيره من الأنبياء والمرسلين ، تلك الصفوة المختارة من عباد ، بصفوا بهم ربهم هداية رسلهم ، واختارهم - سبحانه وتعالى - مبشرين ومنذرين لصلفهم من خلقه ، وصدق الله العظيم حيث يقول «الله أعلم حيث يجعل رسالته» (٧٣) ، ومن ثم فقد أوجب لهم العصمة الكاملة ، لتصح بهم القدوة ، ويقوم بهم الحجة ، فلا يكون من أجدهم عمل ينال من كرامته ، أو يقدح في عدالته ، أو يحط من منزلته العلية بين ذوى المروءة والعقول الواجبة ، وذلك بمكس ما جاء عنهم في القصة (٧٣) .

هذا وقد حدد الثعالبي الحكمة من قصص القرآن ، وما ذكره عن أخبار الأنبياء والأمم السابقة ، فقال : قالت الحكماء ان الله تعالى قص على المصطفى ﷺ أخبار الماضين من الأنبياء والأمم الخالية لخمسة أمور ، أى حكم ، الحكمة الاولى : أنه اظهر لنبوته ﷺ ودلالة على رسالته ، والثانية ليكون له أسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل والأنبياء المتقدمين ، والثالثة : تثبيتا واعلاما بشرفه وشرف أمته وعلو أقدارهم ، والرابعة : تأديبا وتهذيبا لامته ، والخامسة : إحياء لذكرى الأنبياء

(٧٠) سورة الاحزاب : آية ٧ ، الشورى : آية ١٣ .

(٧١) صحيح مسلم بشرح النووي ٤٧/٢ - ٥٠ .

(٧٢) سورة الانعام : آية ١٢٤ .

(٧٣) انظر عن لوط (تكوين ٣٠/٦٩ - ٤٨) واصحاق (تكوين ٣١/١ - ١١) ويعقوب (تكوين ٣٠/٢٧ - ٣٦) وموسى (تثنية ٢٥/٤ - ٢٨ ، ٣٨/٢٢ - ٥٢ ، عدد ١/٢١ - ١٨) وهارون (خروج ٢/٢ - ٦ ، عدد ١/١٢ - ١٥) ودأود (صموئيل ثان ٢/١١ - ٢٧ ، ٢/٢٢ - ٤٥) وسليمان (ملوك اول ٤٢/٥٣ - ٥٣ ، ٥/٢ - ٤٦) ، وانظر : محمد بيومى مهران :

امرائيل ١٦٢/٣ - ٢١٨) .

والمصالحين وآثارهم ، ليكون المصنف منهم في إبقاء فكره ، مثبتاً له
تعميل جزاء في الدنيا ، حتى يبقى ذكره وآثاره المصنفة إلى قيام
الساعة (٧٤) .

ولا ريب في أن المؤرخين المسلمين إنما قد تأثروا في كتابتهم بالهدف
الأساسي الذي حدده القرآن - أي العبرة والموعظة - وهكذا فما من
مؤرخ إلا وقدم لكتابه بتحديد هدف التاريخ ، وهو العبرة ، يقبل
المسعودي (ت ٨٤٥/٩٥٦ م) : أنه علم يستمتع به الجاهل والعالم ،
ومكارم الأخلاق ومعاليها منه تتقبس ، وآداب سياسة الملوك وغيرها
منه تتلمس (٧٥) ، ويقول ابن خلدون : أعلم أن فن التاريخ فن عزيز
المذهب ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في
آخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياساتهم ، حتى
تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا (٧٦) ، ويقول
المقرئزي (٧٦ - ٨٤٥) في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط
والآثار» : ومنفعته (أي التاريخ) أن يشرف المرء في وقت قصير على
ما كان ... من الحوادث والتغيرات في الأزمنة المتطولة والأعوام
الكثيرة ، فتتهذب بتدبير ذلك نفسه ، وترتاض أخلاقه ، فيحب الخير
وينفقه ، ويكره الشر ويجتنبه (٧٧) .

وهكذا تحدد مفهوم التاريخ عند المؤرخين المسلمين في أمرين ، الواحد
أن أحداث التاريخ - بصرف النظر عن الارتباط بينها - إنما تكشف عن
معنى أو مغزى ، أنها للمظة والاعتبار ، والثاني : أن يكون لتاريخ هدف
آخر ، خارج عن نطاق هذا العالم - أي هدف أخروي - ولما كان من

-
- (٧٤) الثعالبي : قصص الأنبياء - المسمى عرائس المجالس - القاهرة
ط : الطبعة ١٩٧٦ ص ٢ - ٣ .
(٧٥) علي بن الحسين المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر
- الجزء الأول - بيروت ١٩٧٣ .
(٧٦) عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون - بيروت - دار
القلم - ١٩٨١ ص ٩ .
(٧٧) المقرئزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

المتعذر أن يستخلص الهدف الأخلاقي من سير معظم الملوك والحكام ، كان لابد أن يتسع مفهوم التاريخ ، ليشمل أصحاب السيرة الحسنة من الانبياء والعلماء والحكماء ، ومن ثم فقد كانت «كتب الطبقات» ، ومن ثم فقد كان هؤلاء أيضا محور لتاريخ ، وليس أشخاص الحكام والقواد أو أخبار السياسة والحرب ، فخصم (٧٨) .

على أن المؤرخين المسلمين لم ينفردوا بهذا المضمون الخلقى للتاريخ ومن ثم فقد رأينا «مارتن لوتر» (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) - زعيم الإصلاح البروتستانتي - يقول عن التاريخ : انه يرينا أنفسنا على حقيقتها ، وكأننا ننظر في مرآة تتعكس عليها خلجاتنا ، وأنه لابد من الافادة به في سلوكنا ، واتخاذ معيارا نحكم به على أعمال الافراد على اختلاقم ، حتى يكون حكمنا عليهم أقرب الى العدالة ، ويقول أيضا : ان دراسة التاريخ ترينا كيف تحسن خاتمة المتمسكين بالفضيلة والتقوى ، وكيف يسوء مصير من يسلمون أنفسهم للشيطان ، ويبدو أن رأيه هذا ، انما كان انعكاسا لايمانه الديني ، ومن ثم فهو يقول : ان المادّة التاريخية قاجرة على أن تهدينا الى آيات الله البينات ، وتبصرنا بكل ما يبهنا من أعمال هذا الكون الفسيع (٧٩) ، وفي العصر الحديث يذهب «لورد أكتون» في رسالته الى «كريتون» الى نفس المعنى ، حيث يقول : ان القانون الخلقى هو سر سلطة التاريخ وهيبته وفائدته ، وأن التاريخ يجب أن يكون حكما بين المتخاصمين ، ودليلا للحائرين (٨٠) .

وأما الاتجاه الثاني غير الأخلاقي - فهو الاتجاه «المكيافيلي» والذي ينادي بأن الغاية تبرر الوسيلة ، وهو مبدأ نادى به «نيقولا مكيافيلي» (N. Machiavelli) (١٤٦٧ - ١٥٢٧م) في كتابه «الامير» ، وخلصته : طلاق تام لا رجعة فيه بين السياسة والاخلاق ، بعد أن كان «أرسطو»

(٧٨) أحمد محمود صبحي : المرجع السابق ص ١٠٥ .
(٧٩) حكمت أبو زيد : التاريخ وتعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر - القاهرة - مكتبة الأنجلو - ١٩٦١ ص ١٧ .
80. E. H. Carr, What is History, (Penguin, 1961), p. 77.

(٣٨٤ - ٣٧٢ ق.م) قد عقد زواجا بينهما ، ولازال الطلاق قائما بين السياسة والاخلاق لسوء حظ الانسانية ، ولما كان التاريخ - تاريخ أفراد - يتبع السياسة كظلمها ، فقد انعكس ذلك على اتجاه خطير في التاريخ لا يتخذ موقف الحياد الاخلاقي فحسب ، بل يتبنى موقفا لا أخلاقيا ، اذ يمجّد كل عمل لا أخلاقي مادامت الغاية تبرر الوسيلة ، ومن ثم فان منطق الدولة (Raison d'Etat) يقتضى المحافظة عليها بأى ثمن ، وأية وسيلة ، ان تأسس دولة من القانون والنظام انما يكون بوسائل غير قانونية ، وان الحاكم من أجل الاحتفاظ بالسلطة في الدولة مضطر أن يتصرف بدون رحمة ، وبغير اخلاص ، وأن يتجرد من الانسانية بل حتى من تعاليم الدين ، فكل شيء مشروع بالنسبة لأخلاق الدولة ، لأن كسب السلطة أو الاحتفاظ به هو الهدف ، كما أن الطلاق قائم بين الاخلاق والسياسة ، لان فلاسفة الاخلاق يخلقون في دنيا الاحلام ، بينما السياسة تستند الى قوى الواقع والحقائق الملموسة .

هذا وقد عبر «ماينكه» - أشهر مؤرخى الالمان المعاصرين - بعبارة «القوة للدولة كالفداء للانسان» ، كما تهكم من المؤرخين الذين يريدون تقويم التاريخ وفقا لقيم اخلاقية ، انهم كرهبان العصور الوسطى يتحدثون عن الوقائع السياسية بلغة منبرية ، وان مظهرهم ليبدو كمن يسير في الطريق في عصرنا مرتديا زيا من العصور القديمة ، انه نشاز من الماضي يعيش في الحاضر ، ثم يقول : لا توجد صداقات دائمة وانما هناك مصالح دائمة ، أنا مع وطني دائما ، على الصق كان أم على الباطل (٨١) .

على أن «ميكافيلي» لا يعد وحده مسئولا عن الاتجاه اللا أخلاقي للدولة ، وانما قد مكن لهذا الاتجاه أن هناك - سواء في السياسة أو الحرب - فلاسفة ألمان على رأسهم «جورج فلهلم فردريك هيجل»

(٨١) أحمد محمود صبحي : المرجع السابق ص ٩٩ - ١٠٠ ، وكذا Friedrich Meinecke, Machiavellism, in Politics and History, Transl. by Douglas Scott, 1975.

(١٧٧٠ - ١٨٣١م) ، الذى فصل بين أخلاق الدولة وأخلاق الفرد ، ثم أوجد لأخلاق الدولة مبرراتها من فلسفته للتاريخ .

ثم جاء مواطنه «فردريك فلهلم نيتشه» (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) فمزق تلك العلاقة الرقيقة من القيم الخلقية التى كان أبطال التاريخ مايزالون متقنعين خلفها ، ومع أن «نيتشه» إنما يعنى فى فلسفته بالفرد ، وليس بالدولة ، فإن الإنسان الأعلى ، كما رسم صورته ، لابد أن يكون مستنذا إلى منطق القوة ، فليس فى الحياة شيء ذو قيمة إلا بالقوة ، ثم أعلن صراحة أدانته لما أسماه «أخلاق العبيد» لأنها تهدف إلى سيطرة المنحطين من البشر وقيمتهم ، ولا غرض إلا إخضاع السادة لهم بما يعلنونه من مبادئ الشفقة والاحسان والمساواة والحرية ، وليست هذه سوى أكاذيب كبرى فى وجه طبيعة الأشياء التى تقتضى سيادة القوة .

ثم يمجّد «نيتشه» ذلك الإنسان الأعلى ، والذى تصدر جميع أفعاله عن إرادة القوة ، فلا يرى فى الحياة إلا إرادة الاستيلاء على الآخرين وهضم حقوقهم ، واغترابهم أملاكهم ، أن الحياة لديه عنصر انقضاء وعدم وإيذاء ، وأن هذا الإنسان الأعلى إنما يلخص حيوية عصره وقوته ، ولو كان ذلك على حساب الآخرين من الأغلبية الساحقة كما لخص «فابليون» تاريخ أوروبا فى الفترة (١٧٨٩ - ١٨١٥م) فتجسدت آمال عصره فى شخصه ، وكان بذلك أمثلجا من اللانسان والإنسان الأعلى .

هذا وبقدر صراحة «نيتشه» هذه وجراته فى هدم القيم الخلقية السائدة ، كان جريئا فى التعبير عن مآل الدولة التى تصل إلى هذا الحال من هدم القيم وعدم الاكتراث بؤس الجماهير ، وازدواء أخلاقهم ، وتمجيد الحرب ، وتقديس البطل الذى تجرد من الأخلاق (٨٣) .

(٨٢) عبد الرحمن بدوى : نيتشه - ط الثالثة ١٩٥٦ ص ١١٩ ، ١٦٤ ، أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ١٠٠ - ١٠١ ، وكذلك B. Russel, Op. Cit., p. 790-800.

ان القرآن الكريم لا يقدم قصصه وصوره ومشاهداته لمجرد ترف ذهني ، أو إشباع حاجة المؤمن الى القصص والصور والمشاهدات ، ولا لتزجية «أكاديمية» فيه تسمى الى تتبع ما جفت فعلا بأكبر قدر من الامانة ، ودون اكتراث للمعلولات الكبرى لهذا الحزب حدث وإشاراته الاخلاقية ، لنما يجيء القرآن بمعطياته التاريخية تلك من أجل أن يحرك الانسلن صوب الاهداف التي رسمها الاسلام^(٨٣) ، ويبيده - في الوقت ذاته ، فردا وجماعة - عن المزالق والمخوجات التي أودت بمئات من الامم والشعوب ، هذا فضلا عن ابراز للفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والاسلامية (بمعوم معنى الاسلام) ، فالحركة - لا مجرد الاستقصاء الأكاديمي ، أو السرد اللغوي ، الذي هو مجرد أسلوب أو وعاء لغوي - أبدا هدف العروض التاريخية للقرآن الكريم ، كما أنها - في الوقت نفسه - هدف «الايديولوجيات» المعاصرة التي سبرت - بدرجة أو أخرى - أغوار التاريخ البشري ، وقدمت برامجها ومخططاتها وفق التعاليم التي تمخضت عن تلك الرحلات الطويلة في ميادين التاريخ^(٨٤) ، قلل تعالى «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى

(٨٣) الاسلام في لغة القرآن ، ليس اسما لدين خاص ، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الانبياء ، أو انتسب اليه كل اتباع الانبياء ، ومن ثم فهو دين الاولين والآخرين ، وهو الطاعة والامتثال لله تعالى ، ويقول ابن تيمية : الاسلام : هو أن يستسلم الانسان لله لا لمغيره ، فيعبد الله ولا يشرك به شيئا ، ويتوكل عليه وحده ، ويرجوه ويخافه وحده ، ويحب الله المحبة التامة ، ولا يحب مخلوقا كحبه الله ، ويوالى الله ، ويعادي الله ، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلما ومن يعبد مع الله غيره لم يكن مسلما (ابن تيمية : كتاب النبوآت ص ٨٧ ، محمد الراوي : الدعوى الاسلامية دعوة عالمية ص ٥١ ، محمد بيومي مهران : اسرائيل ١٢٩/٣ - ١٨٠) .

(٨٤) عملة الدين خليل : التفسير الاسلامي للتاريخ - بيروت ، دار العلم للملايين - ١٩٨٣ ص ٨ .

وموعظة للمتقين ، ولا تنهوا ولا تحصنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين» (٨٥) .

وهكذا نستطيع أن نعرف من قصة قوم «مدين» (٨٧) أن مجتمع مدين — (٨٦) زيادة على ماكانت تسوده من وثنية — كان مجتمعا جثما يستغل المال على حساب قوت الناس ومعيشتهم بتتقيص الكيل والميزان عند البيع ويخس الناس أشياءهم عند الشراء، كما كانوا مفسدين في الارض يقطعون الطريق على الناس ، ويفتنون بالمؤمنين في دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله ، فقد روي عن ابن عباس — حبر الامة وترجمان القرآن — أنهم كانوا يجلسون في الطريق ، فيقولون عن نبيهم : ان شميا كذاب فلا يفتنكم عن دينكم ، ورغم تكرار النصيح لهم من نبيهم ، فقد تمادوا في الشرك والظلم والفساد ، فكانت عاقبتهم ذلك الزلزال الذي دمرهم ، ودمر كل ما جمعوا وشيدوا .

وهكذا لكل قصة (٨٨) في القرآن الكريم أبعاد ، ففى قصة مدين يعرف الناس كيف تتصل المعاملات بالعقيدة ، وكيف يتدخل الدين في الاقتصاد ، فيربط بين الايمان بالله ، والسلوك الشخصى في الحياة ، والمعاملات المادية في الاسواق ، وكيف تمر الاشياء بمراحل تحول نتيجة لظروف معينة ، ولكن ما يترتب عليها من نتائج الخير أو الشر، لا يتغير باختلاف الزمان والاشكال ، فلئن وقع بالأمس ظلم للانسان باستعباده وجعله سلعة تباع وتشترى في أسواق النخاسة ، فانما يقبض اليوم

(٨٥) سورة آل عمران : آية ١٢٧ - ١٢٩ .

(٨٦) سورة هود : آية ٨٣ - ٩٥ .

(٨٧) انظر : عن قصة مدين ، ونيهم شعيب عليه السلام (محمّد

بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الرياض - جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - ١٩٨٠ ص ٢٨٩ - ٣٠٧ .

(٨٨) ان اشتراك كلمة التاريخ وكلمة القصة في اصل واحد في اللغة

الانجليزية History - Story يدل على أن القصة هي عصب التاريخ

(١) ل. راوس : التاريخ - ترجمة عبد الدين حنفى ناصف - للقاهرة

١٩٦٨ ص ٤٤ - ٤٥) .

باضطهاده وحرمانه من حرياته الفردية والاجتماعية (٨٩) .

ومن ثم فمن هذه الاحداث تتفاعل وتتشابه فيها الظروف والاسباب والنتائج ، نستخلص سنن الله في اليم ، وهي التي تقودنا الى معرفة قواعد العمران ، وأصول الاجتماع ، على أساس أن نفس الاسباب إنما تؤدي الى نفس النتائج ، اذا تحققت نفس الظروف ، يقبل «رينيه ديكارت» (١٧٧٩ - ١٨٢٠م) : أن فكرة السببية فكرة فطرها الله في نفوسنا ، فمحال أن تكون خاطئة ، وإن فطريتها دليل على صحتها (٩٠) .

وفي هذا ، وفي أكثر من موضوع ، يؤكد لنا القرآن الكريم ان سنن الله في التواريخ ثابتة ماضية ازاء الجماعات البشرية التي تتكبد عن الطريق - بغض النظر عن حجم هذه الجماعة ، وعن مدى دورها الحضارى ومقدار منجزاتها المادية والادبية في مقاييس الكم ، ومعايير المساحة والاحجام - فدائما يكمن وراء هذه المعايير والمساحات، المقياس الحقيقى ، والمؤثر النهائى اللذان نستطيع بالتمعن فيهما ، أن نحكم على مسيرة الجماعة وعلى مصيرها السعيد أو المفجع ، ذلك لان وراء العطاء والتعامل الحضارى شيئا أكبر وأخطر وأشد تأثيرا على المصير ، انه نفسية الامة - أفرادا وجماعات - وأخلاقيتها ونظرتها الشاملة الى الحياة ، وطبيعة علاقاتها الانسانية ، والمواقف التي تتخذها بمواجهة الله تعالى والعالم (٩١) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن احدى الملامح الرئيسية التي تميز التفسير الاسلامى للتاريخ عن سائر التفاسير أنه يفرد للبعد الخيبي - ماضيا وحاضرا ومستقبلا - مساحات واسعة، ويجعله أحد الشروط

(٨٩) التهامى نقرة : ميكولوجية القصة في القرآن - تونس ١٩٧٤ ص ١٨٤ - ١٨٩ ، محمد البهى : الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم بيروت ١٩٧١ ص ١١ .
(٩٠) نفس المرجع السابق ص ١٨٩ ، محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٨١ - ٨٢ .
(٩١) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١١٤ .

الاساسية للإيمان — بل أهمها على الإطلاق — اذ بدونها لن تتحقق أية تجربة إيمانية ، إيمان بالله الذي لا تدركه الابصار ، وبعملية خلقه الدائمة التي تمتد عن أحاطة الإنسان — ذي المناقذ الحسية المحدودة ، والفقرات العقلية النسبية — وبوحيه الذي ينقل للبشرية تعاليم السماء عن طريق أنبياء الله ورسله ، ومعطيات هذا اللوحى البعدية ، من إيمان بالبعث والمصاب والجزاء ، ومن ثم كان أى تردد أزاء اليقينيّات الغيبية التي يطرحها القرآن ، أو التي تتبثق من أعماق المبداهات الفطرية ، إنما هو رفض للقاعدة التي لا يقوم بدونها إيمان (٩٢) .

ومن ثم قلنا نلتقى في أول سورة البقرة بهذه البديهيّة ، والتي تتوالى بعد ذلك فيما يزيد على الخمسين موضعا ، يقول الله تعالى « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة وما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، وبالأخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » (٩٣) .

ومن ثم ، فإن لنا — على مستوى الحركة التاريخية — أن نتصور مدى المساحة التي يشغلها الغيب في صياغة الاحداث وتوجيهها ، ابتداء من خلق الاشياء والاحداث بقوة الكلمة « كن » والتي لا ندري بمقاييسنا النسبية المحدودة كنهها وأبعادها ، وانتهاء بمصائرنا اليومية — الفردية والجماعية — والتي يفتتح عليها الموت الذي يجيء على حين غفلة . متخطيا أى تحديد مسبق ، متجديا أية قدرة طبيعية على صدده عن أداء مهمته ، وبين هذا وذلك كل أحداث التاريخ ووقائعه التي أخذت هذا الاتجاه أو ذلك ، واكتسبت هذه النشأة أو تلك ، والتي لم يكن للإنسان أو الطبيعة فيها سوى استمرار — حر أو مقدر — لما يدور في ساحة الغيب ، وفق مقاييس الحق والمعدل الأبديين (٩٤) .

(٩٢) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٧٢

(٩٣) سورة البقرة : آية ١ - ٥

(٩٤) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٣٢ - ٢٧٣

هذا وليست الاحداث التاريخية في القصص القرآني متمسكة بالحلقات في السرد ، ذلك لان التاريخ فيه لم يقصص لخلقها ، وإنما لاستخلاص العبرة منه ، والتفكير في العلاقات السلبية بين مقدمات الاحداث ونتائجها وفق السنن الالهية التي يصلها بالانسان ما في كيانه من نوازع الخير والشر ، ومن ثم فقد أخضع القرآن في قصصه وقائع التاريخ الى حقائق دينية ، ووضع الدين في سجل الاحداث الكونية ، الى جانب قوانينها الطبيعية أو الاجتماعية ، فليس في مجرى هذه الاحداث ما يحدث بمحض الصدفة ، أو بتأثير الظروف المادية وحدها ، وعلى المتأمل أن يبحث ليصل الى معرفة بعض السنن التي تسير الارادة الالهية في الثواب والعقاب ، والبقاء والفناء ، فما الظروف المادية الا وسائل تنفيذ ، وما الصدفة الا محض افتراض ، فهناك ظواهر تخضع لقوانين تصدق دائما بحيث يمكن التنبؤ بحدوثها ، متى تحققت شروط وجودها (٩٥) .

ويكاد العلماء يجمعون على أن فكرة الاستثناء أو المصدفة وليدة الجهل بالقوانين ، فلا يلجأ المرء الى تفسير وقبوع بعض الحوادث بالصدفة ، الا عندما يتبين له جهله وعجزه عن تفسير ما يجري (٩٦) .

وهكذا فان القرآن الكريم لم يربط بين الدين وأحداث التاريخ في الافراد والمجتمعات ، الا لتقرير أن تلك الاحداث — وان ارتبطت بقوانين أخرى غير دينية — انما ترجع كلها الى السبب الاول ، أو العلة الاولى للوجود ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ذلك لان ادخال قدرته وهيبته في تصريفها وتدبيرها ، لا يعنى الغاء البحث عن العلة والاسباب التي يعنى بها علم الطبيعة أو علم الاجتماع ، بل ان القرآن انما يدعو الى الاستقراء في البحث ، لمعرفة الظواهر المختلفة التي تنتمى الى نتائج

(٩٥) التهامي نفرة : المرجع السابق ص ١٧٦ .

(٩٦) محمود قاسم : المنطق التحليلي ومفاهيم البحث — القاهرة

١٩٦٨ ص ٦١٠ .

معينة تفسر سنن الله تعالى في الخلق والتدبير ، وليس القرآن بحاجة الى مبادئ تخالف القوانين التجريبية .

ومن ثم ، فلا تعارض اذن بين الفكر العلمى والفكر الدينى ، كما يزعم «أوجست كونت» (١٧٩٨ - ١٨٥٧م) ، الذى يرى استحالة التوفيق بين الطريقة الوضعية (Methode Positive) وهو التى يبحث فيها عن طبيعة الظاهرة وسببها المباشر ، وما تخضع له من قوانين اكتشفتها العلوم الرياضية والطبيعية ، وبين الطريقة الميتافيزيقية (Methode Metaphisique) ، وهى التى تفهم بها الظاهرة على أنها من تأثير قوة مريدة ، بصرف النظر عن طبيعتها وسببها المباشر ، وما تخضع له من قوانين (٩٧) .

واذا كان «كونت» يرى فى الجمع بين الطريقتين تناقضا ، فذلك لان الروح اللاهوتية عند النصارى هى التى كانت تسيطر على التاريخ، وعلى مجرى الاحداث ، فتطبع جميع الاراء بطابع علم اللاهوت ، ومن ذلك مثلا ، أن ملك فرنسا «لويس الحادى عشر» (١٤٢٣ - ١٤٨٣م) انما كان ينفق جل ماله لينال حماية العذراء ، وأبرار الفردوس ، مقتنعا بما يرويه له أحد المؤرخين : أنهم يتدخلون فى أعمال الانسان دائما ، وهم القادرون على ضمان الانتصارات (٩٨) .

وأما فى القرآن الكريم ، فانا نجد فيما ثرويه قصصه من أحداث التاريخ ، ما يفيد بأن سنن الحياة مخلوقة لله ، «سنة الله فى الذين خلو من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا» (٩٩) ، «وخلق كل شيء فقدره تقديرا» (١٠٠) ، فلا منافاة اذن بين البحث عن هذه السنن أو القوانين ،

-
- (٩٧) على عبد الواحد وافي : ابن حلدون منشئ علم الاجتماع ص ١٣١ - ١٣٤ .
 (٩٨) جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ - ترجمة عادل زعيتر ص ٥١ - ٥٧ .
 (٩٩) سورة الاحزاب : آية ٣٨ .
 (١٠٠) سورة الفرقان : آية ٢ .

وبين الاعتقاد بخالقها ، ولا بين الاعتقاد باقتران المقدمات بالنتائج ، أو ترتيبها عليها ، والايمان بالله ، باعتباره خالقا للمقدمة السابقة والنتيجة اللاحقة ، وما بينهما من ارتباط ، ومن ثم فلم يحدث أي تناقض في الفكر الاسلامي بين مبدأ السببية أو القانون العلمي من جهة ، والايمان بأن الله هو المصرف للأمور ، طبقا لما نعلمه من سنن ، أو ما لا نعلمه من جهة أخرى ، وموقع المعجزة من التفكير السليم أنها شيء لا يخالف العقول ولكنه يخالف المألوف والمتواتر والمحسوس ، فتعذيب بعض الاقوام السابقين بالصاعقة أو الزلزال أو الريح ، لا يمنع أن يكون كل نوع من أنواع هذا العذاب الذي صبه الله عليهم ، قد حصل بتوافر أسبابه الطبيعية المألوفة ، كارسال السحب التي تنزل منها الصواعق القاتلة بسبب احتكاك طبقاتها ، غير أن ذلك لم يكن نتيجة نهائية لما يتولد عن التفاعل القسري للمادة التي لا تبصر ولا تعى ، لأن السبب أو الناموس لا يملك وحده قدرة الانطلاق والتوافق التي يقع بها ألف حادث على نسق واحد ، بل لابد له من القدرة التي يتابع بها هذا التسبب مرة مرة وحادثا حادثا^(١٠١) ، قال تعالى «ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء»^(١٠٢) .

وهكذا ، فهذه السفن جزء من المخطط الالهي ، فهي مخلوقة له ، وليست بعبلا عنه ، خلافا لمزاعم القائلين بأن اكتشاف القوانين العلمية قد ألغى من الايمان بالله تعالى ، ولما يزعم «ماركس» وغيره من الماديين من أن المادة هي أصل الوجود ، وكل ما عداها انعكاس لها ، ومن ثم ، فتفسير التاريخ - في نظر الماركسية - إنما يقوم أساسا على هذا العالم المحسوس ، وعلى الايمان بحتمية التاريخ ، وهي : أن كل خطوة تؤدي حتما إلى الخطوة الموالية بطريقة حتمية ، وبالتالي فإن المجتمع يتبع عجلة التاريخ ، ولكن لا يوجهها .

هذا وقد أنكر العالم الالمانى «هيزنبرج» (Heisenberg) فكرة الحتمية

(١٠١) عباس حمود العقاد : الفلسفة القرآنية ص ١٧ - ١٨ .

(١٠٢) سورة الرعد : آية ١٣ .

فأثّر الشكوك القوية من حولها ، مقررًا : أن التجارب الطبيعية لا تشابه على الإطلاق ، ولا تأتى تجربة منها وفقا للآخرى تمام الموافقة ، حتى وإن اتحدت الآلات والظروف ، يسمى مذهب هذا باسم «اللاحتمية» (١٠٣) .

وأما تفسير التاريخ من خلال القصص القرآنى ، فينبىء على أن الحاضر إنما نتيجة الماضى ، وأن المستقبل متوقف على الحاضر ، يقول تعالى «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال» (١٠٤) ، ويتضح هذا المبدأ شعور فردى وجماعى بملكوته الله فى الأرض ، وإيمان بأن الله قد سن نظاما يساغ واقع البشر فى أطاره .

ولعل من الاهمية بمكان أن هذا النظام الالهى لا يتمتع مبدأ الحرية والاختيار ، ولا يفلق الباب على الايمان بما وراء الحسن ، فهو يناقض «الحتمية» (Determinism) التى يقول بها الماركسيون ، كما يناقض «الجبزية» (Fatalism) التى يقول بها الجبريون ، ذلك لان القائلين بالحتمية إنما يؤمنون بالنظم الالوية وحدها ، ولا يؤمنون بإرادة الهية قد تتعرض لتلك النظم بالتبديل والتحويل عند الاقتضاء ، وللقائلون بالجبزية يفسرون أحداث التاريخ وحركات الوجود بالإرادة الالهية وحدها ، وينكرون إرادة الانسان المثبت لشخصه ، المؤمن بوجوده ايمانه بوجود خالقه ، فكل أعماله وتصرفاته هى لله ، وليست له ، وإن نسبت لله ظاهرا ، وقد يكون هذا الاعتقاد سبيلا الى التواكل ، وخزيمة للمنى .

والحقيقة أن الله تعالى ، وإن أوجر الانسان حرا ، قادرا فريدا ، فإنه يريد أن ينبهه الى أنه ما يزال فى حضرة وجوده ، ومرتبطة به ،

(١٠٣) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ص ١٣٨ - ١٣٩ ،
 التهامى نقرة : المرجع السابق ص ١٧٦ - ١٨٠ .
 (١٠٤) سورة الرعد : آية ١١ .

وداخلا في نطاق الملك الالهي ، رغم حريته وقدرته وإرادته (١٠٥) .

وهكذا فالتفسير التاريخي في القرآن إنما ينبثق عن رؤية الله سبحانه وتعالى ، وهي تختلف عن الرؤية الوضعية في أنها تحيط علما بوقائع التاريخ ، بأبعادها الزمنية الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل ، وينعدها الرابع الذي يغيب كثيرا عن ذهن الانسان ، مهما كان على درجة من اللماحية والبصيرة والذكاء ، البعد الذي يغور في أعماق النفس البشرية ، فيلامس فطرة الانسان وتركيبه الذاتي ، والحركة الدائمة في كيانه الباطني ، وينسرب بعيدا صوب اهتزازاته العقلية والعاطفية والوجدانية ، وإرادته المسبقة ، وما تؤول اليه هذه جميعا من معطيات تمنح حركة أبعادها الحقيقية ، ويمتد كذلك لكي يشترك في العلاقات الشاملة للمصير ، ذلك أنها رؤية الذات الالهية التي وسعت كل شيء علما ، والتي صنعت الواقعة التاريخية ووضعتها في مكانها المرسوم من خارطة التاريخ البشري والكوني ، سواء بسواء .

ومن ثم فإن التفسير القرآني للتاريخ ليس أبدا مجرد مسلمات معدية تسعي الى تقوّل حوادث التاريخ القبلية في إطارها المعتسف ، وإنما هي مذهب ينبثق وفق أسلوب موضوعي «عما حدث فعلا» ، وليس «عما يجب أن يكون» ، وعن طبيعة التصميم التاريخي للبشرية ، فهو إذن تبلور للخطوط الاساسية لحركة التاريخ ، يصوغها القرآن الكريم في مبادئ عامة يسميها «سننا» ، ويعتمدها المفسرون المسلمون انطلاقا — لا لتزييف التاريخ — وإنما لتفسيره وفهمه وإدراك عناصر حركته ومضائ وقائعه ، ومسالكها المعقدة المتشعبة ، ومن ثم فهو إذن : تفسير شامل محيط ، يعطي أصدق صورة للسنن التي تسير هذا التاريخ ، وبما أن هذه السنن من صنعه تعالى — إرادة وعلم ومصير — فإن هذا الموقف القرآني من حركة التاريخ وتفسيره يأخذ صفة الكمال (١٠٦) .

(١٠٥) التهامي نفرة : المرجع السابق ص ١٨٠ - ٢٨١ ، وانظر :

دى بوار : تاريخ الفلسفة في الاسلام - ترجمة أبو ريدة - القاهرة ١٩٥٧ ص ٣٨ ، محمد متولى الشعراوى - القضاء والقدر - القاهرة ١٩٨٩ .

(١٠٦) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٣ .

ومن هنا ، فعلى دارس قصص القرآن ، ألا يقتصر على معرفة الوقائع ، وإنما عليه أن يعرف أسبابها ونتائجها ، وسننها ، ليتعمق في فهم الحكمة التي يسير بها هذا الوجود وفق نواميس هي من صنع الله ، وهو على أكمل نظام ، وأتقن ترتيب ، ذلك لأن القرآن الكريم لم يقتصر على عرض لوحات مجردة لماضي الإنسانية في صراع قوى الخير والشر ، وإنما كان يهدف إلى بعث المثال من التاريخ ، لاثارة الانفعالات الموحية بالهداية والايمان ، واستغلال الاحداث التاريخية في التربية ومعالجة النزعات النفسية في الانسان ، وأمراض المجتمع الذي يعيش فيه بما لتلك الاحداث من قوة مفروضة على النفس ، تحدث فيها انصهارا ووعيا ويقظة احساس ، ومن هنا كان القصص التاريخي أشد تأثيرا وأسمى طموحا من التاريخ ، لأنه يمد الانسان بسلاح الايمان والثبات ويعرفه بما لله من نواميس قارة في نظام المخلوق والابداع ، ومن سنن مطردة في نظام الاقوام والامم ، سنن خاضعة لارادة الله ، وليست مقيدة لها ، تتصل فيها الاسباب بالمسيبات ، فلا تتغير أو تتحول محابة لأحد من الناس ، لأنها محور عدل الله وحكمته في تدبير الامور (١٠٧) ، وصدق الله العظيم ، حيث يقول : «لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الالهاب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» (١٠٨) .

ومن أجل هذا يغدو التاريخ في القرآن الكريم وحدة زمنية تمتهاوى الجدران التي تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وتتعانق هذه الازمنة الثلاثة علقا مصيريا ، ثم أن هذا الانتقال السريع بين هذه الازمنة المختلفة ، انما يوضح حرص القرآن على ازالة الحدود التي تفصل بين الزمن باعتباره وحدة حيوية متصلة ، فتغدو حركة التاريخ ، التي يتسع لها الكون ، حركة واحدة تبدأ يوم خلق الله السماوات والأرض وتنتج نحو يوم الحساب (١٠٩) .

(١٠٧) - اللهامى نقرة: المرجع السابق ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(١٠٨) سورة يونسف : آية ١١١ .

(١٠٩) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٤ .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن عناية القرآن بالتاريخ نائما هي أكثر من مجرد عرضه للأحداث الماضية ، فلقد وضع لنا قواعد النقد التاريخي في رواية ما يكون مادة للتاريخ وهي التي تقر أن ثقة الراوي عامل هام في الحكم على الاخبار المنقولة وعلى الرويات ، قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا ان جاعكم فاسق بنبا فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» (١١٠) .

ولاريب في أن تطبيق هذا الاصل على رواية الاحاديث النبوية الشريفة خاصة ، انما كان غصرا هاما في تطور النقد التاريخي ، وكان من عمل المسلمين به أن ألفوا الكتب في تراجم الرواة لتعرف سيرتهم ، ويتبين الصادق والكاذب منهم ، وتعرف الرواية المتصلة والمنقطعة ، وبحوثا في الكتب المؤلفة متى يوثق بنسبتها الى مؤلفيها ؟ وبينوا حقيقة التواتر الذي يفيد اليقين ، والفرق بينهم وبين ما اشتهر من روايات الآحاد ، ولم يقتصر ذلك على علوم الدين ، وانما امتد الى كتب التاريخ والادب ، فلم يضع شيء من العلوم والفنون ، ولا من حوادث التاريخ ووقائعه التي جرت في العالم بعد الاسلام ، وما اختلف الرواة والمصنفون في جزئيات من تاريخ الاسلام وغيره تسهل تصنيفه ، وأخذ المصنف منه لأجل الاعتبار به ، ومعرفة سنن الاجتماع عنه ، جريا على هدى القرآن فيه (١١١) .

ومن هنا فان الثقافة الاسلامية قد أبدعت في تقويم الرجال فنا قائما بذاته ، هو «الجرح والتعديل» فقد كان المسلمون يأخذون الاخبار من أفواه الرجال ، ومما قيده في نسخهم ، ناظرين دائما الى هيئة الرجل وصلابه ، فهم لم يكونوا يفصلون بين علم الفرد وسلوكه ، فالفرد — في نظرهم الصائب — وحدة متكاملة ، يؤثر فيها سلوكه على علمه ، أو العكس ، ولا مناص من بحث حاله بحثا متقنيا ، يتناول أدق

(١١٠) سورة الحجرات : آية ٦ .

(١١١) تفسير المنار ٢/ ٤٦٥ - ٤٦٦ .

تفاصيل حياته الذهنية والسلوكية ليتمكن قبول نقله أو رفضه ، وما نظن أن ثقافة في الأرض قامت على مثل هذا الأساس الفقدي المنهجي الفزيه ففلك شيء تفرد به المسلمون (١١٢) .

- ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه يجب أن ينظر إلى القصص القرآني على أنه منهج تربية ، وأسلوب تعليم وتربية ، وفضضاء للفكر والروح ، ومن كان منظورا إليه ، من خلال الانسان ، باعتبار أن ماتضمنه من دعوة التي الحثيف ، كان دعوة انسانية شاملة ، لا تعرف حدود الاوطان ، ولا تقسم الناس طوائف وألوانا وعناصر ، وإنما تنفذ إلى قلوبهم مباشرة ، حيث يكسبون الانسان الجوهر الذي تتكون منه الانسانية (١١٣) ، ومن ثم فإن المدارس للقصص القرآنية إنما يحرك العون العظيم الذي قامت به في تربية العقيدة وتجهلها وتنميتها ، ذلك لأن الغاية من التربية ليست سوى تكوين الغواطف الصالحة ، غير أن هذه الغواطف لا تصبح أساسا للخلق الكريم ، إلا إذا تحولت إلى اتجاهات يكون يتبعها الدائم هو العقيدة ، مصدر الايمان والأمان والخير ، ومن هنا كان جل القصص القرآني إنما يهدف إلى غرس عقيدة التوحيد ويدعو إلى التصديق بالرسالة المحمدية ، ورسالات الانبياء قبلها ، حتى

(١١٢) عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن - القاهرة ١٩٦٦ ص ٨٢ - ٨٣ ، وانظر عن : الجرح والتعديل : أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٣١٦ - ٣٢٨ محمود أبو زية : أضواء على السنة المحمدية - القاهرة ١٩٦٠ ص ٣٢٦ - ٣٤١ ، محمد الصباح : الحديث النبوي ص ١٤٣ - ١٤٦ ، مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث (بيروت ١٩٧٨) ، النيسابوري : كتاب معرفة علوم الحديث ص ٥٢ - ٥٨ ، الذهبي : ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تحقيق علي البجاوي - القاهرة - ط الحلبي - ١٩٦٣ ، عثمان موافي : منهج النقد التاريخي الاسلامي - الاسكندرية - دار المعرفة الجامعية ١٩٨٤ ص ٩٩ - ١٢٩ ، فرانتز روزنكخال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي - ترجمة أنيس فريحة - بيروت ١٩٦١ ، محب الدين الخطيب وآخرون : دفاع عن الحديث النبوي - القاهرة ١٩٥٨ ، جمال الدين قاسم : قواعد التحديث - دمشق ١٩٢٥ ، الحافظ العراقي - خيل ميزان الاعتدال - جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٠٦ هـ .

(١١٣) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ص ١٤ - ١٥ .

يعتبر المسلمون بالحق وحده ، ويصبروا على الاذى في سبيل اعلاء كلمته (١١٤) .

على أن القرآن الكريم انما يعتمد في عرض الواقعة التاريخية على أكثر من أسلوب ، ومن ثم فقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية ، فحدثنا عن الماضي في جل مساحاته ، لكن ما يلبث أن يخرج بنا الى تبين الحكمة من وراء هذه العروض ، وإلى بلورة عدد من المبادئ الأساسية في حركة التاريخ البشرى مستمدة من صميم التكوين الحدوث لهذه العروض ، تلك المبادئ التي سميناهـا «سننا» ، ودعائنا أكثر من مرة الى تأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا البراهنة ، ونزوعنا المستقبلي ، ومن ثم يتأكد لنا مرة أخرى أن هذه العروض ما جاءت لكي تلقى المتعة في نفوس المؤمنين — كما هو الحال في أى نشاط فنى — قيل أن تبرز الاتجاهات التعليمية الحديثة ، في ميادين الفنون — وإنما جاءت لكي تعلمهم من خلال تجاربهم الماضية ، وتجسروهم عبر الاضواء التي أشعلتها لهم هذه التجارب في طريق الحياة المزمح الطويل (١١٥) .

بل ان بعض آيات القرآن انما تتجاوز الماضي والحاضر ، لكي تمهد رؤيتها الى المستقبل القريب أو البعيد في تنبؤات تاريخية ، يحيطها علم الله تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية ، وقد نفذت بعض هذه التنبؤات في عهد الرسول ﷺ ، وظل بعضها الآخر ينتظر التنفيذ ، اذ لم يحدد له زمن بالذات ومن النوع الاول انتصار الروم على الفرس كما حدثتقا عنه سورة الروم (١١٦) ، وقد شهد العصر المكي نفسه تنفيذ هذه النبوءة ، بعد سنوات قلائل من نزولها ، ومن النوع الثانى فساد بنى اسرائيل في الارض مرتين (١١٧) .

(١١٤) التهامي نقرة : المرجع السابق ص ٥٤٩ - ٥٥٠ .

(١١٥) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٩٧ - ٩٨ .

(١١٦) سورة الروم : آية ١ - ٧ .

(١١٧) سورة الاسراء : آية ٤ - ٨ .

على أن القرآن الكريم — المنبثق عن علم الله الكامل ، ورؤيته المحيطة بمجريات الزمان كله ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا — لم يسرف في نبوءاته التاريخية ، واكتفى منها بما يعد على أصابع اليدين ، لأنه لم يجئ ليكون كتاب تنبؤات ، هذا بينما أسرف عدد من الوضعيين — مثل هيجل وشبنجلر وماركس — في تفسيرهم للتاريخ ، أسرافا خياليا بل أن بعضهم أطلق على نبوءاته سمة العلمية ، الأمر الذي يتعارض أساسا والمنهج التجريبي الذي يرفض الحدس والتخمين ، وتجاوز الوقائع إلى ما وراءها .

هذا وقد أشار القرآن — في الآية ٧٨ من سورة غافر — تعقيبا على موقفه من العروض والاحداث التاريخية ، أنه ما جاء ليكون «بحثا تاريخيا» يستقصى كلغة نشاطات الانبياء ، ويحضتهم عددا وأن ما قدمه كان لادراك الخطوط العريضة لمسيرة التاريخ البشري (١١٨) ، يقول تعالى «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك» (١١٩) .

(١١٨) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٦ .

(١١٩) سورة غافر : آية ٧٨ .

الفصل الثالث

تاريخ الكتابة التاريخية

(١) فكرة التساريخ :

يقول الأستاذ «شول» أنه إلى وقت قريب إنما كان يقتصر التاريخ المؤرخين ، فقد كتب تاريخ لكل ما تحت الشمس ، للأدب والفلسفة والفنون والعلوم ، ولذا استثنيت مؤلفات قليلة ، فإن قصة التاريخ لم تكن قد كتبت بعد (١) .

ولا ريب في أن فكرة التاريخ : يوضعها للجالي : جديدة ، فالعلماء المحدثون إنما يمتنعون أن للتاريخ كفكرة ، أنها يدور حول محور أربعة هي :

الاول : أنه علم كسائر العلوم يجب على أسئلة معينة .

الثاني : أنه يتصل بمجهود الانسان في الماضي .

الثالث : أن طريقته هي تفصيل الوثائق التاريخية .

الرابع : أنه يهدف إلى تعريف الانسان بذاته .

وهذه الفكرة — بأركانها الأربع — لم تكن هي فكرة الثامن من التاريخ في كل العصور ، فقديمها ، وبالفلسفة للسومريين (٢) — على تنبيل المثال — كانت كتابة التاريخ انما تتمك في النقوش الرسمية وشبه الرسمية ، التي يقصد بها احياء ذكرى ملك أو أمير ، أو تمجيد مجهود ، أو الانتصار في الحروب ، وفي العصور الوسطى — وفي حكومة الكنيسة — اصطلاح الناس على أن كل شيء مرده لفضل «القدر» .

(١) انظر :

I. J. Shatwell, Introduction to the History of History .

(٢) انظر عن «السومريين» (محمد بيومي مهران : مصر والشرق

الادنى القديم — الجزء العاشر — تاريخ العراق القديم — الاسكندرية ١٩٩٠ ص ٨٣ — ١١٤) .

ومن البدهى أن هذه الصور من الكتابة التاريخية لا تعطينا تاريخاً حقيقياً ، وإن كانت تقدم لنا صوراً تتصل بالتاريخ في بعض النواحي ، هي في حقيقتها تعبير عن بعض ألوان الفكر ، لا نستطيع أن نسميه «تاريخاً» لأنه يفتقد الطابع العلمي ، فهو لا يحجب على سؤال محدد ، لا يعرفه الكاتب أصلاً ، وإنما هو تسجيل لأمر يعرف الكاتب أنها حقيقة ، ثم إن هذه الأمور ليست في الغالب من عمل الإنسان ، فهي لا تتصل بمجهوده ، وإنما هي من عمل الآلة (الوثنية) ، والإنسان فيها مجرد أداة ، وتبعاً لذلك فإنها تكون تاريخية بالنسبة إلى طريقتها ، لأنها لا تعتمد على وثائق ، فضلاً عن أنها كذلك ليست تاريخية من حيث قيمتها ، لأنها لا تستهدف معرفة الإنسان لذاته ، وإنما تهدف معرفة الإنسان بمعبوداته (٣) .

(١) في الشرق الأدنى القديم :

لأريب في أن كتابة التاريخ بمعناها المعروفة اليوم ، إنما كانت عند سكان الشرق الأدنى القديم نادرة ، وإن كان اكتشاف الكتابة وبدء قياس الزمن ، جعلاً من الممكن الاحتفاظ بوثائق في المعابد ، وهي تحوى حوليات تاريخية ، ومع ذلك سرورغم تقدم الحضارة في مصر والعراق القديم — فإنها لم تخرج ما يستحق أن نسميه تاريخاً ، بالمعنى الحديث المتعارف عليه اليوم ، والملاحظات المسيرة عن حروب الفراعين والقوائم الحاوية لأسماء الملوك التي حفظت لأنها كان ياجتهد جميعاً الرغبة في إكبار شأن الفرعون الحاكم ، وذكر أحداث حياته ، الأمر الذي سوف نناقشه بالتفصيل عند الحديث عن مصادر التاريخ المصري القديم .

وفي بابل ، أخذت الكتابة التاريخية صورة الرسوم المنقوشة على المباني ، كما ظهرت عند الآشوريين وثائق وحوليات ملكية في تسلسل

(٣) محمد عواد حسين : المرجع السابق ص ١٢١ .

حول مغامرات الحكام في الحروب والصيد والقيام ببناء بعض القصور، وان لم يظهر أثر للحاسة التاريخية الناقدة في هذا التسجيل البدائي للتاريخ، وكان الهدف من هذه النقوش تمجيد الحاكم وإعلاء شأنه في نظر الاجيال التالية، وكانت الجقائق التي تترى به وتشبه ذكراهم، تحذف جميعها ولا يشار اليها، وتغلب على تلك الوثائق المبالغة والتهوين والروح الدينية، ونسبة المغانى المشيدة للالهة^(٤).

ولعل أقدم الوثائق التاريخية في العراق القديم انما تلك التي كتبها الكتاب السوميريون، فمثلا قائمة الملوك السومرية - والتي تتحدث عن حدوث طوفان، انما كتبت بالخط المسماري بعد عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد^(٥)، أو في فترة لا تتأخر كثيرا عن منتصف عهد أسرة أور الثالثة (٢١١٣ - ٢٠٠٦ ق.م)، وربما قبيل عهد «أوتوحيجال» من أسرة الوركاء الخامسة (٢١٢٠ - ٢١١٣ ق.م)^(٦)، وان كان يبدو أنها نسخت عن قوائم قديمة، ربما ترجع الى أخريات العهد الأكدي (٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م)، وعلى أية حال، فانها تتضمن معلومات تاريخية ترجع الى بداية العصر التاريخي في العراق القديم، وربما ترجع الى أقدم من ذلك^(٧).

هذا وتبدأ قائمة الملوك السومرية بقولها: «عندما أنزلت الملكية من السماء» أصبحت أريدو مقرا للملكية ثم تذكر خمسة مدن سومانية ملوك حكموا قبل الطوفان والمدن هي: أريدو، وبادتيسيرا (تل المدائن) ولارك (الوركاء) وسيبار وشوروباك. وأن هؤلاء الملوك قد حكموا ٢٤٢٠٠ سنة. وأن آخرهم كان «وبار - توتو» الذي حكم شوروباك لمدة ١٨٦٠٠ سنة،

(٤) على انهم: تاريخ التاريخ - القاهرة - دار المعارف ١٩٧٧ ص

١١ - ١٢.

5. S. L. Woolley, Excavations at Ur, London, 1963, p. 14.

6. CAH, I, Part, 2, p. 998, (Chronological Table of The Sumerian Period),

7. J. Finegan, Light from The Ancient Past ..., Princeton, 1969, p.29. S. L. Woolley, Op. Cit., p. 14.

وكذا

ثم جاء من بعدهم الطوفان الذي أغرق الارض ، وبعد زوال الطوفان هبطت الملكية من السماء ثانية ، وأصبحت «كيش» عهراً للملكية ، ثم تعود القائمة مرة أخرى التي فكر أسماء المدن التي حكمت العراق القديم بعد ذلك ، مثل أور ، ولجب ، وكشاك ، ومارى .

هذا ورغم الارقام الاسطورية التي تقدمها قائمة الملوك السومرية كفترة لحكم ملوكها ، حتى بات من الصعب علينا أن نعرف منها : متى انتهى العصر الاسطوري ، ومتى بدأ العصر التاريخي ؟ رغم ذلك ، فالوثيقة ، جونما ريب ، انما تحصل بين طياتها كثير من المعلومات التاريخية الصحيحة ، كما اننا نتحدث بوضوح عن طوفان يفصل بين فترتي حكم ، الواحدة سابقة له ، والاخرى تالية له ، تبدأ بنزول الملكية مرة ثانية من السماء التي «كيش» ثم الوركاء ثم أور ، ومن ثم فهي تعتبر حادث الطوفان الخطير بمثابة كسر في عملية استمرار تاريخ العراق القديم ، ومن ثم فهو حد فاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخي (٨) .

وأما البابليون ، فهناك ما يشير الى أنهم قد جمعوا قوائم كثيرة بأسماء الملوك ، وان كانت وثائق البابليين - وكذا الاشوريين - التاريخية ، لم تتجاوز في الغالب أَسَاطير الملوك ، وتسجيل الحملات الحربية ، والاماديح الموجهة الى العوائل ، والملايسات التاريخية والاجتماعية التي مهدت لظهور هذا اللون من ألوان التاريخ المل غير الشائق ، لم تسمح بازدهار لون آخر من ألوان التاريخ ارقى مستوى

(٨) انظر : محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٦٥ - ٦٦ ،

J. Finegan, Op. Cit., p. 29-30.

وكذا : A. L. Oppenheim, ANET, P. 265-267.

S. N. Kramer, The Sumerians, 1970, p. 328-9.

T. Jacobsen, The Sumerian King List, in Assyrian Studies, 11: 1939.

S. L. Woolley, Op. Cit., p. 249-253.

G. A. Barton, The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad London, 1929, pp. 346 F.

والأكثر أصالة ، وازدهار فن كتابة التاريخ كان يستلزم جواراً من الضرورية تنمو فيه الملكات ، وتنقيح المواهب ، ولا يقتصر فيه التاريخ على إخبار قلة من الملوك وأعيان الدولة وتداول بعض الأحداث العامة ، وحفظها عن الأسجاف التي مهدت لموقعها ، ولا اكتفاء بالخبير طبقة خاصة شليلة العدد ، مرسوبة السلطة ، وقد كان الملوك - في نظر أنفسهم ، وفي نظر رعاياهم - كلمة تمشي على الأرض (٩) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه كان هناك في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، وأبان حكم السلوقيين ، وعلى أيام الملك «أنتيوخس الأول» (٢٨٠ - ٢٦١ ق م) على وجه التحديد، أحد كهنة المعبود «مردوك» البابلي يدعى «بيروسوس» (Berossos) قد كتب تاريخ العراق القديم منذ أول الخليقة والطوفان ، وحتى عهد الإسكندر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق م) باللغة اليونانية في ثلاثة أجزاء ، ومن أسف أن كتابات «بيروسوس» - شأنها في ذلك شأن كتابات المؤرخ المصري «مانيتو» (٣٢٣ - ٢٤٥ ق م) - والتي تقدم وجهة النظر القومية عن تاريخ العراق القديم ، لم تصل إلينا كاملة ، وكل ما وصلنا منها مقتطفات حفظها لنا المؤرخون المتأخرون من الاغارقة (١٠) .

(٢) كتابة التاريخ عند اليهود :

يقول «بارنز» : أن شرف أخراج أول يهود تاريخي حق متسع المجال ويجظى بنسبة عالية من الدقة إنما يعزى إلى يهود فلسطين القديمة (١١) ويعكس «بارنز» ذلك بأن الرخاء العظيم الذي استمتع به اليهود ، فضلاً عن المكانة التي ظفروا بها على أيام «طالوت» (شاول ١٠٢٠ - ١٠٠٠ ق م) وداود عليه السلام (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق م) وسليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق م) - أي على أيام المملكة المتحدة - من البواعث

(٩) على إدهم : المرجع السابق ص ١٢ - ١٤ .
(١٠) المنعم بيومي مهران : تاريخ العراق القديم - الاسكندرية ١٩٩٠
ص ٧٦ - ٧٧ .
11. H. E. Barnes, A. History of Historical Writing. p. 19.

الحافزة على كتابة التاريخ ، وأقدم محاولاتهم للكتابة التاريخية عهداً ، إنما هي المحاولة التي قام بها كتاب مجهولون بكتابة أصول الإسفار الخمسة الأولى من التوراة (التكوين والخروج والعدد والثانية واللاويون) ، فضلاً عن أسفار : يشوع وضمثيل الأول والثاني والملوك الأول والثاني (١٣) ، وطبقاً لرواية «جيمس هنري برستد» (١٨٦٥ - ١٩٣٥م) فإن هذه الأسفار إنما هي أقدم ما نملك من الكتابات التاريخية عند أى قوم من الاقوام ، ومؤلفها المجهول هو أقدم مؤرخ وجدناه في العالم القديم (١٣) .

ومن البدهى أن هذه الكتابات إنما هي جزء من توراة يهود ، والتوراة على أية حال - كلمة عبرية تعنى الهداية والارشاد ، ويقصد بها الأسفار الخمسة الأولى ، والتي تنسب الى موسى عليه السلام ، وهي جزء من العهد القديم ، والتي يطلق عليها تجاوزاً اسم «التوراة» (Torah) من باب اطلاق الجزء على الكل ، أو لاهمية التوراة ، ونسبتها الى موسى عليه السلام .

والتوراة - أو العهد القديم ، تميزاً لها عن العهد الجديد ، كتاب المسيحيين المقدس - هو كتاب اليهود الذي يضم ، الى جانب تاريخهم عقائدهم وشرائعهم ، ويقسمه أحبار اليهود في فلسطين الى أقسام ثلاثة (١٤) : ١ - الناموس (التوراة أو الشريعة) ويشمل الأسفار الخمسة الأولى ، والتي اعتبرت أسفار قانونية منذ حوالي عام ٤٤٠ ق.م ، وقد أطلق عليها منذ القرن الثاني الميلادي لفظ «المبنتوك» (Pentateuch) (١٥) .

(١٢) انظر عن كتابة أسفار التوراة (محمد بيومي مهران - إسرائيل - الجزء الثالث - الحضارة - الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٨ - ١٣٤) .

13. H. E. Barnes, Op. Cit., p. 22.

(١٤) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٣ - ٤ . وكذا

M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 1109.

J. Epstein, Judaism, (Penguin Books), 1970, p. 23.

15. M. E. Unger, Op. Cit., p. 841.

J. E. Steinmuller, Comparison to Scripture Studies, II, 1942.

٢ - الانبياء : (نبئيم Nebim) ، وتشمل الانبياء المتقدمون والمتأخرون والصغار .

٣ - الكتابات (كتوبيم Kathubim) ، وهي الزمائم والامثال ونشيد الانشاد وراعيوت والجامعة وأستير ودانيال وعزرا ونحميا وأخبار الأيام الاول والثاني (١٦) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أنه منذ أن عاد اليهود من السبي البابلي في عام ٥٣٨ ق.م ، وإعادة العبادة في هيكل أورشليم بعد إعادة بنائه في مارس ٥١٥ ق.م ، في أيام «زربابل» و «نحميا» و «عزرا» ، بدأ اليهود يعتبرون الاسفار الخمسة الاولى (الپنتاتوك) - وهي أسس الدين اليهودي - وكأنها هي من عمل موسى عليه السلام ، غير أن هذا لا يعنى أكثر من قولنا : ان «نابليون» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) هو واضع أسس القانون الفرنسى ، ذلك لان «عزرا» قد عرف بين بنى اسرائيل بأنه جامع الكتابات والتراث الموسوى بعد خراب مملكة يهوذا (١٧) .

ثم جاءت المسيحية - بعد ذلك بأربعة قرون - ونظرت الى التوراة نظرة تقديس (١٨) ، ولم يكن أمر الاسفار الخمسة وأصولها ذا خطر خلال القرون الاولى للمسيحية ، فمثلا «سان جيروم» (٣٤٥ - ٤٢٠م) يشير الى أنها من عمل موسى عليه السلام ، وأن عزرا نظمها ، وقد نشأت فكرة كتابتها بيد المشرع الاكبر للعبرانيين زمنا طويلا ، ولم يكن ذلك ثمرة بحث تاريخى ، وانما نتيجة عقيدة عامة لا أساس لها . وقد ثبت في الاذهان أن الاسفار التى تحمل أسماء أصحابها - من بعد

(١٦) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣ - ٤ ، حبيب سعيد : المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٧٩ - ١٨٠ ، محمد بحر : الكنز فى قواعد اللغة العبرية - القاهرة ١٩٢٦ ص ١٢٨ - ١٣١ .
(١٧) انجيب ميخائيل : سورية ص ٢٢٤ ، عزرا ١٠/٩ - ١١ .
(١٨) متى ١٧/٥ - ١٨ ، لوقا ٢١/٥ .

الاسفار الخمسة — هي من عملهم ، فسفر يشوع من عمل يشوع مثلاً ، وسفر عزرا من عمل عزرا ٥٥٠ وهكذا (١٩) .

ومع ذلك فقد بدأت المحاولات النقدية الأولى للتوراة ، ربما بسبب ترجمتها إلى اليونانية (الترجمة السبعينية = Septuaginta) (٢٠) وكان القديس «أوريجين» — الفيلسوف المصري المسيحي — (٢٥٤ — ٣٠٤ م) من رواد هذا الميدان ، كما يبدو ذلك واضحاً في ال «هكسبلا» (Hexapla) حيث تناول نص التوراة — نقداً ودرسا — ولما تجنب نقد العقيدة ، واكتفى بحراسة النص ، لادراك المعنى الحقيقي للكلمة الالهية الحقيقية فالنقد هنا إنما يتصرف غالباً إلى الاسفار ، وللحكم عليها من حيث مكانتها (٢١) ، وعلى أية حال ، فإن نقد «أوريجين» لم يتمدد تطبيق المبادئ اللغوية التي كانت معروفة وقت ذاك في مدرسة الإسكندرية ، ووضع لأول مرة ، التوراة في ستة عواميد ، لمقارنة النص العبري بالنصوص اليونانية المختلفة كما وضع عدة شروح لتأويل النصوص (٢٢)

وأما المبادرة الحقيقية ، فقد وضعها العالم اليهودي «أبراهام بن عزرا» (١٠٩٣ — ١١٦٧ م) ، الذي عاش في المجتمع الاندلسي المتفتح ، وفي كتاباته يكاد المرء ، لو أراد ، أن يتلمس الشكوك فيما بين النسطور ، ولكن صاحبها أحكم لها بمدارة ومداورة ، فلا يثير غضب المتعصبين عن صحة نسبة أسفار الشريعة إلى موسى عليه السلام (٢٣) .

ويمثل علينا عصر الإصلاح بأرائه الجديدة ، فنلتقي بـ «كارلشبات»

(١٩) فجيبي ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٥ .

(٢٠) أنظر عن الترجمة السبعينية (محمد بيومي مهران : إسرائيل

١٠٧/٣ — ١١٢) .

(٢١) فؤاد حسنين : التوراة الهيروغليفية — القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٣ .

(٢٢) باروخ ميينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة — ترجمة عصمت

حنفي — القاهرة ١٩٤١ ص ٢٩ وكذا

J. Steinmann, la Critique devant la Bible, Paris, 1956.

23. A. P. Davies, The Ten Commandment, N. Y., 1956, p. 30.

الذي يبدأ في المناقشة بأن موسى عليه السلام ليس هو كاتب الاسفار الخمسة ، وبعد قرابة قرن نرى «توماس هوبز» (١٥٨٨ - ١٦٧٩م) يقول : ان الاسفار الخمسة كتبت عن موسى ، ولم يكتبها هو ، وعند هذه المرحلة بدأت مرحلة جدية لتمحيص هذه الأفكار الجديدة ومناقشتها على ضوء مناقشة عميقة للتوراة ، ثم البحث عن مصادرها (٢٤) .

وفي القرن السابع عشر الميلادي بدأ النقد التاريخي ، وكان «جان استروك» و «ريشار سيمون» و «باروخ سبينوزا» من أوائل من عرضوا لهذه الدراسة - بعد نشر الكتب المقدسة بلغات عدة على عواميد متقابلة - حتى يمكن مقارنة النصوص المختلفة - كما فعل موران ولويس شابل - من أجل البحث عن النص الاصلى ، ولكن أعمال «ريشار سيمون» النقدية ، انما تعد فاتحة على النقد الحديث (٢٥) ، وهكذا يصدر «ريشار سيمون» في عام ١٦٧٨م ، كتابه الشهير «التاريخ النقدي للعهد القديم» (٢٦) ينفي فيه نفيا قاطعا نسبة الاسفار الخمسة الى موسى عليه السلام ، فانها هي مجموعة من مدونات مختلفة الاصول كل منها تعود الى جيل بعينه ، من الاجيال المتعاقبة لانبياء اليهود ، يستخلصون النبوات من واقع تفسيرات متميزة لاحداث الماضي فكانهم أيضا مؤرخون ، عكف كل منهم باجتهد وهوى على اعادة تقييم مادونه الاسلاف - تحويرا وحذفا وازافة - حتى يتوفر عليها آخر الامر «عزرا» ومريدوه ، فتجمع اسفار الكتاب المقدس على الوجه الذي تطالعنا به اليوم (٢٧) .

(٢٤) باروخ سبينوزا : المرجع السابق ص ١٩ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٥ .

(٢٥) باروخ سبينوزا : المرجع السابق ص ١٩ .

26. Richard Simon, Histoire Critique de Vieux Testament, Paris, 1678.

(٢٧) حسين ذو الفقار صبرى : تورااة اليهود - المجلة عدد يناير ١٩٩٧ ص ٧ ، وكذا

G. H. Box, Hebrew Studies in The Reformation, in The Legacy of Israel, Oxford, 1953, p. 363-364.

ثم يأتي «سبينوزا» وينادى باستعمال قواعد اللغة لتفسير الكتاب المقدس ، ثم يبين استحالة ذلك ، وهذا يعني أنه يهدف في النهاية الى استعمال العقل والنور الفطري ، ثم يتجاسر أخيرا ، فيتعرض لنصوص التوراة ذاتها ، ويصدر كتابه «رسالة في اللاهوت والسياسة» ، والذي يعتبر بحق الزائد للدراسات النقدية لاسفار التوراة في العصر الحديث (٢٨) .

ويستمر النقد في القرن الثامن عشر عند «هرايسوا-مولتين» (١٦٩٤ - ١٧٧٨م) وشك في نشيد الانشاد والجامعة ، غير أن القرن التاسع عشر انما يعتبر عصر النقاد البروتستانت تحت تأثير المدرسة الهيجلية (نسبة الى هيجل) والتي روج لها «ارنست رينان» (١٨٢٣ - ١٨٩٢م) ، ثم سرعان ما بلغ النقد ذروته في القرن العشرين ، ومازالت المعركة قائمة بين أنصار النقد وخصومه ، أو بين التيارين الأبديين في الفكر الديني ، وهما : التيار التقدمي الذي يسمح بالنقد التاريخي ، والتيار المحافظ الذي يقف ضده (٢٩) .

ولعل هذا كله ، انما يبين أن الكتاب الغربيين كانوا أول من تعرض لنقد التوراة المتداولة اليوم ، غير أن الحق أن القرآن الكريم انما كان أول من تبعه - في القرن السابع الميلادي - الى تحريف التوراة ، والى مناقضتها بعضها للبعض الآخر (٣٠) ، وفي القرن الحادي عشر الميلادي ، أصدر العلامة «ابن حزم» (٦٧٤ - ٥٤٥٦ = ٩٩٤ - ١٠٦٤م) كتابه

(٢٨) باروخ سبينوزا : المرجع السابق ص ٣٩ ، وكذا :
G. H. Box, Op. Cit., p. 367-368.
A. L. Sachar, A History of The Jews, N. Y., 1945, p. 246-248.
L. Roth, Thought of The Modern World, in The Legacy of Israel, p. 449-457.

(٢٩) باروخ سبينوزا : المرجع السابق ص ١٩ .
(٣٠) انظر : سورة البقرة : آية ٧٩ ، ١٥٩ ، سورة النساء : آية ١٣ ، ١٥ ، سورة الانعام : آية ٩١ ، سورة الكهف : آية ٥ .

«الفصل في الملل والاهواء والنحل» ، فناقش فيه أسفار التوراة واثبت تحريف اليهود لها (٣١) .

بقيت الإشارة الى أن اليهود هم الامة الوحيدة التي كتبت تاريخها بيدها وبحسب هواها ، ثم زعمت أن هذا التاريخ قد أنزل من السماء ، وأنه فوق الجدل والنقاش ، مصير من لا يصدق أو يناقشه علميا عقاب الله في الدنيا والاخرة ، بل وقد نجحوا نجاحا لا يبارى في ايهام مئات الملايين من البشر على مدى الاحقاب والعصور بذلك ، وهم عندما كتبوا تاريخهم هذا ، انما قد أغاروا على المأثورات الشعبية للامم القديمة التي عرفوها ، وأضافوا اليها من بقايا الفلكلور الذي حفظته ذاكرتهم الاولى منذ بداوتهم الاولى ، فنسجوا من ذلك كله أسطورة اختلطت فيها حكمة الحكماء وشرائع الانبياء ، بحكايات الابطال الخرافيين ، وترجمات تكاذ تكون حرفية للالحم من أمم أقدم منها (٣٢) .

(٢) التاريخ عند اليونان والرومان :

ينقسم تاريخ اليونان الى مرحلتين أساسيتين ، الاولى ، حضارة موكني وكريت ، ولم تصلنا منها كتابات أدبية ، وكل ما وصلنا من تلك الفترة ، والتي تقع كلها في الالف الثاني قبل الميلاد ، مجموعة كبيرة من الملوحات الكتابية ، تتضمن احصاءات وبيانات أكثرها ذو طابع اقتصادي وهكذا انقرضت تلك الفترة دون أن تعرف الكتابات التاريخية ، حسب ما لدينا من معلومات حتى الان .

وفي نهاية تلك الفترة خلال القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، تعرضت بلاد اليونان لغزوات الدوريين المتبربرين وقد استمرت تلك الفترة أكثر

(٣١) ابن حزم : الفصل في الملل والاهواء والنحل - الجزء الاول - القاهرة ١٩٦٤ ص ١٢٠ - ١٦٩ ، الجزء الثانى ص ٣ - ١٩ ، وانظر نقد نسبة الاسفار الخمسة الى موسى (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٤٥/٣ - ١٦١) .

(٣٢) حسن ظاظا : الصهيونية العالمية واسرائيل - القاهرة ١٩٧١ ص ١٣ .

من قرونهم ، تعرضت فيها اليونان لكثير من الاضطرابات والفوضى عكفت على مراكز الحضارة القديمة ، واختفت الكتابة وبالقلى فقد مرت اليونان بفترة من الامية ، فيما بين القرنين ، الحادى عشر والثانى عشر قبل الميلاد ، ومن ثم فقد اعتمدت خلالها على الرواية الشفوية في حفظ أخبارها وتراثها ، ومع ذلك فيرجع لى تلك الفترة تقدم الآثار الادبية التى بقيت لنا من التراث اليونانى القديم ، وهما ملحمتا : الاللياذة والاولديسية^(٢٣) ، اللتان تنسبان الى الشاعر «هوميروس»^(٢٤) ، ورغم ما يحيط بشخصية هذا الشاعر من غموض ، فهناك اعتقاد أن هاتين الملحمتين ظهرتا فيما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد ، على الساحل الانعوى لاسيا الصغرى ، وتم نقلهما بعد ذلك بالرواية الشفوية نحواً من قرنين من الزمان الى أن سجلتا في القرن السادس قبل الميلاد ونظرا لانهما يرجعان الى فترة لم تصلنا عنها معلومات تاريخية أخرى ، فالؤرخون المحدثون انما يهتمون بهما كثيراً ، كمصدر تاريخى ، ومما زاد في قيمتهما التاريخية ما تتصفان به من نضج عقلى وفنى ، فضلاً عن غلبة الطابع التاريخى على «الاللياذة» بالذات ، فهى تتحدث عن الحرب بين الاخريق وطروادة ، ورغم الاطار الاسطورى الذى وضعت فيه الملحمة ، فهى تحتفظ في ثناياها بكثير من الاخبار والتقاليد التاريخية المتوارثة^(٢٥) .

(٢٣) اعتقد اليونان في فترة مبكرة من تاريخهم أنهم جمعوا قواتهم واهجروا من بلادهم تحت قيادة «اجاممنون» اكبر ملوكهم ، ليشنوا حرباً انتقامية ضد «طروادة» - عند مدخل البحر الاسود في القسم الشمالى الغربى لاسيا الصغرى - وأن شاعرهم «هوميروس» قد خلد هذه الحرب في الاللياذة (نسبة الى اليوس أو النيون عاصمة منطقة طروادة) ، ويقع مسرحها ضمن نطاق الحرب ذاتها حول اسوار المدينة وفي داخلها ، والاولديسية : وتتخذ موضوعها من مخاطرات اوديسيوس أحد الملوك والقادة اليونان ، وهو في طريق عودته الى «اثاكه» مقر ملكه ، على الساحل الغربى لشبه جزيرة البلقان (لطفى عبد الوهاب : مناهج الفكر التاريخى - بيروت ١٩٧٩ ص ٣٦) .

(٢٤) انظر عن : هوميروس (لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣١ - ٤٤) .

(٢٥) مصطفى العبادى : مصاضرات في مناهج الفكر التاريخى - بيروت ١٩٨٤ ص ٢٥ - ٢٦ .

وهكذا يبدو واضحا أن المراهي القائل أن أول كتابة تاريخية ذات شأن إنما قد ظهرت عند اليونان في الأشعار المنصوية التي «هوميريوس» أنه أساس من الواقع ، وعلى أية حال ، غنقنى «هوميريوس» (من المفقود ٩ ق.م) أشد العناية بتمجيد البطولة والابطل وروح التضال التي ترتفع بصاحبها إلى قمة الشخصية ، وتجعل منه بطلا منوارا ، وعنه أخذ المؤرخون هذا كله (٣٦) .

وفي القرن الثامن قبل الميلاد عادت الكتابة إلى اليونان من جديد ، بأسلوب جديد سهل ، وهو اتخاذهم حروف الهجاء عن الفينيقيين ، وسرعان ما انتشرت الكتابة (حوالى عام ٧٥٠ ق.م) في عدة مدن يونانية ، من بينها «أثينا» و «طبيية» و «كورنث» و «ثيرا» و «ميلوس» و «رودس» و «كريت» ، وفي القرن السابع قبل الميلاد ، كانت التجربة السياسية اليونانية قد تقدمت خطوات هامة ، فأصبح لاسبرطة دستور معقد ، كما أصبح لأثينا نظام سياسى واضح المعالم ، يقوم على انتخاب الحكام سنويا ، وأصبح نمط الحياة السياسية اليونانية يقوم على أساس «دولة المدينة» ، واصطيفت بعض الأعمال الأدبية الأولى في عصر دولة المدينة للقديمة بالصيغة السياسية أو الاجتماعية ، كما يبدو في أعمال «هسيود» و «سولون» (٣٧) .

غير أن ميلاد الكتابة التاريخية على نمط «كتابة التاريخ» إنما كان يستلزم خلفية تاريخية ثم يتيسر ظهورها عند اليونان في القرن السادس قبل الميلاد ، وهذه الخلفية هي ظهور الكتابة المنثوية ، واللفظة الناقدة إلى الأساطير الشائعة ، وبواعث الاهتمام بالبحث عن أصول المجتمع ، ونشأة النظم والقوانين ولعادات والتقاليد .

وفي النصف الثانى من القرن السادس قبل الميلاد ، بدأ زحف الفرس

(٣٦) على أدغم : المرجع السابق من ٢٢ . محمد هويدا حسين : المرجع السابق من ١٢٣ .
(٣٧) مصطفى العبادى : المرجع السابق من ٢٦ ، لطفى عبدالوهاب : المرجع السابق من ٥٣ .

على آسيا الصغرى ، واقتراهم أولا ، ثم استيلائهم على المدن اليونانية في غربي آسيا الصغرى ، وكانت في هذا العصر أيضا حركة الانتشار اليوناني على سواحل البحرين الأسود والابيض قد بلغت أوجها ، ومن ثم فقد ازداد اهتمام الاغريق عامة بأخبار العالم الخارجي — وخاصة الفرس — وكان ذلك كله من وراء اهتمام اليونان بكتابة التاريخ والذي يقترن باسم «هيكاتايوس الميليطي» ، ومن ثم فقد بدأ الاهتمام بالتاريخ من مدخل الجغرافيا ، عن طريق الاهتمام بوصف البلاد والشعوب .

ومن المعروف أن «هيكاتايوس» أنما كان جغرافيا قبل أن يكون مؤرخا وقد عاش في النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد بوقام برحلات كثيرة في بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، وعلى سواحل البحر الأسود، كما أوغل في أقاليم الامبراطورية الفارسية ومصر ، وربما وصلت أسفاره الى جنوب اسبانيا ، ثم ألف كتابا أسماه «خريطة العالم» بمعنى وصف العالم وهو يتضمن معلومات تتعدى حدود الجغرافيا الطبيعية والبشرية ووراء حدود التاريخ ، ومن ثم فهو يكاد يضم كل أبواب المعرفة التي كانت تستثير اهتمام القدماء ، هذا فضلا عن نظرتة العالمية ، وخاصة فيما يتصل بتقديم العالم الشرقى الى العقل اليوناني ، وأما من الناحية التاريخية فقد قام بتسجيل أول محاولة لتعاقب الملوك في آشور وميديا وفارس ، كما ضمن كتابه أخبار التاريخ المعاصر لوطنه ايونيا ، وله كتاب آخر في تاريخ اليونان القديم يعتبر نوعا من تجميع الانساب التي كان يحتفل بها الاغريق كثيرا ، وقد اعتمدت أساسا على أنساب أبطال الشعر الملحمي ، ورغم أن عنوانه هو «كتاب الانساب» ، غير أنه انما يكشف عن ظاهرتين ، الواحدة : قوة تأثير الشعر الملحمي على نشأة الحضارة التاريخية ، والاخرى : اتخاذها موقفا نقديا منها .

وأما تجربته في مصر وما علمه من أخبار المصريين فقد أكدت ، بل وزادت من حدة ملكة النقد والشك عنده ، فقد علم من المصريين أنه في الوقت الذي اعتقد فيه اليونان أن الالهة في بلادهم تعيش على الارض كانت تقوم في مصر مجتمعات بشرية عادية ، وبالتالي فقد أدرك ، لأول

مرة ، أن حياة الانسان على الارض أقدم مما تصور الروايات المتوازية عند الاغريق ، أضف الى ذلك أن «هيكاتايوس» انما كتب كتاباته بولاول مرة بالنثر ، ومن قبله كان الشعر هو الوسيلة اللازمة للأعمال الفكرية والادبية ، ومن ثم فهو يعتبر فقرة خاصة في تاريخ المعرفة ، لانه أطلقها من قيود الشعر وأساليبه .

وكان القوم يطلقون على كتابات النثر لفظ «اخباري» (Logoraphos) وفي الواقع فقد كانت كتابة التاريخ بالنثر شرطاً أساسياً لمظهر التاريخ وبالتالي يمكن اعتبار «هيكاتايوس» مؤسس الكتابة التاريخية عند الاغريق ، إذ ألزموه من جاء بعده بكتابة التاريخ بالنثر .

بقيت الإشارة الى أن الكلمة التي كانت تطلق على كتاب النثر ومنهم «هيكاتايوس» ، حتى ذلك العصر ، هي كلمة «الاخباريون» وعلى كتاباتهم «تسجيل الاخبار» Logographos ولم تكن كلمة دراسة التاريخ (Historia) قد ظهرت بعد ، لان معناها كان بعيداً عن مجال الاعمال الفكرية ، ويرجع أصلها الى كلمة (Histor) بمعنى «المحقق القضائي» ولم تستخدم كلمة (Historia) إلا في مرحلة جديدة من رقي الكتابة التاريخية ، ممثلة في شخص «هيرودوت» (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) الذي يبدأ بحث التاريخ^(٢٨) ، وأما أهم المؤرخين اليونان والرومان ، فسوف نتحدث عنهم عند حديثنا عن مصادر التاريخ المصري القديم .

(٤) كتابة التاريخ في أوائل العصر المسيحي :

كان لانتصار المسيحية على الوثنية تأثير بعيد المدى في كتابة التاريخ وفي الافكار التي كان يسترشدها المؤرخون في كتاباتهم ، فليقم نبذة الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان ، واعتبرت الكتابة التاريخية التي أنتجها العصر الوثني أقل مستوى من الكتابة التاريخية المقدسة في «التوراة» ، وحامت الشكوك حول التفكير العقلي الذي كانت له المكانة

(٢٨) مصطفى العبادي : المرجع السابق ص ٢٨ - ٣٠ .

المطلي عند الوثنيين اليونان ، وأصبح للإيمان الدينى المحل الأعلى والركن
الإلهى ، وصار الاعتقاد بما فوق الطبيعة محل الفضائل ، وأخذت كتب
اليهود المقدسية مكانة الأدب القديم ، وأعرض القوم عن أعمال مؤرخى
العصر الوثنى وكتابه وشعرائه ، وقد أضر ذلك بكتابة التاريخ وعساق
تقدمها .

ومع ذلك ، فلم يكن فى الإمكان التغلب على تأثير الثقافة الوثنية ،
هذا فضلا عن أن كثيرا من رجال الدين الأوائل إنما كانوا يستعملون
اللغة الوثنية ، وقد تلقوا ثقافة وثنية من قبل دخولهم فى النصرانية ،
ومن ثم فقد تأثرت مثلهم العليا السياسية ، وممارستهم للشئون العملية
بالعناصر الوثنية ، وكان أخذهم بمفكرة تفوق العواطف والحدس على
التفكير العقلى ، وشدة التمسك بهذا الاتجاه فى المسائل الدينية والقضايا
المقدسية ، مصدره الأفلاطونية الجديدة ، فقد أسبغت على التفكير الدينى
هالة غلمفية غامضة ، وقد كلن لها تأثير واضح فى تفكير القديس
«أوغسطين» (٣٥٤ — ٤٣٠ م) ، وكان هذا الاتجاه يمنع للوقوف موقف
النسك أمام مصادر المعرفة التاريخية ، ويعوق توجيه النقد إليها بتسليط
الانصواء عليها .

هذا وقد ذهب المؤرخون الأوائل من النصارى الى أن الحركة
التاريخية جزء من الحركة الكونية التى يشترك فيها الله تعالى ، فضلا
عن الانسان ، وقد تجلى التعبير عن هذا الاتجاه فى أوضح صورة فى كتاب
«مدينة الله» الذى كتبه القديس «أوغسطين» وكانت القلمطة التاريخية
التي ضمنها هذا الكتاب مستمدة من أصول فارسية وهيلينية وعبرية ،
فالحركة التاريخية صراع بين قوى الخير والشر ، وهى فى معناها
التاريخى : الارض صراع بين مدينة الله — وهى نخبة المؤمنين بالله
اليهود والنصارى — ومدينة الشيطان — وهو الاسم الذى أطلق على
أشياء الوثنية المعاصرين والسابقين ، وسيفسر هذا الصراع عن انقصار

المدينة الاولى وعدم المدينة الثانية (٣٩) .

(٥) كتابة التاريخ في العصور الوسطى :

تعتبر كتلية التاريخ في العصور الوسطى — في جانبها من جوانبها — رجوعا الى الاسلوب الذي خرج عليه المؤرخون بعد الاسكتبر الاكبر ، وعلى أيام الرومانيين ، فقد اعتمد مؤرخو هذه العصور على المصادر التقليدية يستنبطون منها للحقائق ، غير أنهم لم يتعرضوا لنقد هذه المصادر أو تحليلها تحليلا علميا دقيقا ، وإذا كان بعض مؤرخي العصر قد قاموا بمحاولة للنقد ، فان هذه المحاولة انما كانت تستند الى النقد الشخصي لكل منهم ، دون استناد الى منهج علمي ، ومن ثم فقد كانوا يصدقون كل ما جاء في مصادرهم (٤٠) .

وعلى أية حال ، فلقد كان ممثلو الكتابة التاريخية في العصور الوسطى من رجال الدين ، ومن ثم فقد غلبت وجهة النظر الدينية على كتاباتهم التاريخية ، وكان الكثيرون من كتلة التاريخ في ذلك العصر تنقصهم سعة الاطلاع الكلاسيكي أو اللاهوتي التي كانت طابع المؤرخين في العصر المسيحي المتقدم وكانوا يعملون الى سرعة الاعتقاد والتصديق أكثر من التحري والتدقيق في قبول الاخبار ورواية الأحداث ، ولم يكن هناك تفريق بين الواقعي والمثالي ، أو الحق التاريخي والحق الشعري ، وكانت الملاحم الشعرية تعد مراجع تاريخية ، ولم يكن هناك ما يحول دون تزيف الأخبار ، وتزوير الوثائق والاسناد ، ولم تكن هناك عناية بكشف الحقائق ، وازهاق الاماطيل ، مادامت الوثائق والاخبار المزيفة تخدم قضية من قضايا العصر ، وتؤيد معتقدا من المعتقدات الشائعة (٤١) .

وأما المهمة الكبرى التي ارتبطت بمؤرخي العصور الوسطى ، فكانت الكشف عن الخطة الالهية وتفصيلها ، ومن ثم فقد انتقل تيار الفكر

(٣٩) علي ادوم : المرجع السابق ص ٤٠ .
(٤٠) محمد عواد حسين : المرجع السابق ص ١٢٨ .
(٤١) علي ادوم : المرجع السابق ص ٤٦ - ٤٣ .

التاريخى من دراسة اجتماعية الى دراسة مجسدة محدودة تثبىق من سلطان الكنيسة ، فلقد اعترفوا بالدور الذى تؤديه المقادير فى الاحداث التاريخية ، لكنهم حددوه بصورة يتلفى منها وجود أى مجال لنشاط الانسان ، وكانت النتيجة عجز المؤرخين عن التنبؤ باحداث المستقبل ، لانهم يجهلون ما يخفيه القدر ، وانصرفوا الى البحث عن جوهر التاريخ خارج نطاق نفسه ، لان كل بحثهم انما كان يهدف الى الكشف عن سياق الاحداث ، انطلاقا من عقيدة راسخة فى أن التدهور الذى وجه هذه الاحداث بعيدا عن ارادة الانسان .

ومن هنا اتسمت كتابة التاريخ فى العصور الوسطى باهمال الدور البشرى فيه ، وبالتالي فلم يكن ثمة مجال لنقد أو تحليل ، لقيود كانت مصادرهم بين أيديهم ، ولكنهم فرضوا على أنفسهم قيودا شديدا ، وجعلوا اهمهم الاول هو دراسة خصائص الذات العملية المقدمة^(٤٢) ، ومن ثم فقد كانت هذه الكتابات دينية أكثر منها تاريخية ، ومن هنا فقد غلبت عليها الصبغة النصرانية^(٤٣) .

ولعل من أشهر هذه المؤلفات كتابات «يوسبيوس»^(٤٤) (٢٦٤ - ٣٤٩م) - والذى كان واحدا من آباء الكنيسة فى عصره ، وأول مؤرخ كنسى يعقد به ، حتى لقب «أبو التاريخ الكنسى» و «هيودوت النصرانى»^(٤٥) ، وقد ولد فى فلسطين ، وربما فى قيصرية التى كان أسقفا لها ، وقد ساعدته صلاته بالامبراطور «قسطنطين» (٣٠٦ - ٣٣٧م) وبرؤساء الكنيسة وكبار رجال الدولة الى أن يعرف الكثير من الاسرار والى أن يطلع على المخطوطات والوثائق الثمينة ، ومن ثم فقد أفاد منها

(٤٢) محمد عواد حسين : المرجع السابق ص ١٢٨ .

(٤٣) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام - الجزء الاول - بيروت ١٩٦٨ ص ٦١ .

(٤٤) يوسبيوس القيصرى : تاريخ الكنيسة - ترجمة مرقص داود - القاهرة ١٩٦٠ .

45. W. Smith, A Dictionary of The Bible, III, p. 107.

فائدة كبيرة في كتاباته التاريخية (٤٦) •

وهناك كذلك «بروكبيوس» (المتوفى عام ٥٦٣م) ، والذي يعد المؤرخ الكنسي لمصر «جستين» (٥٢٧ - ٥٦٥م) الملىء بالأحداث ، ومما يجعل لتاريخه أهمية أن مادته التاريخية موضع ثقة ، ذلك لأن بعضها مستقى من الروايات الشفوية ، وأغلبها نتيجة معلوماته الشخصية ، فلقد عين في عام ٢٦٧م سكرتيرا خاصا ، ومستشارا قانونيا للقائد الرومانى «بلساريوس» ، وصحبه في حملاته في آسيا وأفريقيا وإيطاليا ، كما عين عضوا في مجلس الشيوخ الرومانى (٤٧) •

(٦) الكتابة التاريخية عند المسلمين :

لعل من الاهمية بمكان - وقبل أن نتحدث عن الكتابة التاريخية عن المؤرخين المسلمين - أن نتحدث ، بادىء ذي بدء ، عن «التاريخ الهجرى» •

لا ريب فى أن أهمية الهجرة النبوية الشريفة انما كانت سببا فى أن يختارها الفاروق عمر بن الخطاب بداية للتاريخ الاسلامى تقديرا لجلال الحدث الذى كان منطلق تحول حاسم وخطير فى تاريخ الاسلام •

وأما مبدأ التاريخ ، فلقد روى الطبرى بسنده عن سعيد بن المسيب قال : جمع عمر بن الخطاب الناس ، فسألهم فقال : من أى يوم نكتب؟ فقال على عليه السلام : من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك ، ففعله عمر ، رضى الله عنه (٤٨) ، وروى السخاوى : أن سعد

(٤٦) فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق - الجزء الاول - بيروت ١٩٥٨ ص ٣٩٧ •
 (٤٧) نفس المرجع السابق ص ٣٤٧ - ٣٩٨ ، عبد المتعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية - الجزء الاول - القاهرة ١٩٦٧ ص ٣٨ •
 (٤٨) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى : تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - الجزء الرابع - القاهرة - دار المعارف ١٩٧٧ ص ٣٨ - ٣٩ •

ابن أبي وقاص قال لعمر : أرخ موفاة النبي ﷺ ، فقال علي : بلد أوخ
بهجرة النبي ﷺ فانها فرقت بين الحق والباطل ، وأظهرت الاسلام ،
فاجتمع رأي المسلمين على الابتداء بسنة الهجرة (٤٨) .

هذا وقد اقترح آخرون يوم المبعث أو المولد الشريف ، غير أن ميعاد
المولد والمبعث فيهما خلاف ، كما أن يوم الوفاة إنما يذكر الناس بتلاسي
والمحزن على فقيد مولانا ومسيدنا رسول الله ﷺ ، وهكذا استقر رأي
الصحابه — رضوان الله عليهم — على ابتداء التاريخ بسنة الهجرة ،
وكان ذلك في عهد الفاروق عمر ، روي عن ابن المسيب أنه قال : أوله من
كتب التاريخ عمر ، لسنتين ونصف من خلافته ، فكتب لست عشرة من
الهجرة ، بمشورة علي بن أبي طالب .

ثم قام جدل آخر حول الشهر الذي يكون متعلقا بالتاريخ ، فقال
عبد الرحمن بن عوف : أرخ برجب ، فانه أول الأشهر الحرم ، فقال
علي بن أبي طالب : بالحرم ، وانتهى الامر باعتماد الحرم فجرا للسنة
الهجرية ، على اعتبار أن الحرم شهر الله عز وجل ، وهو رأس السنة
فيه يكسى البيت ، ويؤرخ التاريخ ، ويضرب فيه الورق ، وفيه يوم كان
تاب فيه قوم قتال الله عليهم ، هذا فضلا عن أن الحرم كان ابتداء
العزم على الهجرة ، وذلك لأن البيعة وقعت في ذي الحجة ، وهي مقدمة
الهجرة ، فكان أول هلال استهل بعد البيعة (بيعة العقبة) والعزم على
الهجرة هلال الحرم ، ثم ان الحرم منصرف الناس من حجه ، هذا
فضلا عن أن ابن عباس — حبر الأمة وترجمان القرآن — كان يقول في
قول الله تعالى «والفجر وليال عشر» أن الفجر هو الحرم .

وهكذا كان المسلمين — مع اقرارهم التاريخ من الهجرة — فقد رأوا
الابتداء قبل مقدم النبي ﷺ إلى المدينة في ١٢ ربيع الأول (٢٤ سبتمبر
عام ٦٢٢م) بشهرين ، وأيلم هي اثنا عشر طبقا لما في ذلك مع أول الحرم

فلم يؤرخ الناس من وقت قدوم النبي ﷺ الى المدينة ، بل بأول تلك السنة ، وهكذا كانت السنة الهجرية سنة اسلامية ، مرتبطة بهجرة النبي ﷺ الى المدينة ، فضلا عن أنها سنة تقوم خصائصها على ما نص عليه الكتاب العزيز ، واليهما ترتكز مواعيت صوم المسلمين وأفطارهم وحجهم ومناسكهم وعدة نسائهم ، وحل ديونهم .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى عدة أمور ، منها أن السنة الهجرية تعادل ٣٥٤ يوما ، ٨ ساعات ، ٤٨ دقيقة ، وأما السنة الميلادية فتعادل ٣٦٥ يوما ، ٥ ساعات ، ٤٨ دقيقة ، ٤٦ ثانية ، والاولى قمرية ، والثانية شمسية ، ومنها أن بداية التاريخ الهجرى في أول المحرم من العام الاول الهجرى ، إنما يوافق ١٦ يوليو ٦٢٢م ، في أوجج الأراء ، ومنها ما جاء في فتح البارى من أن جماعة من السلف كانوا يعتقدون التاريخ من المحرم الذى وقع بعد الهجرة ، ويلغون الأشهر التى قبل ذلك الى ربيع الاول ، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان والقسوى ، فذكروا غزوة بدر في السنة الاولى ، وأحد في الثانية ، والخندق في الرابعة ، وهذا صحيح على ذلك البناء ، ولكنه يضالف ما اتفق عليه الجمهور ، وقبله المسلمون (٥٠) .

بقيت الاشارة الى أن التاريخ الميلادى إنما يبدأ بمولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، والذى كان على أيام أول قياصرة روما «أغسطس» (٢٧ ق م - ١٤ م) ، ويذهب البعض الى أن مولده كان فيما بين عامى ٦ ، ٣ ق م ، بينما يذهب آخرون الى أن مولد المسيح إنما

(٥٠) انظر : محمد بيومى مهران : في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين - الجزء الاول - السيرة النبوية الشريفة - المجلد الاول - بيروت - دار النهضة العربية ١٩٩٠ ص ٣٤٧ - ٣٥٠ ، السخاوى : المرجع السابق ص ٧٨ - ٨٢ ، تاريخ الطبرى ٣٨٧/٤ - ٣٩٠ ، ابن حجر العسقلانى فتح البارى شرح صحيح البخارى ٣٩٣/٧ (القاهرة ١٩٥٩م) ، ابراهيم بن ابراهيم قريبي : مرويَات غزوة بنى المصطلق - المدينة المنورة ص ٩١-٩٢

كان عام ٤م ، ولنه رُفِعَ الى السماء عام ٢٧م ، على أيام القيصر «تيطيوس» (١٤ - ٤٧م) ، وربما في ٢٣ مارس عام ٢٩م (٥١) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن كلمة «تاريخ» بدأت تعنى في صدر الاسلام التقويم والتوقيت ثم أصبحت تعنى تسجيل الاحداث على أساس الزمن ، وتصل اسم الاخبار ، ثم بدأت كلمة تاريخ تحل تباعا في الكتابة التدوينية العربية ، لاسيما في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري ، وكان العرب قبل الاسلام قد اهتموا بالتاريخ للاحداث الهامة كعمام الفيل ، وبناء الكعبة ، كما كانت الاحداث الهامة تحفظ في النقوش أو عن طريق الرواية الشفوية .

هذا وقد أشار المسعودي الى أن العرب قبل الاسلام انما كانوا يؤرخون بتواريخ كثيرة ، فلما «حمير» و «كهلان» أبناء سبأ ، فكانوا يؤرخون بملوكهم ، أو بما يقع لهم من أحداث جسيمة ، فيما يظنون ، كنار حوان التي كانت تظهر في بعض الحرار بأقاصى اليمن ، وكالحروب التي كانت تنشب بين القبائل والامم فضلا عن التاريخ بأيامهم المشهورة وكذا بوفاة ابراهيم واسماعيل ، عليهما السلام ، كما كانت قریش عند مبعث المصطفى ﷺ تؤرخ بوفاة هشام بن المغيرة ، وبعام الفيل (٥٢) ، على أن الطبرى انما يذهب الى أن العرب لم تكن تؤرخ بشيء محدد قبل الاسلام ، غير أن قریشا انما كانت تؤرخ بعام الفيل ، بينما كان سائر العرب يؤرخون بأيامهم المشهورة ، كيوم جيلة والكلاب الاول والثاني (٥٣) .

ولعل أقدم وثيقة مكتوبة باللغة العربية انما هو «نقش النمارة» (٥٤)

(٥١) هـ . ج . ويلز : موجز تاريخ العالم - ترجمة عبد العزيز جاويز للقااهرة ١٩٦٧ ص ١٧٢ ، ٤١٦ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ٣١١ - ٣١٢ ، ٣٦٢ .

(٥٢) المسعودي : التنبيه والاشراف - القااهرة ١٩٢٨ ص ١٧٢-١٨١ .

(٥٣) تاريخ الطبرى ١/١٩٣ .

(٥٤) انظر عن نقش النمارة (محمد بيومي-مهران : تاريخ العرب

والذى يسجل وفاة ملك الحيرة «امرو القيس الاول» (٢٨٨ - ٣٣٨ م) وقد كتب عام ٣٣٨ م (عام ٢٢٣ من تقويم بصرى) ^(٥٥) وبلغة عربية شمالية ، وبالخط النبطى ، وليس باللغة الحميرية أو بحرف المسند ^(٥٦) ، وهو بهذا يمثل مرحلة انتقال من الحروف النبطية الى الحروف العربية الشمالية ، والتي ماتزال مستعملة حتى الان ^(٥٧) ، ذلك لان الخط العربى الشائع بيننا الان منحول عن الخط النبطى الذى كان شائعا فى مملكة الانباط ^(٥٨) .

على أن هناك كتابات عربية أقدم من نقش النمارة ، فتلقد عشر فى مصر على كتابات معينة فى الجيزة وعند قصر البنات فى الصحراء الشرقية ، وفى منطقة ادفو ^(٥٩) ، وترجع بعض هذه الكتابات الى أيام الملك الفارسى «قمبيز» (٥٢٥ - ٥٢٣ ق م) ، وبعضها الآخر الى أيام البطالمة ^(٦٠) ، وان كان أهمها كتابة مدونة بخط المسند فى الجيزة ، وترجع الى العام الثانى والعشرين من حكم بطليموس بن بطليموس ، والذى

القديم - الرياض ١٩٨٠ ص ٣٤٩ - ٣٥٠ ، ٥٨١ - ٥٨٢ ، حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم - الاسكندرية ١٩٧٠ ص ١٦٥ - ١٧٣ ،
Le Museon, 1964, 3-4, pp. 456 F.

R. Dussaud, Nabateo-Arabs D'an Nemara, Rev. Arch, II, p. 409-421.
R. Dussaud, Arabes en Syria avant L'Islam, Paris, 1907, p. 34-42.
(٥٥) انظر : محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٥٨٢ ، وكذا Syria, IV, 1923, p. 154.

(٥٦) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٧٣ .
P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 82.
(٥٨) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ٩٤/٣ ، وكذا P. K. Hitti, Op. Cit., p. 82.
59. H. Winckler, Rock-drawings of Southern upper Egypt, I, London, 1938, p. 1.

A. E. P. Weigall, Travels in The Upper Egyptian Desert, London, 1909, p. IV, fig. 31-41.
(٦٠) مظهر الاريانى : فى تاريخ اليمن - القاهرة ١٩٧٣ ص ١٥ .

يرى فيه البعض «بطلليموس الثاني» (٢٨٤ - ٢٤٩ ق.م) ، ومن ثم فقد ذهب «أدولف جرومان» الى أنها ترجع الى علم ٢٦٤/٢٦٣ ق.م^(٦١) وزهما ليس بعد عام ٢٦١ ق.م ، على الاقل^(٦٢) ، وان حدد الدكتور فؤاد حسنين عام ١٥٩ ق.م ، تاريخها للكتابة التي يرى أنها كانت في عهد بطلليموس السادس^(٦٣) ، وأما صاحب الوثيقة فيدعي «زيد ايل بن زيد ايل» ، وكان كاهنا في معبد مصري^(٦٤) ، وأما الكتابة التاريخية في العصور الاسلامية ، فكما يقول «روبرت فلنت» فلم تكن خالية من المزايا الواضحة ، ولكنها لم تصل قط الى المرحلة العالمية أو الفلسفية ، وأكثر الذين عالجوا كتابة التاريخ لم يتجاوزوا مرحلة الوصف والسررد الحولى^(٦٥) .

وعلى أية حال ، فان علم التاريخ عند العرب ، انما قام على أسس من الرواية الشفوية ، ذلك لان انتشار الامية قبيل الاسلام ، وفي بداية العصر الاسلامي ، من ناحية ، وطبيعة المجتمع القبلي في بلاد العرب ، وما كان ينسود هذا المجتمع من مفاخرة الافراد والقبائل بحسبها ونسبها من ناحية أخرى ، انما جعل كثيرا من العرب يحرصون على رواية مفاخرهم ومفاخر قبائلهم ، ومثالب خصومهم ، وكانت الرواية الشفوية تنتقل الاحاديث في هذا المجال من جيل الى جيل^(٦٦) ، وهو أمر لا يمكن الاطمئنان اليه ، ذلك أن رواة الاخبار، حتى ان كانوا بعيدين عن الميوز والاهواء ، وحتى ان كانوا من أصحاب الملكات التي تستطيع التمييز بين العث والسمين ، فان للذاكرة آماذ لا تستطيع تجاوزها^(٦٧) .

61. A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963, p. 26.

62. BASOR, 73, 1939, p. 7.

(٦٣) فؤاد حسنين : التاريخ العربي القديم - القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٦٩

(٦٤) محمد بيومي مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة - الرياض ١٩٧٦ ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

65. Robert Flint, History of The Philosophy of History, Edinburg, 1893 p. 86.

(٦٦) سيدة اسماعيل الكاشف : مصادر التاريخ الاسلامي ومناهج

البحث فيه - القاهرة ١٩٧٦ ص ١٢ .

(٦٧) محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٣ .

وعلى أية حال ، قلل أهم ما جاء في هذه الروايات عن القبائل الشمالية ما عرف باسم «أيام العرب»^(٦٨) والتي تنقص أحاديث الحروب بين القبائل المختلفة ، وعلى الرغم مما في بعض هذه الاخبار من خيال وغموض وعدم التقيد بالدقة ، فقد كان لها تأثير كبير في نشأة علم التاريخ ، ذلك لان الاسلام يقض عليها ، بل ان المؤرخين المسلمين في فجر الاسلام استمدوا منها كثيرا مما دونوه عن بلاد العرب الشمالية قبيل الاسلام وفي القرن الاول الهجري ، فضلا عن أنها حفظت أنساب العرب الى حد كبير^(٦٩) .

وأخيرا فان أيام العرب هذه انما تظهر لنا مميزات الروح العربية في الجاهلية من عصبية وحمية ، نهضت بعقلية البدوى الى الفضيلة تارة وهبطت به الى الرذيلة تارة أخرى، وانكشف فيها بواطن الخلق العربى، فأذا بصاحبه مطبوع على الشعور الفردى ، عنيد صعب المزاج، تسوغ له أنفته وكبرياؤه القتال دفاعا عن قبيلته ، سواء أكانت ظالمة أو مظلومة باغية أم مبغى عليها ، ولهذا فهو يعتمد الى مناوأة القبائل ، الا أنه يأبى الانقياد الى النظام ، ولا يمثل للأوامر العسكرية ، وانما يفضل تلك الحروب التى تعتمد على المناوشات والغارات الفجائية ، على مجابهة العدو في معارك فاصلة^(٧٠) .

على أن قيمة مادة أيام العرب التاريخية انما تضعف كثيرا ، بسبب عدم تنسيقها وتبويبها ، طبقا لمترتيب الوقائع وتسلسلها التاريخى ، كما أنه من الصعوبة بمكان استخراج مستند منها يمكن الاعتماد عليه في تصنيف هذه الايام ، وتنظيمها على أساس تاريخى — مع أنها مادة

(٦٨) انظر عن أيام العرب (ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٥٠٢/١ - ٦٨٧ (بيروت ١٩٦٥) ، محمد أحمد جاد المولى وآخرون : أيام العرب في الجاهلية - القاهرة ١٩٤٢ ، محمد بيومى مهران : الحضارة العربية القديمة - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٦٣ - ١٩٦) .

(٦٩) سيدة الكاشف : المرجع السابق ص ١٢ .

(٧٠) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٥ ، وكذا

P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 90.

المؤرخ في التأريخ لجزيرة العرب قبل الاسلام، ودراسة التطور السياسى والاجتماعى فيها - وذلك لقلّة معارفنا ، في أغلب الاحايين ، عن أحوال من أسهم فيها ، وأجج نارها يوم قتل فيها شعرا ، هذا الى أن الاهواء الشخصية إنما كان لها دور في تسجيل هذه الايام ، فهناك الكثير ممن سجلوا هذه الايام ، كانوا بعيدين عن الحيطة التاريخية ، ومن هنا فقد كان الواحد منهم يشايخ قومه ، فينسب اليهم الغلبة والفتوق، وفي نفس الوقت إنما يعمل جامدا على الغض من قدر خصومهم ، ثم يحاول أن يثبت ذلك كله بكلام منثور ، وآخر منظوم ، ليثبت صحة ما يقول، ومن ثم فقد وجب علينا ألا نصدق كل ما نقرأه عن أيام العرب ، حتى وان نسب الى خيرة من نشق بعلمهم من الرواة (٧١) .

وعلى أية حال ، فلقد كان مؤرخو المغرب يعتمدون في تأريخهم للمعصور السابقة على الاسلام على الادب العربى ، وعلى بعض آثار اليمن ، حيث كان هناك من يزعم - صدقا أو كذبا - أنه بمستطيع أن يقرأ خط «المسند» ، هذا الى جانب اعتمادهم على بعض كتابات النصارى التى وجدت في الادييرة والكنائس في العراق والشام ، وعلى ما تلقفوه من أفواه النيهود في اليمن والحجاز وغيرهما (٧٢) ، ومن هذه الكتابات على سبيل المثال ، كتاب أخبار اليمن لعبيد بن شربة الجرمي ، وقد كتب في أخريات أيام معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦١هـ) وكتاب التيجان في ملوك حمير ، لموهب بن منبه (ت ١١٠/٧٢٨هـ) ، وكتاب الاصنام لابن الكلبي (ت ٢٠٤/٨١٩هـ) ، وكتاب الاكليل ، وكتاب صفة جزيرة العرب للهمذاني (ت ٣٤٠/٩٥١هـ) وكتاب سنى ملوك الارض والانبياء لجمزة الأصفهاني وكتاب ملوك حمير وأقبال اليمن لنشوان بن سعيد الحميرى (ت ٥٧٣هـ) (٧٣) .

(٧١) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٦٤ ، جواد على : المرجع السابق ٣٤١/٥ - ٣٤٢ ، صبح الاعشى ٣٩٣/١ ، ابن التنديم : الفهرست ص ٨٥ ، ابن رشيق : العمدة ٢٠٠/٢ - ٢٠١ .
(٧٢) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٥ ، محمد مبروك تافع : عصر ما قبل الاسلام - القاهرة ١٩٥٢ ص ٥ .
(٧٣) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٤ .

ومن هنا فإن المتصفح لما كتبه المؤرخون المسلمون الكبار ، ليعجب للدقة والتحرى الصحيح الذى عالجوا به تاريخ الاسلام في معظم الحالات ، بقدر ما يأسف على الاهمال والخلط الذى صاحب كتاباتهم عن عصور ما قبل الاسلام^(٧٤) لعل عثرهم في ذلك أن عصر الاكتشافات الحديثة الذى نعيشه الآن لم يكن قد بدأ بعد وان الاعتماد في التاريخ لبلاد العرب قبل الاسلام ، انما كان على ما جاء في التوراة وعلى الادب العربى القديم ، كما أن الاخبار كانت — كما أشرنا من قبل — تتناقل على الالسنه بدون تدوين أو ضبط ، وأن الخط العربى كان في أول الامر غير منقوط ، وكذا كانت الكتابة النبطية التى يرجح أن الخط العربى مشتق منها ، ومتطور عنها ، لا تعرف النقط والاعجام^(٧٥) .

وجاء الاسلام ، ونزل القرآن على سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ مشجعاً للمسلمين على الاهتمام بالتاريخ ، فقد ورد فيه الكثير من الاحداث تسجيلاً لتاريخ المجتمعات السابقة على الاسلام ، فمثلاً هناك سورة كاملة تحمل اسم مملكة في جنوب بلاد العرب قبل الاسلام — سورة سبأ — هذا فضلاً عن أن القرآن الكريم انما قد انفرد — دون غيره من الكتب السماوية — بذكر أقوام عربية بادت ، كقوم عاد وثمود ، الى جانب قصة أصحاب الكهف وسيل العرم ، وقصة أصحاب الاخدود ، وأصحاب الفيل ، وهجرة الخليل ولده اسماعيل عليهما السلام ، الى الارض الطيبة في الحجاز ، ثم اقامة اسماعيل هناك ، وغير ذلك من قصص الانبياء وسيرهم مع أقوامهم^(٧٦) .

(٧٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٤٥/١ - ٤٦ ، ٤١٦ - ٤١٢ ،

٤٩٤ - ٤٩٥ ، ٦٥١ ، ٦٨٩ - ٨٩٠ ، ابن النديم : الفهرست ص ٩٨ - ٨٨ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٥ - ٦ ، وكذا

J. Sauvaget, *Historiens Arabes*, Paris, 1946.

D. S. Margoliouth, *Lectures on Arabic Historians*, Calcutta, 1930.

(٧٥) خليل يحيى نامى : أصل الخط العربى وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام - القاهرة ١٩٣٥ ص ٨٧ ، فيلب حتى : تاريخ العرب ١٠٨/١ - ١٠٩ ، عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن - القاهرة ١٩٦٦ ص ٦١ - ٧٣ ، جرجى زيدان : المرجع السابق ص ٨١ .

(٧٦) قدم الباحث دراسة مفصلة في أربعة أجزاء عن القصة التاريخية

غير أن ذلك لا يعنى - بجال من الاجوال - أن القرآن الكريم كتاب تاريخ ، يتحدث عن أخبار الأمم ، كما يتحدث عنها المؤرخون ، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للتي هي أقسوم (٧٧) ، أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستوراً للمسلمين في حياتهم ، يدعوهم الى التوحيد (٧٨) ، والى تهذيب النفوس ، والى وضع مبادئ للاخلاق (٧٩) ، وميزان للمعادلة (٨٠) ، واستنباط لبعض الاحكام (٨١) ، فإذا ما عرض لحادثة تاريخية ، فانما للفترة والعظة (٨٢) .

ومع ذلك ، فيجب ألا يغيب عن بالنا - دائماً وأبداً - أن القصص القرآنى ، ان هو الا الحق الصراح ، قال تعالى «ان هذا لهو القصص الحق» (٨٣) وقال تعالى «نحن نقص عليك نبأهم بالحق» (٨٤) وقال تعالى «والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق» (٨٥) ، وقال تعالى «تلك آيات

في القرآن (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الاول : فى بلاد العرب ٢ - الجزء الثانى : فى مصر ٣ - الجزء الثالث : فى بلاد الشام ٤ - الجزء الرابع : فى العراق) .

(٧٧) سورة الاسراء : آية ٩ .

(٧٨) انظر : سورة نوح : آية ١ - ٢ ، سورة يونس : آية ٣٧ - ٤٠ ، سورة النساء : آية ١٧١ - ١٧٢ ، سورة آل عمران : آية ٥٩ ، سورة المائدة : آية ٧١ ، ٧٦ .

(٧٩) انظر : سورة البقرة : آية ٤٤ ، سورة الاعراف : آية ٨٥ - ٨٨ ، سورة هود : آية ٨٤ - ٨٨ .

(٨٠) انظر مثلاً : قصة داود (سورة ص : آية ٢١ - ٢٦ ، محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الثالث : فى بلاد الشام ص ٣٣ - ٩٠ (بيروت ١٩٨٨) .

(٨١) انظر : سورة المائدة : آية ١٧ - ٢٢ ، سورة البقرة : آية ١٧٨ - ١٧٩ .

(٨٢) انظر عن أهداف القرآن ومقاصده : تفسير المنار ٢٠٦/١ - ٢٩٣ .

(٨٣) سورة آل عمران : آية ٦٢ .

(٨٤) سورة الكهف : آية ١٣ .

(٨٥) سورة فاطر : آية ٣١ .

نتلوها عليك بالحق ، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون» (٨٧) .

وفي الواقع فإن ثمة حقيقة تاريخية تبرز واضحة في القرآن الكريم تلك هي أن مسلحة كثيرة في سورة وآياته قد خصصت للمسألة التاريخية التي تأخذ أبعادا واتجاهات مختلفة ، وتتدرج بين العرض المباشر ، والسرد الواقعي لتجارب عدد من الجماعات البشرية ، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنة التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان ، مروراً بمواقف الانسان المتغيرة من الطبيعة والعالم ، وبالتصنيف الحضارية التي لا حصر لها ، والتي تتأرجح بين البساطة وبين النضج والتركيب ، وتبلغ هذه المسألة حداً من الثقل والاتساع في القرآن الكريم بحيث أن جل سورة لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية أو إشارة سريعة لحدث ما ، أو تأكيد على قانون أو سنة تشكل بموجبها حركة التاريخ .

ولاريب في أن هذا أمراً منطقياً ينسجم بالكلية مع اعجاز القرآن وتوزيعه المفد لمساحات آياته وسوره لتغطية كافة المسائل الأساسية في حياة البشرية ، وقد أخذت تزداد ايضاحاً يوماً بعد يوم أهمية الدراسة التاريخية ، أو ضرورتها بالآخرى ، لمسيرة كل جماعة بشرية تسعى الى أن تقتبس الاضواء التي أشعلتها الوقائع الماضية ، لكي تتبر لها الطريق الطويل التي يجب عليها أن تقطعه ، متجاوزة أكبر قدر ممكن من العقبات وملقمة بأكبر قدر ممكن من الاساليب والنظم التي توصلها الى أهدافها والتي هي في نفس الوقت (أي النظم والأساليب) كانت حركة التاريخ حقلاً لتجاربها ، وميداناً لاثبات عناصر القوة والضعف فيها ، إذ أن بدء التجربة دائماً من نقطة الصفر ، دون التفات الى مردوداتها التاريخية،

(٨٦) سورة الجاثية : آية ٦- ، وانظر عن القرآن كمصدر تاريخي : محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الاول بلاد العرب ، بيروت ١٩٨٨ ص ١٧ - ٩٨ ، مصر : الجزء الثاني - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٠٧ - ١٤١ ، تاريخ العرب القديم من ٤١-٣٧) .

يضع على الجماعة ما كان لها أن تضعه من الجهد والوقت ، لو التفتت إلى الماضي تستمد منه المواقف والاشارات .

وإذا ما أضفنا إلى المباحة التاريخية الواسعة في القرآن ، مسألة أخرى ترتبط بالتاريخ ارتباطا عضويا لأنها هلامية وتعقيب وتعليق وإعادة صياغة وتوجيه لحشد من الوقائع التاريخية تلك الايات والمواقف القرآنية التي وجدنا عنها المفسرون في موضوع «أسباب التنزيل» ، والتي جاءت في أعقاب عدد كبير من أحداث السيرة ، لكى تعلق وتنفذ وتلامس وتبنى وتوجه وتصوغ ، انطلاقا من هذه الاحداث التي لم تبرد دماؤها بعد ، سواء على مسرح الارض ، أم في حس الجماعة والانسان المسلم ، اذا ما أضفنا هذه الايات المنبئة في ثنايا القرآن ، والتي تختص بها أحيانا مقاطع طويلة ، وسور كاملة ، استطعنا أن نبين أكثر فأكثر أبعاد المساحات الشاملة التي منحها القرآن الكريم للمسألة التاريخية^(٨٧) .

وأما الحديث الشريف — وهو ما ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير —^(٨٨) فهو المصدر الثانى للشرعية الاسلامية ، ثم هو أصدق المصادر التاريخية — بعد القرآن الكريم — لمعرفة التاريخ العربى القديم بالذات ، فضلا عن عصر النبوة ، وعلى أية حال ، فالحديث الشريف انما يتصل اتصالا وثيقا بنشأة التاريخ عند العرب ، ذلك لان علم الحديث انما يهدف الى دراسة أقوال النبى ﷺ ، وأفعاله ، وكان الاعتماد فيه أولا على الرواية الشفوية ، كذلك كان علم التاريخ عند المسلمين يهدف في البداية الى دراسة سيرة النبى ﷺ وأعمال الصحابة والجماعة الاسلامية الناشئة ، وأخبار المغزوات والجهاد ، وكان الاعتماد فيه أيضا على الراية الشفوية قبل كل شيء ، وهكذا نرى أن طبيعة علم التاريخ لم تكن تختلف ، في بادىء الامر ، عن طبيعة علم الحديث ، اللهم

(٨٧) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٥ - ٢ .

(٨٨) انظر تعريفات اخرى للحديث الشريف : (مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الاسلامى - القاهرة ١٩٦١ ص ٥٩ - ٦١ ، مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث - بيروت ١٩٧٨) .

الا في هدف كل منهما ، ونوع الروايات التي يعنى بها ، فالمحدثون يعنون بالروايات التي تقرر مبادئ فقهية أو خلقية ، بينما يعنى المؤرخون بالروايات التي تتجه الى سرد الحوادث ، فالحديث دراية ورواية ، والتاريخ - عند العرب - دراية ورواية ، وجسبنا دليلا على اشتراك العلمين في المصادر والمنهج أن كل جيل كان يأخذ الروايات عن الجيل الذى سبقه ، وأن المتن فى كل رواية كان مسبوqa بالسند أو الاسناد ، الامر الذى اهتم به المحدثون كثيرا حتى أنهم ما كانوا يثقون بالحديث الا اذا كان اسناده سلسلة مقصلة من الرواة الموثوق بهم ، وقد أدى ذلك الى أمرين : الواحد ، ظهور كتب الطبقات ، كطبقات ابن سعد وطبقات الحفاظ للذهبي ، والثانى : ظهور علم نقد الرواة ، وهو المعروف فى مصطلح الحديث باسم «المجرح والتعديل»^(٨٩) .

هذا وقد جمع لنا الامام الشافعى (٢٠٥ - ٢٠٤هـ) شروط القوم لصحة التحمل والإداء ، والتي تدور حول شيئين الراوى والمروى ، فيقول : ولا تقوم الحجة بغير الخافية حتى يجمع أمور منها : أن يكون من حدث به ثقة فى دينه ، معروفا بالصدق فى حديثه ، عاقلا بما يحدث ، عالما بما يحيل معانى الحديث من اللفظ ، أو أن يكون ممن يؤدى الحديث بحروفه كما سمعه ، لا يحدث به على المعنى ، وهو غير عالم بما يحيل معناه ، لم يدر لعله يحيل الحلال الى الحرام ، واذا أداه بحروفه لم يبق وجه يخاف فيه إحالته للحديث ، حافظا أن حدث من حفظه ، حافظا

(٨٩) مبيدة الكاشف : المرجع السابق ص ٢٥ ، وانتظر عن الجرح والتعديل : مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث بيروت ١٩٧٨ ص ٤٩-٦٠ ، الغزالي : المستصفى فى علم الاصول (جزعان) القاهرة ١٩٣٧ ، الذهبى : ميزان الاعتدال فى نقد الرجال - تحقيق على البجاوى - ط النجلى - القاهرة ١٩٦٣ ، الخطيب البغدادى : الكفاية فى علم الرواية - حيدر آباد ١٣٥٧هـ ، ابن حجر العسقلانى : نخبة الفكر فى مصطلح أهل الاثر - ط مصر ١٣٠٨هـ ، أسد رستم : مصطلح التاريخ بيروت ١٩٣٩ ص ١٠٠ - ١٢٣ ، عثمان موالى : منهج النقد التاريخى الاسلامى - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٩٩ - ١٣٩ ، الحافظ العراقى : ذيل ميزان الاعتدال - القاهرة ١٤٠٦هـ ، الامام أحمد : العلل ومعرفة الرجال - أنقرة ١٩٦٣م ، أبو حاتم الرازى : علل الحديث - بغداد ، ابن المدينى : العلل - بيروت ١٩٨٠م ، وانتظر هذه الدراسة ص ١٧٤ .

الكتاب ان حدث من كتابه ، اذا أشرك أهل الحفظ في الحديث ، وافق حديثهم ، بريئا من أن يكون مدلسا ، يحدث عن لقي ما لم يسمع منه ، ويحدث عن النبي ﷺ بما يحدث الثقات خلافة (٩٠) .

وأما أقدم الكتب التاريخية التي تجمع بين التحديث والتاريخ فهي كتب السيرة والمغازي ، ذلك لان كثيرا من رواة السيرة النبوية الشريفة كانوا من المحدثين كمروة بن الزبير ، وابان بن عثمان بن عفان ، وشرحبيل بن سعد ، ومن البدعي أن تكون نشأة الكتابة في السيرة والمغازي في المدينة المنورة فهي دار السنة التي عاش فيها الصحابة ، وشاهدوا سيدنا رسول الله ﷺ وسمعوا أحاديثه ورووها للتابعين ، وعلى أية حال ، فالكتابة في المغازي انما كانت هي الاساس الذي نقلنا الى الكتابة التاريخية الصحيحة ، عند العرب برغم ضعف بعض الروايات التي جاءت في هذه الكتابات التاريخية (٩١) .

وهكذا يبدو واضحا أن علم التاريخ عند المسلمين انما صدر عن مصدرين ، الواحد : مصدر غير اسلامي ، وهو امتداد للعصر الجاهلي ، ويتمثل في أيام العرب وأخبارها ، والاخر : مصدر اسلامي ، ويتمثل في السيرة والمغازي ، ثم سرعان ما ظهرت كتب الطبقات ، الامر الذي مهد لكتابات المؤرخين في العصر العباسي ، عندما بدأ المؤرخون يكتبون في التاريخ العام .

ولا ريب في أن القرآن الكريم والحديث الشريف انما كانا أهم العوامل التي ساعدت على نمو وتطور التاريخ عند المسلمين ، فضلا عن عوامل أخرى من أهمها : ظهور الاسلام والتحولات السياسية والاجتماعية التي أوجدتها في المجتمع العربي ، ومدى تأثيره على الدول المجاورة ، هذا الى جانب الممارك الكبرى التي خاضها المسلمون ، والحاجة الى تدوينها ، فضلا عن حاجة المسلمين الى معرفة الانظمة السياسية

(٩٠) الامام الشافعي : الرسالة - ط مصطفى محمد - القاهرة ١٩٤٠

ص ٩٩ .

(٩١) سيدة الكاشف : المرجع السابق ص ٢٦ .

والاقتصادية والاجتماعية السابقة ، كما أن وضع التقويم الهجرى إنما كلن عاملا مساعدا على فكرة التاريخ عند المسلمين ، أضف الى ذلك كله تشجيع الخلفاء والحكام - الامويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم - على التدوين التاريخى ، وكثيرا ما طلب الحكام أنفسهم من المؤرخين أن يؤرخوا لعصر خليفة أو حكم أو عصر من العصور (٩٢) .

ولنتحدث الان عن بعض مشاهير المؤرخين المسلمين بإيجاز .

(١) الطبرى :

ولد شيخ المؤرخين والمفسرين الامام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى فى أخريات عام ٥٢٢٤ هـ ، أو فى مطلع عام ٥٢٢٥ هـ (٨٨٣٩) فى مدينة «آمل» عاصمة اقليم طبرستان ، على الشاطئ الجنوبى لبحر قزوين ، وهى مدينة خرجت كثيرا من العلماء ، لكنهم ينتسبون الى طبرستان ، فيقال لكل منهم الطبرى ، وقد توفى أبو جعفر فى بغداد يوم ٢٨ من شوال سنة ٣١٠ هـ (٩٢٣ م) ، وان ذهب البعض الى أنه مات فى عام ٣١١ هـ ، أو حتى عام ٣١٦ هـ ، ومن ثم فقد عاصر الطبرى من الخلفاء العباسيين أحد عشر خليفة (٩٣) .

هذا وقد بدأ الطبرى دراسته صغيرا ، ومع ذلك فسرعان ما تفتح عقله ، وبدأ عليه مخايل الذكاء وهو ما يزال بعد حدثاوطبقا لروايته هو ، فقد حفظ القرآن الكريم وهو فى السابعة من عمره ، وكتب الحديث الشريف وهو فى التاسعة ، قال الطبرى عن نفسه : حفظت القرآن ولى

-
- (٩٢) حسان حلاق : مقدمة فى منهج البحث التاريخى - بيروت - دار النهضة العربية ١٩٨٦ ص ٥٠ - ٥١ .
- (٩٣) عاصر الطبرى الخلفاء العباسيين : المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٢ - ٨٤٢ م) والوائى (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٧ م) والمتوكل (٢٣٢ - ٢٣٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٥٢ م) والمنتصر (٢٤٧ - ٢٥٢ هـ / ٨٥٢ - ٨٥٩ م) والمعتز (٢٥٢ - ٢٥٦ هـ / ٨٥٩ - ٨٦٦ م) والمعتد (٢٥٦ - ٢٥٧ هـ / ٨٦٦ - ٨٦٧ م) والمعتز (٢٥٧ - ٢٥٨ هـ / ٨٦٧ - ٨٦٨ م) والمعتز (٢٥٨ - ٢٥٩ هـ / ٨٦٨ - ٨٦٩ م) والمعتز (٢٥٩ - ٢٦٠ هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠ م) والمعتز (٢٦٠ - ٢٦١ هـ / ٨٧٠ - ٨٧١ م) والمعتز (٢٦١ - ٢٦٢ هـ / ٨٧١ - ٨٧٢ م) والمعتز (٢٦٢ - ٢٦٣ هـ / ٨٧٢ - ٨٧٣ م) والمعتز (٢٦٣ - ٢٦٤ هـ / ٨٧٣ - ٨٧٤ م) والمعتز (٢٦٤ - ٢٦٥ هـ / ٨٧٤ - ٨٧٥ م) والمعتز (٢٦٥ - ٢٦٦ هـ / ٨٧٥ - ٨٧٦ م) والمعتز (٢٦٦ - ٢٦٧ هـ / ٨٧٦ - ٨٧٧ م) والمعتز (٢٦٧ - ٢٦٨ هـ / ٨٧٧ - ٨٧٨ م) والمعتز (٢٦٨ - ٢٦٩ هـ / ٨٧٨ - ٨٧٩ م) والمعتز (٢٦٩ - ٢٧٠ هـ / ٨٧٩ - ٨٨٠ م) والمعتز (٢٧٠ - ٢٧١ هـ / ٨٨٠ - ٨٨١ م) والمعتز (٢٧١ - ٢٧٢ هـ / ٨٨١ - ٨٨٢ م) والمعتز (٢٧٢ - ٢٧٣ هـ / ٨٨٢ - ٨٨٣ م) والمعتز (٢٧٣ - ٢٧٤ هـ / ٨٨٣ - ٨٨٤ م) والمعتز (٢٧٤ - ٢٧٥ هـ / ٨٨٤ - ٨٨٥ م) والمعتز (٢٧٥ - ٢٧٦ هـ / ٨٨٥ - ٨٨٦ م) والمعتز (٢٧٦ - ٢٧٧ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٧ م) والمعتز (٢٧٧ - ٢٧٨ هـ / ٨٨٧ - ٨٨٨ م) والمعتز (٢٧٨ - ٢٧٩ هـ / ٨٨٨ - ٨٨٩ م) والمعتز (٢٧٩ - ٢٨٠ هـ / ٨٨٩ - ٨٩٠ م) والمعتز (٢٨٠ - ٢٨١ هـ / ٨٩٠ - ٨٩١ م) والمعتز (٢٨١ - ٢٨٢ هـ / ٨٩١ - ٨٩٢ م) والمعتز (٢٨٢ - ٢٨٣ هـ / ٨٩٢ - ٨٩٣ م) والمعتز (٢٨٣ - ٢٨٤ هـ / ٨٩٣ - ٨٩٤ م) والمعتز (٢٨٤ - ٢٨٥ هـ / ٨٩٤ - ٨٩٥ م) والمعتز (٢٨٥ - ٢٨٦ هـ / ٨٩٥ - ٨٩٦ م) والمعتز (٢٨٦ - ٢٨٧ هـ / ٨٩٦ - ٨٩٧ م) والمعتز (٢٨٧ - ٢٨٨ هـ / ٨٩٧ - ٨٩٨ م) والمعتز (٢٨٨ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٨ - ٨٩٩ م) والمعتز (٢٨٩ - ٢٩٠ هـ / ٨٩٩ - ٩٠٠ م) والمعتز (٢٩٠ - ٢٩١ هـ / ٩٠٠ - ٩٠١ م) والمعتز (٢٩١ - ٢٩٢ هـ / ٩٠١ - ٩٠٢ م) والمعتز (٢٩٢ - ٢٩٣ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٣ م) والمعتز (٢٩٣ - ٢٩٤ هـ / ٩٠٣ - ٩٠٤ م) والمعتز (٢٩٤ - ٢٩٥ هـ / ٩٠٤ - ٩٠٥ م) والمعتز (٢٩٥ - ٢٩٦ هـ / ٩٠٥ - ٩٠٦ م) والمعتز (٢٩٦ - ٢٩٧ هـ / ٩٠٦ - ٩٠٧ م) والمعتز (٢٩٧ - ٢٩٨ هـ / ٩٠٧ - ٩٠٨ م) والمعتز (٢٩٨ - ٢٩٩ هـ / ٩٠٨ - ٩٠٩ م) والمعتز (٢٩٩ - ٣٠٠ هـ / ٩٠٩ - ٩١٠ م) والمعتز (٣٠٠ - ٣٠١ هـ / ٩١٠ - ٩١١ م) والمعتز (٣٠١ - ٣٠٢ هـ / ٩١١ - ٩١٢ م) والمعتز (٣٠٢ - ٣٠٣ هـ / ٩١٢ - ٩١٣ م) والمعتز (٣٠٣ - ٣٠٤ هـ / ٩١٣ - ٩١٤ م) والمعتز (٣٠٤ - ٣٠٥ هـ / ٩١٤ - ٩١٥ م) والمعتز (٣٠٥ - ٣٠٦ هـ / ٩١٥ - ٩١٦ م) والمعتز (٣٠٦ - ٣٠٧ هـ / ٩١٦ - ٩١٧ م) والمعتز (٣٠٧ - ٣٠٨ هـ / ٩١٧ - ٩١٨ م) والمعتز (٣٠٨ - ٣٠٩ هـ / ٩١٨ - ٩١٩ م) والمعتز (٣٠٩ - ٣١٠ هـ / ٩١٩ - ٩٢٠ م) والمعتز (٣١٠ - ٣١١ هـ / ٩٢٠ - ٩٢١ م) والمعتز (٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩٢١ - ٩٢٢ م) والمعتز (٣١٢ - ٣١٣ هـ / ٩٢٢ - ٩٢٣ م) والمعتز (٣١٣ - ٣١٤ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤ م) والمعتز (٣١٤ - ٣١٥ هـ / ٩٢٤ - ٩٢٥ م) والمعتز (٣١٥ - ٣١٦ هـ / ٩٢٥ - ٩٢٦ م) والمعتز (٣١٦ - ٣١٧ هـ / ٩٢٦ - ٩٢٧ م) والمعتز (٣١٧ - ٣١٨ هـ / ٩٢٧ - ٩٢٨ م) والمعتز (٣١٨ - ٣١٩ هـ / ٩٢٨ - ٩٢٩ م) والمعتز (٣١٩ - ٣٢٠ هـ / ٩٢٩ - ٩٣٠ م) والمعتز (٣٢٠ - ٣٢١ هـ / ٩٣٠ - ٩٣١ م) والمعتز (٣٢١ - ٣٢٢ هـ / ٩٣١ - ٩٣٢ م) والمعتز (٣٢٢ - ٣٢٣ هـ / ٩٣٢ - ٩٣٣ م) والمعتز (٣٢٣ - ٣٢٤ هـ / ٩٣٣ - ٩٣٤ م) والمعتز (٣٢٤ - ٣٢٥ هـ / ٩٣٤ - ٩٣٥ م) والمعتز (٣٢٥ - ٣٢٦ هـ / ٩٣٥ - ٩٣٦ م) والمعتز (٣٢٦ - ٣٢٧ هـ / ٩٣٦ - ٩٣٧ م) والمعتز (٣٢٧ - ٣٢٨ هـ / ٩٣٧ - ٩٣٨ م) والمعتز (٣٢٨ - ٣٢٩ هـ / ٩٣٨ - ٩٣٩ م) والمعتز (٣٢٩ - ٣٣٠ هـ / ٩٣٩ - ٩٤٠ م) والمعتز (٣٣٠ - ٣٣١ هـ / ٩٤٠ - ٩٤١ م) والمعتز (٣٣١ - ٣٣٢ هـ / ٩٤١ - ٩٤٢ م) والمعتز (٣٣٢ - ٣٣٣ هـ / ٩٤٢ - ٩٤٣ م) والمعتز (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤ م) والمعتز (٣٣٤ - ٣٣٥ هـ / ٩٤٤ - ٩٤٥ م) والمعتز (٣٣٥ - ٣٣٦ هـ / ٩٤٥ - ٩٤٦ م) والمعتز (٣٣٦ - ٣٣٧ هـ / ٩٤٦ - ٩٤٧ م) والمعتز (٣٣٧ - ٣٣٨ هـ / ٩٤٧ - ٩٤٨ م) والمعتز (٣٣٨ - ٣٣٩ هـ / ٩٤٨ - ٩٤٩ م) والمعتز (٣٣٩ - ٣٤٠ هـ / ٩٤٩ - ٩٥٠ م) والمعتز (٣٤٠ - ٣٤١ هـ / ٩٥٠ - ٩٥١ م) والمعتز (٣٤١ - ٣٤٢ هـ / ٩٥١ - ٩٥٢ م) والمعتز (٣٤٢ - ٣٤٣ هـ / ٩٥٢ - ٩٥٣ م) والمعتز (٣٤٣ - ٣٤٤ هـ / ٩٥٣ - ٩٥٤ م) والمعتز (٣٤٤ - ٣٤٥ هـ / ٩٥٤ - ٩٥٥ م) والمعتز (٣٤٥ - ٣٤٦ هـ / ٩٥٥ - ٩٥٦ م) والمعتز (٣٤٦ - ٣٤٧ هـ / ٩٥٦ - ٩٥٧ م) والمعتز (٣٤٧ - ٣٤٨ هـ / ٩٥٧ - ٩٥٨ م) والمعتز (٣٤٨ - ٣٤٩ هـ / ٩٥٨ - ٩٥٩ م) والمعتز (٣٤٩ - ٣٥٠ هـ / ٩٥٩ - ٩٦٠ م) والمعتز (٣٥٠ - ٣٥١ هـ / ٩٦٠ - ٩٦١ م) والمعتز (٣٥١ - ٣٥٢ هـ / ٩٦١ - ٩٦٢ م) والمعتز (٣٥٢ - ٣٥٣ هـ / ٩٦٢ - ٩٦٣ م) والمعتز (٣٥٣ - ٣٥٤ هـ / ٩٦٣ - ٩٦٤ م) والمعتز (٣٥٤ - ٣٥٥ هـ / ٩٦٤ - ٩٦٥ م) والمعتز (٣٥٥ - ٣٥٦ هـ / ٩٦٥ - ٩٦٦ م) والمعتز (٣٥٦ - ٣٥٧ هـ / ٩٦٦ - ٩٦٧ م) والمعتز (٣٥٧ - ٣٥٨ هـ / ٩٦٧ - ٩٦٨ م) والمعتز (٣٥٨ - ٣٥٩ هـ / ٩٦٨ - ٩٦٩ م) والمعتز (٣٥٩ - ٣٦٠ هـ / ٩٦٩ - ٩٧٠ م) والمعتز (٣٦٠ - ٣٦١ هـ / ٩٧٠ - ٩٧١ م) والمعتز (٣٦١ - ٣٦٢ هـ / ٩٧١ - ٩٧٢ م) والمعتز (٣٦٢ - ٣٦٣ هـ / ٩٧٢ - ٩٧٣ م) والمعتز (٣٦٣ - ٣٦٤ هـ / ٩٧٣ - ٩٧٤ م) والمعتز (٣٦٤ - ٣٦٥ هـ / ٩٧٤ - ٩٧٥ م) والمعتز (٣٦٥ - ٣٦٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٧٦ م) والمعتز (٣٦٦ - ٣٦٧ هـ / ٩٧٦ - ٩٧٧ م) والمعتز (٣٦٧ - ٣٦٨ هـ / ٩٧٧ - ٩٧٨ م) والمعتز (٣٦٨ - ٣٦٩ هـ / ٩٧٨ - ٩٧٩ م) والمعتز (٣٦٩ - ٣٧٠ هـ / ٩٧٩ - ٩٨٠ م) والمعتز (٣٧٠ - ٣٧١ هـ / ٩٨٠ - ٩٨١ م) والمعتز (٣٧١ - ٣٧٢ هـ / ٩٨١ - ٩٨٢ م) والمعتز (٣٧٢ - ٣٧٣ هـ / ٩٨٢ - ٩٨٣ م) والمعتز (٣٧٣ - ٣٧٤ هـ / ٩٨٣ - ٩٨٤ م) والمعتز (٣٧٤ - ٣٧٥ هـ / ٩٨٤ - ٩٨٥ م) والمعتز (٣٧٥ - ٣٧٦ هـ / ٩٨٥ - ٩٨٦ م) والمعتز (٣٧٦ - ٣٧٧ هـ / ٩٨٦ - ٩٨٧ م) والمعتز (٣٧٧ - ٣٧٨ هـ / ٩٨٧ - ٩٨٨ م) والمعتز (٣٧٨ - ٣٧٩ هـ / ٩٨٨ - ٩٨٩ م) والمعتز (٣٧٩ - ٣٨٠ هـ / ٩٨٩ - ٩٩٠ م) والمعتز (٣٨٠ - ٣٨١ هـ / ٩٩٠ - ٩٩١ م) والمعتز (٣٨١ - ٣٨٢ هـ / ٩٩١ - ٩٩٢ م) والمعتز (٣٨٢ - ٣٨٣ هـ / ٩٩٢ - ٩٩٣ م) والمعتز (٣٨٣ - ٣٨٤ هـ / ٩٩٣ - ٩٩٤ م) والمعتز (٣٨٤ - ٣٨٥ هـ / ٩٩٤ - ٩٩٥ م) والمعتز (٣٨٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٩٥ - ٩٩٦ م) والمعتز (٣٨٦ - ٣٨٧ هـ / ٩٩٦ - ٩٩٧ م) والمعتز (٣٨٧ - ٣٨٨ هـ / ٩٩٧ - ٩٩٨ م) والمعتز (٣٨٨ - ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ - ٩٩٩ م) والمعتز (٣٨٩ - ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ - ١٠٠٠ م) والمعتز (٣٩٠ - ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ - ١٠٠١ م) والمعتز (٣٩١ - ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ - ١٠٠٢ م) والمعتز (٣٩٢ - ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ - ١٠٠٣ م) والمعتز (٣٩٣ - ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ - ١٠٠٤ م) والمعتز (٣٩٤ - ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ - ١٠٠٥ م) والمعتز (٣٩٥ - ٣٩٦ هـ / ١٠٠٥ - ١٠٠٦ م) والمعتز (٣٩٦ - ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ - ١٠٠٧ م) والمعتز (٣٩٧ - ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ - ١٠٠٨ م) والمعتز (٣٩٨ - ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ - ١٠٠٩ م) والمعتز (٣٩٩ - ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ - ١٠١٠ م) والمعتز (٤٠٠ - ٤٠١ هـ / ١٠١٠ - ١٠١١ م) والمعتز (٤٠١ - ٤٠٢ هـ / ١٠١١ - ١٠١٢ م) والمعتز (٤٠٢ - ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ - ١٠١٣ م) والمعتز (٤٠٣ - ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ - ١٠١٤ م) والمعتز (٤٠٤ - ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ - ١٠١٥ م) والمعتز (٤٠٥ - ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ - ١٠١٦ م) والمعتز (٤٠٦ - ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ - ١٠١٧ م) والمعتز (٤٠٧ - ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ - ١٠١٨ م) والمعتز (٤٠٨ - ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ - ١٠١٩ م) والمعتز (٤٠٩ - ٤١٠ هـ / ١٠١٩ - ١٠٢٠ م) والمعتز (٤١٠ - ٤١١ هـ / ١٠٢٠ - ١٠٢١ م) والمعتز (٤١١ - ٤١٢ هـ / ١٠٢١ - ١٠٢٢ م) والمعتز (٤١٢ - ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ - ١٠٢٣ م) والمعتز (٤١٣ - ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ - ١٠٢٤ م) والمعتز (٤١٤ - ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ - ١٠٢٥ م) والمعتز (٤١٥ - ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ - ١٠٢٦ م) والمعتز (٤١٦ - ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ - ١٠٢٧ م) والمعتز (٤١٧ - ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ - ١٠٢٨ م) والمعتز (٤١٨ - ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ - ١٠٢٩ م) والمعتز (٤١٩ - ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ - ١٠٣٠ م) والمعتز (٤٢٠ - ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٣١ م) والمعتز (٤٢١ - ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ - ١٠٣٢ م) والمعتز (٤٢٢ - ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ - ١٠٣٣ م) والمعتز (٤٢٣ - ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ - ١٠٣٤ م) والمعتز (٤٢٤ - ٤٢٥ هـ / ١٠٣٤ - ١٠٣٥ م) والمعتز (٤٢٥ - ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٣٦ م) والمعتز (٤٢٦ - ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ - ١٠٣٧ م) والمعتز (٤٢٧ - ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ - ١٠٣٨ م) والمعتز (٤٢٨ - ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ - ١٠٣٩ م) والمعتز (٤٢٩ - ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ - ١٠٤٠ م) والمعتز (٤٣٠ - ٤٣١ هـ / ١٠٤٠ - ١٠٤١ م) والمعتز (٤٣١ - ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ - ١٠٤٢ م) والمعتز (٤٣٢ - ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ - ١٠٤٣ م) والمعتز (٤٣٣ - ٤٣٤ هـ / ١٠٤٣ - ١٠٤٤ م) والمعتز (٤٣٤ - ٤٣٥ هـ / ١٠٤٤ - ١٠٤٥ م) والمعتز (٤٣٥ - ٤٣٦ هـ / ١٠٤٥ - ١٠٤٦ م) والمعتز (٤٣٦ - ٤٣٧ هـ / ١٠٤٦ - ١٠٤٧ م) والمعتز (٤٣٧ - ٤٣٨ هـ / ١٠٤٧ - ١٠٤٨ م) والمعتز (٤٣٨ - ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ - ١٠٤٩ م) والمعتز (٤٣٩ - ٤٤٠ هـ / ١٠٤٩ - ١٠٥٠ م) والمعتز (٤٤٠ - ٤٤١ هـ / ١٠٥٠ - ١٠٥١ م) والمعتز (٤٤١ - ٤٤٢ هـ / ١٠٥١ - ١٠٥٢ م) والمعتز (٤٤٢ - ٤٤٣ هـ / ١٠٥٢ - ١٠٥٣ م) والمعتز (٤٤٣ - ٤٤٤ هـ / ١٠٥٣ - ١٠٥٤ م) والمعتز (٤٤٤ - ٤٤٥ هـ / ١٠٥٤ - ١٠٥٥ م) والمعتز (٤٤٥ - ٤٤٦ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٥٦ م) والمعتز (٤٤٦ - ٤٤٧ هـ / ١٠٥٦ - ١٠٥٧ م) والمعتز (٤٤٧ - ٤٤٨ هـ / ١٠٥٧ - ١٠٥٨ م) والمعتز (٤٤٨ - ٤٤٩ هـ / ١٠٥٨ - ١٠٥٩ م) والمعتز (٤٤٩ - ٤٥٠ هـ / ١٠٥٩ - ١٠٦٠ م) والمعتز (٤٥٠ - ٤٥١ هـ / ١٠٦٠ - ١٠٦١ م) والمعتز (٤٥١ - ٤٥٢ هـ / ١٠٦١ - ١٠٦٢ م) والمعتز (٤٥٢ - ٤٥٣ هـ / ١٠٦٢ - ١٠٦٣ م) والمعتز (٤٥٣ - ٤٥٤ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٦٤ م) والمعتز (٤٥٤ - ٤٥٥ هـ / ١٠٦٤ - ١٠٦٥ م) والمعتز (٤٥٥ - ٤٥٦ هـ / ١٠٦٥ - ١٠٦٦ م) والمعتز (٤٥٦ - ٤٥٧ هـ / ١٠٦٦ - ١٠٦٧ م) والمعتز (٤٥٧ - ٤٥٨ هـ / ١٠٦٧ - ١٠٦٨ م) والمعتز (٤٥٨ - ٤٥٩ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٦٩ م) والمعتز (٤٥٩ - ٤٦٠ هـ / ١٠٦٩ - ١٠٧٠ م) والمعتز (٤٦٠ - ٤٦١ هـ / ١٠٧٠ - ١٠٧١ م) والمعتز (٤٦١ - ٤٦٢ هـ / ١٠٧١ - ١٠٧٢ م) والمعتز (٤٦٢ - ٤٦٣ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٧٣ م) والمعتز (٤٦٣ - ٤٦٤ هـ / ١٠٧٣ - ١٠٧٤ م) والمعتز (٤٦٤ - ٤٦٥ هـ / ١٠٧٤ - ١٠٧٥ م) والمعتز (٤٦٥ - ٤٦٦ هـ / ١٠٧٥ - ١٠٧٦ م) والمعتز (٤٦٦ - ٤٦٧ هـ / ١٠٧٦ - ١٠٧٧ م) والمعتز (٤٦٧ - ٤٦٨ هـ / ١٠٧٧ - ١٠٧٨ م) والمعتز (٤٦٨ - ٤٦٩ هـ / ١٠٧٨ - ١٠٧٩ م) والمعتز (٤٦٩ - ٤٧٠ هـ / ١٠٧٩ - ١٠٨٠ م) والمعتز (٤٧٠ - ٤٧١ هـ / ١٠٨٠ - ١٠٨١ م) والمعتز (٤٧١ - ٤٧٢ هـ / ١٠٨١ - ١٠٨٢ م) والمعتز (٤٧٢ - ٤٧٣ هـ / ١٠٨٢ - ١٠٨٣ م) والمعتز (٤٧٣ - ٤٧٤ هـ / ١٠٨٣ - ١٠٨٤ م) والمعتز (٤٧٤ - ٤٧٥ هـ / ١٠٨٤ - ١٠٨٥ م) والمعتز (٤٧٥ - ٤٧٦ هـ / ١٠٨٥ - ١٠٨٦ م) والمعتز (٤٧٦ - ٤٧٧ هـ / ١٠٨٦ - ١٠٨٧ م) والمعتز (٤٧٧ - ٤٧٨ هـ / ١٠٨٧ - ١٠٨٨ م) والمعتز (٤٧٨ - ٤٧٩ هـ / ١٠٨٨ - ١٠٨٩ م) والمعتز (٤٧٩ - ٤٨٠ هـ / ١٠٨٩ - ١٠٩٠ م) والمعتز (٤٨٠ - ٤٨١ هـ / ١٠٩٠ - ١٠٩١ م) والمعتز (٤٨١ - ٤٨٢ هـ / ١٠٩١ - ١٠٩٢ م) والمعتز (٤٨٢ - ٤٨٣ هـ / ١٠٩٢ - ١٠٩٣ م) والمعتز (٤٨٣ - ٤٨٤ هـ / ١٠٩٣ - ١٠٩٤ م) والمعتز (٤٨٤ - ٤٨٥ هـ / ١٠٩٤ - ١٠٩٥ م) والمعتز (٤٨٥ - ٤٨٦ هـ / ١٠٩٥ - ١٠٩٦ م) والمعتز (٤٨٦ - ٤٨٧ هـ / ١٠٩٦ - ١٠٩٧ م) والمعتز (٤٨٧ - ٤٨٨ هـ / ١٠٩٧ - ١٠٩٨ م) والمعتز (٤٨٨ - ٤٨٩ هـ / ١٠٩٨ - ١٠٩٩ م) والمعتز (٤٨٩ - ٤٩٠ هـ / ١٠٩٩ - ١١٠٠ م) والمعتز (٤٩٠ - ٤٩١ هـ / ١١٠٠ - ١١٠١ م) والمعتز (٤٩١ - ٤٩٢ هـ / ١١٠١ - ١١٠٢ م) والمعتز (٤٩٢ - ٤٩٣ هـ / ١١٠٢ - ١١٠٣ م) والمعتز (٤٩٣ - ٤٩٤ هـ / ١١٠٣ - ١١٠٤ م) والمعتز (٤٩٤ - ٤٩٥ هـ / ١١٠٤ - ١١٠٥ م) والمعتز (٤٩٥ - ٤٩٦ هـ / ١١٠٥ - ١١٠٦ م) والمعتز (٤٩٦ - ٤٩٧ هـ / ١١٠٦ - ١١٠٧ م) والمعتز (٤٩٧ - ٤٩٨ هـ / ١١٠٧ - ١١٠٨ م) والمعتز (٤٩٨ - ٤٩٩ هـ / ١١٠٨ - ١١٠٩ م) والمعتز (٤٩٩ - ٥٠٠ هـ / ١١٠٩ - ١١١٠ م) والمعتز (٥٠٠ - ٥٠١ هـ / ١١١٠ - ١١١١ م) والمعتز (٥٠١ - ٥٠٢ هـ / ١١١١ - ١١١٢ م) والمعتز (٥٠٢ - ٥٠٣ هـ / ١١١٢ - ١١١٣ م) والمعتز (٥٠٣ - ٥٠٤ هـ / ١١١٣ - ١١١٤ م) والمعتز (٥٠٤ - ٥٠٥ هـ / ١١١٤ - ١١١٥ م) والمعتز (٥٠٥ - ٥٠٦ هـ / ١١١٥ - ١١١٦ م) والمعتز (٥٠٦ - ٥٠٧ هـ / ١١١٦ - ١١١٧ م) والمعتز (٥٠٧ - ٥٠٨ هـ / ١١١٧ - ١١١٨ م) والمعتز (٥٠٨ - ٥٠٩ هـ / ١١١٨ - ١١١٩ م) والمعتز (٥٠٩ - ٥١٠ هـ / ١١١٩ - ١١٢٠ م) والمعتز (٥١٠ - ٥١١ هـ / ١١٢٠ - ١١٢١ م) والمعتز (٥١١ - ٥١٢ هـ / ١١٢١ - ١١٢٢ م) والمعتز (٥١٢ - ٥١٣ هـ / ١١٢٢ - ١١٢٣ م) والمعتز (٥١٣ - ٥١٤ هـ / ١١٢٣ - ١١٢٤ م) والمعتز (٥١٤ - ٥١٥ هـ / ١١٢٤ - ١١٢٥ م) والمعتز (٥١٥ - ٥١٦ هـ / ١١٢٥ - ١١٢٦ م) والمعتز (٥١٦ - ٥١٧ هـ / ١١٢٦ - ١١٢٧ م) والمعتز (٥١٧ - ٥١٨ هـ / ١١٢٧ - ١١٢٨ م) والمعتز (٥١٨ - ٥١٩ هـ / ١١٢٨ - ١١٢٩ م) والمعتز (٥١٩ - ٥٢٠ هـ / ١١٢٩ - ١١٣٠ م) والمعتز (٥٢٠ - ٥٢١ هـ / ١١٣٠ - ١١٣١ م) والمعتز (٥٢١ - ٥٢٢ هـ / ١١٣١ - ١١٣٢ م) والمعتز (٥٢٢ - ٥٢٣ هـ / ١١٣٢ - ١١٣٣ م) والمعتز (٥٢٣ - ٥٢٤ هـ / ١١٣٣ - ١١٣٤ م) والمعتز (٥٢٤ - ٥٢٥ هـ / ١١٣٤ - ١١٣٥ م) والمعتز (٥٢٥ - ٥٢٦ هـ / ١١٣٥ - ١١٣٦ م) والمعتز (٥٢٦ - ٥٢٧ هـ / ١١٣٦ - ١١٣٧ م) والمعتز (٥٢٧ - ٥٢٨ هـ / ١١٣٧ - ١١٣٨ م) والمعتز (٥٢٨ - ٥٢٩ هـ / ١١٣٨ - ١١٣٩ م) والمعتز (٥٢٩ - ٥٣٠ هـ / ١١٣٩ - ١١٤٠ م) والمعتز (٥٣٠ - ٥٣١ هـ / ١١٤٠ - ١١٤١ م) والمعتز (٥٣١ - ٥٣٢ هـ / ١١٤١ - ١١٤٢ م) والمعتز (٥٣٢ - ٥٣٣ هـ / ١١٤٢ - ١١٤٣ م) والمعتز (٥٣٣ - ٥٣٤ هـ / ١١٤٣ - ١١٤٤ م) والمعتز (٥٣٤ - ٥٣٥ هـ / ١١٤٤ - ١١٤٥ م) والمعتز (٥٣٥ - ٥٣٦ هـ / ١١٤٥ - ١١٤٦ م) والمعتز (٥٣٦ - ٥٣٧ هـ / ١١٤٦ - ١١٤٧ م) والمعتز (٥٣٧ - ٥٣٨ هـ / ١١٤٧ - ١١٤٨ م) والمعتز (٥٣٨ - ٥٣٩ هـ / ١١٤٨ - ١١٤٩ م) والمعتز (٥٣٩ - ٥٤٠ هـ / ١١٤٩ - ١١٥٠ م) والمعتز (٥٤٠ - ٥٤١ هـ / ١١٥٠ - ١١٥١ م) والمعتز (٥٤١ - ٥٤٢ هـ / ١١٥١ - ١١٥٢ م) والمعتز (٥٤٢ - ٥٤٣ هـ / ١١

سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع ، وقال : ورأى لى أبى فى النوم أنى بين يدى رسول الله ﷺ وكانت معى مخلاة مملوءة حجارة ، وأنا أرمى بين يديه ، فقال له المعبر : أنه ان كبر نصيح فى دينه ، وذبح عن شريعته ، فحرص أبى على معونتى فى طلب العلم ، وأنا حينئذ صبى صغير واستمر فى دراسته متقلبا بين مدن طبرستان وغيرها من بلاد الفرس ، فiaخذ الحديث والتفسير عن «محمد بن حميد الرازى» ، والتاريخ عن «ابن حماد الدولابى» ، والفقه عن «أبى مقاتل» ، ثم يشخص الى بغداد لىسمع من عالمها الاكبر الامام أحمد بن حنبل (١٤٦ - ٢٤١هـ) ، غير أن الامام ابن حنبل انما ينتقل الى جوار ربه ، قبل أن يصل الطبرى الى بغداد ، فيذهب الى البصرة والكوفة ويسمع عن علمائهما ، ثم يتجه بعد ذلك الى بغداد فالثمام ثم يتدفع الى مصر ، فيصلها فى عام ٢٥٣هـ (٨٦٧م) فى أوائل عهد «أحمد ابن طولون» (٢٥٤ - ٢٧٠هـ = ٨٦٨ - ٨٨٤م) ، حيث يدرس فى أرض الكتانة فقه الشافعية ، ثم يعود الى طبرستان فبغداد التى يبقى فيها حتى يلقى وجه ربه الكريم يوم السبت ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة ، ودفن يوم الاحد بالغداة فى داره ، قال الخطيب البغدادي : واجتمع على جنازته من لا يحصى عددهم الا الله ، وصلى على قبره عدة شهور ليلا ونهارا ، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والادب (٩٤) .

وهناك ما يشير الى أن والد الامام الطبرى انما كان ميسرا له فى الرزق ، يملك احدى ضياع طبرستان ، الامر الذى ساعده على أن يتكفل بمؤنة ولده أثناء تجواله فى العراق والشام ومصر طلبا للعلم ، وقد أدى ذلك الى أن يأبى الامام الطبرى أن يكتب التاريخ بناء على رغبة الخلفاء

(٩٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٣/٣٣٢ ، ياقوت الحموى : معجم الادباء ١٩/١٨ ، ٤٠ ، ٤٨ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢/١٦٦ (القاهرة ١٩٣١) ، ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ١٠٠/٥ (ط. الهند ١٣٣١هـ) ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ١٣٨/٢ (القاهرة ١٣٢٤هـ) القفطى : أنباء الرواة ٩٠/٣ ، أحمد محمد الحوفى : الطبرى - القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٠ - ٣٢ ، تاريخ الطبرى ٥/١ - ١٠ ، (مقدمة المحقق) .

والأمراء ، كما رفض أن يشغل منصب القضاء ، لئلا يخضع لابتراز الخلفاء أو لشهوة المنصب والسلطان ، يقول ابن عساکر في تاريخه : لما تقلد الخاقاني الوزارة وجه الى أبي جعفر (الطبري) بمال كثير فامتنع عن قبوله ، وعرض عليه القضاء فأبى ، وعرض عليه المظالم فامتنع ، فعاتبه أصحابه وقالوا له : « لك في هذا ثواب » وتحبب سنة قد درست ، وطعموه في قبوله المظالم وبأكروه ليركب معهم لقبول ذلك فانتهرهم وقال : قد كنت أظن لو رغبت ذلك لنهيموني عنه ، ثم لامهم» (٩٥) .

وعلى أية حال ، فلقد كان الامام الطبري مؤرخا ، كما كان مفسرا وفقهيا ، ومن ثم فان الصلة الوثيقة بين علمي الحديث والتاريخ انما تظهر بوضوح في تاريخه ، بل ان تاريخ الطبري مكمل في كثير من النواحي لكتابه الكبير في تفسير القرآن الكريم .

هذا وقد اشتهر الطبري بمثابرته على العمل ، حتى زعموا أنه قضى أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين صفحة ، وعلى أية حال ، فلقد كتب الطبري ٢٨ كتابا (٩٦) ، لأريب في أن أشهرها كتابه في التفسير «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» ، والمشهور «بتفسير الطبري» ، وكتابه في التاريخ (تاريخ الرسل والملوك) والمعروف بتاريخ الطبري ، وهو أول كتب التاريخ الشاملة في اللغة العربية ، وقد بدأ بالخطبة ، وانتهى عند عام ٣٠٢ هـ ، وقد قيل ان كتابيه في التاريخ والتفسير كان كل منهما ٣٠ ألف ورقة ، ثم أشار عليه أحد تلاميذه أن يختصره الى الحجم الحالي ، وهو نحو عشر ذلك ، فلقد روى أنه قال لاصحابه : « أنتشطون لتاريخ العلم من آدم الى وقتنا الحاضر ؟ قالوا كم قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة ، فقاتلوا : ان هذا مما يفنى الاعمار قبل تملامه ، فقال : انا لله ، ماتت الهمم » ، ثم اختصره (٩٧) .

(٩٥) حسن حلاق : المرجع السابق ص ٢٩٦ ، تاريخ ابن عساکر ٣٥٦/١٨ ، تاريخ الطبري ١٠/١ .
(٩٦) انظر : المرجع السابق ص ١٥ - ٣٢ .
(٩٧) حنان حلاق : المرجع السابق ص ٢٩٢ .

وليس هناك من ريب في أن هناك علوما ثلاثة ، لا يذكر الامام الطبرى الا مقرونا بها كلها ، وهى التفسير والتاريخ والفقه ، لانه تفوق فيها ، ولانه خلف في كل منها كتابا أو كتابا عظيمة القيمة ، وليس من شك في أن كتابيه في التاريخ والتفسير كلنا عماد من أتوا بعده .

والذى يهمنا هنا انما هو «الطبرى المؤرخ» ، وقد امتاز كتابه «تاريخ الرسل والملوك» بالتعويل على الروايات الى حد كبير والحرص على السند ، وترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا علما بعد عام ، منذ الهجرة النبوية الشريفة الى عام ٨٣٠٢ ، وان عرض أحداث ما قبل الاسلام بدون ترتيب ، وأما الأخبار العامة التى لا ترتبط بزمان معين ، فقد كان يختم بها الحديث عند كل خليفة ، كما اهتم الطبرى بتسجيل النصوص الادبية في تاريخه .

هذا وقد حاول الطبرى أن يجمع مواد كتابه من قراءاته ، ومن المتخصصين في العلوم المتنوعة ، ومن خلال رحلاته ، كما نجح في أن يسخر الادب واللغة والشعر لخدمة التاريخ ، فأفاد في كتابه «تاريخ الرسل والملوك» من كتب الحديث والتفسير والادب المغازى والشعر والخطب ونصوص المهود ، وكتب التوراة والانجيل ، والقرآن الكريم الذى أفاد منه كثيرا عند كتابته عن الانبياء والرسل ، على أن الباحثين انما يأخذون على الطبرى أشياء ، منها الاكتفاء بالتسجيل دون النقد .

وهنا لعل من الجدير بالإشارة أن منهج أسلافنا في نقد الخبر انما يقوم أساسا على أصليين : السند والمتن ، أو الشكل والمضمون ، كما أن نقدهم للسند انما يقوم على أصول وخطوات ، منها البحث عن مصدر الخبر ، ثم التحقيق من نسبة الخبر الى نقله ، ثم نقد الراوى ، وأما منهج القوم في نقد المتن ، فيقوم على تصحيح المتن لغويا (اصلاح المتن باستبعاد ما فيه من أغلاط) ، ثم التفسير ، فمعرفة الصحيح فيه من الزائف ، وقد وصلوا بعد تصحيح المتن وتفسيره الى معرفة أصله — أى صحيحه من زائفه — لا عن طريق التخمين — كما فعل الاوربيون وكما يصنعون — ولكن بوضع قواعد كلية لمعرفة الصحيح من الزائف ،

هذا فضلا عن نقد السند أو المصدر ، إنما قد ساعدتهم على حل هذه المشكلة ، والوصول الى الناقل الحقيقي للخبر أو شاهد العيان ، وهذا يفسر لنا ظهور نقد السند قبل المتن ، لأن نقد السند هو الاساس الذى عن طريقه يمكننا معرفة أصل المتن ، وحقيقة ومدى نسبته الى قائله أو ناقله (٩٨) .

هذا وقد التزم الطبرى بهذا المنهج ، ودقته في تطبيقه واضحة تماما في كتابه بولمل من ظاهر هذه الدقة في التطبيق تحريره وثبته من الرواية ، وتمسكه بالاسناد ، ذلك لأن نظرتة الى التاريخ انما هي متأثرة الى حد كبير ، بكونه «محدثا وفقهيا» ، وقد رمى في تاريخه الى الكمال تفسيره ، ومن ثم فقد جاءت روايته للتاريخ متأثرة الى أبعد الحدود بهذا المنهج الاسلامى في الرواية قلبا وقالباً ، فأساس صحة الرواية — كما يتطلب هذا المنهج — الثقة بالرواة ، من حيث العدالة والضبط وصحة الاسناد ، وهذا ما التزمه الطبرى ، وطبقه في كتابه بأمانة ودقة ، اضطرتة الى الوقوف أمام كثير من رواياته موثقاً سلبياً ، فلم يحاول نقسده بعض مضامينها التى قد تخالف العقل أو المنطق ، مادامت أساسياتها صحيحة ، خاصة تلك الاخبار التى تتمثل بالانبياء والرسل ، والتى يتحدث بعضها عن غيبيات لا دخل للعقل فيها ، لأنها فوق العقل والنقد ، ومن ثم وجب قبولها على علاقتها مادامت صحيحة الاسانيد (٩٩) ، ، ولقد اتخذ للطبرى من هذا المنهج تكاً عليها في الاعتذار عن منهجه هذا ، كما جاء في مقدمة كتابه (١٠٠) .

وهكذا يرى الطبرى حسب المؤرخ صدق النقل وأمانته ، والصدق يرجع الى المصدر ، وليس المضمون ، وهذا أصل من أصول المنهج

(٩٨) عثمان موالى : المرجع السابق ص ١٧٥ - ١٧٦ ، وانظر : بولماس : نقد النص - من كتاب النقد التاريخى - ترجمة عبد الرحمن بدوى القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٦٣ ص ٣٥٥ .
(٩٩) عثمان موالى : المرجع السابق ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .
(١٠٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى) - القاهرة دار المعارف - ١٩٦٠ - ٧/١ - ٨ .

الاسلامى فى الرواية الذى غلب على المؤرخين المسلمين فى كتاباتهم ، وطبقوه متأثرين بروحه وفلسفته ، ومن هنا وجه كثير من الباحثين المعاصرين من المستشرقين سهام نقدهم الى الطبرى خاصة ، والى المؤرخين المسلمين عامة ، لغلبة روح هذا المنهج الروائى عليهم ، والذى اضطرهم أن يكونوا رواة لا نقادا ، وهكذا يتهم «فلهوزن» رواة الطبرى بأنهم : لا يفرقون بين الاخضر واليابس ، وهم يذكرون أئنه الاشياء فلا يدعون شيئا مجهولا ، والى مثل هذا ذهب «نيكلسون» (١٠١) .

على أن هناك من يرى أن المؤلف الذى يقوم عمله على نقل الاخبار دونما تفسير أو نقد ، فانه انما يقدم لنا من ضمان الاخلاص والعدل ، أكثر مما يقدم لنا الكاتب الذى يعرض علينا الوثائق محصاة أو مشوهة وحق ما يعتقده عن حسن نية أو عن غرض ، عن صدق أو كذب (١٠٢) .

ومع ذلك ، فان منهج النقل ، دون النقد ، لم يكن مقصورا على المؤرخين المسلمين ، وانما كان هذا المنهج يطبق فى المعرفة التاريخية بصفة عامة فى العصور الوسطى ، وليس فى المعرفة التاريخية الاسلامية فحسب (١٠٣) ، وفى أكبر الظن أن هذا يرجع الى اتصال المعرفة التاريخية بالمعرفة الدينية منذ نشأتها فى البيئة الاسلامية بصفة خاصة وبفلسفة الاديان فى العصور الوسطى بصفة عامة (١٠٤) .

وأيا ما كان الامر ، فالمعرفة الدينية معرفة عقلية تثبت بالنقل والسماع ، وتتطلب القبول والتسليم ، ومن ثم فهى ليست فى حاجة الى

(١٠١) عثمان موائى : المرجع السابق ص ٢٢٨ ، فلهوزن : الدولة العربية وسقوطها - ترجمة يوسف العشى ص ٢ ، وكذا

A. R. Nicholson, A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1962.

(١٠٢) حيدر يامات : مجال الاسلام - ترجمة عادل زعيتر - ١٩٥٦ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(١٠٣) جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ - ترجمة عادل زعيتر - دار المعارف - القاهرة ص ٥٣ - ٥٥ .

(١٠٤) ر. ج. كولنجوود : فكرة التاريخ - ترجمة محمد بكر خليل القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٥ .

نقد ، لأنها فوق النقد ، وعلى أية حال ، فهذه الانتقادات ، إنما تدل على احتضان الخبر التاريخي لهذا المنهج ، وعلى تشرب كثير من المؤرخين بروحه وفلسفته ، وتطبيقهم لكثير من قواعده وأصوله ، وأن اختلفت درجة دقتهم في التطبيق ، تبعا لاختلاف نوع الخبر وأهميته وقدرته الزمنية ، ومن ثم فقد كان كتاب المسيرة النبوية الشريفة أدق تطبيقا لهذا المنهج ، وأشمل ممن أتوا بعدهم ، وتناولوا التاريخ في مصادره المتعددة الإسلامية وغير الإسلامية ، غير أن دقتهم في التطبيق لا ترقى إلى دقة أصحاب هذا المنهج في مجال النظر ، وإن قاربتهم في مجال التطبيق (١٠٥) .

هذا وقد أخذ الباحثون على الطبري أيضا ذكره للعلماء والرواة ، دون ذكر مؤلفاتهم ، فضلا عن تداخل الروايات ، والعناية بالتاريخ السياسي وحده ، هذا فضلا عن تقطيع الحوادث على السنين ، وأخيرا ذكره لبعض خرافات وأساطير — خاصة عن عصور ما قبل الإسلام — دون أن ينتقدها حتى ، والواقع أن الامام الطبري نفسه قد أشار إلى أنه روى في تاريخه أخبارا لا يقبلها العقل ، ولا تستريح إليها النفوس ، معتبرا للمقاريء عن ذلك ، ومشيرًا إلى أن الامانة العلمية إنما تصح عليه أن يروى ما سمع ويؤديه على حاله ، دون زيادة أو نقصان ، أو حتى فحص أو تحري له ، ملقيا مسئولية ذلك على شهاد العيان ، الذي سمع ذلك من مصدره المباشر أو شاهده بنفسه (١٠٦) .

غير أن هذا كله لا يقلل من قدر الامام الطبري المؤرخ ، وكتابه في التاريخ العام ، والذي أكمل به أبو جعفر ما ابتدأه سابقوه من التاريخ للأحداث أو الأقاليم أو طوائف الرجال ، كابن اسحاق وابن سعد والواقدي والبلاذري والدينوري واليعقوبي ، وقد ضاع أكثر ما دون سابقوه ، وبقي هو مسجلا لما ضاع ، مُحفظ ثرائنا نفيسا ، جديرا بأن

(١٠٥) عثمان موافي : المرجع السابق ص ٢٣٠ .
(١٠٦) نفس المرجع السابق ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، الطبري : المرجع السابق ص ٧ - ٨ .

يبقى على مر الزمان وهو — كما وصفه السخاوى — التاريخ الجليل المعول عليه في معناه لكل من بعده ، الامام أبى جعفر الطبرى ، أحد أئمة الاجتهاد ، الجامع من العلم لما لم يشاركه فيه أحد من معاصريه الامجاد ، وهو جامع الطرق والروايات وأخبار العالم ، لكنه مقصور على ما وضعه لأجله من علم التاريخ والحروب والفتوحات (١٠٧) .

والأريب في أن الامام الطبرى تمهيد لمن جاءوا بعده ومصدر أصيل من مصادرهم ، وهكذا فقد نقل عنه المسعودى وابن الأثير وابن مسكويه (ت ٣٠٠هـ) والذهبي وأبو الفداء وابن خلدون ، ونقل ابن عذارى منه ما يخص تاريخ افريقيا والاندلس في كتابه المغرب ، ومازال مصدرا الى اليوم ، ذلك لانه جمع كثيرا من أخبار العرب في الجاهلية ودونها فحفظها من الضياع ، ومن ثم فقد كان المؤرخون الذين جاءوا بعده يعولون على ما ذكر ، ولولاه لفقد الباحثون معارف كثيرة عن العرب وأحوالهم في جاهليتهم .

هذا وقد سجل الطبرى كثيرا من الحقائق التاريخية عن العصور الإسلامية ، موثقا الاسناد الى أصحابها ، لولاه لعدت عليها عوامل الإهمال والنسيان ، فحرم التاريخ هذه الآراء ، ذلك لانه دون روايات نقلها عن كتب لم يبق الا أقلها ، وروايات سمعها من أشخاص ، لو لم يدونها لتوارت في موجات الزمان ، وقد أورد الطبرى في تاريخه كثيرا من الحقائق عن الفرس ، لا يجدها عند غيره من يريد أن يدرس تليخهم حتى لقد اعتمد عليه العالم الألماني الشهير «تيوردور نولدكه» (١٨٣٦ — ١٩٣٠) في معرفة تاريخ الفرس والعرب على أيام الساسانيين ، ومن ثم فقد ترجم كتابه في التاريخ الى الفارسية ثم التركية ، هذا فضلا عن أن ما كتبه الطبرى عن تاريخ الروم ، انما هو دقيق الى حد كبير ، لانه نقل عن نصارى الشام ، وسمع عنهم ، وكانوا هم قد نقلوا من وثائق صحيحة وأدوها اليه بأمانة (١٠٨) .

(١٠٧) السخاوى : المرجع السابق ص ١٤٤ .

(١٠٨) أحمد محمد الحوفى : المرجع السابق ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .

بقيت الإشارة الى أن هناك كثير من التكميلات والمختصرات والمترجمات لكتاب الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ^(١٠٧) أو (تاريخ الامم والملوك) ^(١١٠) ، ولعل أول من ذيل عليه هو الطبرى نفسه ، وإن لم يصل إلينا شيء من ذلك ، قال السخاوى : وله على تاريخه المذكور ذيل ، بل ذيل على الذيل أيضا ^(١١١) ، وطبقا لرواية «ياقوت الجموى» (١١٧٨ - ١٢٢٨) فقد عمل «عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغانى» صلة له ^(١١٢) ، وقال ابن النديم : وقد ألحق به جماعة من حيث قطع الى زماننا هذا ، لا يقول على العاقبة ، لانه ليس ممن يختص بالدولة ولا بالعلم ^(١١٣) . توفي المكتبة الاهلية بباريس نسخة مخطوطة من الجزء الاول من كتاب «محمد بن عبد الملك الهمذانى» (ت ٥٢١هـ) الذى جملة تكلمة له ، يبداء من أيام المقتدر (٢٩٥ - ٣٣٠/٩٠٨ - ٣٣٢هـ) الذى بدء خلافة «المستظهر» (٤٨٧ - ٥١٤هـ) ، أما بقية الكتاب فتنتهى بأخبار عضد الدولة أبى شجاع فى أول سنة ستين وثلاثمائة .

وقد اختصره كثيرون منهم : محمد بن سليمان الهاشمى وأبو الحسن الشمشاطى والسليل بن أحمد ، كما اختصره وزاد عليه عريب بن سعد القرطبى ، وأما أخبار العراق فيما بين عامى ٢٩١ ، ٣٣٠هـ ، فطُبعت ملحقه بالتاريخ باسم «صلة تاريخ الطبرى» ^(١١٤) .

وكان «محمد بن عبد الله العلقمى» أول من ترجم تاريخ الطبرى الى الفارسية ، فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وكانت هذه الترجمة مقصورة على الأخبار والاسانيد ، مع بعض التصرف ، ثم نقلت الترجمة الفارسية الى التركية ، ثم أعيدت مرة أخرى فيما بين عامى

-
- (١٠٩) . ياقوت : معجم الادباء ٦٨/١٨ .
 (١١٠) . تاريخ بغداد ١٦٣/٢ ، حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ص ٢٩٧ .
 (١١١) . السخاوى : المرجع السابق ص ١٤٤ .
 (١١٢) . ياقوت : معجم الادباء ٤٤/١٨ .
 (١١٣) . ابن النديم : الفهرست ص ٢٣٥ .
 (١١٤) . تاريخ الطبرى ٢٦/١ (مقدمة المحقق) .

٩٢٨ ، ٨٩٣٨ ، وطبعت في الاستانة عام ١٢٦٠ هـ ، كما ترجم وطبع بالفرنسية عام ١٨٧٤ م ، ثم الى بعض اللغات اللاتينية ١٨٦٣ م ثم نشر بعض المستشرقين الكتاب كاملا ، فيما بين عامي ١٨٧٩ ، ١٨٩٨ م ، ثم مرة ثانية عام ١٩٠١ م (١١٥) .

(٢) ابن الاثير :

هو علي بن محمد الشيباني ، كنيته أبو الحسن ، ولقبه عز الدين ، ويعرف بابن الاثير الجزري ، نسبته الى جزيرة ابن عمر — فوق الموصل وتحيط بها دجلة الا من ناحية واحدة — حيث ولد عز الدين في رابع جمادى الاولى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) في بيت وجاهة وثراء ، ثم انتقل عز الدين مع أبيه وأخويه (١١٤) الى الموصل ، وهناك سمع من أبي الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي ومن في طبiquته .

ثم بعد ذلك أخذ ينتقل بين الموصل وبغداد ودمشق والقدس وحلب ، يتلقى في كل بلد نزله للعلم والحديث ، عن علمائه وقرائه وفقهائه ومحدثيه ونجائه ، فحصلت له بذلك ثقافة شاملة في العلوم الاسلامية وفي التاريخ والنحو ، ثم توفّر بعد ذلك على النظر في العلم والتصنيف حتى توفاه الله تعالى في شعبان سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) ، وهو في الخامسة والسبعين ، فدفن في الموصل ، ولا يزال قبره معروفا .

(١١٥) تاريخ الطبري ٢٧/١ - ٢٨ ، لويس أميل سديو : تاريخ العرب العام - ترجمة عادل زعيتر - القاهرة ١٩٤٨ ص ٤٧٦ ، كشف الظنون من ٢٩٨ ، جسان حلاق : المرجع السابق ص ٢٩٢ .

(١١٦) كان لابن الاثير أخوان : مجد الدين أبو السعادات المبارك (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) وهو محدث ، وله كتابان (جامع الاصول في أحاديث الرسول) - حققه عبد القادر الارناؤوط - دمشق ١٩٧٤ م ، و (النهاية في غريب الحديث والاثار) - حققه محمود محمد الطناحي - ط الخليلي - القاهرة ١٩٦٣ ، وكتاب ثالث (منال الطالب في شرح طوال الغرائب) - حققه محمود محمد الطناحي - نشر جامعة أم القرى ١٩٨٣ - والاخ الاصغر هو الاديّب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله (٥٥٨ - ٦٣٧ هـ) ومن كتبه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) و (الوشى المرقوم في حلى المنظوم) .

وأما أهم مؤلفاته فهي : ١ - كتاب اللبيب في تهذيب الأنساب ، وهو مختصر لكتاب الانساب للسمعاني ٢ - تاريخ الدولة الاتابكية ٣ - أسد الغابة في معرفة الصحابة - وقد نشرته دار الشعب بالقاهرة في سبع مجلدات عام ١٩٧٠م ، بتحقيق الدكتور محمد البنا والدكتور محمد عاشور .

وأما أشهر كتبه ، وعليه تقوم شهرته ومنزلة العلمية ، فهو كتابه «الكامل في التاريخ» ، وهو كتاب جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ، بدأه منذ أول الزمان ، الى آخر سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠م) أى قبل وفاته بسنتين ، وهو كسائر التواريخ القديمة سرد للحوادث والأخبار بحسب تواريخها ، ويعترف صاحبه بأنه نقل عن الطبرى ، اذ هو المعول عليه ، وان لم يتبع خطاه ، فقد كان الطبرى يذكر في أكثر الحوادث روايات عديدة ، فقصده ابن الاثير الى أتمها فنقله وأضاف اليه ، على أن هذا لم يمنع ابن الاثير من أن يستمد من مصادر أخرى ، كابن الكلبي والمبرد والبلاذرى والمسعودى ، فيما ترك الطبرى عن قصد أو غير قصد ، وذلك مثل أيام العرب قبل الاسلام ، والوقائع بين قيس وتغلب في القرن الاول الهجرى ، وغزو العرب السند وغيرها (١١٧) .

وعلى أية حال ، وكما يقول - روبرت فلنت - فان أكثر الذين عالجوا التاريخ من العرب لم يتجاوزوا مرحلة الوصف والسرد الحولى ، فمن المرجح أن «ابن الاثير» يمكن أن يستثنى من ذلك ، وهو أقرب ما يكون الى تلك المرحلة ، فهو لم يكتف بسرد الاحداث في نظام حدوثها ، وانما حاول كذلك أن يكشف سوابقها الطبيعية ونتائجها ويظهرها بولكنه لا يذهب الى أبعد من ذلك فهو لم يحاول أن ينفذ بصره الى تطور الافكار العامة التى تفسر التاريخ ، ويتعرف أثر أسباب التغيرات الاجتماعية

(١١٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ - بيروت - دار صادر ١٩٦٥ ص ٩ - ١٤ (المقدمة) .

الاعمق ، التي تظهر الاسباب المباشرة والظاهرة نتيجة له ، أو تحدث بسببه (١١٨) .

ومع ذلك فان ابن الاثير لم ينقل الحوادث التاريخية على علاتها ، انما كان يختار منها ما يراه موافقا لمعقوله ، ويؤلفه تأليفا جديدا ، بما يضيف اليه ، وهو — وان لم يكن سار على أسلوب فلسفة التاريخ في نقده للحوادث وربطه بين الاسباب والمسببات ، وهو أسلوب لم يعرف الا مع ابن خلدون — فانه كان ينقد ما ينقله ، ولم يكن ينقل الا كل ما رآه صوابا ، وكان يعرض عن نقل ما يراه غير موافق للعقل ، فعله بما رواه الطبري عن خلق الشمس والقمر وسيرهما (١١٩) .

ومهما يكن من أمر ، فان ابن الاثير مؤرخ يمتاز بشدة التثبت فيما ينقل ، بل قد ينمو أحيانا الى نقد المصادر التي يستمد منها ، وله استدلالات وجيهة على الطبري والشهرستاني — مصنف كتاب الملل والنحل — وغيرهما من العلماء والمؤرخين ، كما أن كتابه «الكامل في التاريخ» ، تاريخ جامع ، جزيل الفائدة ، لاسيما فيما يتعلق بالحوادث التي مرت في عصر المؤرخ ، الامر الذي جعله موردا سائغا يزد من أتى بعد صاحبه من المؤرخين (١٢٠) .

والحق أن ابن الاثير انما كان محل تقدير وثناء من عرفه من معاصريه ومن جاء بعده وأفاد من مؤلفاته ، فمن معاصريه — مثلا — «ابن خلكان» (١٢١١ - ١٢٨١م) الذي وصفه بأنه «كان اماما في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به ، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبريا بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم ، ثم يقول : وكان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين عليها» (١٢١) ، ويصفه سبط بن

118. Robert Flint, History of The Philosophy of The History, Edinburgh, 1893, p. 86.

(١١٩) ابن الاثير : المرجع السابق ص ١٣ .

(١٢٠) ابن الاثير : المرجع السابق ص ١٤ - ١٥ .

(١٢١) ابن خلكان : وفيات الاعيان — تحقيق احسان عباس — بيروت دار صادر ١٩٧٨ — الجزء الثاني ص ٤٣٨ .

الجوزى ، بالاستاذ ، فيقول ، حين ينقل عنه خبر وفاة نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى : وذكر الاستاذ الجزرى فى تاريخه (١٢٣) .

ويعصفه الحافظ ابن كثير (٧٠١ - ٨٧٧هـ) بأنه «الامام العلامة» ، وأنه أقام بالموصل فى آخر عمره : موقرا معظما الى أن مات (١٢٣) ، ويقول عنه الحافظ الذهبى (١٢٧٤ - ١٣٤٨م) أنه كان صدرا معظما كثير الفضائل (١٢٤) ، ويقول عنه ابن العماد الحنبلى أنه كان اماما ، نسابة مؤرخا ، اخباريا ، أدبيا ، نبيلاً محتشماً (١٢٥) .

وعلى أية حال ، فلقد أثبت ابن الاثير فى كتابه «الكامل فى التاريخ» أنه مؤرخ مفكر واع ولعل هذا لانه يربط الاحداث المتقاربة أو المتشابهة بعضها ببعض ، ويعلم أسبابها ونتائجها ، مثل ربطه بين غارات النصارى على المسلمين فى الغرب ، والغزو الصليبي على الشام ، وأيضا بين استيلاء المتطولين على الحكم ، وبين حرمان أعقابهم منه ، وكذلك ربطه بين تصرفات الخزازمية السيئة وبين هزائمهم المتتالية من التتر ، وغيرها من الاحداث وهى كثيرة (١٢٦) .

هذا ولعل من أهم خصائص ابن الاثير ، كمؤرخ ممتاز ، اختياره المصادر الاصلية ، والموثوق بها للاعتماد عليها فى تأليف كتبه ، هذا فضلا عن أن ابن الاثير - رغم ثقته بمؤلفى مصادره - فانه لم يعفهم من النقد اللاذع ، حين يعثر لهم على خطأ ، غير أنه يستبين فى لهجته فى النقد عزة العلماء واستعلاؤهم - كما فعل الطبرى كثيرا - كما كان ابن الاثير يلجأ كثيرا الى تلخيص الخبر المطول الذى ينقله من مصادره ،

-
- (١٢٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ٣٢٠/٨ .
(١٢٣) ابن كثير : البداية والنهاية - الجزء الثالث عشر - بيروت ١٩٦٦ ص ١٢٩ .
(١٢٤) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى اخبار من ذهب - القاهرة ١٣٤٥هـ - الجزء الخامس ص ١٢٧ .
(١٢٥) نفس المرجع السابق ص ١٣٧ .
(١٢٦) عبد القادر احمد ظليمات : ابن الاثير الجزرى المؤرخ - القاهرة ص ٣٩ .

فيحذف منه المعلومات التي يرى أنها غير ضرورية ، ويكتفى بالمعلومات الأساسية التي يبنى عليها الخبر ، وقد وفق الى حد كبير في تلخيص كثير من الاخبار ، ولكنه - في الوقت نفسه - لم يوفق في تلخيص بعضها أيضا (١٣٧) .

(٣) ابن خلدون :

هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون ، من أسرة عربية ، حيث ينتهي نسبه ، فيما يرى البعض ، الى وائل بن حجر ، أحد أقيال عرب حضرموت ، وقد هاجرت أسرة ابن خلدون الى الاندلس في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، حيث نزل جده الأكبر «خلدون» قرمونة في جماعة من قومه ، ثم هاجروا منها - بعد حين من الدهر - الى اشبيلية ، ولما سقطت دولة الموحدين (١١٣٠ - ١٢٦٩م) في الاندلس ، وأخذ النصارى يعضون في غزو البلاد ، هاجرت الأسرة الى «سبتة» وأخيرا استقر محمد بن خلدون في تونس ، حيث ولى الوزارة لأبى حفص ثم لابنته المستنصر ، كما ولى محمد ، والد ابن خلدون ، بعض المناصب العسكرية والادارية ، غير أنه سرعان ما انتصرف الى الدرس والتعبد ، ثم توفي بالطاعون في عام ٥٧٥٠ (١٣٤٩م) .

هذا وقد ولد عبد الرحمن بن خلدون في أول رمضان عام ٥٧٣٣ (٢٧ مايو ١٣٣٣م) ، وتوفي بالقاهرة في الخامس والعشرين من رمضان عام ٨٠٨ هـ (١٩ مارس ١٤٠٦م) ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم قرأ على والده وعلى أكابر علماء تونس ، ودرس في شغف النحو واللغة والفقه والحديث والشعر ، ثم ما لبث أن تلقى مبادئ المنطق والفلسفة ، ولما احتل أبو الحسن المرينى تونس في عام ٥٧٤٨ (١٣٤٧م) حضر عبد الرحمن على العلماء المغاربة الذين حضروا معه ، فأتى دروسه في المنطق والفلسفة والتوحيد والشريعة وغير ذلك من العلوم العربية وقد ساعدته دراسته هذه ، فضلا عن اتصاله ببعض ساسة عصره ، والرجال

المبرزين في البلاط المريني في فاس ، على شغل بعض المناصب الهامة في دولة بني مرين ، وفي بعض الدويلات المغربية التي قامت على أنقاض دولة الموحدين .

وهكذا ، وفي عام ٥٧٤٨ (١٣٤٧م) التحق ابن خلدون في وظيفة في قصر الحسن المريني سلطان مراكش ، ثم عينه السلطان «أبو اسحاق الثاني الحفصي محمد بن تافراكين» سلطان تونس (٥٧٥٢/١٣٥١م) «كاتباً للعلامة» (كاتب ديوان الرسائل) ، وقد شرح ابن خلدون مهمة وظيفته هذه ، بأنه كان يوقع المراسيم والكتب السلطانية بشارة السلطان (الحمد لله والشكر لله) يكتبها بين البسملة وبقية النص ، ثم تقلب ابن خلدون في مناصب عدة عند بني مرين في فاس ، وبني عبد الواد في تلمسان ، وعند بني الأحمر في غرناطة ، وعند بني العريف في شرق تلمسان ، على مدى حوالي ربع القرن ، تعرض فيه للسجن والاضطهاد كما شارك في بعض الاحداث السياسية التي عرضته للنقد ، فضلاً عن الاضطهاد ، كما حدث له في فاس ، حيث زج به في السجن مرتين ، فيما بين عامي ٧٥٥ ، ٥٧٥٩ (١٣٥٦ - ١٣٥٨م) .

وعلى أية حال ، ففي عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) خرج للحج ، ولكنه توقف في رحلته عند الاسكندرية والقاهرة ، حيث ألقى دروساً في الجامع الأزهر ، ثم في المدرسة القمحية (بجوار جامع عمرو) ، وفي عام ٧٨٦ هـ (١٣٨٤م) عينه السلطان الظاهر برقوق قاضياً لقضاة المالكية ، ولما غرقت أسرته وأمواله مال إلى الزهد ، وخرج إلى بيت الله حاجاً في عام ٧٨٩ هـ (١٣٨٧م) ، ثم ولى ثانية في عام ٨٠١ هـ (١٣٩٩م) منصب قاضي قضاة القاهرة ، وتخلّى عنه مدة قصيرة ، ثم استعاده ، وفي عام ٨٠٣ هـ (١٤٠١م) صحب السلطان الناصر إلى دمشق مع بقية القضاة في حملته على «تيمور لنگ» ، ولما عاد شغل منصب قاضي القضاة مرة أخرى بوظائفه فيه إلى أن توفي في ٢٥ رمضان ٨٠٨ هـ (١٤٠٦م) (١٢٨) .

(١٢٨) دائرة المعارف الاسلامية - المجلد الاول - ط كتاب الشعب -

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أنه من ناحية علم التاريخ أو فلسفة التاريخ ، فإن ابن خلدون — إذا عدناه مجرد مؤرخ ، فلا ريب أن هناك من بين مؤلفي التاريخ عند العرب من يفوقه — ولكنه ، بوضعه صاحب نظرية في التاريخ ، فليس له نظير في أى عصر ، حتى ظهور «فيكو» — بعد أكثر من ثلاثة قرون — وأن إفلاطون وأرسطو وأوغسطين ليسوا نظراء له ، وجميع الآخرين ليسوا جديرين بذكر أسمائهم مع اسمه ، وهو جدير بالاعجاب ، لأصالته وفطنته وعمقه وسعة إحاطته في فلسفة التاريخ ، كما كان «دانتي» (١٢٦٥ - ١٣٢١م) و «روجر بيكون» (١٢١٤ - ١٢٩٤) بين العلماء ، وحقيقة أن مؤرخى العرب جمعوا المادة التى أفاد منها ، ولكنه وحده هو الذى عرف كيف ينتفع بها (١٣٩) .

ومن ثم فقد أدهش ابن خلدون علماء أوروبا المعاصرين ، يقول «كارادفو» (Carrade Vaux) : أنجبت أفريقيا الإسلامية اجتماعيا من الطبقة الاولى في شخص ابن خلدون ، الذى لم يعرف من قبله عالم أوتى تصورا في فلسفة التاريخ أصح ولا أجلى من تصوره ، فإن أحوال الأمم الروحية ، والأسباب الطارئة عليها ، القاضية بتغيرها ، وكيفية تأسيس الدول ، وما تدخل فيه من الاطوار ، وتنوع المذنيات ، وعوامس نموها أو تقلصها ، كل هذه الجاهات التى خاض فيها ، الى أقصى ما يمكن الفوض فيه ، وذلك في مقدمته المشهورة ، ولم تجد في أوروبا حتى القرن الثانى عشر أناسا حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ استخراجه بعد أن كانت أفعالا مستعجبة تغرر فتحها (١٤٠) ويقول نيكلسون : لم يسبقه

القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٢٤٠ - ٢٧٤ . على عبد الواحد والى : عبد الرحمن ابن خلدون ص ١٨ - ٢٠ ، التعريف بابن خلدون - تحقيق محمد بن ثاويت الطنجى ص ١ - ٢٢ ، ٣٦٦ - ٣٧٦ ، عثمان موالى : المرجع السابق ص ٢٦٦ - ٢٦٩ .

(١٢٩) على أدهم : المرجع السابق ص ٥٨ - ٥٩ ، وكذا R. Flint, Op. Cit., p. 86.

(١٣٠) عثمان موالى : المرجع السابق ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

أحد إلى اكتشاف الأسباب الخفية للوقائع، أو إلى عرض الأسباب المخلقية والروحانية التي تكمن خلف سطح الوقائع أو إلى اكتشاف قوانين التقدم والتدهور^(١٣١) ، ويقول عنه «جورج سارتون» لم يكن أعظم مؤرخي العصور الوسطى شامخاً كعلاق بين قبيلة من الأتزام فحسب، وإنما كان من أوائل فلاسفة التاريخ ، سابقاً مكيا فيلي وبودان وفيكو وكونت وكورنوا^(١٣٢) .

ولعل ذلك كله ، إنما يرجع إلى مفهوم التاريخ عند ابن خلدون، فهو يرى : أن التاريخ في ظاهره ، لا يزيد عن أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى ، وفي باطنه : نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفية الوقائع وأسبابها عميق^(١٣٣) ، ومن ثم فإن للتاريخ — عند ابن خلدون — معنيين : معنى سطحي ظاهر مؤداه : أن التاريخ رواية وحسب ، لآحداث الماضي وأخباره ، ومعنى خفي مؤداه : أن التاريخ نقد وتفسير وتعليل ، الماضي وأخباره .

ويبدو أن من سبقه من المؤرخين لم يفهموا التاريخ إلا على أنه مجرد رواية لآحداث الماضي وأخباره ، ومن ثم فهو يأخذ عليهم أنهم كانوا رواية للغث والسمين ، ولم يفرقوا في رواياتهم بين الصحيح والزائف ، وهكذا كان هجومه على المؤرخين أول قاعدة اتكأ عليها في بناء نظريته في «النقد التاريخي» ، والذي عبر عنه في قوله : «أن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها ، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل ، وهموا فيها وابتدعوها ، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتنى تلك الآثار الكثيرة ممن بعدهم واتبعوها ، وأدوها إلينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا قترها في الحديث ولا دفعوها ، فالتحقيق قليل ، وطرف التنقيح في الغالب قليل ،

131. A. R. Nickolson, Op. Cit., P. 435.

132. G. Sarton, Introduction to The History of Science, IV, p. 115

• (١٣٣) ساطع الحمري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٤ .

والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليط ، والتقليد عريق في الادميين
وسليل» (١٣٤) .

ويذهب ابن خلدون الى أن اعتماد المؤرخين على الرواية ، دون
النقد لما يروى ، فضلا عن تفسيره وتعليقه ، انما قد أدى الى الوقوع
في أخطاء كثيرة ، فيما يروى من أخبار ، والى التورط في رواية كثير من
الاخبار الواهية من ذلك «ما نقله المسعودي وكثير من المؤرخين في
جيوش بنى اسرائيل ، بأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه ، بعد
أن أجاز من يطيق حمل السلاح ، خاصة من ابن عشرين فما فوقها ،
فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون» (١٣٥) .

ويشك ابن خلدون في صحة هذا الرقم (٦٠٠ ألف) ، ويرى أنه
مبالغ فيه لأسباب ، منها أنه من الصعوبة بمكان أن يقع قتال بين هذه
الجيوش الكثيرة العدد ، وبين جيوش أعدائهم ، لضيق مساحة الأرض
التي ستكون ميدان القتال ، ومنها أن ملك الفرس كان أعظم من ملك
بنى اسرائيل بكثير ، بدليل انتصار «بختنصر» (نبوخذ نصر الثاني)
الفارسي عليهم ، ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس هذا الرقم ، ولا قريبا
منه ، وأقصى حد وصل اليه عدد جيوشهم ، كان مائة وعشرين ألفا ، وكان
ذلك في معركة القادسية ، ومنها لو وصل عدد جيوش بنى اسرائيل الى
هذا الرقم ، لاتسع نطاق دولتهم ، واحتلوا الشام كله ومصر ، وغيرها
من الدول المجاورة لدولتهم القديمة ، ومنها أن عدد بنى اسرائيل الذين
دخلوا مصر مع يعقوب عليه السلام ، لم يزد على سبعين نفسا ، وقد
ظلوا بمصر مائتين وعشرين سنة تقريبا ، ولا يعقل أن يصل عدد جيشهم
في هذه المدة الى هذا الرقم (١٣٦) .

(١٣٤) مقدمة ابن خلدون - بيروت - دار القلم - ١٩٨١ ص ٣-٤ .

(١٣٥) نفس المرجع السابق ص ١٠ .

(١٣٦) نفس المرجع السابق ص ١٠ - ١١ ، عثمان مواتي : المرجع

السابق ص ٢٧١ - ٢٧٣ مع العلم بأن «بختنصر» كلداني عراقي ، وليس
فارسيا .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هذا الزخم (٦٠٠ ألف) الذي أثار ابن خلدون ضد المؤرخين المسلمين ، انما نقلوه ، كغيرهم من المؤرخين في تلك العصور ، من التوراة — كما جاء في سفر الخروج ١٢/ ٣٧ — ولا ريب في أن النص التوراتي انما قد أوغل كثيرا في المبالغة ، وأغرق في التعصب ، ذلك أن التوراة نفسها انما تحدثنا أن بنى اسرائيل عندما قدموا الى مصر — للمرة الاولى — انما كان «جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت الى مصر سبعون» (١٣٧) وهانحن على أيام الخروج من مصر ، وقد انضمت ٢١٥ سنة — فيما ثرى الترجمة السبعينية للتوراة (١٣٨) — أو ضعف هذا العدد (٤٣٠ سنة) — فيما ترى التوراة العبرية (١٣٩) — حتى يصبح بنو اسرائيل «شعبا أعظم وأكثر من المصريين» — أصحاب أعظم وأقوى دولة في العالم كله وقت ذاك — ويصبح عدد بيت يعقوب قد ناهز المليونين ، وربما الثلاثة ، فلما طردوا من مدينتهم من بينهم ست مئة ألف ماش من الرجال غدا الاولاد» (١٤٠).

ويعلق بعض الباحثين على هذه الأرقام بأننا لو قسمنا عدد الجماعة على الابتكار ، لخلصنا الى أن المرأة الاسرائيلية من اليهود الابقين، انما كانت تلد زهاء (٦٥ وليدا) ، وهو أمر لا يستقيم مع المنطق ، فضلا عما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء التسخير من المصريين ، ولا مع ما روى من عبورهم البحر في سويحات قصار ، ومن ثم فإن علماء اللاهوت والمؤرخين ، سواء بسواء ، أصبحوا الآن لا يعلقون على هذه

(١٣٧) تكوين ٢٧/٤٦ .

(١٣٨) انظر عن الترجمة السبعينية للتوراة (محمد بيومى مهران : اسرائيل الحضارة — الكتاب الثالث — الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٠٧ — ١١٢)

(١٣٩) خروج ١٢/٤٠ — ٤١ .

(١٤٠) خروج ٣٧/١٢ ، ثم قارن : عدد ١/١ — ٥٤ ، حيث يجعلهم (٤٥/١ — ٥٠) (٦٣٥٥ شخصا) ، بدون اضافة اعداد سبط اللاويين ، الذين أمر الرب ألا يحسبوا من بنى اسرائيل ، ليكونوا على مسكن الشهادة

الأرقام التي ذكرتها التوراة أية أهمية ، ويعتبرونها محض خيال
اسرائيلي (١٤١) .

ومن ثم فقد ذهب «بترى» الى القول بأن الالف تعني الأسرة أو
الجماعة أو العشيرة أو الخيمة ، وعلى ذلك فإن الرقم (٥٤٤٠٠) مثلا
لا يعنى أن هناك ٥٤٤٠٠ شخصا ، وإنما يعنى ٥٤ عشيرة ، عتقها ٤٠٠
فردا ، ثم يقترح بعد ذلك أن المجموع الكلى للخارجين من مصر ، انما
كان ٥٥٥٠ شخصا ، وبذا يستطيع موسى عليه السلام ، أن يحكم في
الخصومات التي يمكن أن تنشأ بين حوالى ٦٠٠ خيمة أو مجموعة ، ولكن
ذلك محال بين ٦٠٠ ألف رجل (١٤٢) .

وهناك أيضا من الاخبار الموضوعية ، تلك الأكاذوبة الدنيئة التي
فندها ابن خلدون وبين زيفها ، وأعنى بها أكاذوبة زواج العباصة أخت
هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ م/ ٨٧٦ - ٩٠٩ م) من «جعفر البرمكى»
بمقد بلاخولة (١٤٣) .

وعلى أية حال ، فإن نقد ابن خلدون للمؤرخين المسلمين على بيان
ما هموا من روايات ضعيفة وإهية ، ثم تعدى ذلك الى ذكر العوامل
والاسباب التي تدفع بالكثيرين منهم ، فضلا عن الكثيرين من الرواة ،
الى الكذب في رواياتهم ، والتي منها التشيع للاراء ، والثقة بالناقضين ،
والذهول عن المقاصد ، وتوهم الصدق ، والجهل بتطبيق الاحوال على
الوقائع ، وتقرب الناس لاصحاب التجسلة والمراتب بالثناء والمدح ،
وتصنيح الاحوال ، واشاعة الذكر بذلك ، ثم يروى نماذج كثيرة لآخبار
مستحيلة الوقوع - كبناء الاسكندرية طبقا لرواية المسعودى - ومع

(١٤١) عصام الدين حنفى ناصف : محنة التوراة على أيدي اليهود
القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٥ ، وكذا

S. A. Cook, The Rise of Israel, in CAH, II, 1931, p. 358.

142. W. M. F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, pp. 41-46.

(١٤٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٥ - ١٦ (بيروت ١٩٨١) ، وانظر :
جسق إبراهيم : تاريخ الاسلام ١٧٠/١ - ١٧٣ (القاهرة ١٩٦٤) .

هذا فقد تورط كثير من المؤرخين في روايتها ، ولو حكموا العقل في فقد مضامينها ، لرفضوا الكثير منها ، جملة وتفصيلا (١٤٤) .

هذا وليس هناك من ريب في أن ابن خلدون إنما كتب له نجبا بعيد المدى في أن يربط التاريخ بعلم الاجتماع ، كما ربط التاريخ بالجغرافيا والسياسة والاقتصاد والصناعة والزراعة والطب والفقه والنحو واللغة والقرآن الكريم ، كما أرخ لبعض الفنون ، ومنها الغناء والموشحات والأزجال ، وبعض العلوم كالهندسة والرياضيات والكيمياء ، وكان ابن خلدون إنما أراد في كتاباته - ولاسيما المقدمة - أن يكون مؤرخا للعلوم والفنون ، كما هو مؤرخ للأحداث السياسية ، كما حرص في مؤلفه الضخم أن يكون له مقدمة للمقدمة ، تبحث أولا في علم التاريخ أو في فن علم التاريخ (١٤٥) .

وقد حاول ابن خلدون في مقدمته المشهورة أن يضع أمام المؤرخ قاعدة هامة في نقد الاخبار التاريخية وتمييز صحتها من زائفها ، وأن يبنى مما سبق أن هدمه من نقده للتاريخ ، ومن ثم يصبح نقده للتاريخ بناءا جديدا مرتكزا على دعائم ثابتة قوية ، بعد أن كان نقده لانقراض ضيفة بالية ، وان شئت فقل : إن نقده للتاريخ بدأ بالهدم ، ثم انتهى بالبناء .

ويتمثل هدمه في هجومه على المؤرخين السابقين عليه ، واطهار ما وقعوا فيه من أخطاء ، وذكره العوامل والأسباب التي أدت إلى ذلك ، وأما البناء فيتمثل في وضعه بعض الاسس الاجتماعية والقواعد العقلية ، التي يجب أن يعتمد عليها المؤرخ في نقده لمروياته ، وفي المفهوم الذي أعطاه للتاريخ (١٤٦) ، وقد عبر عن ذلك بقوله : أعلم أنه لما كانت حقيقة

(١٤٤) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥ - ٣٨ ، عثمان موالى : المرجع السابق ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .
(١٤٥) حسان حلاق : المرجع السابق ص ٣١٠ .
(١٤٦) عثمان موالى : المرجع السابق ص ٢٨٠ .

التاريخ أنه خبر الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنایع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة الاحوال (١٤٧) .

ومن ثم فهو ينصح المؤلف بأن يفهم المجتمع الذي يكتب عن أحداثه فهما حقيقيا وواقعيًا ، ويلم ببعض العلوم والمعارف التي تعينه على ذلك ، يقول : «يحتاج صاحب هذا الفن الى العلوم بقواعد السياسة ، وطبائع الموجودات ، واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف ، وتعليل المتفق منها أو المختلف ، والقيام على أصول الدول والملك ، ومبادئ ظهورها ، وأسباب حدوثها ، ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون مستوعبا لاسباب كل خبرة ، وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول فان وافقها وجري على مقتضاها كان صحيحا ، والا زيفه واستغنى عنه ، وما استكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك ، حتى انتحلطه الطبرى والبخارى ، وابن اسحاق قبلهما ، وأمثالهم من علماء الامة» (١٤٨) .

وعلى أية حال ، فهذه هي الاصول العامة لنظرية ابن خلدون في النقد التاريخي ، بما فيها من هدم وبناء ، فضلا عن جانبها الايجابي والسلبى ، ولاريب في أنه سبق بها كثيرا من فلاسفة التاريخ ونقاده في أوروبا .

غير أن هناك من انخدع بعبارة وردت في مقدمة ابن خلدون ، أشار

(١٤٧) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥ .
(١٤٨) نفس المرجع السابق ص ٢٨ .

فيها الى أنه أول من تكلم في مسائل العمران البشري أو ما يسمى في عصرنا الحديث «علم الاجتماع» ، ونصها : «ونحن ألهمنا الله الى ذلك الهاما ، وأعثرنا على علم جعلنا بين نكرة وجهينة خبره ، فان كنت قد استوفيت مسأله ، وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنجاه ، فتوفيق من الله وهداية ، وان فانتى شيء في احصائه ، واشتبهت بغيره ، فللناظر المحقق اصلاحه ، ولى الفضل لاني نهجت له السبيل ، وأوضحت له الطريق ، والله يهدي بنوره من يشاء» (١٤٩) .

وهكذا ظن البعض أن كل ما كتبه ابن خلدون في نقده للتاريخ وفلسفته ، إنما كان بوحى من الهاما ، مستندا في ذلك الى بعض نظريات علم النفس ، في الابتكار والخلق العلمي والفنى ، وهكذا ذهب البعض الى أن آراء ابن خلدون إنما هي آراء الهامية ، تصدر عن قدرة خارجة عن نفسه ، كأنها تلقى اليه القاء ، ولاريب في أن في هذا الاتجاه مغالاة وتعميما ، يابأه المنهج العلمي السديد ، صحيح أن ابن خلدون قد تكون له بعض الملاحظات الصائبة في نقده للتاريخ ، بل وقد يكون أول من اكتشف علم الاجتماع ، الذى أسماه علم العمران البشري ، ولكنه صحيح كذلك أن هذا لا يدعونا أبدا الى القول بأنه قد ألهم كل ماذهب اليه من قواعد في نقد التاريخ وفلسفته الهاما ، ذلك لان أصول نظريته في النقد التاريخي ، إنما تضرب بجذورها البعيدة في الفكر العربى الاسلامي ، فلقد وضع علماء نقد الحديث قواعد صارمة في نقد الاخبار ، تتعلق بالراوى — من حيث عدالته وضبطه — كما تتعلق بالمروى كذلك (١٥٠) .

وفي الواقع أننا لو قارنا ما ذكره ابن خلدون في الاسباب التى تؤدى بالرواة الى الكذب بما ذكره هؤلاء العلماء النقاد في العوامل التى تمس عدالة الراوى وضبطه وتؤدى بذلك الى جرحه ورفض روايته ، لوضح

(١٤٩) نفس المرجع السابق ص ٤٠ .

(١٥٠) عثمان موالى : المرجع السابق ص ١٢٣ - ١٢٩ ، ٢٨١ -

لنا أن ابن خلدون لم يخرج كثيرا عما ذكره هؤلاء العلماء في هذا الأمر ، ولو قارنا كذلك ما وضعه من مقاييس عقلية في نقد المضمون ، بما وضعه العلماء المسلمون ، أصحاب المنهج العقلي والنقلي ، من قواعد ومقاييس لنقد المتن والمضمون ، لرأيناه لم يخرج كثيرا عن مقاييسهم في ذلك ، اللهم إلا في ذلك المقياس الاجتماعي الذي أشار إليه ونصح المؤرخ بالاستعانة به ، في نقده لمرويات المجتمع الذي يروى بعض أحداثه التاريخية ، وأيا ما كان الأمر ، فإن كثيرا من المسائل والقضايا التي أشار إليها ابن خلدون في نقده للمعرفة التاريخية ، قد بحثها علماء الأصول — في الحديث والفقه — وقد اعترف الرجل في الترجمة التي كتبها لنفسه : أنه قرأ كثيرا من كتب الأصوليين ، وأن أساتذته يشهدون له بالتبريز في الأصول والمنطق كما اعترف بأن بعض المؤرخين السابقين عليه إنما قد تكلموا في بعض المسائل التي ناقشها في فلسفته عن التاريخ التي ضمنها في مقدمته المشهورة كالمسعودي في التنبية والأشرف والقلضي أبو بكر الطرطوشي في كتابه «سراج الملوك» ، كما أشار «أرسطو» إلى شيء منها في كتابه «السياسة» ، وابن المقفع في بعض رسائله ، وإن لم يستوف هؤلاء هذه المسائل ، استيفاء لها (١٥١) .

هذا فضلا عن أن بعض المؤرخين الذين سبقوا ابن خلدون في كتابة التاريخ العام ، إنما قد أبدوا شكا في صحة كثير من الأخبار والمرويات ، وخاصة تلك التي يغلب عليها الطابع الأسطوري بمثل الجغرافي والمؤرخ العربي «أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي» (ت ٢٥٩/٨٩٧م) — والذي يمد تاريخه من أقدم الكتابات التاريخية التي تناولت التاريخ بمعناه العام ، أي منذ بدء الخليقة وحتى عصر المؤلف — إنما شك في المرويات التي تروى عن بعض الأمم القديمة ، كفارس ، بل ووصفها بأن الطليح الخرافي إنما يغلب على كثير منها (١٥٢) ، كما رأينا من قبل

(١٥١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩ - ٤٠ ، التعريف بابن خلدون ص

٢٢ ، عثمان موالى : المرجع السابق ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(١٥٢) تاريخ اليعقوبي : ٢/٢ (ط النجف) .

الامام الطبرى يشير الى أنه روى أخبارا لا يقيها ، ولكن الامانة العلمية تحتم عليه أن يروى ما سمع ، ويؤديه على حاله ، يقول الطبرى : «فما يكن فى كتابنا هذا من خبر فكرناه عن بعض الماضين ، مما يستكره قارئه أو يستشنع ، من أجل أنه لم يعرف له وجها فى الصحة ، ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وانما أتى من قبل بعض ناقله الينا ، وأنا انما أدينا ذلك على نحو ما أدى الينا (١٠٣) » .

ومع هذا كله ، فالعلامة ابن خلدون يفضل هؤلاء جميعا بقدرته على التعليل ، وبأنه استطاع أن يبنى من هذه المسائل والموضوعات نظرية فى النقد التاريخى ، متناسقة الاجزاء والفصول ، متسمة بالصرامة والدقة فى وضع القواعد والاصول ، وان لم يتمسك بها عند التطبيق ، فلقد روى أخبارا واهية عن سابقه ، ثم أخذها على أنها مسلمات صحيحة لا تقبل الجدل ، كذكره مثلا أن أصل البشرية انما هم أولاد نوح عليه السلام ، نقلا عن التوراة (١٠٤) أو عن مؤرخين اشتهروا بالنقل عن التوراة ، وغاب عنه — وهو العالم الفقيه — أن سفينة نوح كان بها كل من آمن بنوح (١٠٥) ، هذا فضلا عن روايته كثيرا من الاخبار عن الجن والشیاطين والسحر لا تتفق والحقيقة •

ولعل الذى أوقع ابن خلدون فى مثل هذه الاخطاء عند التطبيق — فيما يرى الدكتور عثمان موافى — أن استقراءه لاحداث التاريخ وروايته كان استقراء ناقصا ، فلقد وضع قواعد من نقد التاريخ قبل أن يستقصى كل رواياته ، وكان عليه ألا يضع مثل هذه القواعد ، الا بعد

(١٥٣) تاريخ الطبرى ٨/١ (القاهرة ١٩٦٠) •

(١٥٤) تكوين ١٨/٩ - ١٩ •

(١٥٥) سورة هود : آية ٤٠ ، ٤٨ ، وانظر محمد بيومى مهران : قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة - الرياض ١٩٧٥ ص ٣٨٣ - ٤٥١ •

استقراء دقيق لكل روايات التاريخ ونقد فاحص لها ، فان لم يتيسر له ذلك ، فلا بأس أن يروى هذه الروايات مسندة الى مصادرها المباشرة ، مبينا ما فيها من أخطاء وأوهام ، لا تتفق والمقاييس العقلية والنقلية ، وعلى أية حال ، فان نقده للتاريخ انما تغلب عليه النزعة العقلية المنطقية (١٥٦) .

الفصل الرابع

التاريخ القديم ومناهج البحث فيه

(١) عصور التاريخ القديم :

التاريخ القديم : هو تاريخ الانسان منذ أقدم مراحل استقراره ، ويتضمن كافة جوانب إنتاجه في المجالات الحضارية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية - السلمية والحربية - وينبغي على المؤرخ في دراسة هذا التاريخ ، ملاحظة الظروف البيئية والحضارية المعاصرة لذلك الانسان ، ومن ثم فلا ينبغي اتباع أسلوب حديث أو متبع في العصور الوسطى بالنسبة الى التاريخ القديم ، ذلك لان تفسير التاريخ تفسيراً سليماً يستوجب التعرف على الاحداث في ظروف فكرية ومادية معينة ، ومن هنا تأتي صعوبة فهم التاريخ القديم ، فهو يتطلب قدرة عقلية معينة على تصور الظروف المحيطة بتلك الاحداث ، فضلاً عن التعرف على طريقة تعبير الانسان ، سواء أكان ذلك في اللغة أو الكتابة أو الرسم أو الفن بوجه علم ، حتى يمكن تفهم تراث الانسان - المادى والفكرى - في تلك الفترة من التاريخ .

هذا ويمثل التاريخ القديم أطول مرحلة في تاريخ البشرية ، فهو يبدأ منذ العصر الحجري القديم ، والذي ينتهى حوالى ١٠٠٠٠ سنة ، ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وان كان استقرار الانسان انما يبدأ منذ العصر الحجري الحديث ، في الالف السادسة قبل الميلاد^(١) ، ويستمر حتى أخريات القرن الرابع قبل الميلاد ، بالنسبة لتاريخ مصر والشرق الادنى القديم - أى حتى دخول الاسكندر الاكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) مصر في عام ٣٣٢ ق.م - ليبدأ جانب آخر من التاريخ القديم ، هو التاريخ اليونانى الرومانى ، والذي ينتهى بالفتح الاسلامى للمنطقة في القرن السابع الميلادى .

(١) انظر الآراء المختلفة حول بداية العصر الحجري الحديث في مصر (محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الاول - عصور ما قبل التاريخ - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢١٥ - ٢١٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن مؤرخى الحضارة قد اصطالحوا على تقسيم التاريخ القديم الى مرحلتين رئيسيتين «الواحدة : تسبق معرفة الكتابة ، وقد أطلقوا عليها اسم «ما قبل الكتابة» أو «ما قبل التاريخ» أو «عصور ما قبل التاريخ» ، والأخرى : وهى المرحلة اللاحقة لمعرفة الكتابة ، وقد أطلقوا عليها اسم «العصر التاريخى» ، وتعتمد المعلومات عن عصر ما قبل التاريخ على الآثار وحدها ، وأما العصر التاريخى فنستمد معلوماته من آثار الانسان ، فضلا عن تلك المعلومات التى دونها هذا الانسان عن تاريخه وحضارته على الاوراق واللوحات وجدران المعابد والمقابر وغيرها (٢) .

هذا ويبدأ العصر التاريخى فى مصر بظهور الكتابة ، وقيام الاسرة الاولى ، حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م (٣) ، قلقد اعتبرت المصادر المصرية الملك «نعرمر» — الذى دعته مينا — على رأس الاسرة الاولى ، التى يبدأ بها العصر التاريخى ، ذلك لان مصر انما كانت قد عرفت الكتابة ، وأخذت تسجل حوادثها المختلفة على آثارها ، ومن ثم فقد أصبح اعتمادها الاكبر على ما خلفه المصريون القدامى أنفسهم مسطرا على آثارهم (٤) .

وأما فى العراق القديم ، فان حادث الطوفان المشهور ، انما يعتبر بمثابة البداية للعصر التاريخى ، وقد حدثتنا قائمة الملوك السومرية عن طوفان يفصل بين فترتى حكم ، الواحدة سابقة له ، والاخرى تالية له ، تبدأ بنزول الملكية مرة ثانية من السماء الى كيش فالوركاء ثم أور وولعل فى هذا دليلا واضحا على أن قائمة الملوك السومرية انما تعتبر حادث الطوفان الخطير بمثابة كسر فى عملية استمرار تاريخ العراق القديم ،

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٣) انظر الاراء التى دارت حول بداية الاسرة الاولى ومؤسسها محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٩٠ ص (٢٨ - ٩) .

(٤) محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الاول ص ٣٣٣ .

ومن ثم فهو حد فاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخي^(٥) وعلى أية حال ، فهناك من يذهب الى أن «مى - براج - سى» — أقدم حاكم سومرى معروف لنا — انما كان يعيش حوالى ٣٧٠٠ ق م ، ومن ثم فيمكن اعتبار ذلك التاريخ بداية للعصر التاريخي فى العراق القديم^(٦) .

وأما تاريخ العرب القديم ، فهو يبدأ منذ عصور ما قبل التاريخ^(٧) ، وحتى بداية القرن السابع الميلادى ، حيث يبدأ التاريخ الاسلامى بحوم أهدت مكة المكرمة الى الدنيا كلها أشرف الخلق جميعا ، سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ (فى عام ٥٧١م) ، وما أن يمضى حين من الدهر — هو على الأرجح أربعون عاما — (٦١٠م) حتى يسبغ الله فضله على الدنيا كلها ، فيقتزل الوحي من السماء ، ليأمر سيد الانبياء والمرسلين ببداية الدعوة الى الاسلام — دين الله الحنيف — .

وأما سبب اختيارنا لنهاية التاريخ العربى القديم ببداية ظهور الاسلام ، وعدم مروره بعصور اليونان والرومان ، فذلك لان شبه الجزيرة العربية لم تتأثر بالتغيرات السياسية والحضارية التى حدثت فى منطقة الشرق الادنى القديم ، بعد ظهور الاسكندر الاكبر (٣٥٦ — ٣٢٣ ق م) ، ذلك لان الاسكندر المقدونى — وكذا خلفاؤه من الاغارقة ، فضلا عن الرومان من بعدهم — لم يكتب لهم نجحا بعييد المدى أو قصيرة فى السيطرة على بلاد العرب ، ومن ثم فقد بقى هذا الجزء العزيز من العالم العربى القديم ، بعيدا عن قبضة اليونان والرومان ، رغم المحاولات المتكررة التى بذلها هؤلاء وأولئك لانضواء الجزيرة

(٥) محمد بيومى مهران : مصر والشرق الادنى القديم — الجزء العاشر — تاريخ العراق القديم — الاسكندرية ١٩٩٠م ص ٦٥ — ٦٦ .

(٦) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٦٩ — ٧٠ ، وكذا G. Roux, Ancient Iraq, 1980, p. 119-120.

S. L. Woolley, Excavations At Ur, London, 1963, p. 14.

(٧) انظر عن عصور ما قبل التاريخ فى بلاد العرب (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم — الرياض ١٩٨٠ ص ١٩٥ — ٢١٢) .

العربية تحت لواء مقدونيا أو روما أو بيزنطة ، هذا فضلا عن أن الحضارة اليونانية — والرومانية من بعدها — وإن كتب لها بعض النجح في أطراف الجزيرة العربية ، فقد فشلت تماما في أن تنتشر بين ربوعها ، هذا إلى أن العرب القدامى انما قد لحقظوا بلغتهم العربية — اللغة السامية الام — بعيدا عن سيطرة اللغات «الهندو — أوربية» حتى جاء الاسلام الحنيف ، فكانت لغة القرآن ، ورسول الحضارة الاسلامية الى البشرية جمعا .

ومن ثم فيمكننا القول أن شبه الجزيرة العربية لم تمر في تاريخها القديم بالفترة التي نطلق عليها فترة العصور اليونانية الرومانية (العصر الهلينستي) في الشرق الادنى القديم ، وبالتالي فقد استمر تاريخها القديم حتى ظهور الاسلام ، أي أن التاريخ العربي القديم انما يبدأ منذ عصور ما قبل التاريخ ، وينتهي في بداية القرن السابع الميلادي ، حيث بدأ التاريخ الاسلامي ^(٨) .

(٢) نشأة علم المصريات :

يكاد يجمع العالم المتحضر كله على أهمية دراسة الحضارة المصرية القديمة ، وعلى حد تعبير مؤرخ أوربي كبير ، ولا نقول مصري : لا تكاد اليوم توجد جامعة في العالم تحترم نفسها ، ليس فيها كرسي للدراسات المصرية القديمة — أو كما يسمونه «علم المصريات» (Egyptology) — بل انهم هناك في أوروبا وأمريكا أنشأوا الاقسام والمعاهد المستقلة لدراسة «علم المصريات» ، وإن كان الامر في مصر والعالم العربي يختلف عن ذلك كثيرا ، حتى أصبح عدم العناية بتاريخنا العربي في عصوره القديمة أمرا تكاد تنفرد به جامعاتنا ، وإن زاد الاهتمام في السنوات الاخيرة بتاريخنا وآثارنا المصرية — بعد انشاء كلية الآثار — بجامعة القاهرة — ومن ثم فقد انتشرت أقسام الآثار المصرية في جامعات : الاسكندرية

(٨) نفس المرجع السابق ص ٢٢ .

وطنطا والمثيا وسوهاج وقنا ، كما أُنشئ منذ عامين في جامعة الزقازيق
المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم •

هذا ومتمتع الدراسات المصرية القديمة في العصر الحديث على :
١ - الدراسات اللغوية ٢ - الكشف عن الآثار •

١- الأبحاث اللغوية :

ظهرت الكتابة عند المصريين القدامى منذ الألف الرابعة قبل الميلاد
- وقبل قيام الملكية المصرية حوالي عام ٣٣٠٠ ق.م - وقد استعمل
المصريون أربعة أنواع من الكتابة (واحدة منها بعد ظهور المسيحية) ،
وكانت «الهيروغليفية» (أى المقدسة) التى استخدمت فى النقوش على
جدران المعابد والمقابر ، وخاصة فى تسجيل النقوش الدينية ، وهى من غير
شك النوع الاصيل فى الكتابة المصرية التى تطورت منه كل الانواع
الآخري ، وهى تقرأ أحيانا من أعلى الى أسفل ، وأحيانا أخرى من
اليمين الى اليسار ، وإن قرئت فى أحيان قليلة من اليسار الى اليمين ،
وعندئذ تتجه العلامات ناحية اليمين ، وقد بلغت عدة حروفها عند
اكتمالها أربعة وعشرين حرفاً •

وأما النوع الثانى من الكتابة فهو «المهيراطيقية» ، والتى ظهرت
بسبب تعذر استخدام الخط الهيروغليفى فى الشئون العامة ، ومن ثم
فقد اختزله القوم منذ أوائل عصرهم التاريخى الى نوع مبسط من الخط
عرف بالخط المهيراطى (المهيراطيقى) أى (الكهنوتى) لأنه أسلوب الكتابة
الذى كان يمارسه الكتاب من الكهنة فى كتاباتهم الدينية •

وعلى أى حال ، فلقد استخدمت «المهيراطيقية» فى الكتابة على
أوراق البردى ، وقطع الخزف والخشب ، ودونت بها أغلب آداب
المصريين القدامى ، كما أدى تبسيط الكتابة بهذه الطريقة الى انتشار
تعلمها بدرجة لا بأس بها ، ومن ثم فقد أصبحت فى متناول عدد كبير
من الناس ، هذا ويطلب على الكتابة المهيراطيقية «التشبيك» أى أن

العلامات مربوطة مع بعضها ببعض ، وهى فى أغلب الامر ممدودة جداً ،
اللهم الا فى العلامات الاولى ، التى تتجزأ الى خطوط تقريبا .

وكان ثالث أنواع الكتابة المصرية ما سُمى «أنكوريال» (وطني) ، أو
كما يسميه «كليمنت السكندري» «أبيستولوجرافى» (كتابة الخطابات) ،
وأما العلماء المحدثون فيفضلون تسمية «هيودوت» له «ديموطيقى»
(شعبى) ، وقد تطورت هذه الكتابة من الهيروغليفية حوالى عام ٧٠٠
قبل الميلاد ، على أيام الأسرة الخامسة والعشرين ، وقد كانت فى العصر
البطلمى والرومانى الكتابة المعتادة للحياة اليومية ، وأما مرتبتها فى
الاستخدام فخير ما توصف به أنها غير دينية .

ولما دخلت المسيحية مصر، أراد أنصارها التخلص من الكتابة الوثنية
(كما فعله السوريون عندما أطلقوا على لغتهم الآرامية السريانية) أو
أنهم كانوا فى حاجة الى وسيط أكثر لسهولة ترجمة الكتاب المقدس، مما
كان سبباً فى ظهور «القبطية» كآخر مظهر للغة المصرية ، وكانت تكتب
بحروف يونانية ، مع اضافة سبعة أحرف من الديموطيقية ، للتعبير عن
حروف لا توجد فى اليونانية، أما الادب القبطى فملئ بالكلمات اليونانية،
والمواقع أن مجمل التركيبات يجعلها شيئاً أقرب الى «الرطانة» ، منها
الى وريث طبيعى للغة المصرية القديمة .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن آخر مثال موجود للهيروغليفية
المصرية ، انما هو كتابة وجدت فى جزيرة فيلة ، جنوبى أسوان ، ترجع
الى عام ٣٩٤ م ، كما وجدت كذلك فى نفس الوقت كتابة ديموطيقية ،
ترجع الى عام ٤٧٠ م .

أما القبطية فلا تزال مستعملة فى الكنائس المصرية حتى اليوم ، ولو
أن كتابتها والتحدث بها انما قد انقطع منذ قرون^(٩) ، فلقد حلت اللغة

(٩) محمد جمال الدين مختار : الموسوعة المصرية ١/ ٣٤٠ - ٣٤٤ ،
A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, p. 19-22. وكذا

العربية محل القبطية رسميا منذ عام ٨٨٧ م (٧٠٦م) ، على أيام الخليفة الاموي «الوليد بن عبد الملك» (٨٦ - ٨٩٦ = ٧٠٥ - ٧١٥م) (١٠) ، وان كان «أدولف جروهمان» (١١) قد عثر على وثيقة ترجع الى عام ٨٢٢ م (٦٤٢م) ، وقد كتبت باليونانية والعربية ، على أن انتشار اللغة العربية بين المصريين - غير المسلمين - إنما كان بعد الفتح الاسلامي بقرن وان ذهبت آراء الى أن اللغة العربية لم تصبح لغة التخاطب العامة لكل المصريين ، مسلمين ونصارى ، الا في القرن الخامس الهجري (العاشر الميلادي) لكي يفهمهم سامعهم (١٢) .

وهكذا نسي الناس الكتابات المصرية القديمة، حتى أصبحت معلوماتنا عن الحضارة المصرية القديمة ، وحتى قرنين مضيا، إنما تعتمد في الدرجة الاولى ، على ما جاء في التوراة وعلى ما كتبه القدامى من كتاب الاغارقة والرومان ، فضلا عما نقله البعض - ان صدقا أو كذبا - من كتابات المؤرخ المصري «مانيتو» .

وهكذا كانت الحضارة المصرية القديمة بدأت تغيب عن الأذهان شيئا فشيئا ، وخاصة بعد أن تكاثفت عوامل كثيرة على انتقال مركز الثقل السياسى من مصر الى ما سواها من دول العالم القديم، وبعد أن أنشأ الحكم الرومانى على مصر بكله ، وبعد أن اعتنقت مصر النصرانية ، وأصبحت المعابد والاهرام والمقابر دليل الرجس والكفر والسفرة ، وانزوت حضارة الفراعين قرونا وقرونا ، وطوى الماضى المزهى السحيق، ليحل محله أحاديث وقصص تقوم على الخرافات والاراجيف ، وتعتمد على الخيال ، حتى أصبح الناس لا يذكرون آثار مصر وحضارتها ، الا

(١٠) المقريزى : الخطط ١/ ٩٨ ، الكندى : الولاة والقضاة - بيروت

١٩٧٨ ص ٥٨ - ٥٩ .

11. Adolf Grohmann, From The World of Arabic Papyri. Cairo, 1952.

(١٢) أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر - القاهرة ١٩٧٠

ص ١ - ٥٥ .

مقرونة بالأساطير والسحر ، وإن زاد ذلك عند المؤرخين المسلمين زيادة كبيرة (١٣) .

وظل الامر كذلك حتى القرن السابع عشر الميلادي فعبدوا بعض الرحالة والسياح في زيارة مصر على فترات متباعدة ، حيث شاهدوا أهرامها وبعض معابدها ومقابرها ، وتخيلوا عنها وعن أسرارها ، ما شاء لهم خيالهم ، وربما كان من أهم هؤلاء الاب اليسوعي «سيكار» (١٦٧٧ - ١٧٢٦م) ، وهو أول من وصل الى أسوان من أولئك الذين سعوا وراء البحث والتحرى من المحدثين نسبيا ، وقد أعاد للكشف عن موقع طيبة ، وهو يزعم أنه زار أربعة وعشرين معبدا ، وأكثر من خمسين مقبرة صخرية ملونة أو منقوشة ، ولعل أهم ما أسهم به هو الخريطة التي استخدمها بعد ذلك «دانفيل» أسسنا لخريطته عن مصر ، التي ظهرت في عام ١٧٦٦م .

ولعل أهم ما يمكن الإشارة اليه من الكتب السياسية عن مصر ، كتاب «نوردن الدينيراكي» (١٧٠٨ - ١٧٤٢م) و «ريتشارد بوكوك» الانجليزى (١٧٠٤ - ١٧٦٥م) و «جيمس بروس» (١٧٣٠ - ١٧٩٤) ، وإن كان قد نشر قبل عصرهم بزمان طويل مقال عن الاهرام ، وهو «البيراميدوجرافيا» (Pyramidographia) للفلكي الانجليزى «جون جريفر» (١٦٤٦) (١٤) .

غير أن هؤلاء وأولئك لم يقدموا لتاريخ الحضارة المصرية القديمة شيئا ذا قيمة يعتمد به في مجال البحث العلمى الصحيح ، حتى رأينا الاب اليسوعي «أثناسيوس كيرشر» ، والذي يعد صاحب نقطة البدء الحقيقية لدراسة القبطية^(١٥) ، وإن لم يستطع أن يمنع نفسه من التردى

(١٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٤ .

14. A. H. Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, Oxford, 1964, p. 19-12.

(١٥) انظر :

Athanasius Kircher, *Lingua Aegyptiaca Restituta*, 1643.

Chronique d'Égypte, 35, p. 240 F.

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 11.

في تفسيرات خيالية بالغة الغرابة للمهرغليفيه ، ومن أمثلة ذلك اسم الفرعون «ابريس» (٥٨٩ - ٥٧٠ ق.م) الذي كتب على مسلة مصرية، إنما يعنى عنده «أن مزايأ أوزير المقدس يمكن ادراكها بواسطة احتفالات مقدسة ، وعن طريق سلسلة من الجن حتى يمكن الحصول على مزايأ النيل»^(١٦) وفي نفس الوقت ، فلقد رأينا «أثناسيوس كيرش» - وكذا «يابلونسكى» (١٦٩٣ - ١٧٥٧م) و «زويجا» في نهاية القرن الثامن عشر - يجمع كل منهم ما قاله أسلافه أو فكروا فيه بالنسبة الى مصر^(١٧) .

وظل الامر كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، حين بدأ العلماء في البحث والكشف عن الآثار المصرية ودراستها دراسة علمية حديثة ، فوصلوا الى الكثير من أسرار أصحابها ، والمدى الذى بلغوه في سلم المدنية والتقدم ، وما قاموا به من أعمال ، مما أتاح الفرصة لاعادة كتابة التاريخ المصرى القديم ، وكشف النقاب عن أصول الحضارة المصرية القديمة .

وجاءت الخطوة الاولى مع حملة «نابليون بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) على مصر في أخريات القرن التاسع عشر (١٧٩٨ ع - ١٨٠١م) اذ أحضر معه طائفة من العلماء درسوا مصر دراسة علمية شاملة ، وكان من بين هذه الدراسة آثار مصر ومعالمها التاريخية ، والتي نشرت نتائجها في كتاب علمى ضخيم من أربعة وعشرين جزءاً هو كتاب «وصف مصر» (Description de l'Egypte) الذى نشر في بلريس فينما بين عامى ١٨٠٩ ، ١٨١٣م ، وكان بداية الاعمال التى تهدف الى دراسة تاريخ مصر القديمة دراسة واقفية .

وقد صادف هذه الخطوة ، خطوة أخرى طيبة ، اذ عثر أحد رجال الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١م) في عام ١٨٩٩ على الاثر المعروف

16. Obelisci Aegyptiaci onder Pretatio, Rome, 1666, p. 53.

17. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 11.

باسم «حجر رشيد» (Rosetta Stone) ، وهو حجر من البازلت الاسود عثر عليه الضابط الفرنسى «بيير فرانسوا - اكسافيه بوشاده» (١٧٧٢ - ١٨٣٢م) فى أغسطس ١٧٩٩م ، أثناء أعمال نقل الاتربة فى قلعة «جوليان» فى حائط قديم بهذه القلعة على مقربة من رشيد ، ثم أرسل الحجر بعد ذلك الى المجمع العلمى المصرى بالمقاهرة ، حيث اهتم به العلماء ، كما أمر نابليون بطبع عدة صور من النقش المسجل على الاثر ، لترسل الى العلماء فى مختلف بقاع أوربا ، ثم نقل بعد ذلك الى منزل الجنرال «مينو» بمدينة الاسكندرية .

وقد حاول الفرنسيون بعد ذلك الخروج بحجر رشيد من مصر ، غير أن هزيمتهم فى «أبو قير» فى أغسطس ١٧٩٨م ، أدت الى انتقال كل الآثار التى معهم ، ومنها حجر رشيد ، الى أيدي الانجليز ، بمقتضى المادة السادسة من معاهدة العريش التى عقدت فى يناير ١٨٠٠م ، ومن ثم فقد نقل الانجليز حجر رشيد فى فبراير ١٨٠٢م الى انجلترا ، حيث أودع الجمعية الاثرية بلندن ، ثم نقل الى المتحف البريطانى بعد ذلك .

هذا وقد نقش على حجر رشيد هذا ، قرار مكتوب بلغتين (المصرية واليونانية) وبكتابات ثلاث (الهروغليفية والديموطيقية واليونانية) ، وقد أصدره مجمع الكهنة المصريين فى منف فى ٢٧ مارس عام ١٩٦ ق.م ، تمجيذا للملك «بطليموس الخامس» ابيفانس (٢٠٥ - ١٨٠ ق.م) ، وشكرا له على اعفاء معابدهم من تكاليف فرضها أسلافه عليه ، ومنحهم الهبات والهدايا ، كما رمم وبنى بعض المعابد ومقاصير الالهة ، وقدم الهدايا الى أبيس ومنفيس وكل الحيوانات المقدسة فى مصر (١٨) .

وأما النصان الديموطيقى واليونانى فيكادان أن يكونا كاملين ، وأما النص الهروغلىفى فلم يكن كذلك ، وسرعان ما ثبت أن هذه الوثيقة

18. E. R. Bevan, 'A History of Egypt under The Ptolemaic Dynasty', London, 1927, p. 264-8.

القيمة التي تمنح فرصة لحل الرموز ، أكثر مما أتاح أى شيء آخر قبلها ،
هذا وقد اهتم العالم الفرنسى «البارون سلفتر دى ساسى» بذلك .

غير أن أول خطوة جادة كانت تلك التى قام بها الدبلوماسى
السويدي «أكر بلاد» حيث ركز جهوده على الكتابة المختزلة المنشورة
تحت «الهيروغليفية» مباشرة ، مدركا أنها «الديموطيقية» التى أشار
إليها هيرودوت ، وبعد أن وثق — عن طريق المقارنة باليونانية — من
مكان أسماء الاعلام ، استطاع أن يميز حوالى نصف حروف الهجاء وأن
يستوثق من أن اللغة المستعملة هى التى عاشت بعد ذلك تحت اسم
«القبطية» ، ثم نشر مقالا بذلك عام ١٨٠٢م .

وفي عام ١٨١٤م توصل العالم الانجليزى «توماس يونج» الى صلة
القرابة الشديدة بين طرائق الديموطيقية والهيروغليفية ولاحظ أن القسم
اليونانى من حجر رشيد كان مليئا بكلمات تتكرر . وقد نجح فى تقسيم
الديموطيقية الى ست وثماتين مجموعة من الكلمات معظمها صحيح .

وأما بالنسبة الى الهيروغليفية فقد كانت نقطة البدء عنده أن
الخرائيش أو الحلقات الملكية تحوى أسماء الملوك والملكات ، ومن ثم
فقد استطاع أن يتوصل الى خرطوش «برنيس» ، فضلا عن خرطوش
بطليموس المعروف ، ثم اقترح خرطوشا آخر نسيه الى «تصوتمس»
كما استطاع كذلك أن يميز فى الهيروغليفية حرفى «ف» و «ت» وكذا
المخصص الذى يستخدم فى النصوص المتأخرة لنهاية الكلمات المؤنثة ،
كما تعرف عن طريق المتنوعات فى البرديات الى أن الحروف المختلفة
تستطيع أن تكون لها نفس القوة ، وبالاختصار توصل الى مبادئ
«الجناس» ، وكان كل هذا مختلطا بكثير من البدايات الزائفة ، ولكن
الطريقة التى اتبعها أدت من غير شك الى حل نهائى للرموز (١٩) .

وجاء «جان فرانسوا شامبليون» (١٨٩٠ - ١٨٣٢م) (٢٠) ، حيث كتب له نجحا بعيد المدى في مهمته ، بعد أن ظل حل المشكلة ميروغ منه زمنا طويلا ، بل انه ظل مترددا مدى سنة بعد اكتشافه العظيم في الجزم بأن الهيروغليفية ليست كتابة رمزية خالصة ، ورغم تردد شامبليون ، فإنه قد أثبت عن طريق مقارنة العلامات الديموطيقية بنظائرها من الخراطيش أن الهيروغليفية تستطيع كذلك - ولو في بعض المقاسبات - أن تصبح مجاثية (٢١) .

هذا وقد توصل «شامبليون» الى الدليل الحاسم عن طريق مسلة مصرية نقلت الى انجلترا في عام ١٨١٩م ، ونشرت نقوشها الهيروغليفية ونقوش أخرى يونانية سجلت على قاعدتها عام ١٨٢١م ، وتضمنت هي الأخرى اسم «بطليموس» و «كليوبترا» وبالمقارنة بين الحروف المشتركة بين الاسمين ، وضح ثلاثة عشر حرفا ، ذات اثني عشر صوتا ، وكان هذا السلاح الجديد دافعا على أن يقدم على تمييز الكتابة الهيروغليفية عن الكتابات التي تحمل أسماء ، الكسند وبرنيس وتيريهوس ودومسيان وتراجان ، الى جانب الألقاب الرفيعة مثل «أوتو كراتور» وقيصر وسكستوس ، وهكذا أمكن الوصول الى حل فيما يتصل بخراطيش العصر اليوناني الروماني (٢٢) .

(٢٠) ولد جان فرانسوا شامبليون في ١٢/٢٢/١٧٩٠م ببلده «فيجاك» بمقاطعة اللوت ، وفي عام ١٨٠٤م التحق بمدرسة ليسيه جرينويل حيث درس اليونانية واللاتينية ، ثم عكف على دراسة العربية والعبرية والكلدانية والسريانية والقيبطية والفارسية والاثيوبية ، وفي عام ١٨٠٧ كتب بحثه «مصر تحت حكم الفراعنة» ، وفي نفس العام التحق بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، وفي عام ١٨١٥م عين مدرسا بكلية الآداب في جرينويل ، ولكنه طرد منها عام ١٨١٥م ، فعاد الى فيجاك ، ومنها الى باريس حيث تم له اكتشاف اللغة المصرية القديمة عام ١٨٢١م ، ثم زار مصر في الفترة (١٨٢٨ - ١٨٣١) ، وفي مارس عام ١٨٣١م عين أستاذا في الكوليج دي فرانس ، حيث بقي في باريس حتى موته عام ١٨٣٢م (شامبليون : نشرة المتحف المصري عام ١٩٧٢) .

21. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 13.

JEA, 44, 1958, p. 123.

(٢٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٦ ، وكذا =

ثم سرعان ما استطاع أن يحل الرموز الهيروغليفية بعد ذلك ، وأن ينشر جانبا كبيرا من أبحاثه في «خطاب الى ميسيو داسيه عن أبجدية الهيروغليفية الصوتية»^(٣٣) في عام ١٨٢٢ م ، و «موجز للنظام الهيروغليفي»^(٣٤) في عام ١٨٢٤ م ، وأن ينجح قبل موته - وهو في الاربعين من عمره - في أن يكشف عن المعنى العام لمعظم النصوص التاريخية .

وتابع العلماء بعد ذلك الدراسات اللغوية على الآثار وصفحات البردي ، جيلا بعد جيل ، مما أدى الى تقدم الدراسات اللغوية حتى أصبحت اللغة المصرية القديمة تعرف اليوم بما لم تعرف به لغة قديمة أخرى من الصحة والوضوح^(٣٥) ، هذا وقد استطاع «كارل ريتشارد لبيسيوس» (١٨١٠ - ١٨٨٤م) في مقال نشر عام ١٨٣٧م ، أن يسكت نهائيا أصوات أولئك الذين كانوا لايزالون يرتابون في صحة حل الرموز ، وكان من أوائل الباحثين في هذا المضمار «صموئيل برش» (١٨١٣ - ١٨٨٥م) و «ادوارد هنكس» (١٧٩٢ - ١٨٦٦م) ، ثم ظهر بعد ذلك بقليل «ك. و. جودوين» في إنجلترا ، ثم «دي روجيه» و «شابات» و «ديفيريا» في فرنسا ثم أعظمهم جميعا «هينرش بروجش» (١٨٢٧ - ١٨٩٤م) في ألمانيا .

ثم هناك كذلك «يوهان بيتر أدولف أرمان» (١٨٥٤ - ١٩٣٧م) الذي استطاع مع تلاميذه ، بخاصة «كورت هينرس زيت» (١٨٦٩ - ١٩٣٤) أن يضع حدودا مميزة بين المظاهر المختلفة للغة ، وأن يضع أسس قواعد علمية لكل منها ، وما قام به «فرنسيس للون جريفث» (١٨٦٣ - ١٩٣٤م) الذي برزت عبقريته الممتازة كعالم في الكتابات

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs 1964, p. 13. =

Egyptian Grammar, 1966, p. 12-15.

23. Lettre M. Dacier Relative L'Alphabet des Hieroglyphes Ophonetiques, 1822.

24. Precis du Systeme Hieroglyphique, 1824.

(٢٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٦ .

القديمة ، مكتته من قسراء مختلف الخطوط الهيروغليفية والديوطيقية بصورة يذبحها كل من سبقوه (٣١) .

٢ - الكشف عن الآثار :

وأما عن البحث عن الآثار ، فمن المؤسف حقا ، أن صاحب هذه الفترة (أى منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر) فترة تعتبر من أظلم وأبشع الفترات التى مرت على آثار مصر - بل وأمم الشرق الأدنى القديم - اذ كانت فترة نهب وتخريب ، فقد كان الحفار يبحث فقط عن التحف الغالية ، غير عابىء بالطريقة التى يعثر بها عليها ، ولا بدراسة ، حتى وان كانت سطحية ، عن ظروف المكان الذى يعمل فيه ، ولا بالمحافظة على الآثار المنقولة العادية ، مثل الفخار الذى يساعد على التأريخ ، ويحدد مراحل التطور فى الحضارة (٣٢) .

وهكذا ظهرت طائفة من الاجانب من أديعاء البحث الاثرى ، كان أغلبهم أفاقين نهاين ، اجتذبتهم الشهرة التى عمت العالم عن كنوز مصر وقنونها وعجائبها ، والرغبة فى تحصيل الثراء عن أقرب طريق ، وشجعهم على ذلك استعداد المتاحف الاجنبية وكبار الاثرياء على شراء كل ما يعرضونه عليهم منها ، ويسر لهم ذلك فتح أبواب مصر فجأة أمام الاجانب ، منذ أيام الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١م) وأيام محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٩) ، بعد أن كانت موصدة أمامهم فى عهد سيطرة العثمانيين ، ثم معاونة القناصل لهم ، واستخدامهم اياهم لصالحهم فى فترات الضعف من عهد محمد على ، وعن طريق هؤلاء جميعا وعلى رؤسهم (جيوفانى بلزوني) الايطالى و «فردريك كايو» الفرنسى

26. F. L. Griffith, The Decipherment of The Hieroglyphs. JEA, 37, 1951, p. 38 F.

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 16.

27. G. E. Daniel, A Hundred year of Archaeology, London, 1949.

W. R. Dawson, Who Was in Egyptology, London, 1951.

S. R. K. Glinville, The Growth and Nature of Egyptology, London, 1947.

(١٧٨٧ - ١٨٦٨م) انتقلت كنوز مصرية كثيرة الى المتاحف الاوربية ،
والى مجموعات الاثرياء ، ولم تقتصر شرورها على تسرب آثار مصر
الى الخارج ، وانما امتدت شرورها الى تحطيم الهش من هذه
الآثار ، وتحطيم المئات من للجثث مما لم يكن الافاقون يقدرون له
أهمية مادية كبيرة (٢٨) .

ومن عجب أن تنتقل حتى المسلات فهناك - غير تلك التى تقوم الان
فى ميدان اللاتيران بروما منذ عام ١٥٨٨م - مسلتان للفرعون العظيم
«تحتومس الثالث» ، الواحدة نقلت الى لندن، حيث أقيمت على شاطئ
التايمز عام ١٨٧٧م ، بعد أن كان محمد على قد أهداها للانجليز عام
١٨٣١ ، والاخرى نقلت الى نيويورك، حيث أقيمت فى «سنترال بارك» ،
ومن عجب ، بل قل من الجهل الفاضح ، أن المسلتين انما تسميان باسم
واحد ، هو «مسلة كليوباترا» .

على أن هذا كله ، لا يمنع من القول بأن هناك من كانوا على غير
ما ذكرنا آنفا ، كما أن هناك بعثات أجنبية منظمة ، جاءت للكشف عن
الآثار المصرية ، فضلا عن أولئك الذين قاموا بجهود فردية ، ومنهم
«سير جون جاردنر ويلكنسون» الانجليزى ، والذى قام بزيارة موقع
«العمارنة» (أخيتاتون) عام ١٨٢٠م ، حيث كشف هناك عن عدة
مقابر (٢٩) ، هذا فضلا عن رحلة «شامبليون» بصحبة «روسيليني»
الايطالى عام ١٨٢٨ ، التى قدمت مجموعة ضخمة من الرسوم نشرت
فى مجلدات من الحجم الكبير (٣٠) ، ثم تلت ذلك بعثة بروسية برئاسة
العالم الكبير «كارل رتشارد لمبسيوس» بزت الجهود السابقة بالمجلدات

(٢٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

29. J. G. Wilkinson, Manners and Customs of Ancient Egyptian, London, 1837.

30. Ippolito Rosellini, I monumenti deli Egitte e delia Nubia, Disegnati della Spedizioni Scientifico Litteraria Toscana in Egitti, Rome, 1832-1844.

ولم تكن بريطانيا متوانية في هذه المرحلة ، فسرعان ما ظهر فيها «روبرت هاى» و «جيمس برتون» وقد انتجا — بالتعاون مع جون ويلكنسون — مجموعات لا نظير لها من جزازات النقوش واللوحات الملونة ، والكتابات التى لا تزال لها قيمتها الكبيرة حتى اليوم، لأن أصول كثيرة منها بليت ، أو نالها الكثير من التلف (٣٢) .

وأخيرا تنبعت الحكومة المصرية الى أهمية الاثار المصرية ، ومن ثم فقد بدأ الاتجاه الى انشاء متحف مصرى منظم للآثار ، وان اكتفت في هذه المرحلة بانشاء ادارة للآثار ، وبتخزين المكتشف منها في دار بالانبركية مدة ، وفي دار بالقلعة مدة أخرى ، حتى جاء العالم الفرنسى «أوجست فرديناند فرانسوا مارييت» (١٨٣١ — ١٨٨١م) ، وكان من المقربين الى الخديوى سعيد باشا (١٨٥٤ — ١٨٦٣) ، ومن ثم فقد نجح في تأسيس متحف بولاق عام ١٨٥٩م ، والذي نقل الى سراى الجزيرة في عام ١٨٩١م ، وأما المتحف المصرى الحالى ، الموجود الان بميدان التحرير بالقاهرة فقد أنشئ في عام ١٩٠٢ .

ونشط التنقيب عن الآثار في هذه الفترة بمولفة الدولة ، وترأسه «ملعيت» — وكان قد عين مديرا لمصلحة الآثار عام ١٨٥٨ — وقد قدر لهذا الرجل أن ينقب في أرض مصر هراة ثلاثين عاما ، أظهر فيها نشاطا كبيرا وبخاصة في منطقة منقارة .

وجاء العالم الفرنسى «جاستون ماسبرو» (١٨٤٦ — ١٩١٦) مديرا لمصلحة الآثار بعد مارييت ، وكان أول من أباح للبعثات العلمية حق

31. K. R. Lepsius Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien. Berlin, 1849.

32. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 15.

التنقيب العلمى فى مصر ، فتألفت على أثر ذلك جمعيتان ، الاولى «جمعية الكشوف الاثرية المصرية» فى لندن (Egypt Exploration Society) والثانية جمعية فرنسية فى القاهرة (La Mission Archeologique Franise au Caire) فبدأت بذلك عصر البحوث العلمية المنظمة ، وأخذ علم الآثار يركز على دعائم قوية ، ومتطور على أيدي علماء مبرزين .

وقد دخلت أمريكا الميدان متأخرة بوان استطاعت أن تعوض ما فاتها من زمن ، حتى لتشهد النشر الرائع لمقابر طيبة الذى قام به «متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك» (Metropolitan museum of Arts in New York) لذى يرجع الفضل فيه الى العاملة الانجليزية «نورمان دى جارس ديفز» (١٨٦٥ - ١٩٤١) ، وكان يبرزها فى أهميتها العمل فى المقابر، الذى قام «معهد الدراسات الشرقية فى جامعة شيكاغو» (Oriental Institute of The University of Chicago) ، وهو المنظمة الاثرية الكبيرة التى تدين بوجودها الى همّة العالم الأمريكى الكبير «جيمس هنرى برستد» (١٨٦٥ - ١٩٣٥) .

ومع ذلك فقد ظل الحفر العلمى بطيئاً فى أول الامر ، حتى علم ١٨٨٤م ، حين استخدم «سير وليم ماثيوس فلنדרز بترى» (١٨٥٣ - ١٩٤٢) ، وربما كان أنجح الحفارين جميعاً ، أكثر الوسائل دقة ، كما كان مثلاً طيباً ، لم يحتد الا فى النادر القليل ، للنشر السريع لنقائج بحوثه (٣٣) .

وعلى أى حال ، فلقد وفدت الى مصر بعثات أثرية كثيرة أوفدتها الجمعيات والجامعات الاوربية والامريكية منذ عام ١٨٩٠م واستمر لها نشاطها خلال القرن العشرين فى صعيد مصر ودلتاها وبلاسيما فى مناطق الجيزة وسقارة والفيوم وتل العمارنة وأبيدوس وطيبة ونقادة ونخن

33. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 15-16.

والكاتب ، فكشفت عن قرى ومدن وأهرام ومعابد ، واستخرجت كنوزا ، ونشرت مخطوطات ووثائق ونصوص كثيرة (٣٤) .

(٣) منهج البحث في التاريخ القديم :

لعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أن منهج البحث في التاريخ القديم ، لا يختلف عن غيره من فروع التاريخ الأخرى (الوسيط والاسلامى والجديد) الا في أمور تتعلق به وحده ، وخاصة في العلوم المساعدة لدراسة عصور ما قبل التاريخ ، فضلا عن حاجة الباحث في التاريخ القديم الى دراسة علوم معينة كالآثار واللغات القديمة مثلا .

وعلى أية حال فمعنى البحث : هو التعرف على الطريقة أو الوسيلة أو المنهج الذى يقود الباحث الى الطريق الصائب الذى يستخدمه في سبيل الوصول الى الحقيقة التاريخية ، فالمنهج Method اذن : هو نوع من التنظيم العقلى ينبغى على الباحث اتباعه في سبيل الوصول الى الحقيقة التاريخية ، وهو الخطة أو التخطيط لعملية كتابة التاريخ ، ولا كان التاريخ هو تسجيل وتدوين الحقائق التاريخية بالنسبة للأفراد أو الشعوب ، سواء أكان ذلك في المجالات الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية — الداخلية أم الخارجية — ومن ثم فعلى الباحث في التاريخ اتباع منهج معين في طريقة كتابة التاريخ ، حتى يكون معبرا عن الحقائق التى يرغب في تدوينها .

وبدهى أن التاريخ لا يدرس عفوا ، ولا يكتب اعتباطا ، وبدهى أيضا أنه ليس كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخا كما يتصور بعض الناس ، أو كما يتخيل بعض الكتاب — حينما يسطرون صفحات طويلة عن حوادث ماضية أو معاصرة ، ويظنون بذلك أنهم يكتبون تاريخا ماداموا قد أمسكوا بالقلم والقرطاس ، ودارت لهم المطابع ، وملاّت كتاباتهم رفوف المكتبات — ذلك لانه من الضروري أن تتوافر في المؤرخ

(٣٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٧ .

الصفات الضرورية، وأن تتحقق له الظروف التي تجعله قادراً على دراسة التاريخ وكتابته ، ومن ذلك :

(١) صفات المؤرخ :

لعل من الأهمية بمكان - وقبل دراسة منهج البحث التاريخي ، وكيفية التعبير عن الحقائق التاريخية بأسلوب علمي سليم - أن نشير ، باديء ذي بدء ، الى بعض الصفات الأساسية في كاتب التاريخ أو «المؤرخ» ، والتي تنقسم الى قسمين أساسيين : خصال خاصة بشخصية المؤرخ ، وأخرى خاصة بقدراته العلمية :

١ - خصال خاصة بشخصية المؤرخ :

ولعل مما تجدر الإشارة اليه هنا الى أن البحث موهبة فنية تمنح من الله تعالى لبعض الناس ، ولا تمنح لآخرين ، ومن ثم فليس الاطلاع ، ولا جمع المادة العلمية وترتيبها ، بالعناصر الكافية لانقاج بحث أو رسالة ممتازة في التاريخ ، فلا بد من توفر القدرة على البحث عند الباحث أولاً ، ذلك لأن جمع المادة وترتيبها شيء ، وتفسيرها وإبراز أهميتها ، واستخلاص النتائج منها ، شيء آخر بل أن هذا هو الصعب والمهم في كتابة الرسائل العلمية Thesis Writing والابحاث التاريخية . وهنا يجب أن يعرف الباحث أن هناك أمراً لا يمكن التجاوز عنه أو تجاهله ، وهو أن تكون له مقدرة يستطيع أن يستقل بها في فهم الحقائق وفي تفسيرها ، كما أن فهمها وتفسيرها شيء قابل للاختلاف من شخص لآخر ، فإذا لم يكن الباحث قد وهب هذه المقدرة ، فهو دون المستوى اللازم للمناهج العلمي المطلوب (٣٥) .

وعلى أية حال ، فليس هناك من ريب في أن هناك خصالاً خلقية معينة يجب توافرها فيمن يتعرض لمهمة البحث العلمي ، أهمها : الصدق والامانة والاخلاص والنزاهة والشجاعة ، لأنه يستحيل على مؤرخ

(٣٥) أحمد شلبي : كيف تكتب بحثاً أو رسالة - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٧٤ ص ١٠ - ١١ .

الحقائق أن يكون انسلنا مزورا أو كاذبا ، أو غير ممبر عما تنص عليه الوثائق التاريخية .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الثقافة الاسلامية — كما أشرنا من قبل — قد ابدعت في تقويم الرجال فنا قلائما بذاته هو «الجرح والتعديل» (٣٦) ، فقد كان المسلمون يأخذون الاخبار من أفواه الرجال ، ومما قيده في نسخهم ، ناظرين دائما الى هيئة الرجل وصلاته بهم لم يكونوا يفصلون بين علم الفرد وسلوكه ، والفرد — في نظرهم الصائب — وحدة متكاملة ، يؤثر فيها سلوكه على عمله ، أو العكس ، ولا مناص من بحث حاله بحثا متقصيا ، يتناول أدق تفاصيل حياته الذهنية والسلوكية ، ليتمكن قبول نقله أو رفضه ، وما نظن أن ثقافة في الارض قامت على مثل هذا الاساس النقدي المنهجي النزيه ، فذلك شيء تفرد به المسلمون (٣٧) .

هذا وهناك أمر في غاية الاهمية والخطورة في منهج البحث التاريخي وأعني به «الوطنية» ، إذ أن على المؤرخ أن يهتم كثيرا بهذا الامر ، ذلك

(٣٦) انظر عن «الجرح والتعديل» : ابن قتيبة : تاويل مختلف الحديث — القاهرة ١٩٦٦م ، الذهبي : ميزان الاعتدال — تحقيق على محمد البجاوي — القاهرة ١٩٦٣ ، تذكرة الحفاظ — حيدر آباد ١٩٥٨ ، المشته — تحقيق على محمد البجاوي — القاهرة ١٩٦٢ ، ابن أبي حاتم الرازي : الجرح والتعديل — حيدر آباد ، الامام أحمد : العلل ومعرفة الرجال — تحقيق طلعت قسوج واسماعيل أوغلي — انقره ١٩٦٣ ، ابن المديني : العلل — تحقيق مصطفى الاعظمي — بيروت ١٩٨٠م ، الحافظ العراقي : ذيل ميزان الاعتدال — جامعة أم القرى مكة المكرمة ١٤٠٦هـ ، الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية ، حيدر آباد ١٣٥٧هـ ، ابن حجر العسقلاني : نخبة الفكر في مصطلح أهل الاثر — ط مصر ١٣٠٨هـ ، تهذيب التهذيب — حيدر آباد ١٣٢٥هـ ، مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث بيروت ١٩٧٨ ، أسد رستم : مصطلح التاريخ — بيروت ١٩٣٩ ، عثمان موافي : منهج النقد التاريخي الاسلامي — الاسكندرية ١٩٨٤ ، الغزالي : المستصفى في علم الاصول — القاهرة ١٩٣٧ ، الحاكم النيسابوري : معرفة علم الحديث : بيروت ، وانظر : هذه الدراسة ص ١٢٤ .

(٣٧) عهد الصبور شاهين : تاريخ القرآن — القاهرة ١٩٦٦ ص ٨٢ .

لان الوطن عنصر أساسى فى حياة الإنسان ، وأن الولاء للوطن حقيقة لا مرء فيها على الإطلاق ، ومن ثم فينبغى على المؤرخ أن يحاول التعبير عن الحقائق بطريقة مجردة ، ووطنية ، فى نفس الوقت ، حتى لا يقع فيما فيه اليه «كار» من : أننا اذا تناولنا عملا تاريخيا فلاينصب اهتمامنا على الحقائق التاريخية فضعب ، وإنما يجب أن يشمل المؤرخ أيضا ، ذلك لان المؤرخ انما هو ابن عصره ، بل هو أحيانا ابن طائفته وأحيانا أخرى ابن مذهبه وحزبه ، وهو مقيد بهذا كله بحكم اتجاهاته وانفعالاته وميوله ، ومن هنا يمكن القول بأن الحقائق التاريخية والوثائق الاصلية قد تختلط مع الاتجاهات الخاصة للمؤرخ .

وأما الأسلوب العلمى الصحيح الذى يتضح فى الخطوات التالية فقد يساعد المؤرخ فى التعبير عن الحقائق مجردة ووطنية فى آن واحد ، فاذا كان المؤرخ معبرا بصديق ، وبأسلوب علمى ، وبطريقة مجردة ، ومعتمدا على الوثائق الصحيحة الموثوق منهاحولا يتناولها الشك بحال من الاحوال والمعترف بها فى مختلف الهيئات العلمية ، فانه يكون بذلك قد أدى واجبه العلمى الذى يتطلبه علم التاريخ ، والوطنية التى يدعو اليها الوطن ، وعلى أية حال ، فعلى المؤرخ ألا يكون متحيزا ، ولا مهاجما أو مدافعا ، وإنما يذكر الحقائق ، كما نصت عليها الوثائق ثم يؤيد مايتطلبه الواجب الوطنى ، كما أن على المؤرخ أن يحرر نفسه — جهد الطاقة — من الميز أو الاعجاب أو الكراهية ، لغرض خاص ، أو لفاعية تاريخية معينة .

وهكذا فعلى المؤرخ أن يكون موضوعيا ، غير متأثر بالعوامل الذاتية وألا يجعل لآرائه الشخصية أو معتقداته الدينية أو اتجاهاته السياسية دورا فى تغيير الحقيقة أو طمس معالمها ، كى تخدم إراءه ومعتقداته ، وصدق الله العظيم حيث يقول «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شئتان قوم على ألا تعذلوا ، أعدوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خير ما تعملون» (٢٨) ، كما أن على

المؤرخ ألا يقوم بدراسة موضوع ما ، وقد عقد العزم مقدما — وقبل بدء الدراسة — على تحقيق نتائج معينة ، بل عليه أن يضع فكره وثقافته وميوله في خدمة البحث العلمى وحده (٣٧) .

ولعل مما تجدر الإشارة اليه أن يعى المؤرخ تماما ، أن مهمته ليست إصدار أحكام الزيف والضلال على الماضي ، أو أن يجعل من نفسه واعظا عقائديا ، لن يؤدي إلا الى أحكام خاطئة ، إذا قيست بأحكام العصر الذى يدرسه ، ذلك لان كل عصر تاريخى ، بل لكل حقبة ، كما أن لكل حضارة شخصيتها وقيمتها ، وليس من شأن المؤرخ أن ينظير الى الماضي من خلال معايير الحاضر ، لان الانسان ليس شكلا ولا طابعا ولا نمطا واحدا ، ومن ثم ينبغي التعبير عن كل عصر بتعبيرات خاصة به ، لان لكل عصر — كما أن لكل أمة — طابعا فريدا لا يتكرر بغليست الحضارة المصرية القديمة كالحضارة الصينية أو اليونانية أو الرومانية، وانما تشكلت كل منها بطريقة متميزة منفردة ، ومن ثم فقد وجب على المؤرخ أن يتعاش مع العصر الذى يدرسه ، وأما تجاوز ظروف الزمان والمكان ، وإصدار أحكام مطلقة ، فهذا أسوأ شئهم للتاريخ ، فمثلا ليس شكسبير هو سوفوكليس ، ولا ميلتون هو هوميروس ، كما أن المتنبي ليس هو شوقي ، ولا سعد زغلول هو جمال عبد الناصر (٣٨) .

وأخيرا على المؤرخ أن يكون صاحب احساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال ، وأن يكون بعيدا عن الشهرة أو الظهور ، وأن يكون محبا للدرس ، جلدا صبوراً ، فلا تمنعه وعورة البحث أو الصعاب والعقبات عن مواصلة العمل ، ولا توقفه قلة المصادر ، ولا يصرفه عن عمله غموض الوقائع والحقائق التاريخية واختلاطها واضطرابها .

ب - وأما بالنسبة للقدرات العلمية للمؤرخ : فيجب أن يكون عند

(٣٩) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٢٥

(٤٠) أحمد محمود صبحى المرجع السابق ص ٢٨ ، وكذا

Patrick Gardiner, in *Encyclopædia of Philosophy*, pp. 486-499.

المؤرخ قدرات واستعدادات تدريجية في الناحية اللغوية والعلمية، تتصل
بصفة خاصة بفرع التاريخ الذي يدرسه ، وفي الواقع أن هذه الصفات
إنما هي نقطة أساسية ومكملة لصفات المؤرخ — الإنفة الذكر — لان
توفر الصفات الخلقية النبيلة في المؤرخ ، ليست وحدها بكافية لاداء
عملية التأريخ ، وإنما تكملها عملية الاستعداد العقلي والعملي لاداء هذه
المهمة ، وأول جوانب هذه المهمة هي قدرته اللغوية ، وخاصة لغة العصر
موضوع دراسته ، والتي كتبت بها الوثائق المنتمية لهذا العصر ، لان
اللغة هي وسيلة التعبير ، ومن ثم فعلى المؤرخ أن يحرص بمداولتها ،
وما تريد أن تعبر عنه ، وأنطلاقا من كل هذا ، فعلى دارس التاريخ
الفرعوني — مثلا — أن يعرف اللغة المصرية القديمة ، بكتابتها المختلفة
(هيروغليفية وهيروغليفية وديموطيقية) ، وعلى دارس التاريخ الاسلامي
أن يجيد اللغة العربية ، وهكذا .

وليس هناك من ريب في أن ملكة النقد ، إنما هي من الصفات
الضرورية للمؤرخ ، فلا يجوز له أن يقبل كل كلام ، أيا كان قائله من
ذوى الشهرة والرنين ، وكل واحد من الناس يؤخذ من قوله ، ويرد عليه
الا سيدنا رسول الله ﷺ فهو وحده المعصوم عن أن يقول إلا ما هو
حق وهدى^(٤١) ، كما أن على المؤرخ ألا يصدق كل وثيقة أو مصدر بغير
الدرس والفحص والاستقصاء ، فيأخذ منه ما يرى أنه الصدق — أو
ما هو قريب من الصدق — ويترك ما يتنافى مع ذلك ، حتى إذا كان هذا
الصدق يتنافى مع عواطفه الشخصية أو للوطنية ، فالحق أحق أن يتبع ،
وكل وثيقة أو مصدر ، يؤخذ منه ، ويرد عليه ، الا القرآن الكريم، كتاب
الله الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد»^(٤٢) .

(٤١) محمد بيومي مهران : السيرة النبوية الشريفة — الجزء الثالث
بيروت ١٩٩٠ ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٤٢) سورة فصلت : آية ٤٢ ، وانظر : سورة البقرة : آية ٢٥٢ ،
ال عمران : آية ٣ ، ٦٢ ، النساء : آية ٨٧ ، الكهف : آية ١٣ ، فاطر : آية
٣١ ، الزمر : آية ٢ ، ٤١ ، الجاثية : آية ٦ ، محمد : آية ٢ .

وفي الواقع ان المؤرخ اذا ما أعوزته ملكة النقد سقطت عنه صفته ، وأصبح مجرد شخص يحكى كل ما يبلغه ، على أنه حقيقة واقعة ، ومن ثم فعلى المؤرخ أن يفهم آراء الغير ، وأن يكون دقيقا في نقل عباراته ، فكثيرا ما يقع بعض الباحثين في أخطاه جسيمة بالنسبة لآراء الآخرين ، إما خطأ في النقل ، أو لسوء فهم ، كما أن على المؤرخ أن يفتح عينيه وقلبه لما يقرأ ، وأن يكون حذرا ، فلا يسلم تسليما مطلقا بالآراء التي قررها باحثون من قبله ، بل لابد له من أن يفكر فيها ، ويمعن النظر في محتوياتها ، وما أكثر الامثلة التاريخية التي خالف فيها الباحثون السابقين ، وانطلاقا من كل هذا ، فعلى المؤرخ أن يدرس بنفسه الاحداث والاسباب التي أدت اليها ، ثم يقارن النصوص بعضها ببعض ، وأن تبرز في كل مراحل البحث شخصيته ، بصفة ايجابية مؤثرة ، ولكن حذر من المبالغة في ذلك ، فيحاول الباحث بالحق والباطل أن يصل الى ما يريد فهذا ما يجب أن يبعد عنه طالب العلم ، البعد كل البعد (٤٣) .

ولعل من الاهمية بمكان أن يعي المؤرخ أن التاريخ ليس مجرد وثائق ومستندات ، ذلك لان مجرد تجميع المادة التاريخية إنما يجعل من التاريخ عملا من أعمال « القص واللصق » ، ومن المؤرخ مجرد كاتب حصيليات ، ككاتب « الارشيف » ، فالمؤرخ الحق لا ينظر الى مادته التاريخية نظرة « برانية » ، وإنما ينظر اليها من خلال الوقائع ليكشف الفكر الذي يتبطنها ويحركها ، أى الفكر الكامن وراء ماتسرده الوثائق ، وذلك بأن يتمثل الماضى في ذهنه ، أى أن يعيد التفكير فيه على النحو الذي وقع .

وهكذا فإن من يدرس شخصية امبراطور مثلا ، فعليه أن يتمثل الامبراطور ذاته ، كما لو كان في موقفه ، وعليه أن يدرس التصرفات البديلة ، وسبب اختياره لما اختار ، فالمؤرخ إذن يمر بنفس العمليات الفعلية التي مر بها الامبراطور حتى شرع في فعله ، وهكذا يتمثل المؤرخ

تجربة الامبراطور وفكره ، ويتعقل فعله ، وبمعنى آخر ، لابد من اعادة تركيب الماضي في ذهن المؤرخ ، وذلك بالتواجد مع الشخصية موضوع الدراسة ، والنفاذ الى أعماقها ، والتعاطف مع العصر الذي يدرسه كي يفهمه ، وبذلك تصبح الاحداث التاريخية حاضرة ، وتستحيل الوقائع الميتة الى نبضات حية ، ولا يقف تمثل أفكار الآخرين وتجاربهم ، عند مجرد فهم مواقفهم وأفكارهم وسلوكهم ، وانما أن تصبح هذه العملية الفكرية جزءاً من ذات التاريخ^(٤٤) ، يقول كولنجوود : أنه عندما يدرس شخصية للقائد البحري الانجليزي «نلسون» ، فانه يتساءل ما الذي كان يفكر فيه قبل أن يلتحم مع الاسطول الفرنسي عند «أبو قير» - في أغسطس من عام ١٧٩٨م - وحين يقرأ نصاً لافلاطون في مصاورة تيتائوس عن نقده للاحاساس كمصدر للمعرفة ، فانه يحاول أن يتمثل فكر افلاطون ذاته^(٤٥) .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن هناك اعتراضات تاريخية وفلسفية حول هذا الموقف ، فالوضعيون يتساءلون كيف يفكر المؤرخ في نفس ما كان يفكر فيه نلسون ، وليس لديه أدنى فكرة عسكرية بفن المعارك البحرية أو بفكر قادة البحار ؟ ولنفرض أن المؤرخ يدرس شخصية مريض بمرض ذهني مثل «البارانويا» (الشعور بالاضطهاد وجنون العظمة) أو «السادية» (الشعور باللذة في اizard الغير وتأله) ، مثل «راسبوتين» أو «نيرون» ، فكيف يتسنى للمؤرخ أن يتمثل فكر هؤلاء؟

ويرد المثاليون أنه يجب على المؤرخ أن تكون لديه دراسة عميقة وخصبة للنفس الانسانية ، ومن ناحية أخرى هل يمكن أن يصل تمثيل الذات للموضوع حد التطابق ؟ ألا يصح ألا يبلغ المؤرخ حد التمثيل الصحيح أو أن يزيد بخياله خواطر وأفكاراً لم تدر بذهن الشخصية ، موضوع الدراسة ؟

(٤٤) أحمد محمود صبحي : المرجع السابق ، ص ٣٤ ، ٤٨ .

45. R. G. Collingwood, The Idea of History, London, 1946, p. 294.

ويرد «كولنجوود» بأنه لا يتصور التطابق على نحو تماثل شخصيتين كنسختين من أصل واحد ، وانما أن يتمثل المؤرخ الفكر الباطن للآخرين حتى تبلغ منه مرحلة الوعي .

وهناك اعتراض فلسفى آخر : أن فكر المؤرخ انما يعثله حاضره وميوله ومصالحه ، ومن ثم فان ما يعاد تمثيله ، ليس ما كان يفكر فيه الشخص موضوع الدراسة ، وانما ما يفكر فيه المؤرخ ، أى أن المؤرخ انما يخلع تصورات وفكره على غيره ، وبالتالي يفقد التاريخ موضوعيته وتصبح عملية التأريخ أحادية تصويرية ، ويرد «كولنجوود» بأنه لا ريب فى أن المؤرخ على وعى حين يتمثل فكر الغير وموقفه وسلوكه ، ومن ثم فهو لا ينساق فى تجربة ذاتية خاصة ، وانما هو مقيد بتجربة الغير الذى فكر على نحو معين ، وسلك سلوكا خاصا (٤٦) .

بقى اعتراض اخر، هل كل وقائع التاريخ أفكار شخصيات تاريخية ؟ ليس فى التاريخ حضارات أو ثقافات تمثل أفكار شعوب بأكملها وأوجه نشاطها ؟ فكيف يتمثل المؤرخ لغة شعب أو دينه أو أنظمته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ؟

ويعترف «كولنجوود» بأن هذه الجوانب تشكل تاريخا ولكنه يطبعها بطابع الفردية ، فالسياسة نتاج فكر السياسة ، أى أن فكر السياسى هو الذى يحدد سياسته ، ويقاس نجاح السياسى بقدر نجاحه فى التوفيق بين فكره وسياسته العلمية ، وعمل المؤرخ أن يستشف هذا الفكر ، كذلك الحروب من تخطيط القادة الذين يديرون المعارك ، والامر كذلك فى النشاط الاقتصادى ، كذلك الاخلاق محاولة للتوفيق بين ما هو كائن ، وما ينبغى أن يكون ، وذلك موضوع فكر ، ومن ثم «فكل التاريخ تاريخ فكر» (٤٧) .

(٤٦) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٤٨ - ٤٩ .

(٤٧) نفس المرجع السابق ص ٥٠ ، وكذا

R. G. Collingwood, Op. Cit., pp. 280-282.

(٤) العلوم المساعدة للبحث في التاريخ القديم :

يتصل التاريخ القديم بكثير من فروع المعرفة الانسانية ، ومن ثم فعلى من يتصدى لكتابته أن يقوم بتحصيل هذه المعرفة ، ذلك لأنه إن أحسنها ، فهو بالتالى يحسن ما يكتبه من الدراسات التاريخية في هذا الفرع من التاريخ ، وذلك على الرغم من أن «كولنجوود» انما يذهب الى أن التاريخ علم مستقل ، غير أن التاريخ ان انفصل عن بقية العلوم ، انما يصبح علما مبتورا ومنقوصا ، ومن هنا كانت ضرورة التأكيد على عملية «التكامل العلمى» الموجودة فعلا بين مختلف العلوم ، بل ان المؤرخ الانجليزى «ادوار فرمان» انما يذهب الى أن المؤرخ يجب أن يعرف كل شئ : الفلسفة والقانون والاقتصاد والاجناس والجغرافيا وعلم الانسان والعلوم الطبيعية ، ذلك لان المؤرخ معرض لأن يصادف في دراسته للماضى ، مسائل في الفلسفة والقانون والاقتصاد وغيرها ، وبقدرة ما تتعدد معرفته بفروع المعرفة المختلفة ، انما يكون أكثر استعدادا لعمله كمؤرخ (٤٨) .

وعلى أية حال ، فهذه المعارف المختلفة هي ما نسميه بالنسبة لمرضعنا «العلوم المساعدة» أو «العلوم الموصلة» ، وهي بطبيعة الحال تختلف بالنسبة للباحث باختلاف العصر أو الموضوع ، مجال البحث ، فدارس التاريخ القديم مثلا ، انما تختلف علومه المساعدة عن علوم دارس العصور الوسطى ، وهذا تختلف علومه المساعدة عن دارس التاريخ الاسلامى أو الحديث ، بل ان دارس التاريخ القديم نفسه ، تختلف علومه المساعدة — ولكن الا حد ما — باختلاف المكان والعصر .

هذا فضلا عن أنه ليس من الضروري أن يستخدم المؤرخ كل العلوم المساعدة في أبحاثه ، وانما يمكن الافادة منها ، طبقا لمقتضى الحال ، بما يخدم الموضوع الذى يدرسه أو المرحلة التاريخية التى يعالجها ، فمن

(٤٨) لانجلو أوسينوبوس : النقد التاريخى — ترجمة عبد الرحمن بدوى — الكويت ١٩٨١ ص ٣٠ ، ر. ج. كولنجوود : فكرة التاريخ — ترجمة محمد بكير خليل — القاهرة ١٩٦٨ ص ٤٤٩ .

الممكن أن يستخدم المؤرخ أحد العلوم المساعدة عند دراسته لموضوع معين ، ولا يستخدمها عند دراسة موضوع آخر ، أو يستخدمها بشكل مصحوح (٤٩) .

وسوف نناقش العلوم المساعدة في التاريخ القديم هنا بصورتين ، الواحدة : في عصور ما قبل التاريخ ، والاخرى : في العصور التاريخية :

١ - العلوم المساعدة لعصور ما قبل التاريخ :

١ - الجيولوجيا : وهذا الفرع من المعرفة يعنى بدراسة طبقات الارض بقصد تأريخها ، وبالتالي تقدير عمر البقايا والاثار التى توجد بها ، ومن الممكن أيضا عن طريق علم المناخ القديم الذى يستعين بعلم الجيولوجيا ، وعلم المناخ الحديث وغيرهما من العلوم الطبيعية كالنبات والحيوان والتشريح ، بل والعلوم الفيزيائية ، من الممكن أن ترسم صورة للظروف المناخية في فترة محدودة من تاريخ الأرض .

٢ - علم تتابع الطبقات : وهو فرع خاص من علوم الجيولوجيا (Geology) ، ويقوم على قانون الارساب الذى يقول بأن الاعلى هو الاحدث ، ما لم يحدث في الطبقات تغيير في الموضع .

٣ - علم الحفريات القديمة : وهو دراسة البقايا العضوية (النباتية والحيوانية) القديمة (أى المتجمدة) ، وقد أمكن اتخاذ الحفريات القديمة أساسا لتاريخ طبقات الارض ، ويساعد علم الحفريات القديمة على تفهم المسرح الجغرافى الذى نشأ عليه الانسان في العصر الحجري الحديث (البليستوسين) .

٤ - علم الانسان : وهو علم تطور وتسلل الانسان (Anthropology) . ويعتبر من العلوم المساعدة في مجال التاريخ ، بل ان «أتكن» انما يراه أسد العلوم الاجتماعية ملائمة للمؤرخ ، ذلك لان علماء الأجناس

(٤٩) عادل حسن غنيم وجمال محمود حजर : المرجع السابق ص ٢٦ .

والمؤرخين يواجهون مشكلات كثيرة مشتركة ، وتظهر في بحثها أحيانا اختلافات متشابهة في الرأي ، وعلى أية حال ، فإن ما يتوصل اليه علم «الانثروبولوجيا» انما يخدم المؤرخ كثيرا في أبحاثه ، وقد اهتم بعض القدامى بقصد أو بغير قصد - بالربط بين التاريخ والانثروبولوجيا^(٥٠) /

ه - علم تاريخ وتقويم الارض : وقد نشأ حديثا ، وهو فرع من العلم يبحث في وسائل تأريخ الارض ، ويسمى «جيوكرونولوجيا» (Geochronology) ، ويستمد أصوله من علم الجيولوجيا والنبات والحيوان والطبيعة ، ويعتمد على بعض أسس التأريخ ، والتي من أهمها :

أ - طريقة تحليل حلقات الاشجار : وذلك بدراسة حلقات نمو تلك الاشجار ، وتقدير عمرها ، وبالتالي عمر حضارات المجتمعات التي استخدمت هذه الاشجار .

ب - طريقة تحليل رقائق الطمي الجليدى .

ج - طريقة قياس النشاط الراديويمى : وتعرف باسم «طريقة كربون ١٤» ، وتستخدم في المواد العضوية ، وخاصة المواد النباتية ، وهى تقوم على أساس أن كل مادة عضوية بها (كربون ١٤ المشع) و«كربون ١٤ غير المشع» ، بنسب ثابتة ، وأن للنبتة انما يكسب هذا الكربون المشع (كربون ١٤) من تفاعل الاشعة الكونية بالغلاف الجوى المحيط به ، وعندما تنتهى حياة النبات ، يبدأ كربون ١٤ فى التحول التدريجى بسرعة ثابتة ، الى كربون وزنه الذرى ١٢ ، ويفقد ظاهرة الاشعاع .

وقد توصل العلماء الى تقدير نصف عمر «كربون ١٤» وهو ٥٥٦٨

(٥٠) هيج اتيكن : دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية - ترجمة محمود زايد - بيروت ١٩٨٢ ص ٢٦ : وانظر : على محمود اسلام الفار : الانثروبولوجيا الاجتماعية - القاهرة ١٩٨٤ ، وكذا A. Haddon, A History of Anthropology, London, 1927, p. 20-25.

سنة (مع احتمال زيادة أو نقص ٣٠ سنة) وبعد فترة مماثلة يفقد النصف الباقي نصف كميته ، أى أن «كربون ١٤» يصبح في النبات ربع كميته الأصلية ، ثم يصبح بعد حوالى ٣٣٤٠٨ سنة ١/٦٤ من كميته الأصلية.

وهكذا عندما يعثر العلماء على بقايا مواد عضوية — كالقمح والخشب — ففى الامكان عندئذ قياس بقايا «كربون ١٤» المتخلف من هذه المواد ، واحتساب عمرها الأصلي مع الاخذ فى الاعتبار الزمن الذى يستغرقه تحول «كربون ١٤» الى «كربون ١٢» ، وبالتالي يمكن تأريخ الحضارات التى أنتجت هذه البقايا العضوية ، وفى امكان العلماء الان — عن طريق كربون ١٤ — تقدير عمر بقايا حتى ٤٤ ألف سنة ، مع احتمال زيادة أو نقص فى حدود ٣٧ سنة^(٥١) .

على أن هناك من العلماء من لاحظ على اختبارات «كربون ١٤» فى مصر وشمال افريقيا لعينات مؤرخة أصلا ، أن التاريخ الكربونى للمادة السحيقة فى القدم ، انما يقل كثيرا عن التاريخ الذى تقرره النصوص أو الاحداث التاريخية^(٥٢) ، فمثلا أجريت اختبارات لمواد ، أخذت من مقبرة «حماكا» من موظفى الملك وديمو ، من الأسرة الأولى المصرية ، وأخرى من مقبرة الملك «سنفرو» ، مؤسس الأسرة الرابعة ، وكانت النتيجة أن هناك فرقا فى التأريخ يدور فى حوالى ٧٠٠ سنة ، بين الاراء المختلفة^(٥٣) .

هذا فضلا عن أن نتائج «كربون ١٤» ، فيما يتصل بعصور ما قبل التاريخ ، قد شابها كثير من الخط ، ولا يمكن فهم تسلسلها ، ومن ثم فلا يمكن الوصول الى تحديد زمنى قاطع من العينات القليلة ، وذلك لان معظمها قد تعرض للتفزين الطويل ، دونما أية حماية ، مما ينقص

51. - W. F. Libby, Radiocarbon Dating, Chicago, 1952, p. 2 F, 35.

52. - R. M. Derricourt Sadio Carbon Chronology far Egypt and North Africo, in JENS, 1971, p. 271.

53. - H. S. Smith, Egypt and C. 14 Dating, Antiquity, 1964, p. 36.

تأريخها القياسى بسبب الرطوبة^(٥٤) ، مما دعى البعض الى فرض بعض التواريخ المبكرة التى أعطيت لمواقع فى وادى النيل ، ترجع الى عصور ما قبل التاريخ^(٥٥) .

على أن الاعداد المقدرة بطريقة الكربون المشع انما جاءت تتفق مع الاعداد التاريخية من العصر الحالى ، وحتى عصر الملك «سنوسرت الثالث» (١٨٧٩ - ١٨٣١ ق/م) - من الاسرة الثانية عشرة - فمثلا المركب الجنائزى للملك «سنوسرت الثالث» قدر عمرها بطريقة الكربون المشع ، فوجد أنه يرجع الى حوالى ١٨٠٠ ق م ، وهو يتفق مع عمرها التاريخى (حوالى ١٨٣١ ق م) .

وأما فى العصور السابقة لحوالى عام ١٨٠٠ ق م ، فقد وجد أن هذه الطريقة تعطى أعمارا أقل من الاعداد التاريخية للعينات ، فمثلا : أخذت عينة من حصيرة من مركب الملك خوفو ، فوجد أن عمرها يرجع الى حوالى ٢٣٨٥ ق م بينما عمرها المعروف تاريخيا حوالى ٢٦٠٠ ق م .

هذا وقد وجد أن الفرق يزداد كلما زاد عمر العينة ، وقد أمكن عمل جداول لتصحيح نتائج تقدير عمر هذه العينات القديمة التى يرجع تاريخها الى ما قبل ١٨٠٠ ق م ، بمقارنتها بنتائج تقدير عمر الآثار ، بطريقة الحلقات السنوية للأشجار ، ومن ثم يمكن تقدير العمر بطريقة كربون ١٤ ، وتصحيحه طبقا لقانون التعديل ، لنحصل على نتيجة قريبة جدا من العمر الحقيقى للعينة^(٥٦) .

54. R. M. Derricout, Op. Cit., p. 289.

55. C. Flight, A Survey of Recent Results in The Radiocarbon. Chronology of Northern and Western Africa, in JAR, 14, 1937, p. 532.

(٥٦) زكى اسكندر : استخدام العالم الحديث وتطبيقاته فى الميدان الأثرى - القاهرة ١٩٧٢ ص ٩٠ ، وأنظر عن : طريقة كربون ١٤ (محمد بيومى مهران - مصر - الجزء الاول - عصور ما قبل التاريخ - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٧١ - ٢٧٤) .

١ - اللغة : أو فقه اللغة (Phylology) (Philology) لا ريب في أن أول وسائل البحث العلمي ، إنما ينبغي أن تتركز على اللغة والكتابات التي كان الانسان المصري أو السومري أو السامي يعتمد عليها كوسيلة من وسائل التعبير عن مختلف نشاطات حياته ، سواء أكانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو غيرها ، لأنه لا فكاك عن معرفة اللغة الأصلية الخاصة بموضوع البحث التاريخي ، ومهما كان لدينا من ترجمات ، فإنها قد تفتى باحتياجات من يستهدف الحصول على ثقافة عامة ، لكنها لا تكفي المؤرخ أبداً ، فهو يستهدف الفهم الكامل العميق للموضوع الذي يريد أن يتناوله بالدراسة ، أعنى الذي يريد دراسة ناحية من نواحي التاريخ الفرعوني فإنه لا يستطيع أن يقوم بذلك بجدية ، وطبقاً للمنهج العلمي التاريخي ، إلا إذا كان على معرفة جيدة باللغة المصرية القديمة (والتي تسمى خطأ عند العامة باللغة الميروغليفية ، فالهيروغليفية نوع من الكتابة كالهيراطيقية والديموطيقية ، وليست لغة من اللغات) والامر كذلك بالنسبة لمن يريد أن يكتب في موضوع من موضوعات التاريخ الاغريقي ، لابد له من أن يعرف اللغة الاغريقية ، وهكذا في بقية فروع التاريخ ، فالذي يريد أن يكتب في موضوع من موضوعات التاريخ الأوربي الوسيط ، لابد له من معرفة اللغة اللاتينية^(٥٧) .

ومبكذا يستطيع الباحث الاستعانة بالنصوص الرسمية والخاصة التي تنتمي الى العصر الذي يريد البحث عن حقائقه ، ومن الاهمية بمكان الاشارة الى هذه النصوص - رغم اصلتها - فقد تكون مبالغه في التعبير ، ذلك لانها مدونة من قبل الدولة التي تعبر بطريقتها عن أحداث تلك الفترة ، ومن ثم فإن مقارنة هذه النصوص بغيرها من النصوص المعاصرة ، إنما نعتبر خطوة أساسية في هذا المجال^(٥٨) ، هذا

(٥٧) محمد عواد حسين : المرجع السابق ص ١٣٣ .

(٥٨) أنظر كيمثال لاختلاف النصوص : معركة قادش التي حدث عام ١٢٨٥ ق م بين رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق م) - ومملك الحيثيين

وينبغى على الباحث أن يصل في دراسة اللغات الى مرحلة الاحساس بالتعبير ، وليس مجرد الترجمة الحرفية ، حتى يمكن معرفة ما يرغب الانسان القديم التعبير عنه ، وبذلك يكون أقرب الى تأريخ الحقيقة التاريخية .

وهناك فجوات عديدة في التأريخ — بحكم الزمن أو الاحداث السياسية التي قد تشوه أو تعدل من حرفية النص لسبب أو لآخر — فينبغى على الباحث ملاحظة ذلك ، والتيقن من ملء الفجوات ، والامر كذلك بالنسبة الى بعض الكلمات المكسوة أو المحرفة التي تكون قد وردت في النص ، وهنا يجب على الباحث أن يلاحظ كذلك اختلاف التعبير من كاتب الى آخر ، فضلا عن اختلاف الخط ، وخاصة في البرديات المكتوبة بالهيراطيقية والديموطيقية ، فضلا عن الاختلاف في بعض قواعد اللغة المصرية القديمة في الدولة القديمة عنها في الدولة الوسطى ، عنها في الدولة الحديثة ، عنها في العصر المتأخر من تاريخ مصر الفرعونية ، ومن هنا أقر علماء الحراسات القديمة تخصصات في اللغويات ، حتى يتفرغ العلماء لهذه الدراسة الدقيقة من فروع المعرفة المختلفة .

«مواتيلا» (١٣٠٦ - ١٢٨٢ ق م) ، وقد ادعى كل منهما أن النصر كان حليفه فيها ، وقد نقش الفرعون أخبار نصره على كثير من دور العبادة في مصر : في معبد الكرنك على الحائط الخارجى لصالة الاعمدة ، وعلى الحائط الخارجى بين الصرحين التاسع والعاشر ، وفي معبد الاقصر على الصرح الاول ، وفي معبد الريمسيوم على الصرح الثانى ، وفي معبد أبو سمبل الكبير ، كما ذكر في ثلاث برديات ، ريفا وسالييه وقصائد بنتاؤر (انظر : محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٥٢ - ٣٥٦ ، وكذا

A. Burn, in JEA, 7, 1921, p. 194-195.

The Art of War on Land, p. 36-47.

G. Gaball, in JEA, SS, 1969, p. 82-88.

A. Gotze, LDZ, 32, 1929, p. 832-838.

Sir Alan Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 259-264.

F. Daumas, La Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, p. 409-410.

وهنا تأتي أهمية علم «قراءة الخطوط» (Palaeography) فهو علم لازم لدراسة التاريخ القديم والوسيط ، بل والمفترة المبكرة من التاريخ الحديث ، وتبدو أهمية هذا العلم واضحة جلية ، حين يتصدى الباحث لدراسة تاريخ الشرق الأدنى القديم ، وتاريخ اليونان والرومان ، وتاريخ العرب القديم ، وغيره من فروع التاريخ المختلفة ، ولو أخذنا مثالا من التاريخ المصرى القديم ، لرأينا أن المصريين فى عصور الفراعين قد استعملوا كتابات ثلاث هى : المهرىوغليفية والمهرىاطيقية والديموطيقية ولما دخلت المسيحية مصر ، أراد أنصارها التخلص من الكتابة الوثنية — كما فعل السوريون عندما أطلقوا على لغتهم الارامية اللغة السريانية — أو أنهم كانوا فى حاجة الى وسيط لسهولة ترجمة الكتاب المقدس ، مما كان سببا فى ظهور «القبطية» كأخر مظهر للغة المصرية القديمة ، وكانت تكتب بحروف يونانية ، مع اضافة سبعة أحرف من الديموطيقية ، للتعبير عن حروف لا توجد فى اليونانية ، أما الادب القبطى فملئ بكلمات يونانية ، الامر الذى جعل مجمل التركيبات شيئا أقرب الى «الطرائد» منه الى وريث طبيعى للغة المصرية القديمة ، كما سنشير الى ذلك من بعد (٥٨) .

وعلى أية حال ، فما يقال عن الكتابات المصرية القديمة ، يقال أيضا عن انخط العربى القديم ، الذى لايمكن لغير المتخصصين قراءته وتفسيره ومن ثم فقد حرص بعض الباحثين فى التاريخ الوسيط والحديث والمعاصر على اصدار قواميس مساعدة ، لا تقوم بمهمة الترجمة ، بقدر ما تقوم بمهمة تفسير الالفاظ والتعبيرات التى كانت شائعة فى عصرها ، ومن ذلك مثلا : قاموس «دوزى» (R. Dozy) ، وقاموس الاب نخلة اليسوعى (غرائب اللهجة اللبنانية — السورية) ، وكتاب الدكتور أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) (٦٠) .

(٥٩) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الاول — عصور ما قبل التاريخ — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٥٣ — ١٦٢ .
(٦٠) حسان حلاق : المرجع السابق ص ٦٨ .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أن تعلم اللغات القديمة بالذات أمر فيه الكثير من المشقة والعسر ، ومن ثم فقد أخذ الباحثون الشبان من خريجي الجامعات العربية يبتعدون - للأسف عن التخصصات التي تتطلب العلم بهذه اللغات ، وكان من نتائج ذلك تلك الندرة الواضحة في فروع التاريخ القديم بعامة ، وتاريخ الشرق الأدنى القديم بصفة خاصة ، ولعل الايام القادمة تريد من عددهم - خاصة بعد أن أنشئت أقسام الآثار في كثير من الجامعات المصرية والعربية - وذلك لأن تعلم اللغات القديمة ليس بالامر المحال ، بل ان الدراسة الجادة على مدى عام واحد لأية لغة ، قد تكفى لوضع أساس طيب للاستمرار وتحصيل المزيد /

٢ - علم الآثار : (Archaeology) : وهو علم البحث عن أصول الحضارات ، حيث الجذور وتشكيل الذات ، وميدانه هو ما أنتجته يد الانسان في العصور السابقة في كل مكان ، وهو من علوم التأخى بين الشعوب ، يفسر مراحل الاخذ والعطاء بينهما ، وعن طريقه تستطيع كل أمة أن تتعرف بصدق على منابع شخصيتها وقواعد بنيانها ، ويتكون لديها وعى عملى بتراثها المشترك الذى يحدد مكانتها بين مسيرة الامم .

هذا وتحمل الدراسات الاثرية ، بطابعها النظرى ، وميدانها العملى مكانا بارزا بين الدراسات الانسانية المتكاملة بما تقوم عليه من بحوث فى خصائص العمارة والفنون والصناعات ، وما تؤدى اليه من بحوث فى اللغات والعقائد والتاريخ ، وما تمارسه من بحوث فى المجالات العملية للكشف والتنقيب ، ولا ريب فى أن الآثار بفروعها المختلفة ، هى التاريخ الحى لكل أمة ، وهى الشاهد القائم على ما بدأت به حضارة أهلها ، وما تطورت اليه ، وما أسهمت به فى تاريخ البشرية ، كما أنها التعبير الصادق عن أفكارهم ومعتقداتهم وعلومهم فى كل مرحلة من مراحل تاريخهم^(٦١) .

(٦١) عبد العزيز صالح : دليل كلية الآثار - جامعة القاهرة -

ولاربيب في أن تاريخ مصر القديم انما قد كشف عن طريق علم الاثار، حتى أصبحنا اليوم نعرف عن الحياة العادية في مصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ربما أكثر مما نعرف عنها في انجلترا في القرن الرابع عشر بعد الميلاد ، والأمر كذلك بالنسبة الى السومريين والبابليين والاشوريين والحيثيين ، وقد كانت معلوماتنا عنهم قليلة شحيحة ، غير أننا — عن طريق التنقيب — أصبحنا نعرف عنهم ، ربما كل شيء تقريباً (١٣) .

هذا ، ونظراً لان علم الاثار انما يتضمن كافة المخلوقات الاثرية للمجتمعات القديمة ، فيشمل المنازل والقصور والمعابد والمقابر والتماثيل والأواني المختلفة الأنواع والأشكال وغيرها من المخلوقات الاثرية ، ومن ثم فقد اتجه علماء الدراسات القديمة الى تحديد اختصاصات الباحثين في علم الآثار ، فبينما يختص بعضهم بآثار ما قبل التاريخ ، يختص آخرون بآثار الدولة القديمة وهكذا ، هذا وترتبط دراسة الآثار ارتباطاً وثيقاً بدراسة النصوص ، وفي أحايين كثيرة تجمع الآثار بين النصوص والعمائر الاثرية ، وكذا الشقف الفخارية ، ومختلف جوانب المادة الاثرية .

بقيت الإشارة الى أنه لا يوجد حتى الآن حدود واضحة بين علم الآثار والتاريخ ، ومن ثم فعلى الأثرى الاقدر على الملاحظة ، وعلى تسجيل مكتشفاته القيام بتقييمها كمادة تاريخية ، أما اذا لم يكن لديه القدرة على التجميع والتفسير ، فإنه يكون قد احترف عملاً لم يخلق له ، وهنا يكفيه أنه كشف للقارئ العادي — عن طريق مباشر أو غير مباشر — قصولا جديدة في تاريخ الانسان ، وأخرج من باطن الارض ما يثبت قيام حضارة يانعة في الماضي ، وأما مادته الاثرية ، فليس من الضروري أن يتصرف ازماءها وهدموا عنها عليه أن ينشرها مفصلة تفصيلاً

62. Sir Leonard Woolley, Digging-up The Past, (Fefican Book), 1967, p. 23-24.

دقيقا ، حتى يتيح لغيره أن يستنتج منها ما يؤيد وجهة نظره في قضية ما وربما ما يعد ابتكارا جديدا (٦٣) .

(٢) الجغرافيا : لاريب في أن الارتباط بين التاريخ والجغرافيا (Geography) انما هو وثيق الصلة (٦٤) ، فالبحاق — كما يقول المقدسى — تؤثر في المطباع ، ذلك لان الأرض انما هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ ، فضلا عما للظواهر الجغرافية المختلفة — من أنهار وبحار وسهول وجبال وصحارى وغابات وموقع ومناخ وغيرها — من أثر كبير في الانسان ، وبالتالي في التاريخ ، فهي المؤثر في تكوين الانسان وفكره وعقائده وملكوته العقلية وفلسفته وأدبه .

ويدهى أنه لاريب في أن لجغرافية أى اقليم أثرا كبيرا على توجيه مسار تاريخه ، ومن ثم على مصائر أهل هذا الاقليم ، ذلك لان القوم في أية بيئة من البيئات انما يتفاعلون معها تفاعلا تلقائيا تمليه الطبيعة الجغرافية لهذه البيئة ، ومن ثم يتشكل تريخهم بما يتفق وهذه البيئة ، وبالتالي يتحدد مسار تاريخهم /

ولعل من أبرز الامثلة على أثر الطبيعة الجغرافية في تاريخ قوم من الاقوام ، انما كان في «مصر» ، فالنيل — مثلا — هو مصدر حياتها ، وهو الذى شكل تاريخها ، ووجهه الوجهة التى سار فيها ، لقد تعلم منه سكانها ، هندسة الرى ، وأدركوا منه معنى الوحدة والتعاون ، وجعلهم من أغنى شعوب العالم القديم وأسبقهم الى الاخذ بأسباب التقدم الحضارى .

وفي الواقع ، فلقد كان فيض النيل صاحب الزمزم في الحياة المصرية ومفتاحها ، به تكون الزراعة التى تميز أهلها عامهم كله ، ومنه تعلموا

63. Ibid., p. 136-137.

(٦٤) انظر

H. B. George, The Relations of Geography and History, Oxford, 1924.

— منذ أقدم العصور — ادخسار الحميد ، والقصد في انفاقه ، حتى يعود الفيض الجديد ، فلقد أعثرتنا الحفائر منذ حضارات العصر الحجري الحديث في مصر على مواضع ادخار الغلال — كما في الفيوم ومرمودة بنى سلامة (٦٥) .

هذا الى أن انحباس النيل ، ونضوب موارد الدولة ، انما كان وثيق المصلة بما ينزل بالبلاد من الضعف السياسى ، وتحلل السلطة المركزية ، واضطراب النظام ، فيكون شيوع الفساد ، وانتشار الجريمة ، — مع النحط والجوع — شرا مستطيرا ، على أنه من ناحية أخرى ، قد يبالغ في فيضه أحيانا ، فتعظم أمواجه ، وتضرى أمواجه ، فاذا هو يندفع طوفانا عنيفا مدمرا مفرقا كل شيء ، ثم لا يكاد ينحسر عن الارض الا وقد انقضى من أوان البذر وقت ، قد يكون على أيام الحصاد سىء المسبعة ، وإن لم يبلغ ذلك في سوئه مبلغ نقص الماء .

والتاريخ يحدثنا أنه ما من بلد في العالم ، تتوقف حياته ووجوده ، بنهر مثلما تفعل مصر والنيل ، ومن هنا كان اهتمام المصريين بشئون الفيضان شديدا ، وقد هدام تفكيرهم الى اقامة مقاييس للنيل في جهات بعينها ، مثل «اليفانتين» (جزيرة أسوان) ، ومنف ، وكلفوا بمراقبتها أشخاصا يقرأون المقاييس ويرسلون الرسل الى المدن المختلفة يبلغونها مقدار ارتفاع النيل أو انخفاضه .

هذا وقد ساعد النيل على تضافر الجهود المشتركة ، اتقاء لخطر الفيضان الداهم الذى يهدد الجميع ، وأملا في الفائدة المشتركة التى ينالها القوم ، اذا ما نظموا الافادة من مياه النهر ، وكان هذا العمل يتطلب جهودا جبارة من جانب الجماعة ، واشرافا دقيقا من هيئة عليا

(٦٥) انظر مطامير الغلال في الفيوم ١ (محمد بيومى مهران : مصر ٢٢٢/١ - ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، وكذا G. Caton - Thompson and E. A. Gardiner, The Desert Fayum, London, 1934, p. 41, 91.
H. Junker, Merimde-Benisalame; III, V, Vienne, 1933, p. 5 F.

حاكمة ، الامر الذى أدى الى توحيد الجهود ، وقيام التضامن التام بين أفراد المجتمع المصرى القديم ، بل وقد فرض النظام والطاعة على الجميع ، مما استلزم آخر الامر قيام حكومة موحدة شملت مصر كلها حوالى عام ٢٤٢ قبل الميلاد ، وتمضى الايام والسنوات ، حتى تقوم في مصر أول دولة في تاريخ العالم ، حوالى عام ٣٣٠٠ ق/م ، وبذا كانت مصر أول دولة في التاريخ قاطبة تكاملت فيها عناصر الامة بمعناها الصحيح ، وبعدها كانت «أول دولة» موحدة بالمعنى السياسى المنظم ، تظهر على مسرح العالم القديم^(٦٦) .

ولم يكن النيل وحده من أثر العوامل الجغرافية على مصر ، ذلك لان مصر بعزلتها في اطار من صحراوات لا تحد ، ربما تستطيع القوافل الصغيرة أن تخترقها ، ولكنها موانع طبيعية لا يمكن التغلب عليها ، اذا ما أرادت قوة حربية كبيرة أن تشق طريقها في فياها ، وهكذا حبت الطبيعة مصر وسائل طبيعية للدفاع عنها ، ففي الجنوب كانت الجنادل بمثابة حواجز طبيعية تصد هجوم الاقوام الساكنة في جنوبها ، كما كانت الصحارى ومياه البحر المتوسط تصد هجمات من يسكنون الى الشمال والشرق والغرب منها^(٦٧) ، ومن هنا كانت مصر — في أوائل أيامها — بلدا آمنا لا يهدده خطر الغزو ، ومن ثم فلم يكن ضروريا للمصريين أن يحتفظوا بقوة حربية كبيرة بصفة مستمرة لصد ما عساه أن يحدث من هجوم ، فقد كان القوم يستطيعون أن يروا أى خطر محتمل من مسافة بعيدة ، فضلا عن أنه كان شيئا بعيد الاحتمال أن يتمكن أى شخص مهاجم ، ومعه قوة كبيرة ، من أن يصل الى مصر نفسها^(٦٨) .

(٦٦) محمد بيومى مهران : مصر ٢٩٨/١ - ٣٠٥ ، جمال حمدان : شخصية مصر - القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٤١ - ٢٤٥ ، أحمد عبد الحميد يوسف : مصر في القرآن والسنة - القاهرة ١٩٧٣ ص ٥٥ - ٥٦ .
(٦٧) محمد بيومى مهران ٨٣/٢ - ٨٧ ، وكذا

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 33.

68. J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 13, 154.

هذا ، وكان للجغرافيا أيضا تأثيرها الواضح في حركة الانسان ، وفي علاقاته وقدرته على الانتاج ، وفي نوعية اهتماماته ، فالمنحاض الحار مثلا - لنما يؤثر على الانسان تأثيرا مختلفا عن المناخ البارد ، والبلد الذي تتوفر فيه مولد للثروة الطبيعية يختلف عن البلد الذي تنعدم أو تقل فيه تلك الموارد ، والسواحل ذات الموانئ الجيدة ، انما تخضع حركة التجارة أفضل من تلك الفقيرة والبلد الذي تحيط به الجبال من جوانب مختلفة انما يقل تأثره بالمؤثرات الخارجية عن ذلك البلد الذي يتيح له موقعه احتكاكا فعالا ومباشرا ، الى غير ذلك من الأمثلة المختلفة (٦٩) .

والواقع أن دراسة الجغرافيا التاريخية والسياسية والاقتصادية هي التي تمكننا من فهم الاحداث التاريخية والاشراف عليها ، وربطها بعضها ببعض ، وإدراك ما بينها من علاقات بعيدة المدى (٧٠) .

٤ - الاقتصاد (Economics) : وهو من العلوم المساعدة لدراسة التاريخ ، ذلك لان العوامل الاقتصادية ذات تأثير فعال في دراسة التاريخ ، فهي تؤثر في مستوى الرخاء أو الفقر ، وفي السياسة الداخلية والخارجية ، ونظام الحكم ، وفي علاقة طوائف المجتمع بعضها ببعض الآخر ، وفي مستوى العمران ونهوض الحضارة أو تدهورها /

ومن هنا ينبغي للمؤرخ أن يلم بعلم الاقتصاد (Economics) الماسما يمكنه من الوقوف على مدى تأثير العوامل الاقتصادية على مسار التاريخ ومثالنا في ذلك : ما يذهب اليه بعض المؤرخين من أنه من الاسباب الهامة لضياع الامبراطورية المصرية بعد عصر «رعسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق م) ، أن مصر لم تكن تملك مصدرا وطنيا لمعدن الحديد ، ومن ثم فبينما دخل العالم القديم في عصر الحديد ، بقيت مصر في عصر

(٦٩) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص

٣٢ - ٣١ .

(٧٠) سيدة الكاشف : المرجع السابق ص ٥ .

البرونز ، وهكذا استطاع العالم القديم أن ينتج لقرون عدة أسلحة من الحديد ، وأن يطور وسائله الحربية والزراعية والصناعية طبقا لذلك ، مما جعل من الصعب على مصر أن تحتفظ بامبراطوريتها ضد المنافسة الهائلة .

ولعل مما تجدر الإشارة اليه أن بسط النفوذ المصري والسيطرة المصرية على البلاد شرقى البحر المتوسط ، إنما يتفق والعصور التي كان فيها النحاس هو المعدن الاساسى فى أهميته ، ولكنها لم تتمتع بمثل ذلك فى عصر الحديد .

وليس هناك من ريب فى أن معظم الثورات ، فضلا عن الحروب ، إنما كانت لها أسباب اقتصادية — كما حدث فى الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية فى أعقاب الاسرة السادسة ، وكذا فى اضراب العمال على أيام «رعميس الثالث» ، وهو أول اضراب وصلتنا أخباره فى التاريخ ، وقد حدث فى العام التاسع والعشرين من عهد رعميس الثالث (حوالى عام ١١٥٣ ق.م) (٧١) ، والامر كذلك فى التاريخ الاسلامى فالدعوة العباسية وحركة القرامطة ، وحركة الاسماعيلية لم تكن حركات سياسية أو دينية فحسب ، ولكن صلتها بالاوضاع والاهداف الاقتصادية جد وثيقة ، كما أن ثورة الزنج لم تكن حادثا سياسيا فقط ، وإنما كانت وثيقة الصلة بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية ، كما كانت سببا هاما من أسباب تفكك الامبراطورية العباسية ، وتشجيع الحركات الاستقلالية والاقليمية فى بعض أجزائها ، كما أن العوامل الاقتصادية إنما تفسر لنا كثيرا من التعديلات التى أدخلها الأمويون فى النظام المالى على يد

(٧١) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعميس الثالث — الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٣٥٠ — ٣٥١ ، مصر ٣١٥/٣ — ٣١٧ ، مصر — الجزء الثانى ص ٢٥٦ — ٢٦٢ ، وكذا

J. H. Breasted, A History of Egypt, London, 1946, p. 60-62.

W. C. Hayes, in JEA, 32, 1946, p. 3-23.

E. F. Wente, in JNES, 20, 1961, p. 252-257.

J. Cerny, Archiv, Orientalia, 6, 1934, p. 173-178.

J. A. Wilson, in JNES, 10, 1951, p. 137-245.

W. F. Edgerton, Op. Cit., P. 97-100, 274-277.

الحجاج الثقفي ، والتي أعاد الخليفة الراشد «عمر بن عبد العزيز» النظر فيها على ضوء سياسته في العناية بنشر الاسلام ، قبل أى اعتبار آخر ، كما تفسر لنا العوامل الاقتصادية والاجتماعية معظم الاحداث التي أدت الى سقوط الاسرات الحسكامة ، وقيام أسرات أخرى في التاريخ الاسلامي (٧٣) .

وانطلاقا من كل هذا يقول «هرنشو» : ليس بين الدراسات الاجتماعية التي غدا التاريخ وثيق الصلة بها ، ما هو أشد لزوما للمؤرخ من علم الاقتصاد ، ورغم أن جميع المفكرين المسئولين قد عدلوا عن العقيدة المرفقة التي صاغها «ماركس» و «وانجلز» والتي تفسر التاريخ تفسيراً محضاً ، إلا أن المؤرخين معترفون بأن العوامل الاقتصادية لعبت دوراً بارزاً في جميع عصور النشوء الاجتماعي للعالم ، وبخاصة في العصور القديمة ، أيام كان الانسان مضطراً الى أن يكافح من أجل وجوده كفلاحاً متصلاً ، أعداء طبيعيين مساوين له ، في القوة ، وشدة المراس (٧٣) .

٥ - الادب (Literature) : لا ريب أن الادب انما هو وثيق الصلة بالتاريخ ، فهو مرآة العصر ، وهو تعبير عن أفكار الانسان وعواطفه ، وهو يفسح عن داخل البشر ، ويصور أحلامهم وأمانيتهم ، فالادب المصري القديم — على الرغم من قلة ما وصل الينا من آثاره — يساعد الباحث في التاريخ على نواح مختلفة من الحياة المصرية القديمة ، فالبليئة المصرية القديمة — بطبيعتها وتقاليدها وأحداثها — قد أوحى الى الكتاب المصريين القدامى بالتعبير عن مشاعرهم بلغة أدبية مؤثرة ، فكتبوا عن معبوداتهم ، وعن تصورهم للعالم الآخر ، ودونوا قصصاً خيالية ، وكتبوا في الادب التعليمي لتعذيب الأبناء والتلاميذ .

ومن ثم فلا بد لكاتب التاريخ أن يتذوق الشعور ، لكي يفهم ملكة

(٧٢) سيدة الكاشف : المرجع السابق ص ٦ .

(٧٣) هرنشو : علم التاريخ — ترجمة عبد الحميد العبادي — بيروت ١٩٨٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ ، فتحى عثمان : التاريخ الاسلامي والمذهب المادى في التفسير ص ٢٢ — ٢٣ .

الخلق والابتكار، وأن يقرأ كذلك شيئاً من النصوص الأدبية ، لكي يتعلم منه كيفية عرض موضوعاته ، وإبراز الحوادث الهامة، ويبحث الشخصيات الأساسية والثانوية ، ووضع التفاصيل والجزئيات في المكان الملائم ، واحكام الموضوع الذي يدرسه ، واثارة انتباه القارئ، وجعله قادراً على استيعاب ما يقدم اليه وتذوقه .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك — مثلاً — من عصور التاريخ المصرى القديم — وأعني به عصر الثورة الاجتماعية الاولى^(٧٤) — انما يعتمد على مصادر أدبية ، أكثر منها أثرية ، ذلك لان هذا العصر — بقدر ما ضن على المؤرخين بمصادره الاثرية ، فقد منحهم قدراً من الأدب يكاد يعطينا صورة شبه كاملة عن الحالة الاجتماعية في تلك الفترة من تاريخ مصر القديم ، ومما يزيد في أهمية هذه المصادر الادبية أنها تمثل تفكير الشعب كله — حاكميه ومحكوميه — ذلك لان الحاكمين قد كتبوا بعضها ، كما كتب المحكومون البعض الاخر، وأن كان للمحكومين نصيب كبير مما كتب^(٧٥) .

وليس هناك من ريب في أنه كان للتطور الاجتماعى والتغير السياسى الذى صاحب عهد الثورة الاجتماعية الاولى ، أثر واضح على الادب ، نظمته في الاسلوب المختلف للقصائد، وفى ظهور نوع جديد من الأدب هو «أدب النقد والسياسة» ، ومن ذلك آراء الحكيم المصرى «ايبور — ور» في تحذيراته المشهورة^(٧٦) ، التى تحدث فيها عن الاضطراب الخلقى والفوضى فى المجتمع ، مما مهد السبيل لنوع آخر من الشعر والنثر يتحدث عن اليأس والعزلة^(٧٧) ، وفى العصر الالهاسى بدأ الملوك

(٧٤) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية — الاسكندرية ١٩٦٦ .

(٧٥) نفس المرجع السابق ص ٤ — ٢٣ .

76. A. H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909, (1969).

(٧٧) أنظر : بردية اليائس من الحياة : (محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٠ — ١٢ ، وكذا

J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 406-407.

A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927, p. 86-92.

للمصريون يقدمون لأولياء عهودهم خلاصة تجاربهم السياسية ، حتى يكون لهم من التجارب التي عاشها الآباء ، ما يفيدهم في ادارة شئون البلاد ، ومن ذلك تلك النصائح التي وجهت الى الملك «مرى كلرع» (٧٨) ، ذات المضمون السياسي والاخلاقي ، وقد صيغت في أسلوب أدبي رائع ، حتى اعتبرها القوم من المآثورات التي يحفظها تلاميذ المدارس (٧٩) .

ولا ريب في أن الادب المصرى القديم إنما يمثل أكثر اتجاهات القوم في الحياة أصدق تمثيل ، كما يؤكد لنا أن المصريين القدامى ان لم يكونوا قد وضعوا الاساس الاول في بناء للفكر الانسانى الرفيع ، فإنهم كانوا من أئمة الناس في ذلك (٨٠) .

وعلى أية حال ، فلقد عالج القسوم في آدابهم نواحي مختلفة من الادب ، فكتبوا في المواعظ وآداب السلوك ، وما ينبغى التخلق به في الظروف المختلفة ، وضمنوها الامثال والحكم الخالدة على مر الايام ، وكر السنين ، وأنشأوا المقالات في الاصلاح السياسى لعلاج ما تقضى — في فترة ما — من مساوئ ، وما حل بالمجتمعات من نكبات ، وصنفوا الرسائل في المناسبات والاعراض المختلفة — في التهنيتى والتواصى والتمنيات والتراجى والتفاضل والمفاخرة وغير ذلك من — مطالب الحياة ومقاصدها — وحاكوا القصص القصيرة المختلفة ، حتى ليعتقد أن مصر إنما هى موطن القصة القصيرة ، وصاغوا الاناشيد ، وألفوا الاغانى والتمثيلات الدينية .

على أن هناك كثيرا من النصوص الادبية المصرية لم تقتصر أهميتها

78. J. A. Wilson, Op. Cit., p. 414-418.

Erman, Op. Cit., p. 75-85.

M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, I, London, 1975, p. 97-109.

(٧٩) محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة — الجزء

الاول — الادب والعلوم — الاسكندرية ١٩٨٩ ص ١٠ - ١١ .

(٨٠) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : تاريخ التربية والتعليم

في مصر — الجزء الاول — العصر الفرعونى — القاهرة ١٩٧٤ ص ٧٠ .

عليها كونها قرائنا أدبيا فحسب ، بل انها تقدم لنا همدا انسانيًا للحضارة
 المصرية القديمة التي لا يعرف عنها الشخص المعاصر ، سوى المقابر
 والتوابيت والتماثيل ، بل ان كثيرا من الناس انما كانوا يعتقدون - الى
 عهد قريب - أن حضارة مصر الفرعونية ليست الا حضارة مادية في
 الدرجة الاولى ، وأن هذه الشوامخ الراسيات على أرض الكنانة - من
 الاهرامات والمعابد والمسلات وغيرها من الآثار المصرية - ليست الا
 رمزا للاستعباد والسخرية (٨١) .

هنا وقد عرف المصريون القدامى كذلك الأدب الرومانسي يوجبهموا فيه
 الى قمم عالية ، وفي أشعار اخناتون أبلغ دليل على ذلك (٨٢) ، كما عرفوا
 أيضا شعرا تغلب عليه النزعة الفلسفية ، وبعث بصورة رمزية في رحلة
 الانسان بين الميلاد والحياة .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن الادب الجاهلي انما هو
 مصدر هام من مصادر التاريخ العربي القديم ، ذلك لان أيام العرب
 في الجاهلية - مثلا - انما تعتبر مصدرا خصبًا من مصادر التاريخ ،
 وينبوعا صافيا من ينابيع الأدب ، ونوعا طريفا من أنواع القصص ، بما
 اشتملت عليه من الوقائع والاحداث ... فهي توضح شيئا من الصلات
 التي كانت قائمة بين العرب وغيرهم من الامم كالفرس والروم ، وتروى
 كثيرا مما كان يقع بين العرب أنفسهم من خلاف ، بل انها سبيل لفهم
 ما وقع بين العرب بعد الاسلام من حروب شجرت بين القبائل ، ووقائع
 كانت بين البطون والافخاذ والعشائر ، ثم هي في أسلوبها القصصي ،
 وبيانها الفني ، مرآة صادقة لآحوال العرب وعاداتهم ، وأسلوب حياتهم
 وشأنهم في الحرب والسلم ، والاجتماع والفرقة ، والنجعة والاستقرار ،
 وهي أيضا مرآة صافية تظهر فيها فضائلهم وشيمهم ، كالذفاعة عن

(٨١) محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر
 الفرعونية ص ٢ .
 (٨٢) أنظر عن أشعار اخناتون (محمد بيومي مهران : اخناتون :
 عصره ودعوته - القاهرة ١٩٧٩ ص ٣٥٩ - ٣٨٢ .

الحريم ، والوفاء بالعهد ، والانتصار للعشيرة ، وحماية الجار والصبر
في القتال ، والصدق عند اللقاء ، وغير ذلك مما نراه واضحا في تلك
الآيالم (٨٣) .

وعلى أية حال ، فالشعر الجاهلي دونما ريب ، انما هو مصدر من
مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام ، وقديما قالوا : ان الشعر ديوان
العرب ، يعنون بذلك أنه سجل سجلت فيه أخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم ،
وان شئت فقل : انهم سجلوا أنفسهم فيه ، كما نستطيع أن نستدل به
على جغرافية شبه الجزيرة العربية وما فيها من بلاد وجبال ووديان
وسهول ونبات وحيوان ، فضلا عن عقيدة القوم في الجن والاصنام وفي
المخزافات (٨٤) .

وهكذا يروى «ابن سيرين» عن الفاروق عمر بن الخطاب ، رضوان
الله عليه ، قوله «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه» (٨٥) ،
وقريب من هذا ما يروى عن عكرمة — تلميذ ابن عباس ومولاه — «أنه
ماسمع ابن عباس يفسر آية من كتاب الله عز وجل ، الا ونزع فيها بيتا
من الشعر» وأنه كان يقول : اذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله ،
فاطلبوه في الشعر ، فانه ديوان العرب ، به حفظت الانساب ، وعرفت
المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله ،
وغريب حديث رسول الله ﷺ وغريب حديث صحابته والتابعين (٨٦) .

ومن ثم أصبحت كتب الادب من المصادر الهامة في التاريخ العربي

(٨٣) محمد أحمد جاد المولى وآخرون : أيام العرم في الجاهلية —
القاهرة ١٩٤٢ ص ط — ي .

(٨٤) أحمد أمين : فجر الاسلام — بيروت ١٩٦٤ ص ٥٧ .

(٨٥) محمد بن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء — القاهرة
١٩٥٢ ص ١٠ .

(٨٦) سجواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام — ٦٧/١ —
٦٨ ، ٦٦٣/٨ ، جلال الدين السيوطي : المزهري في علوم اللغة — القاهرة
١٩٤٢ — ٣٠٢/٢ ، ٤٠٧ ، الالتقان في علوم القرآن — القاهرة ١٢٧٨ هـ —
٥٢/٢ ، التبريزي : شرح حماسة أبي تمام ٣/١ .

القديم ، ففيها ثروة أدبية قيمة ، قد لا نجد لها مثيلا في كتب التاريخ ، وأن ما جاء بها عن ملوك الغساسنة والمناذرة وكندة ، أكثر مما جاء في كتب التاريخ ، بل هو أحسن منه عرضا وصفاء ، ويدل عرضه بالاسلوب الأدبي المعروف ، على أنه مستمد من موارد عربية صافية ، لم يعكر هذا اللصق شوائب من اسرائ依ليات ونصرانيات ، فضلا عن أنه أخذ من أقوال شهود عيان ، شهدوا ما تحدثوا عنه ، بل نستطيع أن نذهب بعيدا ، فنقول : ان كثيرا من الاخبار ماتت لموت الشعر الذي قيل في مناسبتها ، في حين أن أخبارا خلقت خلقا ، لان ما قيل فيها من شعر كان سببا في بقائها ، ومن ثم فقد أصبح الشعر سببا في تخليد الاخبار ، لمسهولة حفظه ، ولاضطرار رواته الى قص المناسبة التي قيل فيها (٨٧) .

على أن للادب الجاهلي ، كمصدر لتاريخ العرب فيما قبل الاسلام ، عيوبها منها (أولا) أنه لا يرجع الى أكثر من عصر الجاهلية ، وهو جزء من عصر ما قبل الاسلام ، يقدر له زمانا يتراوح بين قرن ونصف ، وقرنين ونصف قبل ظهور الاسلام مباشرة ، بينما قدر العلماء لعصور ما قبل الاسلام مدة ربما تتجاوز العشرين قرنا ، تمتد من حوالي ١٥٠٠ ق.م ، الى ٦١٠م (٨٨) ، ومنها (ثالثا) أن ما روى لنا منه انما يمثل المختارات ، وهم في هذا ينظرون اليها نظرة الاديب ، لا نظرة المؤرخ ، فالقصيدة التي لم يحكم نسجها ، ولم تهذب ألفاظها ، ولم يصح وزنها ، قد يعجب بها المؤرخ أكثر من أعجابه بقصيدة كاملة من جميع نواحيها ويرى فيها دلالة على الحياة العقلية ، أكثر من قصيدة راقية (٨٩) يومنها (ثالثا) أن الشعر الجاهلي لا يتحدث عن التاريخ السياسي ، بقدر ما يتحدث عن التاريخ الديني والاجتماعي .

ومنها (رابعا) أن الشعر الجاهلي قد تعرض للضياع بتركه يتناقل

(٨٧) جواد علي : المرجع السابق ٧١/١ ، ٧٣ ، دائرة المعارف الإسلامية : مادة تاريخ ص ٤٨٤ .
 (٨٨) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٩ .
 (٨٩) أحمد أمين : المرجع السابق ص ٥٧ .

على السنة الرواة شفها نحو قرنين الى أن دون في تاريخ متأخر (٩٠) ،
حتى أن أبا عمر بن العلاء قال : ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ،
ولو جاءكم وأفرا ، لجاعكم علم وشعر كثير (٩١) ، ومنها (خامسا) أن
معظم ما وصلنا من الشعر ، انما كان من عمل البدو ، وليس الحضر ،
ومن ثم فهو يمثل البداية أكثر مما يمثل الحاضرة (٩٢) ، ومنها (سادسا)
أن هناك مجالاً للظن — على خلاف الشائع — أن العلماء قد خففوا
— مدفوعين بالعامل الديني — من الطابع الوثني في بعض القصائد كما
أن الأفراط في الحرص على صحة اللغة وصفائها في أوساط البصرة قد
أنتى الى إجراء بعض التصحيحات في الآثار المروية (٩٣) ومنها (سابعاً)
أنه حتى هذا الشعر القليل الذي وصل إلينا منه انما توجه اليه سهام
الريب من كل جانب ، وليس بالوسع القول بأنه يرقى الى ما فوق مظهر
الشبّهات ، ذلك أن كثيراً من الرواة قد تجرأ عليه بالنحل ، أما بتقل
شيء من قائل التي قائل ، وأما بوضع شيء منه على السنة الشعرية (٩٤) .

بقيت الإشارة الى أن هناك ثمة وجه آخر لموضوع العلاقة بين
التاريخ والأدب ، فليؤرخون لا يشاركوا في الأدب مشاركة مباشرة

-
- (٩٠) طه حسين : الأدب الجاهلي — القاهرة ١٩٣٣ ص ٦٤ .
(٩١) محمد بن سلام الجمحي : المرجع السابق ص ١٠ .
(٩٢) القرشي : جمهرة أشعار العرب ص ٣٤ .
(٩٣) ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي — العصر الجاهلي —
بيروت ١٩٥٦ ص ١٣٥ .

- (٩٤) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية — بيروت ١٩٦٤ ص ١٨ .
ولنظّر عن الشك حول الأدب العربي (طه حسين : المرجع السابق ص
٧١ — ٧٣ ، ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ١١١ — ٢١٧ ، عباس
محمود العقاد : مطلع النور — أو طوالح البعثة الخمسية — القاهرة ١٩٦٨
ص ٤٨ — ٤٩ ، محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٩ — ٥٢ ،

W. Muir, Ancient Arabic Poetry, in JRAS, 1875.

C. Lyall, Translation of Ancient Arabia Poetry, London, 1885.

D. S. Margoliouth, The Origins of Arabic Poetry, in JRAS, 1925, p. 417-449.

Giorgio Levi Della Vida, Pre-Islamic Arabia, The Arab History, New Jersey, 1944, p. 541-544.

فجسب ، بل ان المعلومات التاريخية لنما تدخل في تقويم الادب بدرجة متغلوتة ، وربما كان أقل دخولها في النشر للبحث أو في الدراما ، وأكثر دخولها في الادب السياسي ، حيث يتقيد موضوع الكتابة بالتاريخ ، فضلا عن القصة ، هذا - وكما أشرنا من قبل - فأن اشترك كلمة التاريخ وكلمة القصة في أصل واحد في اللغة الانجليزية (التاريخ History القصة Story) انما يدل على أن القصة انما هي عصب التاريخ (٩٥) .

٦ - للفنون والعبارة : وهذه العلوم لابد وأنها تساعد على تفهم تاريخ العصر ، فالفنون جميعها تعكس صورا دقيقة للحضارة ، وتبين كثيرا من قضايا أهلها ، ومن حياتهم الواقعية ، ومن عقاليدهم ونظمهم وأحلامهم وأمانيتهم ، كما تعكس هذه للفنانون المقيم التي يؤمن بها أصحاب تلك الحضارات .

٧ - علم النفس : وهو من العلوم المساعدة التي يحتاجها المؤرخ ، فدراسة العوامل النفسية ، والنوازع البشرية ، ومطالعة التوصل إلى المكونات النفسية لشعب من الشعوب أو جماعة من الناس ، انما تساعد دونما ريب ، في فهم كثير من الاحداث التاريخية ، هذا فضلا عن صعوبة التاريخ للشخصيات التاريخية الهامة - دونما دراسة عميقة للعوامل النفسية التي كونت هذا الزعيم أو ذلك ، والمؤثرات المختلفة التي شكلت فكره وميوله .

(٨) علم الاجتماع : يذهب «لويس نمار» إلى أن موضوع الدراسة في التاريخ انما هو الشؤون الانسانية ، وأفعال الناس ، والاشياء التي وقعت وكيفية وقوعها ، والاحداث الملموسة مرتبطة بزمانها وجذورما في تفكير الناس ومشاعرهم ، دون أن يعنى بالاشياء العامة وبالمعمومات،

(٩٥) ١٠١ ل. راوس : المرجع السابق ص ٤٧ - ٤٨ .
(٩٦) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص

فالأحداث تتطوى على تغير وتنوع، مثلها في ذلك مثل أولئك الذين دونوها ، وتلك أمور تتصل بعلم الاجتماع ، كما تتصل بالتاريخ ، غير أن استخدام مفاهيم علم الاجتماع في الدراسة التاريخية لا يجعل من المؤرخ عالما اجتماعيا ، ولكنها تمنحه القدرة على تنظيم المادة التاريخية وتنسيقها ، كما تريد من قوة تفسيراته وتأويلاته السببية ، وهكذا فلتعرف على نتائج العلوم الاجتماعية قد يجعل مؤرخا بذاته أكثر قدرة من غيره على جمع معلومات متصلة اتصالا أوثق بمشكلات بحثه (١٧) .

ومع ذلك فعلم الاجتماع — رغم أهميته للمؤرخ — لا يقدم له تحليلات متعددة يضمنها في تحليلاته ، مثلما يطرح التاريخ الأحداث والشواهد أمام علم الاجتماع ، وإن كان علماء الاجتماع يعملون على تحقيق البحوث التاريخية عن طريق تنقيب المؤرخين إلى المزيد من محصن العوامل المؤثرة ، طالما أن الشواهد المستخلصة من البحوث الاجتماعية ترحى بذلك ، وإن كان هذا لا يعني تصديق قضايا البحوث الاجتماعية تصديقا مطلقا على الماضي ، أو أنه من المحتم أن تتحقق نفس العلاقة بين التغيرات ، وعلى أية حال ، فهناك من المفاهيم ما يفيد المؤرخ مثل «مفهوم الإطار المرجعي» Frame of Reference و «الجماعة المرجعية»

Reference Group ، واللذين يتضمنان الافتراض القائل بأن فهم سلوك الأفراد والجماعات يقتضى الرجوع إلى الإطار الأشمل الذي يثير هذا السلوك ويشكله ، وليس هناك من ريب في أن المؤرخ — إن كان يهدف إلى فهم الظاهرة التاريخية فهما كليا دقيقا — فعليه أن يضع سلوك الأفراد والجماعات التي يؤرخ لها داخل الإطار المرجعي الذي يكون مسئولا عن وقائع وأحداث سلوكية ، كما أنه هو الذي يجعل هذه الوقائع والأحداث مفهومة ، وتبدو هذه المفاهيم ذات فائدة محققة للمؤرخ الذي يتناول دراسة القادة السياسيين ، حيث يحصل المؤرخ على معلومات

(١٧) انظر : محمد على محمد : المرجع السابق ص ١٤٣ - ١٤٧ .

L. Namier, History and Political Culture ..., New York, 1956, p. 372.

تفصيلية تتناول الجماعات المرجعية التي أسهمت في سلوك هؤلاء القادة (٩٨) .

هذا ويذهب «ريكان» في دراسته عن المدخل التاريخي وصلته بالعلوم الإنسانية الأخرى أن هذا المدخل يعتمد أساساً على فهم التعبيرات والمظاهر المختلفة بالنظر إليها في سياق تاريخي أو زمني ، ثم انه يسعى الى فهم السياق الكلي للأحداث حينما ينتقل من شعب أو مظهر الى تعبير ومظهر آخر ، ويعتقد «ريكان» أن المدخل التاريخي بهذا المعنى انما يستخدم في الدراسات التاريخية المتخصصة «كما هو مفتاح للاستفادة منه في كل العلوم الإنسانية ، فضلاً عن العلوم الطبيعية» ، كما أن تسجيل بعض التجارب العلمية قد يقوم بنفس الدور في الفيزياء أو الكيمياء ، وهكذا يطبق المدخل التاريخي على موضوع خاص بعلم ما أحياناً ، كدراسة تاريخ الحالة في علم النفس ، وعلى النتائج الخاصة بالدراسات التاريخية والملائمة لتاريخ الاقتصاد ، ولتاريخ النظريات الاجتماعية ، وانطلاقاً من هذا المنهج القائم على فهم التعبيرات الإنسانية المختلفة فهمها تفسيرياً كلياً ، فإن حياة الأفراد بالنسبة لمنهج «ريكان» تمثل اهتماماً ثابتاً ، ولذلك نجده يؤكد أن التاريخ والشواهد التاريخية المستخدمة في العلوم المتفاوتة لها أهمية خاصة في الدراسات الإنسانية (٩٩) .

بقيت الإشارة الى أن مصطلح «التاريخ الاجتماعي» Social History انما يشير الى دراسة التغير الذي يطرأ على شبكة العلاقات الاجتماعية ، وتطور النظم الاجتماعية ، والتحول في المفاهيم والقيم الاجتماعية ، ويرتبط هذا المصطلح بمصطلح «التاريخ الاقتصادي» Economic History وكلاهما نتيجة مباشرة واستجابة محددة لمصطلح

98. S. M. Lipset and R. Hofstadter, *Sociology and History Methods*, N. Y., 1968,

(٩٩) محمد علي محمد : المرجع السابق ص ١٤٨ - ١٥١ ، بول ريكان : منهج جديد للدراسات الإنسانية ، ترجمة علي عبد المعطي ومحمد علي محمد - بيروت ١٩٧٨ ص ٢٦٧ - ٢٧٤ .

التاريخ السياسي ، وتاريخ الحكومة والدولة ، وقد وضع أصول التاريخ الاجتماعي كل من «ابن خلدون» و «فيكو» ، وسوف نناقش آراء ابن خلدون فيما بعد ، أما «فيكو» فقد نجح في تحويل الاهتمام في التاريخ السياسي من الحزوب والمعاداة التي دراسة المعاداة والقوانين والانظمة الاقتصادية والاجتماعية والفنون والديانات والعلوم والافكار .

وفكرة مفهوم التاريخ الاجتماعي عند «فيكو» هي نظرية التطور ذات المراحل الثلاثة : الاولى : المرحلة الدينية ، وتتميز بسيطرة التفكير الديني واللاهوتي ، والثانية مرحلة عهد البطولة : وتتميز بسيطرة ذوى القدرات العقلية الذين يرفعهم الناس إلى أعلى المراتب ويخضعون لحكمهم وسياستهم ، والمرحلة الثالثة : مرحلة الإنسانية ، وهي عهد الحرية والحقوق السياسية والمدنية ، وبذا تميزت بالحكومة للديمقراطية ويهدف الدين هنا إلى رفع المستوى الاخلاقي العام ، والقيمة الموجهة للسلوك هنا ، هي قيمة الواجب ، واجترام الطبيعة الانسانية (١٠٠) .

٩ - وهناك علوم مساعدة أخرى ، كالمنطق وفلسفة التاريخ وعلم الاجناس والقانون والنظريات السياسية وعلم الاحصاء والرياضة والفلك والنبات والحيوان ، فكل تلك العلوم انما تفيد في البناء التاريخي لموضوع الدراسة التاريخية ، وفي عقد المقارنة وتفسير الظواهر ، بحيث تخرج الدراسة متكاملة ، والبحث وافيا .

هذا ومن التواحي الهامة لمن يرغب في دراسة التاريخ وكتابته ، أن يعرف صورة عامة ، على الأقل عن التاريخ العام ، ومن ثم فعليه أن يقرأ بعض مختارات من بعض كتابات المؤرخين ، المقدمي منهم والمحدثين هذا خلا عن أنه من الامور الاساسية للمؤرخ ، ألا يلتزم حدود بلاده ، بل ينبغي عليه السفر والارتحال داخل بلاده وخارجها ، وأن يقضى

(١٠٠) محمد علي محمد : المرجع السابق ص ١٥٢ - ١٥٤ . وكذا

G. Vico, The New Science of G. Vico, Trans. by Bergin and Fisch, New York, 1948.

فترة ، أو فترات متعددة ، في البلد الذي يدرس نواح مختلفة من تاريخه .

هذه هي - بايجاز - أهم العلوم المساعدة التي تساعد المؤرخ لدراسة التاريخ القديم ، وهي دونما ريب ، تعطينا فكرة موجزة عن الثقافة الواسعة التي يتعين على المؤرخ أن يزود نفسه بها ، ويدهي أننا لا نطالب المؤرخ بالدراسة المتعمقة في كل هذه العلوم المساعدة ، فذلك أمر صعب ، ان لم يكن مستحيلا ، وانما نطالبه فقط بالالام بها ، الماما يساعده على انجاز دراسته على خير وجه ، ويدهي أيضا ، أنه لا بأس من أن يتعمق في ناحية بذاتها من هذه الدراسات تكون لها صلة وثيقة بموضوع بحثه التاريخي .

الفصل الخامس

كتابة الرسائل الجامعية

مراحل كتابة الرسالة

يحتاج طُلاب الدراسات العليا — الماجستير (M. A. Thesis) والدكتوراة (Doctorate) — إلى أعداد رسالة علمية تعتبر من مهمات الدراسة العليا في الجامعات التي تعتمد على «الكورسات» Courses و «الرسائل» (Thesis)، كما تعتبر الوسيلة الوحيدة لذلك في الجامعات التي تعتمد وحدها دون نظام «الكورسات» والرسالة — فيها يرى «آرثر كول» (Arthur Cole) — «تقرير واف يقدمه بحث عن عمل تمهده وأتمه» ، على أن يشمل التقرير كل مراحل الدراسة ، منذ كانت فكرة حتى صارت نتائج مدونة ومرتبعة ومؤيدة بالحجج والاسانيد» (١).

وهي — على أية حال — أما أن تكون تحقيقاً لمخطوطة ، أو بحثاً في موضوع معين ، والمعروف أن الجامعات عادة تعد طلبية الماجستير خلال السنة التحضيرية (التمهيدية) التي تسبق تسجيل الرسالة ، ليكونوا مؤهلين لكتابة الرسالة ، ويتم ذلك عن طريق تكليفهم بكتابة بحث صغير محددة ، وفق قواعد منهج البحث العلمي ، وغالباً ما تكون هذه البحوث متنوعة ، بغية أن يطلع الطالب على مصادر تخصصه المختلفة ، ويتعرف كيفية استعمالها ، والافادة منها ، ولیمارس منهج البحث العلمي بصورة محددة ، ولاریج في أن نجاح الطالب في كتابة هذه البحوث إنما هو الدليل على قدرته على كتابة الرسالة ، ذلك لأن الرسالة مستكتب على طريقة نفس البحث المحدد ، وطبقاً للمنهج العلمي ، وإن كانت على نطاق أوسع ، فضلاً عن أنها ستبين بوضوح مدى افادة الطالب من بحوثه المحدودة التي أعدها طوال السنة التحضيرية .

وعلى أية حال ، فالمعروف — أنه رغم فائدة المواد العلمية التي يتلقاها طلاب الدراسات العليا في السنة التمهيدية ، بغية تعميق

(١) أحمد شلبي : المرجع السابق ص ٥٥ .

تخصصهم ، وتوسيع اطلاعهم في موضوعات أبحاثهم ومصادرها ، فضلا عن إبراز شخصية الواحد منهم ، وتنمية مواهب النقد عنده ، ومعالجة جوانب النقص في ثقافته العلمية ومادته اللغوية — فان الاهتمام الاساسي يجب أن يوجه نحو البحوث التي يقوم بها الطالب ، باشراف الاستاذة المختصة Supervisors ، ذلك لان اغفال البحوث الصغيرة المعدة وفق المنهج العلمي ، انما يجعل الطالب غير مؤهل لكتابة الرسالة ، ويعرضه في الغالب الى الفشل (٣) .

وهل من الاهمية بمكان الإشارة هنا — وقبل أن نتحدث عن كتابة الرسالة الجامعية — أن نشير الى أمرين : الواحد : أن الطالب وحده هو المسؤول عن رسالته ، ولا ينبغي أن يظن أن أستاذه يشاركه أية مسؤولية ، كما لا ينتظر أن يدافع عنه أستاذه عند نقاش نقطة ما ، ولو أقرها الأستاذ عند الاعداد ، فالأستاذ المشرف انما يفرق تماما بين كونه مشرفا ، وبين كونه مستحفا .

والثاني : أنه من العدالة ألا يخرج الاستاذ المشرف Supervisor الرسالة التي يشرف عليها مضبوغة بروحه وعلمه ، بل أن تصبغ بروح الطالب وجهده ، حتى يمكن التفاوت المتبادل بين الرسائل التي يعدها طلاب متعددون ، متفاوتو المواهب ، تحت اشراف أستاذ واحد (٤) .

وأما مراحل كتابة الرسالة ، فيمكن أيجازها في النقاط التالية :

أولاً : إختيار موضوع البحث . ثانياً : وضع خطة البحث .

ثالثاً : اعداد بيبليوجرافيا للموضوع . رابعاً : جمع المادة العلمية .

خامساً : نقد المادة التاريخية . سادساً : اثبات الحقائق التاريخية .

سابعاً : العرض التاريخي . ثامناً : ملحق البحث للتاريخي .

(٢) إكرم ضياء العمري : دراسات تاريخية ، مع تعليقه في منهج البحث وتحقيق المخطوطات — المدينة المنورة — الجامعة الاسلامية — ١٩٨٣ ص ١٣ — ١٤ .

(٣) احمد شلبي : المرجع السابق ص ٢٢ — ٢٣ .

تاسعا : الحواشى أو الهوامش • عاشرًا : طريقة كتابة المصادر والمراجع
حادى عشر : تنظيم الرسالة الجامعية •

أولاً - اختيار موضوع للبحث : يختلف اختيار موضوع البحث باختلاف وضع الراغبين فيه ، فمثلاً طالب الجامعة المبتدىء في التخصص لا يستوى مع طالب الدراسات العليا الذى أنهى دراسته الجامعية وبدأ يتطلع للحصول على درجة الماجستير فالدكتوراه ، وكلاهما لا يستوى مع التخصص الكبير أو الاستاذ الذى أمضى حياته في كتابة الأبحاث التاريخية •

وعلى أية حال ، فإن أول ما يواجهه طالب الدراسات العليا هو اختيار الموضوع الذى يسجله لرسالة الماجستير أو الدكتوراه ، وفى الواقع فإن اختيار الموضوع الصالح ليس عملاً سهلاً ، بل يحتاج إلى الإطلاع الواسع التخصص ، ذلك لأن الموضوع المختار إنما يقرر غالباً نجاح أو فشل الطالب فى كتابة الرسالة فى الوقت المحدد ، وقد يتعرض الطالب فى دراسته ، ولا يستطيع إنجازها ، بسبب عدم اختيار الموضوع الملائم ، وأحياناً يتمكن من إنجازها ، ولكن بعد الوقت المحدد بفترة طويلة ، وفى العادة يصعب أن ينفرد الطالب باختيار الموضوع الصالح ، وهنئ لهم فعلى المشرف أن يشاكره الرأى ، لأن المشرف ينبغي أن يوافق على الموضوع ، وأن تكون له رغبة فى متابعة الطالب وتوجيهه ، ذلك لأن الصلة العلمية يجب أن تتعقد بين المشرف والطالب قبل تسجيل الموضوع حتى يكون بينهما تجاوب ، فضلاً عن أن يكون هناك تجاوب بين الموضوع وتخصص المشرف واتجاهاته (٤) •

وعلى أية حال ، فإن اختيار موضوع البحث مشكلة تواجه الباحث

(٤) أكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ١٤ •

في التاريخ ، أذ أنه ربما ظن أن أهم الموضوعات التي تتصل بتخصصه قد بحثت ، والواقع أن هذه الفكرة لا تتفق مع الحقيقة في شيء ، فغالبا الاساتذة يلمسون أن كثيرا من الموضوعات ما يزال في حاجة الى من يدرسها ويخرجها للناس ، غير أن الاساتذة انما يعرضون على أن يتركوا للطلاب حرية اختيار موضوعاتهم ، ومن أجل هذا كان على الطالب أن يتأثر على حضور محاضرات أستاذه ، وأن يكون على صلة قوية بأستاذة المادة التي تخصص فيها ، يجادلهم ويناقشهم ، وسيصل — إن شاء الله — الى معرفة كثير من الموضوعات التي تستحق الدراسة ، هيختار منها ما يلائمه ويوافق ظروفه (٥) .

وعلى أية حال ، فاختيار الموضوع هو مهمة الطالب ، وهي مهمة تحتاج الى إرشاد الأستاذ المشرف وتوجيهه ، على أن يكون الموضوع متصلا بتخصص الطالب ، ويميل بعض الطلاب الى أن يختاروا للماجستير موضوعا يكون هو أول ما يتصل به ، قابلا فيما بعد لدراسة جديدة ذات طابع أعمق ، وعناصر أوسع ، حتي يصلح للدكتوراه فيها بعد .

وأيا ما كان الامر ، فال المطلوب من الباحث أن يقوم ببحث أصيل مبتكر في العلم ، وأن يكشف فيه عن حقائق تاريخية جديدة ، فلا يكون البحث في هذه الحالة ، بناء على الرغبة فحسب ، بل بناء على ما يجب أن يبحث وقد يقال أن البحث لا يختار للموضوع التاريخي ، ولكن الموضوع هو الذي يختار للبحث .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أنه لا بد من توفر الاصاله والابتكار والجدة ، والاضافة العلمية في رسائل الدكتوراه ، ويكفي في رسائل الماجستير القدرة على جمع المعلومات باستيعاب ونقدها وعرضها بصورة منظمة ، مع مراعاة المنهج العلمي بدقة ، ذلك لأن الهدف من رسائل الماجستير أن يحصل الطالب على تجارب في البحث ، تحت إشراف

(٥) أحمد شلبي : المرجع السابق ص ٢٤ - ٢٤ .

أحد الاساتذة ، ليمكنه ذلك من مواصلة البحث للدكتوراه التي يفرض فيها أن تمنح تجارب أكمل وأوسع ، وأن تكون مساهمة حقة في النهضة العلمية ، وأن تصيف جديدا للثقافة الرفيعة^(١) ، غير أن طالب الماجستير أن استطاع أن يختار موضوعا يمكنه من تقديم المساهمة العلمية ، ويحقق له صفة الاصلالة والابتكار ، فلا ريب أن ذلك يكون أفضل .

ومن البدهي أن الموضوعات الجديدة التي لم تظرق بعدة أو تلك التي بحثت بصورة ناقصة ، أو دون فهم علمي ، إنما تمكن الطالب من تقديم الجديد والاصيل ، على عكس الموضوعات التي أشيعت قريبا وبخشا ، فإن البحوث الكثيرة فيها إنما تضيق الخناق على الطالب ، وتجعل معظمه — إن لم يكن كل — ما يكتبه تكرارا لأفكار الآخرين واستنتاجاتهم ، ومع ذلك ، فإن امكانية تحقيق الجودة في بحث الموضوع ، إنما يتوقف على لجنة الاشراف والقسم المختص ، أكثر مما يتوقف على الطالب نفسه ، ومع ذلك فإن واجب الطالب يكون في مراجعة الكتب والمقالات ودوائر المعارف والروايات المختصة بالموضوع الذي يؤلف فيه ليكون على بينة من أمره ، فيعرف ما كتب في موضوعه ، وما يمكن أن يضاف اليه — بصورة تقريبية — كما يلاحظ مستوى الدراسات والأبحاث السابقة ، ومكانة مؤلفيها العلمية ، فأن كثرة الدراسات في موضوع معين لا تعنى بالضرورة أنه قد أشيع بحثا ودرسا .

هذا ومن المعروف ألا يكون الموضوع قد سجل من قبل لرسالة علمية سواء في نفس الجامعة أو في جامعة أخرى ، لأن ذلك يفسق مجال الجودة والابتكار ، فضلا عن تكرار الكتابة في الموضوع بنفس المستوى تقريبا ، مما يعتبر إضاعة للجهد العلمي ، غير أن هناك من يبرر هذا التكرار بحجة أن لكل باحث اتجاهاته وطريقة تناوله للموضوع وعقليته وثقافته التي تؤدي إلى الاختلاف في أسلوب ومادة وطبيعة الاستنتاجات ، هذا

(٦) انظر المادة (٩٢) من اللائحة التنفيذية لقانون الجامعات المصرية الصادر بالقرار الجمهوري رقم (٨٠٩) لسنة ١٩٧٥م ، في ١٠ شعبان ١٣٩٥هـ ، الموافق ١٧ أغسطس ١٩٧٥م .

فضلا عن مضي مدة على مناقشة الموضوع ، وظهور مادة علمية جديدة — كالاكتشافات الأثرية ، أو العثور على مخطوطات أو وثائق جديدة — ومع ذلك فيجب عدم الإقدام على هذه الخطوة ، إلا بعد دراسة جادة للموضوع ، والتأكد من أن هناك جديدا يمكن أن يضاف ، فافاق المعلم أرحب من أن يكلف الطالب بأعادة كتابة موضوع سبقه إليه غيره ، وأما كيف يمكن معرفة عدم تسجيل الموضوع في الجامعات المختلفة ، فإن ذلك إنما يتم بمراجعة «دليل الرسائل الجامعية» في الجامعات المصرية ، بل في الكليات المتناظرة ، فضلا عن المجلات العلمية المختصة ، ونشرة القراءات العربية التي تصدرها معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية ، وغيرها من النشرات المعنية بذلك ، وسؤال الاساتذة المختصين في الجامعة التي ينقسم إليها الطلاب ، وغيرها من الجامعات الأخرى العربية ، وغير العربية .

ولعل من الإهمية بمكان الإشارة الى أنه ليس من الضروري دائما ، تجديد عنوان الموضوع ، منذ بادىء الامر ، وبكفى تحديد العصر والنواحي التي تصلح موضوعا للبحث في نطاق معين ، أما التحدد النهائي فيتم في الغالب بعد المضي شوطا في القراءة والبحث ، وعلى الباحث أن يحدد بصفة تقريبية الزمن الذي سيخصصه لبحث موضوعه وتحديد الوقت التقريبي مرتبط بتحديد الموضوع ، ومن ثم فعلى الباحث ألا يختار موضوعا طويلا ، فلك لان اختيار ناحية أو مسألة معينة يمكنه من انجاز بحثه في الوقت المناسب ، مع الاتيان فيه بجديد على العلم ، على أن يراعى عند التحدد النهائي للموضوع أن يكون بطريقة واضحة بحيث يكون الموضوع ذا مضمون محدد ، فلا يكون عاما أو غامضا ، حتى يتمكن الباحث من حصر المادة العلمية التي يحتاجها لرسالته ، وحتى لا يفرق لفتته في تفاصيل لا علاقة لها بموضوع البحث ، كما يجب أن تكون بداية الموضوع ونهايته ذات دلالة خاصة .

هذا وعلى الباحث أن يلاحظ عند اختيار موضوع بحثه ، ميوله الخاصة وقدراته العلمية واللغوية ، سواء أكان الموضوع في اللغة

السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو العسكرية أو الحضارية ، ذلك لان طرق المجالات التي يميل اليها الباحث تجعله أقدر على العمل ، وأقوى على كشف الحقائق التاريخية ، هذا فضلا عن أن يكون طالب البحث ملما بتلك العلوم المساعدة التي يحتاجها بحثه ، خاصة بالنسبة للغة الاصلية التي كتبت بها مصادر الموضوع الذي اختاره ، فضلا عن اللغة أو اللغات الاجنبية التي كتبت بها مراجعه .

ولعل مما تجدر الإشارة اليه هنا أن الرسائل الجامعية في التخصصات الانسانية لا بد وأن تكون في حجم مناسب ، فلا يمكن أن تكون الرسالة في خمسين صفحة مثلا ، وقد جرت الاعراف الجامعية على أن تكون رسالة الماجستير ما بين ١٥٠ ، ٣٠٠ صفحة ، ورسالة الدكتوراه ما بين ٢٥٠ ، ٤٠٠ صفحة ، ومن ثم فلا بد أن يكون الموضوع المختار متوافرا له معلومات تكفي لبناء بحث طويل ، ولا شك في أن وفرة المصادر ، وكثرة المعلومات الموجودة فيها عن الموضوع ، هي التي ستحدد سعة البحث ، الامر الذي يوجب على الطالب أن ينظر في مصادر ومراجع يعرف ما فيها من معلومات عن موضوعه قبل أن يقوم بتسجيله ، ولا بد له من استشارة الاساتذة في ذلك ، وعلى الطالب — اذا لم يطمئن الى وفرة المادة العلمية — أن يغير موضوعه ، وأما أن كانت المعلومات أوسع بكثير من أن يتناولها في رسالة محدودة ، فعلى الطالب أن يعيد النظر في تحديد عنوان موضوع الرسالة ، والاقتصار على جانب منه ، أو حذف بعض جوانبه ، أو تقليص امتداده في الزمان والمكان ، حتى يتمكن من إنجاز رسالته في الوقت ، وبالحجم المناسب ، ودونما أي إخلال بمبدأ استيفاء المعلومات واستيعابها (٧) .

ثانيا : وضع خطة البحث : وهي المرحلة الثانية من مراحل إعداد

(٧) أكرم ضياء العمري : المرجع السابق ص ١٤ - ١٦ ، عاكل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٣٥ - ٣٧ ، محمد بيومي مهران : منهج البحث التاريخي - الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٣٧ - ٣٨ (مخطوط) ، أحمد شلبي : المرجع السابق ص ٢٣ - ٢٦ .

الرسالة — بعد اختيار الموضوع ، وتحديد المرحلة الزمنية التي يتناولها البحث — وذلك بتناول تنظيم الرسالة ، وتوزيع المادة العلمية على الأبواب والفصول ، ثم المباحث أو العناوين الصغيرة أو الجانبية ، مع تثبيت العناوين للموضوع كله ، ثم لأبواب الرسالة وفصولها ومباحثها ، وذكر أهم النقاط التي سيعالجها الباحث في كل باب أو فصل أو مبحث ، بحيث يعطى فكرة واضحة عن الموضوع الذي يريد الطالب تسجيله ، ويتبين مدى مدى وضوح معالمة في ذهن الطالب .

هذا ويجب أن تكون الخطة مرنة قابلة للتعديل — من حيث الإضافة والحذف ، والتقديم والتأخير — حسب ما يتطلبه البحث أثناء الكتابة ، على أن يراعى في الخطة الشمول لعناصر الموضوع ، والتسلسل التاريخي Chronology والترابط المنطقي ، ثم يرفق الطالب بالخطة قائمة بمصادر ومراجع المبحث التي رجع إليها ، ووجد بها مادة علمية تخدم موضوعه ، كدليل على وفرة المعلومات التي سيبنى بحثه عليها ، وليس بالضرورة أن تكون القائمة كاملة ، ولكنها تكفي لتكوين الانطباعات الأولى عن الطالب ، ومدى جديته في بحثه .

ولعل من الإهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن عنوان الرسالة يجب أن يكون واضحاً ومحددًا ثم يكون كذلك هو — وعنوان كل باب وكل فصل — قصيراً بقدر الامكان ، ولكن على أن يكون واضحاً تماماً للوضوح ، وأن يكون شاملاً لكل ما يستوعبه من جزئيات وتفصيل ، وقد وضع Bigelow قاعدة لذلك خلاصتها : أن يشمل العنوان من المعلومات ما يدفع باحثاً آخر ، أن يبحث عن هذه المعلومات تحت هذا العنوان ، ويقرر الدكتور ابراهيم سلامة : أن العنوان يشبه الملائقة ذات السهم الموضوعية في مكان لقشود السائرين حتى يصلوا إلى هدفهم (٨) .

ومن ثم ، فالعنوان يجب أن يدل القارئ على محتويات الرسالة ،

(٨) ابراهيم سلامة : تيارات أدبية من الشرق والغرب ص ٢٥٠ ، أحمد شلبي : المرجع السابق ص ٣٥ - ٣٦ .

وهذا يعني أن العنوانين المعامة التي لم يحدد مطولها ، ليست ذات قيمة علمية ، فليشأني الطالب أن يكون عنوانه رسالته فيها أو ضعيفا ، مثلا : «دراسات في التاريخ المغربي» أو «دراسات في الأدب الجاهلي» ونحو ذلك ، فمن العنوان العام أو المبهم تخلف في الشوط الأول ، ومن مصلحة الباحث أن يبدأ بدءا قويا ، فالمطلع للنجاح نصف الفوز .

هذا ويجب أن تخضع الأبواب والفصول في ترتيبها إلى أساس سليم وفكرة منظمة ، ورابطة خاصة ، كالترتيب الزمني مثلا ، أو كالأهمية أو نحو ذلك ، وليحذر الطالب أن يضع أبواب رسالته وقصودها ارتجالا ، وعلى غير أساس مقبول (٩) .

ثالثا - اعتماد بيبليوجرافيا للموضوع : وهي الخطوة الثالثة من مراحل إعداد البحث ، حيث يقوم الباحث بإعداد «بيبليوجرافيا» Bibliography - للموضوع ، أي قائمة تضم المصادر المختلفة التي تعالج الموضوع - من وثائق وكتب ومفكرات وفكرات ودوريات - على أن يثبت البيانات الخاصة بكل مصدر في بطاقة (جزارة) خاصة ، يكتب الطالب في أعلاها اسم المؤلف واسم الكتاب في الزاوية اليمنى من أعلى ، ويكتب - بعد نقل النص - عنوان النص الدال على محتواه في الزاوية اليسرى من أعلى ، ثم يكتب النص ، فإذا انتهت منه كتب رقم المجلد ورقم الصفحة التي نقل منها النص ، ويمكنه أن يفصل بين اسم الكتاب وعنوان النص وبين النص نفسه بخط واضح ، ولعل من الأفضل أن يستعمل الطالب البيانات الخاصة بكل مربع في بطاقة خاصة ، وهي : (اسم المؤلف كاملا - وتاريخ وفاته - اسم الكتاب كاملا - وتعدد مجلداته - واسم المطبعة - ومحل الطبع وتاريخه) ، وذلك ليستعين بهذه البطاقات عند تنظيم قائمة المصادر ، لأن الكتاب الواحد قد تكون له عدة طبعات ، فإذا نسي المطبعة التي نقل منها النصوص وغيرها ، اختلفت أرقام الصفحات التي أحال إليها في حواشي البحث (١٠) .

(٩) نفس المرجع السابق ص ٣٦ .

(١٠) أكرم ضياء المغربي : المرجع السابق ص ١٤ - ٢٥ .

رابعاً - جمع المادة العلمية : يبدأ الطالب بعد ذلك جمع المادة العلمية لموضوعه من المراجع العامة والخاصة ومن المصادر والإسبول ، مع خصر الآثار والمخلفات التي تتصل به ، فالراجع العلمية والخاصة تنفيذ في إعطاء الباحث فكرة عامة عن العصر الذي يكون موضوع البحث جزءاً منه ، كما تقدم له بعض المراجع التي تعينه في بحثه ومن الضروري أن يبدأ الباحث هذه المرحلة بالافادة مما كتبه السابقون ، والاستعانة بالمراجع التي اعتمدوا عليها ، وينبغي على كل جيل من المؤرخين أن يعرفوا ما كتبه السابقون ، والمراجع التي أفادوا منها .

هذا ، وعلى الباحث أن يتتبع الفكرة الواحدة في بعض الكتب الجيدة والردئية ، سواء بسواء ، مع التعرض على المصادر التي اعتمد عليها أولئك وهؤلاء ، لكي يعرف كيف نمت الفكرة وتطورت ، وكيف عالجه الكتاب المختلفون ، وهذه القراءة الممتازة تساعد الباحث على معصرة أوجه القوة ، وأوجه الضعف ، وتعينه على الوصول الى تحديد المسائل الجديرة بالدرس والايضاح .

وهناك طريقتان لجمع المادة العلمية ، الواحدة : أن يجمع المادة العلمية المتعلقة بالرسالة كلها ، بكل فصولها مرة واحدة ، ثم لا ينتقل الى خطوة أخرى حتى يتم الجمع ، والأخرى : جمع المادة العلمية المتعلقة بفصل واحد ، ثم ينتقل الى خطوات البحث الأخرى حتى يكتب الفصل ، ثم يعود الى جمع المعلومات المتعلقة بفصل آخر ، وهكذا حتى يتم كتابة الرسالة Thesis Writing .

ولاييب في أن الطريقة الأولى إنما تفيد في اختصار الوقت - خاصة إذا لم تكن المصادر والمراجع تحت يد الباحث - حتى لا يعود الى استعمال المصدر الواحد مراراً ، وإنما ينتقل منه كل ما يتعلق بفصول الرسالة ، ولا يعود اليه غالباً ، وأما الطريقة الثانية فتفيد في دفع الملل ، لاحتساس الباحث أنه أنجز فصلاً كاملاً بوقت محدود ، مما يحفزه لمواصلة العمل ، وعلى أية حال ، فإن طبيعة الموضوع ومدى سعته

ووضوحه أو تعقده ، إنما يؤثر في اختيار إحدى الطريقتين في جمع المادة العلمية ، ولاريب في أن خبرة الاعتماد المشرفة إنما تساعد الطالب على اختيار الطريق الأنسب لموضوعه .

على أن المهم في جمع العلمية إنما هو الدقة في الحقل من المصادر والمراجع ، والبعد عن الاختزال المخل ، والاختصار المختور ، والمحافظة على عبارات المصدر أو المرجع دونما أي تغيير فيها ، وضبط الأرقام الصفحات التي وردت فيها المعلومات ، وفي نفس الوقت ، على الطالب أن يستوفي جميع المعلومات من سائر المصادر التي يمكنه الحصول عليها وأن يستفيد جهده في ذلك (١١) .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك أساليب مختلفة لجمع المادة العلمية ، منها كتابة المادة في كراسة واحدة أو جمعها في «دوسيه» مقسم ، أو الاعتماد على نظام البطاقات ، وأما أسلوب «الكراسة» فخطورته تراكم نقاط الموضوع ، الأمر الذي يجعل الطالب في النهاية عاجزاً عن تصنيف المادة العلمية أو الاستفادة منها وأما أسلوب «الدوسيه» المقسم ، فغرضه أنه يتيح للطالب أن يوزع المادة العلمية التي جمعها أولاً بأول على أجزاء الدوسيه ، غير أن ذلك إنما يترتب عليه بعض الصعوبات عندما يجزئ الطالب تعديلاً في بعض فصول الرسالة ، ولو عندما تتناول المادة العلمية أكثر من نقطة من نقاط الموضوع .

ومن ثم فإن بعض الباحثين إنما يفضل «نظام البطاقات» ، لأنه — فيما يرون — أفضل الأساليب لجمع المادة العلمية ، على أن يؤجل الطالب تصنيف تلك البطاقات حتى ينتهي من جمع المادة العلمية ، وبالتالي تكون فصول الرسالة وموضوعاتها قد اتضحت أمامه بشكل نهائي .

وهكذا — وبعد أن ينتهي الطالب من جمع المادة العلمية — عليه أن

(١١) أكرم ضياء العمري : المرجع السابق ص ١٩ - ٢١ .

يقوم بتصنيفها وترتيبها ، بحيث تكون بطاقات كل فصل على حدة وأن
يصنف بطاقات كل فصل إلى مجموعات مختلفة ، ثم يرتب تلك البطاقات
طبقا للخطة التي وضعها لكتابة الرسالة (١٢) .

وأما إن كان الطالب قد جمع المعلومات المتعلقة بالرسالة كلها دفعة
واحدة ، فعليه أن يوزع البطاقات على الأبواب ، ثم يوزع بطاقات كل
باب على الفصول ، ثم بطاقات كل فصل على المباحث أو الموضوعات
غير الرئيسية ، وهكذا تكون المادة العلمية المجموعة قد انقسمت إلى
مجموعات صغيرة موحدة الموضوعات .

على أن الطالب قد يواجه هنا بحالات يكون النص فيها متطفاً بأكثر
من باب ، وله أكثر من عنوان في أعلى البطاقة ، وفي هذه الحالة ، فعلى
الطالب أن يضع النص في أول باب من الخطة ، فإذا ما أنتهى من كتابة
ذلك الباب ، أعاد البطاقة إلى مكانها من البطاقات المتعلقة بباب آخر ، على
أن يؤشر على العنوان الذي استعمله ، والذي يقع في أعلاه .

ولاريب في أن فرز المادة العلمية ، وتنظيم البطاقات على الأبواب
والفصول إنما يعتمد على فهم الطالب للنصوص ومحتوياتها — ولو
بصورة أولية — وقد يشير رأيه عند فحصها مجدداً عند كتابة رسالته ،
ولاستخدام البطاقات المتحركة إنما يساعد كثيراً على هذا التغيير ، هذا
إلى أن الطالب قد تخطر بباله استنتاجات من النصوص أثناء نقلها ،
ووضع عناوينها في أعلى البطاقات ، وهنا لعل من الأفضل أن يدون تلك
الملاحظات في حواشي البطاقة بقلم مغاير في اللون ، لئلا تتداخل مع
النص الأصلي ، أو في دفتر خاص يرجع إليه فيما بعد ، حتى لا تضيع
هذه الملاحظات عن ذهنه أثناء الكتابة .

خامساً — نقد المادة التاريخية : لعل من الأفضل أن يتبع البحث في
نقد المادة التاريخية الخطوات التالية :

(١٢) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق من
٤١ - ٤٢ .

١ - أثبات صحتها : لما كان التاريخ يفرس عن طريق الاصول التاريخية ، كالتأريخ ، بما تشمله من آثار الانسان ومخلفاته ، وحوادث التاريخ القديم - مثلا - تعرف عن طريق دراسة آثار الانسان المختلفة فالمؤرخ لا يرى الحوادث نفسها ، ولكنه يرى ويدرس آثارها ، فآثار الانسان المتنوعة هي نقطة البدء ، والحقيقة التاريخية هي الهدف الذي يتوخى المؤرخ الوصول اليه ، وبين نقطة البدء والهدف يوجد طريق طويل معقد مليء بالمسائل والعقبات والاحطار ، التي تبعد الباحث عن الهدف ، ويلوغ الحقيقة ، ولكن المؤرخ لا يجد غير هذا الطريق للوصول الى غرضه ، ولاريب في أن دراسة الاصول التاريخية وتحليلها بلساليب مختلفة من أهم المراحل في طريق البحث ، وهو عبارة عن ميدان نقد الاصول التاريخية .

وربما تكون دراسة آثار الانسان - من أبنية وتماثيل ومصنوعات مادية ملموسة - أسهل من دراسة كتاباته المسجلة عن حوادث الماضي ، وذلك لوجود علاقة واضحة بين الآثار الماثلة أمام المؤرخ ، وأسباب وجودها ، وارتباط ذلك بأحداث التاريخ ، ولكن الكتابات التي دونها الانسان عن حوادث تاريخية معينة ، انما هي أثر عقلي سيكولوجي وليست شيئا بارزا ملموسا ، وهي لا تزيد عن كونها مجرد رمز ، أو تعبير عن أثر تلك الحوادث في ذهن من دونها .

ولاريب في أنه للوصول من الاصل التاريخي المكتوب الى الحوادث ، ينبغي على المؤرخ أن يتعمق سلسلة العوامل التي أدت الى كتابته ، ومن ثم لكي يصل المؤرخ الى الحوادث الاصلية أن تمر في خياله للظروف التي أحاطت بكتاب الاصل التاريخي ، منبذ أن شهد الوقائع ، وجمع معلوماته عنها ، حتى دوها في الاصل المكتوب المائل لهماام المؤرخ نحو على أية حال ، فقبل أن يبدأ الباحث في نقد الاصل التاريخي يجب عليه أن يرميه ، إن كان في حاجة الى ذلك ، كما أن المؤرخ لا يستطيع أن يصل الى الحقيقة التاريخية ، اذا لم يعمل النقد في كل ما يقع تحت يده من

الاصول التاريخية المختلفة ، الامر الذي قد يستغرقه زمنا ليس بالقليل على أية حال .

ومن هنا فقد ذهب البعض الى ان نقطة البدء في التاريخ هي الشك ، ذلك الشك الذي لابد ان يتسق الى تصديق من أجل التثبت من صحة الخبر ، يقول «لانجلو أوسينوبوس» : لا تاريخ بدون تحصيل والتحصيل هنا : التاكيد من أصالة الاصول ، والتثبت من خلو الوثائق من كل دس أو خطأ أو تزوير ، ذلك لانه لا يجوز للمؤرخ ان يثق بكل ما يكتب ، أو يصدق كل ما يقرأ ثم يقول «لانجلو أوسينوبوس» ان قضاء عشر سنين في تحقيق نص لوثيقة متقيمة ، أفضل من نشر عدة مجلدات من وثائق غير محققة في نفس المدة ، اذ سيضطر العلماء في المستقبل ان يعيدوا تحقيقها بتكاليف جديدة (١٣) .

ولطالما من الاعمية يمكن الاشارة الى ان هناك عدة مراحل للنقد :

فالنقد الظاهري : (External Criticism) ، ويتعلق بعدة أمور ، مثل اثبات صحة الاصل التاريخي ، ونوع الخط والورق ، وتعيين شخصية المؤلف ، وزمان التدوين ومكانه ، الى غير ذلك من الوسائل والنقد الباطني : (Internal Criticism) ، ويبحث في الحالات العقلية التي مر خلالها كاتب الاصل التاريخي ، فمثلا عن الظروف السياسية أو الاجتماعية أو النفسية التي أحاطت به عند كتابتها .

وأول مرحلة من مراحل نقد الاصول التاريخية هي «اثبات صحتها» وذلك لان الاصل والمصدر كله ، أو بعضه ، مزيف أو متحلا ، فلا يمكن الاعتماد عليه على وجه العموم ، فقد تزييف الآثار المادية من أجل الكسب في أحوال كثيرة ، ومن الأمثلة على ذلك ، ما حدث من وجود مجموعة من الاواني الفخارية في القدس عام ١٨٧٢م ، وقد دلي على وجودها المدعو

(١٣) لانجلو أوسينوبوس : المرجع السابق ص ٥٤ ، أحمد مختار
صبيح : المرجع السابق ص ١٢٢ .

«سليم العربي» الذي كان يعمل في خدمة بعض المنقبين عن الآثار في فلسطين ، واشتوى بعضها «متحف برلين» ، غير أن البحث العلمي قد أثبت أن هذه الآثار مزيفة ، وربما كان سليم العربي نفسه هو صانعها بقصد الكسب .

وهكذا يدل المثال على أهمية نقد الأصول التاريخية ، وبالتالي يتضح الصعوبات التي يجب على المؤرخ أن يواجهها ، وأن يتطلب على ما يمكن التغلب عليه ، وبغير ذلك لا يستطيع المؤرخ أن يكتب التاريخ لأنه إذا ما بنى أبحاثه على أصول مزورة منتحلة ، خرج بنتائج بعيدة عن الحقيقة ، ومخالفة للواقع التاريخي .

ب - تعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه : لا ريب في أنه عندما يثبت للباحث في التاريخ أن الأصل أو المصدر التاريخي ، صحيح وغير مزيف ، فليس هذا بالضرورة يعني أن المعلومات الواردة فيه ، ذات قيمة تاريخية كبيرة ، ومن ثم فلا بد من نقد الأصل التاريخي من نواح أخرى ، هذا وتحمل بعض الأصول التاريخية اسم مؤلفها وزمان ومكان تدوينها ، على أن بعضي الأصول التي اشتهرت بمطابق الصحة وعدم التزيف ، إنما تغفل أحيانا ناحية أو أكثر من هذه النواحي الأمر الذي ينقص قيمتها التاريخية .

وهنا لحل سائل يتساءل : كيف يقدر الباحث قيمة الأصل التاريخي ، وهو يجهل اسم مؤلفه وشخصيته وعلاقته بالحوادث التي كتب عنها ؟ فهل شهدا بنفسه أم سمعها ونقلها عن الغير ، ومتى دونها ؟

إن معرفة كاتب الأصل التاريخي وشخصيته أمر هام ، ذلك لأن قيمة المعلومات التي يوردها إنما ترتبط كل الارتباط بشخصية الكاتب ، ومدى فهمه للحوادث ، ولكل الظروف التي تحيط به على وجه العموم ، فالمعلومات التي يدونها الحاكم تختلف عن تلك التي يدونها السياسي أو الجندي أو الطالب أو الفلاح ، وعلى ذلك تتضح أهمية البحث لمعرفة أكبر قسط ممكن من المعلومات عن كاتب الأصل أو الوثيقة التاريخية

وأحيانا تضيق عينا جهود المؤرخ لصرفه اسم كاتب الأصل التاريخي وشخصيته ، فيظل مجهولا ، وإن كان هذا لا يمنع من الاستفادة منه ، ومثالنا على ذلك كتاب نشره المستشرق «كارل مولر» مؤلف مجهول يبحث في آثار بلاد العرب ، واسمه (Glaucus) (١٤) ، وقد ألفه الباحثون منه ، وفي بعض الأحيان لا يستطيع المؤرخ إلا أن يجمع القليل من المعلومات عن كاتب الأصل التاريخي ، وعندئذ عليه أن يقر بذلك فيدرس المعلومات الواردة في نطاق العصر ، أو الناحية التي تتصل بها ، ويفيد منها بقدر المستطاع .

هذا وينبغي أن يلاحظ الباحث أن وضع اسم شخص على أصل تاريخي ، لا يعني بالضرورة أنه هو كاتبه ، وفي أحيان كثيرة يمكن للمؤرخ أن يتعرف على كاتب الأصل التاريخي لخطوط بدراسة نوع الورق والخط والحبر ، واللغة والأسلوب ، والمصطلحات الخاصة بالمعهد التاريخي المعين ، وبدراسة المعلومات التاريخية الواردة به .

وأما المسألة الثانية في هذه الناحية من النقد التاريخي ، فهي : معرفة الزمن الذي دون فيه الأصل التاريخي ، فقد يكون الأصل صحيحا غير مزيف ، وقد يكون كاتبه من الأشخاص الذين يتحرون للصدق والبعد عن الهوى ، ومع ذلك فقد ينقص من قيمته التاريخية بعد الزمن بين وقوع الحادث ورؤيته ، وبين تدوين أخباره ، فكلما بعد الزمن بالكاتب عن وقوع الحادث ، كلما تعرض لأن يفوته قليل أو كثير من التفاصيل الخاصة ، إذا لم يحدد الكاتب التاريخ الذي دون فيه ما كتبه ، ولكن كيف يستطيع الباحث أن يحدد ذلك ، ولو على وجه التقريب ؟

في الواقع أنه يمكن للباحث في التاريخ أن يضع حدين — الواحد لبداية الأصل التاريخي والثاني لنهايتها — وذلك بناء على دراسة محتوياته ، أي أنه يعين التاريخ الذي لا يمكن أن تكون الحوادث قد وقعت قبله ،

14. Glaucus, Archacologi Araabica, by Carl Muler, in FHG, IV, Paris, 1851.

والتاريخ الذي لا يمكن أن تكون الجواد شقة وقعت بعده ، ولتحديد ذلك يجب أن يكون ملما بثقله تاريخية واسعة تتعلق بالعصر الذي يدرسه ، ومن البدهي أن الأصل للتاريخي يصدد بعد آخر حادث ورد فيه .

وهناك أيضا مشكلة تعيين المكان الذي دون فيه الأصل التاريخي ، وهل دون في مكان وقوع الأحداث أم بعيدا عنها ؟ وهل هذا المكان يجعل كاتب الوثيقة (الأصل التاريخي) قادرا على تصوير الوقائع تصويرا صحيحا ؟ أم أن التدوين حدث في مكان بعيد ، واعتمد على الذاكرة والخيال في سرد الوقائع ؟ وطبيعي أن يتدخل القريب أو البعيد عن مكان الإحاطة في تقدير المعلومات الواردة في الأصل التاريخي ، وإن لم يكن ذلك من الأدلة القاطعة على مدى الصدق فيها .

ج - تحرى نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها : من الضروري للباحث في التاريخ أن يتحرى نصوص الأصول ، ويثبت من حصرية الفاظها وعباراتها قبل أن يستخدم المعلومات الواردة بها ، وعلى الباحث أن يتأكد في حالة طبع الأصول التاريخية أنها مطابقة للمخطوط الأصلي ، ولم يتناولها تحريف أو تصحيف ، هذا ويمكن تقسيم الأصول التاريخية المخطوطة من ناحية تحرى النص ، وتحقيق اللفظ إلى حالات ثلاث :

الأولى : وهي التي يكون أمام الباحث الأصل الأول ويمكن التحقق من ذلك بملاحظة نوع الحبر والمواد المكتوب عليها من بردى ولبخاف وعظام وخشب وجلد ويدراسة الخط واللغة والمعلومات ومقارنتها بكتابات أخرى - أن جدت - يستطيع الباحث أن يفيد - وهو مطمئن من هذه الناحية - بالمعلومات التي يوردها هذا الأصل الأول .

الثانية : وهي التي يفقد فيها الأصل الأول ، ولا يبقى أمام الباحث سوى نسخة واحدة منقولة عنها ، ودراية هذه النسخة الوحيد منقولة عن الأصل المفقود تستلزم الدقة والحذر للثبوت من مصحفي الفاظها ونصوصها .

الثالثة : وهى التى يضيع فيها الاصل الاول ، وتبقى عدة نسخ منقولة ، تتشابه وتختلط فيما بينها ، ولكن لا تعرف الصلة بين بعضها والبعض الآخر ، ولا الصلة بينها وبين الاصل الاول المفقود ، وفى هذه الحالة يعتمد الباحث فى التاريخ الى محاولة السعى الى تحديد النص الاول ، أو أقرب ما يمكن اليه ، بالدراسة والمقارنة ، وعلى أساس التشابه والاختلاف بين النسخ المتعددة ، وعلى أساس التوصل الى فهم لغة المؤلف وروحه ، والدراية بأحوال عصره (١٥) .

والواقع أن الوثائق هامة جدا بالنسبة للمؤرخ ، حتى ذهب البعض الى أن التاريخ انما هو علم الوثائق يستقرئها المؤرخ ويحللها للتوصل الى وقائع تشتمل عليها ، فالوقائع انما توجد فى الوثائق (Documents) وهى تفرض ذاتها بذاتها قبل كل تفسير ، وهى ضاعت الوثائق ضاع التاريخ ، فالمعالجة التاريخية لا تقوم على التحليل فحسب وانما تجرى أيضا بوجود الوثائق والسجلات (Records) ، ومن ثم فقد ذهب المؤرخ الفرنسى «سيتوبوس» الى أنه لا تاريخ بغير وثائق ، فى حين ذهب البعض الى التقليل من أهمية الوثائق ، وأنه ما من وثيقة يوسمها أن تخبرنا أكثر مما أراد لها محررها ، ومن هنا فان مهمة المؤرخ لا تقتصر على جمع الوثائق ، وانما العمل على التحقق من صحتها ومما جاء فيها من آراء وأحداث وتطورات ، ورغم أن «لويس جوتشك» يرى أن تزوير الوثائق بأكملها أو أجزاء منها أمر لم تجر العادة به ، فان كثيرا من الوثائق قد زورت ، حيث عمد الى ذلك بعض مؤرخى المناطق التى شهدت صراعات سياسية وعسكرية وطاقفية (١٦) .

(١٥) انظر عن تحقيق المخطوطات (فرانز روزنثال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى - ترجمة أنيس قريشة - بيروت ١٩٨٠ ص ٦٢ - ٦٦ ، ٧٢ - ٨١ ، أكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ٣٥ - ٦٣ حسان حلاق : المرجع السابق ص ٨٩ - ١٩٤ ، عبد القادر أحمد طليمات : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية - القاهرة ١٩٦٣ (رسالة ماجستير من جامعة عين شمس) .

(١٦) انظر عن تزوير الوثائق (محمد جميل بيهم : عربى لبنان - بيروت ١٩٦٩ ص ١٠٣ - ١١٩ ، حسان حلاق : المرجع السابق ص ٩٢ - ٩٣)

وهناك أمور أخرى تنقل من قيمة الوثائق كالمبالغ التي تشبه الاساطير ، أو الدعوة لهدف معين ، ومن النوع الاول ، «بردية تورين» والتي تعد من أكثر المصادر التاريخية قيمة بالنسبة لتاريخ مصر الفرعونية ، لم يفسد على كاتبها ملكته التاريخ سوى ايمانه بأساطير قومه التي جعلت للارباب نصيبا في اعتلاء عرش البلاد ، والمبالغة في مدة حكمهم (١٧) — كما فعلت قائمة الملوك السومرية التي جعلت مدة حكم ملوك ما قبل الطوفان ٢٤١٢٠٠ سنة . وان آخر الملوك قد حكم ١٨٦٠٠ سنة (١٨) .

ومن النوع الثاني «بردية نفرتي» التي كتبت تمجيدا للملك «امنمحات الاول» (١٩٩١ - ١٩٦٣ ق.م) مؤسس الاسرة الثانية عشرة ، وان زعم صاحبها أنها ترجع الى عهد «سينفرو» مؤسس الاسرة الرابعة (حوالي ٢٦٣٠ ق.م) ، وهكذا تتيأت البردية بأن «اميني» (امنمحات الاول) سيتولى عرش الكنانة بناء على ارادة الهية ، وأن الحكماء قد تنبأوا بذلك أمام الملك سنفرو ، رغم أنها كتبت على أيام امنمحات الاول ، وربما بعده بقليل (١٩) .

(١٧) انظر عن بردية تورين (محمد بيومي مهران : مصر ٦٣/١ - ٦٥ وكذا

(A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 62.

(١٨) - انظر عن قائمة الملوك السومرية (محمد بيومي مهران : تاريخ العراق القديم ص ٦٤ - ٦٦ ، وكذا

S. N. Kramer, The Sumerians, Chicago, 1970, p. 328-331.

J. Finegan, Op. Cit., p. 29-30.

A. L. Oppenheim, in ANET, 1966, p. 265-267.

T. Jacobsen, The Sumerian King List, in Assyrian Studies, II, 1939.

(١٩) انظر عن نبوءة نفرتي (محمد بيومي مهران : مصر ٣٧/٢ - ٣٣٩ ، وكذا

A. Erman, Op. Cit., p. 100-110.

J. A. Wilson, in ANET, p. 444-445.

A. H. Gardiner, in JEA, I, 1914, p. 100-106.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience New York, 1939, p. 200-206.

٢ - النقد الباطني للأصول : وهو نوعان ايجابي وسلبى

١ - النقد الباطنى الايجابى (Hermeneutic) وهو عبارة عن تحليل الأصل التاريخى بقصد تفسيره وإدراك معناه ، والوصول الى الحقائق التاريخية من خلال الوثائق والأصول التاريخية ، ويحدد ذلك في دورين : أولهما : تفسير ظاهر النص ، وتحديد المعنى الحرفى له ، وثانيهما : إدراك المعنى الحقيقي للنص ، ومعرفة غرض المؤلف مما كتبه .

وتحديد المعنى الحرفى لنص تاريخى معين عبارة عن عملية لغوية ، ولا بد لفهم كل نص تاريخى من معرفة اللغة التى كتب بها ، ولا تكفى المعرفة العامة لهذه اللغة ، وإنما يجب فهم دقائقها ، فضلا عن الإلمام بلمعة العصر التاريخى الذى يرجع اليه ذلك النص ، مع الاستعانة بفلم فقه اللغة (الفيلولوجيا = Philology) إذا اقتضى الامر ذلك ، وعلى أية حال ، فربما يمكن إجمال بعض القواعد التى ينبغي على الباحث السير بمقتضاها لتحديد المعنى الحرفى للألفاظ للنص التاريخى فيما يلى :

١ - تتغير اللغة الواحدة من عصر الى آخر ، ويمكن الاستعانة فى تحديد معنى بعض الالفاظ ، بفهم العبارات التى وردت بها .

٢ - ينبغى معرفة اللغة أو اللهجة التى وجدت فى منطقة معينة ، والتى دون بها الأصل التاريخى .

٣ - ينبغى الإلمام بلمعة للكاتب وأسلوبه ، ويمكن الاستعانة فى ذلك بمؤلفاته الأخرى أو بمؤلفات العصر الذى عاش فيه .

٤ - ينبغى ألا تفسر كلمة أو جملة ما بداتها فحسب ، وإنما يجب أن تفسر فى نطاق السياق العام للنص التاريخى .

هذا وعندما يتولى الباحث من تحديد المعنى الحرفى للألفاظ والتراكيب التى تحتل الشك فى مهانها ، فعليه أن يصل الى معرفة غرض الكاتب ، والمعنى الحقيقى لما يكتبه ، فمن الجائز أنه كتب بعض

الإساليب والمركيب غير الواضحة ، وفي هذه الحالة لا يؤدي ظاهر النص إلى المعنى المقصود ، ومن ثم فلا يكفي فهم ظاهر النص وللمعنى الجهرى للألفاظ ، وإنما يجب محاولة الوصول إلى المعنى الحقيقي للباطنى الذى قصد إليه كاتب النص التاريخى ، ولكن هذا لا يعنى إسراف الباحث فى التشكك فى معانى الألفاظ الحقيقية ، وأن يحمل النص ما لا يمكن أن تحمله ألفاظه من معان .

وعندما يصل الباحث إلى النص الحقيقى للنص التاريخى ، فإن عملية التجليل أو التفسير الإيجابى تكون قد انتهت ، والنتيجة التى يخرج الباحث بها من ذلك كله هى أنه أصبح عارفا بمعلومات كاتب الأصل التاريخى ، ، والصورة التى كونها فى ذهنه عن الحوادث التى كتب عنها .

٢- النقد الباطنى السلبى : وهو عملية ضرورية لتصفية الحقائق ، واستبعاد الزائف منها ، يقدر المستطاع ، هذا ويؤدى النقد الباطنى السلبى إلى قاعدتين : الأولى : أن الاثبات العلمى لأية حقيقة تاريخية ، لا يمكن أن يتم عن طريق شهود عيان شخصيين ، وإنما يجب أن يستوفى لدى الباحث فى التاريخ الأدلة التى تثبت تلك الحقيقة .

والثانية : أنه لا يجوز أن ينقد الأصل فى هذه المرحلة كوحدة عامة ، وإنما ينبغى أن تنقد جزئياته وتفصيلاته وحوادثه المفردة ، واحدة بعد أخرى .

هذا وترتبط قيمة كل أصل تاريخى بالظروف التى تمت خلالها عملية العمليات العقلية التى انتهت إلى تدوينه ووصوله إلى المؤرخ ، والتعريف على شخصية المؤلف ، إنما يدلنا على بعض الظروف التى كتب خلالها الأصل التاريخى ، كما أن معرفة عواطف المؤلف وعاداته وأهوائه وبيئته ومستواه إنما يساعدنا فى الكشف عن عوامل الكذب أو الخطأ أو الضحاع ، أو المصدق أو الصواب ، ، هينما نتتبع ما يمكن نتجعه من العمليات العقلية والظروف التى ارتبطت بكتابة الأصل التاريخى .

سواء كان الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه يحكم التفرقة بين ناحيتين
من النقد الباطني المطلق إمران ، أولهما : التثبت من صدق المؤلف
وهذا هو الأصل وهو صادق فيما كتب أم كاذب ، وثانيهما : التثبت من
صدق المعلومات التي أوردها ومبلغ دقتها ، وهل أخطأ المؤلف أو خدع
بشأنها ، أم أنه لم يخطئ ولم يخدع .

وأما عن الأمر الأول : فإنه يلاحظ أن المؤلف قد يكذب طمعا في منفعة
أو دفعا لضرر ، أو قد يكذب بسبب تحيزه لأسرة بذاتها ، أو لخرب أو
مبدأ سياسي أو فلسفي أو اقتصادي أو لعقيدة دينية ، وقد يكذب بسبب
غروره الشخصي أو غرور الجماعة أو الناحية التي ينتسب إليها ، وقهقهة
مصلحتها ، وقد يكذب لقصد إرضاء الجمهور أو مداراته ، أو رغبته في
عدم ازعاج الرأي العام أو كسب لمرضاته ، وقد يكتب كاتب الأصل
التاريخي بأسلوب أدبي لإرضاء ذوق الجمهور ، فيغير الوقائع ويكيفها
بما يناسب ذلك الأسلوب الأدبي ، على حساب الحقيقة التاريخية .

ولعل الأمر الثاني : وهو معرفة حقيقة المعلومات الواردة في الأصل
التاريخي ، فيجب معرفة : هل قصد كاتب الأصل التاريخي أن يقول
الصدق ، غير أن الظروف دفعته إلى الوقوع في الخطأ دون أن يظن
إلى ذلك ؟ ومن ثم فينبغي على الباحث أن يسعى لكشف هذه الظروف
بالنسبة للأصل التاريخي ، كوحدة عامة ، وأما بالنسبة لجزيئاته فيجب
على الباحث أن يبحث : هل تمتع الراوي أو كاتب الأصل التاريخي
بجواس سليمة ومعدل سليم ؟ وهل تمتع بجميع الشروط التي يجب
توفرها حتى تتحقق المشاهدة العلمية ؟ وهل يتمتع بملكية خاصة أو موهبة
تساعده على تدوين الكتابة التاريخية ؟ كل هذه العوامل تعمل على إبعاد
الحقائق الخالصة من الوصول إلى الباحث في التاريخ .

وإنطلاقا من كل هذا ، يبدو واضحا مدى صعوبة دراسة التاريخ
بعمامة ، وصعوبة النقد التاريخي بخاصة ، فإن هذا ليس بالأمر السهل ،

اذ يقتضى الكثير من البحث والتحري والناة والصبر ، للوصول — قدر المستطاع — الى الحقيقة التاريخية .

سادسا — اثبات الحقائق التاريخية : لا ريب فى أن الباحث فى التاريخ انما يصل — عن طريق نقده للاصول التاريخية — الى مجموعة من المعلومات والآراء عن حوادث الزمن الماضى ، ورغم ذلك فان النقد التاريخى لا يثبت الحقيقة التاريخية ، بل يساعد على بلوغها ، ويؤدى الى احتمال الصدق فيها ، ومن ثم فلا بد من عملية نهائية للوصول الى نتيجة محددة ، اذ ينبغى الخروج من دائرة الاحتمال والشك الى دائرة اليقين ، ومن الضرورى للباحث فى التاريخ أن يتابع الدرس والبحث ، للوصول الى نتائج حاسمة ، قدر المستطاع ، وهكذا فعلى المؤرخ أن يبدأ بتقسيم النتائج التى وصل اليها عن طريق النقد ، ويضع فى قسم واحد كل المعلومات الواردة عن حادث أو قضية ما ، والوصول الى رأى نهائى فى هذا الامر يقوم على أساس من العلاقة بين هذه المعلومات .

وعندما تتعارض الاصول والصادر وتتناقض الروايات بشأن حادث تاريخى معين ، فيجب على الباحث أن يحاول ترجيح جانب على آخر ، بواسطة النقد التاريخى — كما أشرنا من قبل عن معركة قادش فى عام ١٢٨٥ ق م — واذا لم يستطع ذلك فعليه أن يمتنع عن اعطاء حكم نهائى حتى يعثر على أدلة جيدة تنير له الطريق ، هذا وقد تواجه الباحث أحيانا حالات لا يتم فيها التوافق بين الوقائع التى تثبتها الاصول التاريخية ، وتلك التى تثبتها القوانين العلمية الثابتة ، وفى هذه الحالة فلا بد من أن تسلم الاولى للثانية ، اذ لا يمكن لعلم التاريخ أن يدعى معارضة نتائج العلوم الطبيعية أو تصحيحها ، وانما عليه أن يصحح نتائجها ، طبقا لنتائج العلوم الطبيعية ونواميسها .

وأما فى حالة اتفاق عدة روايات عن حادث تاريخى معين ، فينبغى على المؤرخ ألا يعتبر ذلك الحادث صحيحا ، لمجرد اتفاق عدة روايات بشأنه ، وانما عليه أن يثبت من استقلال هذه المصادر بعضها عن البعض

الأخرى ، والإقناعها تعد على بعض المسائل أو القضايا التي نقاولها - على الأقل - بمثابة مصدر واحد .

وفي إطار الحقائق التاريخية ، يمكن أن تشير إلى النقاط التالية :

١ - بعض القواعد العامة للتركيب التاريخي : ٢ - تنظيم الحقائق التاريخية : ٣ - الاجتهاد : ٤ - التقليل والإيضاح : ٥ - الخصائص الشخصية التاريخية .

١ - بعض القواعد العامة للتركيب التاريخي : يمكن أن نلخص عمليات التركيب أو البناء التاريخي في عدة مراحل ، وعلى الباحث أن يجمع خلالها العناصر المأخوذة من أصول تاريخية متعددة ، ويحاول أن يكون منها صورة عقلية تشابه ، بقدر الامكان ، الصورة التي وجدت في ذهن شاهد العيان أو كاتب الأصل التاريخي ، ثم يقسم الباحث الحقائق إلى مجموعت على أساس التشابه القائم بينها ، وعلى أساس المسائل المتعلقة بنقطة أو حادث معين ، وعندما يضاف المؤرخ فجوات صغيرة أو كبيرة ، فعليه أن يحاول ملأها عن طريق الاستنتاج العقلي المستمد من الحقائق التي توفرت لديه ، فضلا عن أن يستخرج من هذه الحقائق صفاتها العامة ، وعلاقتها ببعضها البعض الآخر ، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى كتابة التاريخ .

٢ - تنظيم الحقائق التاريخية : على الباحث أن يشرع في تنظيم الحقائق التاريخية ، وتنسيقها في مجموعات وأقسام ، تبعا لظروفها الظاهرة وسائر خصائصها ، هذا ويحكم تقسيم الحقائق التاريخية على أساس طبيعتها الحقائق وخصائصها ، وارتباطها بمظاهر النشاط الإنساني - على النحو التالي :

١ - الظروف المادية : ٢ - الصلات والتقاليد : ٣ - النظم الاقتصادية : ٤ - النظم الاجتماعية : ٥ - النظم العامة .

سواء لاحظنا أن هذه التصنيفات ليست منهقة بقصها عن البعض الآخر ،

وانما هي متداخلة فيما بينها ، ففي العرض التاريخي نجد مسائل
جغرافية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو أدبية متصلة ببعضها
البعض الآخر ، ويبدو الاثر المتبادل فيما بينها بحسب الموضوع الذي
يتناولته البحوث في التاريخ .

٣ - الاجتهاد : يلاحظ الباحث في التاريخ أن الحقائق التي تقدمها
الاصول التاريخية لا تكفي أحيانا لتغطية كل ما يتطلبه موضوع بحثه ،
وهو تكثر الحقائق في ناحية ، وتنقص ، وربما تندر ، في ناحية أخرى ،
ومن ثم وجدت فجوات في سلسلة الحوادث ، على الباحث أن يحاول
ملاها من طريق الاجتهاد ، والتي منها (أولا) ألا يصعب الاجتهاد
تحليل الوثيقة ، لأن هذا جهد يؤدي إلى تحميل التصوُّص أكثر مما تحتمل
ومنها (ثانيا) أن الحقائق التي يصل إليها الباحث ، عن طريق تحليل
الاصول ونقدتها ، يجب أن تظل مميزة ، ولا تختلط بالحقائق الناتجة عن
طريق الاجتهاد ، ومنها (ثالثا) أن يكون الباحث حاضر المذهب متيقظا
غير ساه أو مشغول بشيء آخر ، وهو يحاول الاجتهاد ، ومنها (رابعا)
إذا وصل الباحث - عن طريق الاجتهاد - إلى نتائج تتقوى على أقل
عنصر من الشك ، فيجب أن يقرر ذلك بوضوح ، ومنها (خامسا) لا يجوز
في محاولة الاجتهاد أن يحاول الباحث جعل الافتراض والتكهن حقيقة ،
ما لم تكن لديه البراهين والأدلة الكافية .

وهناك طريقتان للاجتهاد ، الواحدة سلبية ، والاخرى ايجابية .

أما الاجتهاد السلبي : فمجرد عبر المناطقة عنه بقولهم : «السكرت
حجة» ، فقد يقال أن الحادث وقع لسكوت الوثائق والمصادر عنه وهذا
استنتاج خطر في أحوال كثيرة ، فقد تعرض كثير من الاصول التاريخية
للظف والضيق ، فصاحت منه حوادث التاريخ ، كما أن بعض الحوادث
التفصيلية قد أفلتت من التدوين ، ذلك لأن بعض المسائل العامة الشائعة
ربما تمر دون تدوين ، لأنها مألوفة تماما ، أو لأن الحكومة منعت
تدوينها ، ومن ثم فإن سكوت المصادر عنها لا يعتبر حجة على عدم وقوع
الحادث .

وأما الاجتهاد الايجابي : فهو محاولة استنتاج حقيقة أو حوادث أو أكثر بمجرد التثبت من حدوث الواقعة معينة ، وهناك بعض القواعد والمبادئ في باب الاجتهاد الايجابي ، فتوجد أولا كليات عامة مستمدة من تجارب الانسان ، كما توجد جزئيات خاصة ذاتية ، مستمدة من الاصول التاريخية ، وتتعلق بمسائل أو حوادث معينة ، ومن الناحية العملية يبدأ المؤرخ بدراسة الجزئية الخاصة المتعلقة بالحدث ذاته ، فنجد مثلا ، أن مدينة «سلاميس» تحمل اسما فينيقيا ، ثم ينظر الى الكلية العامة التي تقول : ان اللغة التي يدون بها اسم مدينة تكون غالبا لغة الشعب الذي أنشأها ، ومن ثم يمكن القول ان مدينة سلاميس انما أنشأها أو أسهم في انشائها الفينيقيون ، ولكي نصل الى نتيجة ثابتة أو أقرب الى الثبوت يلزم مراعاة شرطين اثنين ، أولهما : أن تكون الكلية العامة صحيحة تماما ، وأن يكون الارتباط بين الواقعتين التاريخيتين قويا ، وثانيهما : لكي يستخدم الباحث في التاريخ كلية عامة ويطبقها على التفاصيل الجزئية ، يجب أن يكون وطيد المعرفة بالمسألة التاريخية المعنية ، كما أنه من الخطأ أن يعنى الباحث اجتاده على تفصيل جزئي مبتذل بذاته ، دون أن يدرس كل الظروف المتعلقة به .

على أن الباحث يجب أن يدرك تماما أن الاجتهاد لا يؤدي الى نتائج ثابتة ، ولكنه يؤدي الى نتائج تقريبية في الطلب ، وأحيانا يمكن ملء بعض الفجوات في التاريخ عن طريق الاجتهاد ، وأحيانا أخرى تبقى بعض المسائل التي لا يمكن الوصول فيها الى رأي حاسم ، ويظل الشك يحوم حولها الى أن يأتي من يصل بها الى رأي أصح أو أفضل ، بقاء على ما قد يكشف عنه من الحقائق المجهولة .

٤ - التعليل والايضاح : لا يستطيع الباحث في التاريخ أن يقف عند هذا الحد من البحث والدرس ، وإنما يجب السعى الى محاولة الوصول - بقدر المستطاع - الى معرفة الاسباب والمواطن التي أدت الى وقوع الحوادث التاريخية ، فهو في ذلك يجتهد مثلا في معرفة أسباب الحوادث العامة ، كارتفاع أمة وسقوطها ، وظهور حضارة ونفوذها

وتطورها وإزدهارها ثم هبوطها ، كما يحاول معرفة الأسباب الخاصة
مثل كسب معركة .

ومن البدهي أن معرفة الأسباب في حوادث التاريخ تستلزم تتبع
الفترة السابقة التي مهدت لها ، وذلك لمعرفة العوامل المباشرة وغير
المباشرة التي أدت الى وقوعها ، وعلى أية حال ، فليس من الممكن أو
السهل دائما معرفة أسباب الحقائق التاريخية بدرجة واحدة ، فقد
تعرف أسباب بعض الاحداث بسهولة ، لاماكان معرفة الظروف التي
أحاطت بها ، على حين لا يمكن ، أو لا يسهل معرفة أسباب بعضها الآخر
على وجه الدقة ، لمعوض الظروف التي أحاطت بها فضلا عن اختلاف
الظروف والروايات بشأنها ، على نحو يجعل الوصول الى الحقيقة أمرا
متعذرا أو عسيرا .

٥ - انشاء الصيغة التاريخية : يحتاج التاريخ الى صيغة للتعبير عن
طبيعة ظواهره المختلفة ، وينبغي أن تكون الصيغة التاريخية مختصرة
ودقيقة ، هذا وقد يوجد التعارض بين الاختصار والدقة ، فالاسلوب
المختصر ربما يحول دون فهم المراد ، كما أن الاسلوب المطول ربما يقلل
من قيمة التاريخ المكتوب ، ويقدم للقارئ ما ليس ضروريا ، ومن ثم
فيحسن اتباع طريق وسط بين الطرفين ، وذلك بضغط الحقائق أو
الحوادث ، وحذف كل ما هو ضروري لايضاحتها .

سابعاً - العرض التاريخي :

يمثل العرض التاريخي آخر مرحلة من هذا المنهج ، وهي ليست
أسهل المراحل ، وبالضرورة لا تصبح كتابة التاريخ سهلة ، الا حينها
تكون الحقائق ماثلة أمام الباحث ، مثبتة مرتبة مظلة مشروحة ، وعندما
يتخيل الباحث موضوع البحث كله ، كخطحة عامة ، ويدرك الاهمية
بالنسبة لأجزاء البحث المختلفة ، ويحسن اللغة التي يكتب بها هذا البحث
على أنه من المخزن ، بل من المفسري ، أن بعضا ممن يكتبون رسائل
المجستير والدكتوراه في هذه الايام ، يكادون لا يستطيعون كتابة

رسائلهم بلغة عربية سليمة ، بل أن بعضاً منهم لا يكاد يفقه كثيراً من معانى الكلمات العربية التى كتبت بها رسائلهم ، كما أن بعضاً منهم لا يكاد يستطيع قراءة الملخص الذى يكلف بالقائه أمام لجنة المناقشة (The Degree Committee) دون أن يخطئ فيه مرات ومرات .

وعلى أية حال ، فهناك شروط معينة للعرض التاريخى ومنها : (أولاً) أن يكون للباحث فى التاريخ القدرة على حسن التعبير باللغة التى يكتب بها ، ومن ثم شجب أن يكتب بلغة سهلة واضحة تلائم الموضوع الذى يتناوله بالبحث ، وأن يكتب بأسلوبه الخاص الذى تتضح فيه شخصيته ، والا يكتب بأسلوب أدبى صرف ، وذلك لأن المنهج العلمى الذى يجب على الطالب ممارسته أو تطبيقه فى الكتابة التاريخية إنما يتطلب التعبير بطريقة عقلية أكثر منها عاطفية ، وإن كان فى إمكانه الاعتماد على الأدب من آن لآخر ، تخفيفاً للجانب العقلى ، بشرط ألا يتعدى ذلك الجانب الأدبى على الجانب العقلى ، وبذلك يكون الباحث قد استخدم الأسلوب العلمى ، وأنصف التعبير عن الحقائق ، ولا ريب فى أن ذلك الأسلوب فى المنهج إنما يتطلب التدريب على الكتابة بأسلوب علمى سليم ، ويتأتى ذلك بقراءة الكتب التاريخية المكتوبة بمنهج علمى .

ومنها : (ثانياً) توفر الوحدة التاريخية فى الكتابة فى الموضوع يومنها (ثالثاً) على الباحث أن يكتب ، وفى ذهنه احتمال الوقوع فى الخطأ يومن ثم فعلية أن يبادر بتصويب ما يمكن أن يكشف عنه من الأخطاء ، إذا ما ظهرت له معلومات أو أدلة جديدة ، وبعد ذلك على الباحث مراعاة مسألة الهوامش والحواشى ، ولأن تكون الهوامش جزءاً مهماً فى أسفل المصنفات ، أو فى نهاية المفضل ، أو فى نهاية الكتاب ، وعلى الباحث أن أواد أن يورد فى الهوامش نصه أصلياً مأخوذاً من مخطوطه أو من مطبوعه ، أن يكون ذلك بلغة النص الأصلية (٢) .

(٢) انظر من كتابه الرسائل الجامعية والمراجع المخططة بها (محمد توفيق مهران : منهج البحث التاريخى - الإسكندرية ١٩٧٨ ص ٣٧ - ٣٩ ، ٥٩ - ٧٠ ، أكرم ضياء العمري : المرجع السابق ص ٢١ - ٢٤ .

ومنها (رابعاً) أن يحصى الباحث بمسؤوليته عن التصور الذي يقتبسها أو يعتمد عليها ، ولا يبرهن سكوتة أو رضاه بالمقولة المشهورة «البهجة على الراوى» ، لأنه يباحث ، وليس راوية ، والفرق بين الاثنين واضح ، وقد نبه على ذلك «تاج الخبر يورى» بقوله : «إن الأيوام على المصنف من جهة عدم مطابقة تلك للمصالة المفروضة ولو كان حاكماً ، لأنه أقره فرضيه» . ومن ثم فيجب عدم الاستسلام للظواهر ، وإنما يجب مناقشتها بعقلية ناقدة ، ومن الضروري أيضاً احتمال المراجع وفق تخصصها ، وقد تشعب «ابن حجر العسقلاني» «ابن الصلاح» (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٤م) ، عندما نقل عبارة عن «أبى عمر الداني» حيناً أن الداني أخذها من «الحاكم النيسابورى» (ت ٤٠٥هـ) ، وأن نقلها عن الحاكم أولى ، لأنه من أئمة الحديث ، والكلام يتطرق بمسألة حديثة ، وموجب الملاحظ ابن حجر كيف نزل «ابن الصلاح» عنه إلى النقل عن «الداني» ، كما نبه الملاحظ ابن حجر العسقلاني (٧٨٣هـ/١٣٨٢م - ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) إلى ضرورة الرجوع إلى المصدر الأقدم ، وتغيب تحيظه المواقف عنهما نقل رواية من «ابن عبد البر» (٣٦٣هـ/٩٧٣م) بأنه قد رواها «ابن عوانة» في صحيحه ، و «الطحاوى» (ت ٣٢١هـ) في «شرح معاني الآثار» والجوزقى في «المتفق» فعروها إلى رواية أحمدهم ، أفضل من عزوها إلى «ابن عبد البر» ، لتأخر زمانه .

ولمك من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه على الطالب ، إذا ما أنجز كتابة بحث أو فصل من رسالته ، أن يقدمه إلى المشرف ليبين ملاحظاته عليه ، ثم يقوم بإعادته إلى الطالب الذى يقوم بدوره بإعادة الكتابة ، مع الأخذ بملاحظات الاستاذ المشرف ، ثم يبيده إليه ثانية ، فإذا ما انتفع به أقره ، والأعادته إليه ، ليعيد التعديل ، ولحقاً للملاحظات الجديدة ، ويعظم الطالب فى عرض الابواب أو الفصول على المشرف تبعاً ، حتى ينتهى من كتابة الرسالة ، ثم يقدمها للمشرف كاملة ، ليقرأها القراءة الأخيرة ، ويبدى الملاحظات المتنوعة ، ثم يقوم الطالب بتعديلها وإعادة تقديمها للاستاذ المشرف ليأذن له بطباعتها على الآلة الكاتبة .

هذا هو غم أن الطالب هو المسئول الأول عن اختيار موضوع رسالته وكتابتها ، غير أن لاسات المشرف يجب أن تظهر فيها من خلال هذه المقررات والملاحظات التي يبدئها ، هذا فضلا عن أن المشرف سيعينه في اختيار الموضوع وتحديد خطة البحث ، ومواجهة المشاكل المستعصية عليه ، وإكسابه روح البحث والتفاني فيه ، ومواصلة العمل ببعث الاعتزاز فيه ، وإشعاره بأهمية بحثه . وتطمينه بالنسبة لتقدم البحث ، وتقريبه ، وتزويده في نفس الوقت ، على الاعتماد على النفس ، وحل المشاكل ، وإبراز ذاتيته وروحه في الرسالة — أفكارا وأسلوبا — لأن الطالب هو المسئول عن رسالته أمام لجنة المناقشة — أى اللجنة العلمية لمناقشة الرسالة (٢١)

ثامنا : ملاحق البحث : وهى مجال لتقديم أو نشر مختارات من الأصول التاريخية التى اعتمد عليها البحث ، ويذهب البعض الى أن نشر هذه الأصول إنما هو أمر جوهري ، ذلك لأنه إنما يقدم للقارئ المختص شيئا من المادة الأولية التى استقى منها الباحث معلوماته ومن الأفضل أن تنشر هذه الأصول بلغاتها — فضلا عن أحيائها وأخطائها ، كما وردت بغير تعديل — على أن يكون نشرها مصحوبا بشرح لهاظها الغريبة ، وتصحيح أخطائها ، والتعليق على نصوصها ، وبيان قيمتها التاريخية .

تاسعا : الحواشى والهوامش : وهى وعاء تصب فيه المعرفة الزائدة عن قدرة المتن على استيعابها ، وهو الاطار الذى يفصل فيه ما قد ينعض فى المتن ، وهى مرصد لمصادر البحث ومراجعته ، وهى قاعدة الصفحة أو جذورها ، التى تكشف للقارئ عن عمق المتن وصلاته ، ويمكن استعمال الحواشى فى أمور كثيرة ، منها (أولا) الإشارة الى المصدر أو المراجع الذى اعتمد عليه الباحث فى كتابة المتن ، وهو ما يقترح تسميته بالصيغة البيبلوجرافية الحاشائية أو الأسلوب البيبلوجرافى

(٢١) أكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ٣٨ - ٣٣ .

للحاشية ، ومنها (ثانيا) تفصيل الموجز أو الغامض الوارد بالمتن بمحافظة على السياق العام ، ومنها (ثالثا) إحالة القاريء الى أماكن أخرى سابقة أو لاحقة في الدراسة التي يعمدها الباحث ، لتحقيق الترابط بين أطراف الموضوع .

ومنها (رابعا) توجيه القاريء الى مصادر ومراجع لمضافية تخدم نقطة فرعية أو ثانوية للوقوف على مزيد من المعرفة ، ومنها (خامسا) وضع نصوص بلغة أجنبية بدون ترجمة ، ومنها (سادسا) نقد النصوص والأدلة التاريخية ، وهنا تكون الحاشية مجالا للحوار بين قسمي الصفحة الواحدة ، ومنها (سابعاً) نقد أو مناقشة رأي مؤلف آخر حول موضوع ورد بالمتن ، ومنها (ثامنا) التوفيق بين الآراء الخلافية حول موضوع ورد بالمتن ، ومنها (تاسعا) التعريف بالأعلام والأماكن الوارد ذكرها في المتن ، مما لا يتسع له (٣٣) .

عاشرا - طريقة كتابة المصادر والمراجع : ويمكن أن يتبع فيها ما يأتي :

١ - عند ورود المصدر أو المرجع لأول مرة : يكتب كالتالي :

اسم المؤلف كاملا + اسم الكتاب كاملا + الجزء (ان وجد) + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة .

أحمد فخرى : مصر الفرعونية - القاهرة - مكتبة الانجلو المصرية
١٩٨١م ص ١٠ .

محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم - الجزء العاشر
تاريخ العراق القديم - الاسكندرية - دار المعرفة الجامعية ١٩٩٠
ص ١٠٠ .

(٢٢) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٧٣ = ٧٤ .

ب - إذا تكرر المصدر أو المرجع في حاشيتين متتاليتين - أي لم يفصل
بين الحاشيتين فاصل آخر -
يكتب كالتالي :

نفس المرجع السابق - نفس الصفحة - ان لم يحدث تغيير فيها
بين هذين الموضعين والسابق له .

وهذا يعني عدم ذكر اسم المؤلف ، أو اسم الكتاب ، للتتابع أو
التعاقب بين الحاشيتين ، وعدم وجود فاصل بيليوجرافى بينهما .

ج - إذا فصل للتعليق حاشية أو أكثر (مرجع أو أكثر) أو ان
الحاشية ضمت أكثر من مرجع ،

يكتب كالتالي :

اسم المؤلف + المرجع السابق + الصفحة

محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ١٥٠ .

على أنه يجب أن يلاحظ أنه في الحالة إذا ما كان للمؤلف أكثر من
مرجع ، أستخدم في نفس البحث ، فلا يشار هنا بالمصطلح «المرجع
السابق» ، ذلك لان هذا المصطلح لا يؤدي في هذه الحالة المراد به ،
ومن ثم فيجب أن تكتب البيانات الخاصة بكل مرجع لنفس المؤلف كاملة .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة هنا الى أمرين : ترتيب المراجع في
الحاشية الواحدة ، وطريقة كتابة المرجع المشترك :

١ - طريقة ترتيب المصادر أو المراجع في الحاشية : وهذه تخضع
لعدة معايير ، أولها : أن المصادر أو المراجع الأكثر أهمية بالنسبة
للموضوع تأتي أولا ، وثانيها : أن المصدر أو المرجع الذي تم الاقتباس
منه يتقدم غيره ، وان تناول نفس الموضوع ، وثالثها : أن المصدر يتصدر
الحاشية ، ثم يأتي بعده المرجع ، ورابعها : عند تساوى الأهمية للمصدر

أو المرجع في الحاشية الواحدة ، فيتم ترتيبها طبقا لسنة النشر فيسبق
الاقدم منها الاحدث ، ولا تخضع طريقة الترتيب هذه للجوهر الهجائية
أبدا .

٢ - طريقة كتابة المصدر أو المرجع المشترك : ١ - إذا اشترك في
تأليف الكتاب شخصان - مثلا - وجب الإشارة إليهما وكما في المثال
التالى :

أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : تاريخ التربية والتعليم في
مصر - الجزء الاول - العصر الفرعونى - القاهرة - الهيئة المصرية
العلمة للكتاب - ١٩٧٤ ص ١٠ .

٢ - إذا اشترك في تأليف الكتاب ثلاثة أشخاص فأكثر ، فيذكر
اسم الاول منهم - كما جاء على غلاف الكتاب - ثم يعقبه بكلمة
«وآخرون» .

السيد الحسينى وآخرون : دراسات في التنمية الاجتماعية -
القاهرة - دار المعارف - ١٩٧٩ ص ١٠٠ .

٣ - إذا تعدد المؤلفون ، وكان لكل منهم فصل - أو أكثر - في
الكتاب الواحد ، فيعامل معاملة المقال ، ويكتب ، لأول مرة كالتالى :

اسم المؤلف كاملا + عنوان المقال + اسم الكتاب (أو الدورية) +
مكان النشر وسنة النشر + الصفحة .

عبد العزيز صالح : الرياضيات في مصر القديمة - تاريخ الحضارة
المصرية - العصر الفرعونى - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية -
١٩٦٢م ص ٥٨٧ .

وأما إذا تكرر نفس المرجع ، فيتبع نفس النظام السابق عند تكرار
المصدر أو المرجع .

هذا ويرى البعض انه ان كان للكتاب (المتعدد المؤلفين) مشرف أو محرر Editor ، فان الإشارة هنا تكون للمحرر ، وليس لمجموعة المؤلفين ، وهى طريقة تتبع فى الكتب الاجنبية ، وان كنت أفضل الطريقة الآتية الذكر .

ثانيا - الكتابات المترجمة الى اللغة العربية :

وهذه الكتابات يتبع فيها نفس النظام المتبع فى الكتابات العربية ، مع اضافة اسم المترجم (والمراجع ان وجد) ، بعد اسم الكتاب ، ومن ثم فهو يكتب كالتالى :

اسم المؤلف + اسم الكتاب + الجزء (ان وجد) + اسم المترجم + اسم المرجع (ان وجد) + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة ، ويكتب كالتالى :

جيمس هنرى برستد : تطور الفكر الدينى فى مصر القديمة - ترجمة زكى سويس - القاهرة - دار الكرنك ١٩٦١ ص ٥٠ .

سير آلن جاردنر : مصر الفراعنة - ترجمة نجيب ميخائيل بمراجعة عبد المنعم أبو بكر - القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٣م ص ١٠٠ .

جيمس بيكى : الآثار المصرية فى وادى النيل - الجزء الثالث - ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد ، ومراجعة محمد جمال الدين مختار - القاهرة - مطبعة جامعة القاهرة - ١٩٧٢ ص ٥٠ .

واما الكتاب المحقق فيكتب كالتالى :

اسم المؤلف + اسم الكتاب المحقق + الجزء (ان وجد) + اسم المحقق + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة .

الحافظ ابن خلف الدمياطى : المتجر الرابع فى ثواب العمل الصالح -

تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ومحمد رضوان في مكة المكرمة -
عبد الملك بن دهيش (مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة) - ١٩٨٦ ص ١٩٠.

ابراهيم بن محمد بن سالم بن ضويان : منار السبيل في شرح
الدليل - الجزء الاول - تحقيق زهير الشاويش - بيروت - المكتب
الاسلامي - ١٩٧٩ ص ٤٥٢ .

ثالثا - الكتابات الاجنبية :

١ - يكتب المصدر أو المرجع الاجنبى عند وروده ، لأول مرة ،
كالتالى :

١ - اسم المؤلف كاملا + اسم الكتاب كاملا + (الجزء أن وجد)
+ مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة .

Sir Alan Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, At The Clarendon
Press, 1961, p. 400.

٢ - في حالة تعدد المؤلفين ، يكتب كالتالى :

اسم المؤلف + عنوان المقال + اسم الكتاب (أو الدورية) + الجزء
(ان وجد) + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة .

Elise J. Boumgartel, Predynstic Egypt, in The Cambridge Ancient His-
tory, I, Part, I, Cambridge, At The University Press, 1970, p. 463.

W. G. Hayes, The Coptes Degress, in JEA, GXXII, 1946, pp. 3-23.

٣ - اذا تكرر المصدر أو المرجع مباشرة في حاشيتين متتاليتين ،
ولم يفصل بينهما مرجع آخر ، يكتب كالتالى :

Ibid., p. 463.

وكلمة "Ibid" اختصار للكلمة اللاتينية (Ibidem) بمعنى نفس المرجع
الضابق في المراجع العربية ، وهى هنا تعطى محل اسم المؤلف ، فضلا
عن المرجع نفسه .

٤ - في حالة وجود مرجع يفصل بين المرجعين ، فتستعمل (Op-Cit) وهي اختصار لكلمتين لاتينيتين هما Opero - Citato ومعناها المرجع السابق ، وفي هذه الحالة يجب أن يكتب اسم المؤلف قبلها ، كما في المثال التالي :

Elise J. Bourgartel, Op. Cit., p. 463.

وذلك لأن (Op-Cit) انما تشير الى المرجع ، وليس المؤلف ، بينما تشير Ibid الى المؤلف والكتاب سواء بسواء .

٥ - على أن الباحث اذا ما أراد الإشارة الى نفس المرجع ونفس الصفحة ، فعليه أن يستعمل الاختصار (Ioc, Cit) الذي يشير الى الكلمتين اللاتينيتين (Ioco-Citato) بمعنى نفس المرجع ونفس الصفحة .

٦ - أما اذا أراد الباحث الإشارة الى نفس الصفحة من نفس الكتاب الوارد في حاشية سابقة مثل :

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 20.

فان الإشارة التالية تكون كالتالي :

A. H. Gardiner, Ioc-Cit, (Ioco-Citato)

والتي تعنى (In The Place Cited)

وهذا الاختصار ، الذي يشير الى نفس الصفحة ، ونفس الكتاب ، كما أشرنا آنفاً ، يستعمل عندما لا يفصل بين المرجعين فاصل ، والا استخدمت (Ibid) .

ولعل مما تجدر الإشارة اليه ، أنه ليس من الضروري أن يذكر اسم المؤلف ، وعنوان الكتاب كاملاً ، مادام ذلك معروفاً مثل : الصابى : تاريخ الوزراء ص ٧٨ ، وذلك بدلا من :

أبو الحسن الهلال بن المحسن بن ابواهيم الصابى : تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ص ٨٧ .

ومثل

R. Coke, Baghdad, p. 13.

بدلاً من :

Richard Coke, Baghdad, The City of Peace, p. 13

وفي المراجع الأجنبية يشار إلى الجزء بـ (Vol) اختصار (Volume)

وإلى الصفحة (P) بدلاً من Page .

هذا وقد وضع الباحثون لاستعمال الأرقام في الرسائل نظاماً : مؤداه أن الرقم الذي لا يحتاج الطالب في التعبير عنه إلى أكثر من ثلاث كلمات، ينبغي أن يكتب بالكلمات ، مثل : (ألفان - مائة وثلاثون - مائة وثلاثة وأربعون) ، أما إذا احتج في التعبير عنه إلى أكثر من ثلاثة كلمات ، فتستعمل الأرقام مثل (١٤٦٥) وهناك أشياء اصطلاح على كتابتها بالأرقام مثل : الرقم الذي يشير إلى مبلغ من المال ، ورقم الصفحات في الكتب ، والنسبة المئوية والتاريخ والأرقام التي توضح الجداول والصور والرسوم .

على أن هناك حالة يجب أن يكتب فيها العدد بالحروف ، وإن احتج في التعبير عنه إلى أكثر من ثلاث كلمات ، وذلك فيما إذا وقع ذلك العدد في أول الجملة ، كأن تقول : ألف وثلاثمائة وأربعة وعشرون طالباً انجحوا في الامتحان ، وإن كان على الطالب أن يتجنب استعمال هذا الأسلوب ، أو على الأقل ، التقليل منه كلما أمكن ذلك .

وأما طريقة ترقيم صفحات الرسالة ، فيجب أن يبدأ الترقيم بالحروف الهجائية (أ ب ج د هـ و ز ح ط ي) ، ويشمل ذلك صفحة العنوان (لا يوضع لها رقم ، ولكنها تحسب في الترقيم) ويشمل كذلك صفحة التقدير والاعتراف ، والفهارس (إن كتبت في أول الرسالة) والمقدمة ثم تبدأ الأرقام العربية (١ ، ٢ ، ٣ ، ٠٠٠ وهكذا) مع بدء الرسالة نفسها .

هذا وقد يكون في الرسالة لوحات طويلة تنشر وتطوى ، وتتكون كل منها من عدة ورقات ملتصقة ، فكل لوحة من هذه اللوحات تشمل

رقما واحدا - مهما كان طولها ، وعدد أوراقها - وفي الرسائل يجوز وضع الرقم في منتصف الصفحة من أعلى أو من أسفل ، وإن كان من الأفضل أن يوضع الرقم في الطرف الأعلى للصفحة من جهة الشمال ، ولا توضع نقطة بعد الرقم ، كما أنه لا يحاط بالاقواس .

حادى عشر - تنظيم الرسالة الجامعية :
عندما تستكمل الرسالة الجامعية كل عناصرها - وقبل القيام بطبعها على الآلة الكاتبة - يجب أن تتضمن التسلسل التالى :

١ - تقديم : وفيه يشكر الطالب الاستاذ المشرف (Supervisor) على الرسالة ، وكل من ساعده من الاساتذة الاخرين والعلماء والباحثين وأمثاء المكتبات وغيرهم .

٢ - مقدمة : وتتضمن أهمية الموضوع للذى بحثه ، وسبب اختياره له ، والخطة التى سلكها فى بحثه ، والمصادر التى توفرت له ، والمشاكل التى واجهته ، والدراسات التى سبقته فى الموضوع ، وما تركته له من ثمرات غالجها ، أو نظريات نقدتها - أو أيدتها - والاضافات العلمية التى قدمتها - الرسالة (وإن كان البعض يفضل ذكر تلك الاضافات فى الخاتمة) ومقترحاته للباحثين الآخرين ، بطرق جوانب معينة تحتاج - من وجهة نظره - الى الاهتمام ، وقد عرفها من خلال دراسته للموضوع ، وينبغى أن تكون المقدمة واضحة وشاملة ، بحيث يعرف القارئ أهمية الرسالة ، ومدى حاجاته الى متابعة التفاصيل التى تحتوئها ، ومن ثم فيجب ألا تكتب المقدمة ، الا بعد الانتهاء من كتابة الرسالة ، حتى يتكون لدى الباحث نظرة شاملة للموضوع تتيح له أن يشير فى مقدمة البحث الى تلك النقاط التى أشرنا إليها آنفا .

٣ - ابواب الرسالة وفصولها : مع ملاحظة وضع ورقة تفصل بين عنوان الباب أو الفصل فقط .

٤ - فهرس المحتويات : وفيه عناوين الابواب والفصول والمباحث

(أو العناوين الصغيرة) مع ذكر أرقام الصفحات التي وردت فيها (وإن كنت أفضل أن يكون بعد قائمة المصادر والمراجع) .

٥ - الخاتمة أو خلاصة البحث : وتتضمن ملخصاً لكل محتويات الرسالة ، من حيث أطاره العام ونتائجه .

٦ - قائمة المصادر والمراجع : وترتب أسماء المؤلفين حسب حروف المعجم ، ويذكر اسم المؤلف كاملاً ، واسم كتابه كاملاً ، وعدد أجزائه (واسم المحقق إن كان مخطوطاً) المترجم إن كان معرباً عن لغة أجنبية ، واسم الناشر ومكان الطبع (واسم المطبعة إن أمكن) ، وتاريخ الطبع ، والبعض يدمج قائمة المخطوطات والمطبوعات والمصادر القديمة والمراجع الحديثة ، ويفصل المراجع الأجنبية عنها فقط ، في حين يضع البعض قوائم منفصلة لكل منها ، على أن هناك فريقاً ثالثاً ، إنما يفضل أن يكتب : المراجع العربية أولاً ، ثم المراجع المترجمة إلى اللغة العربية ثانياً ، ثم المراجع الأجنبية ثالثاً ، وهذا ما نميل إليه .

على أن هناك من يرتب القائمة على أسماء الكتب ، وفسق حروف المعجم ، في حين يرتب آخرون المصادر على الموضوعات التي تتناولها ، مع مراعاة الترتيب المعجمي داخل الموضوع .

هذا مع مراعاة أن صياغة الاسم العربي يجب أن تتم طبقاً للترتيب الطبيعي للاسم ، أي اسم الشخص فالأب فالجد أو اللقب ، أما بالنسبة للأسماء غير العربية ، فيعتمد ترتيبها بدءاً باللقب ، مع وضع فاصلة (و) بين اللقب وباقي أجزاء الاسم ، ويمكن أن يطبق منهج صياغة الأسماء الأجنبية على الأسماء العربية التي ترجع إلى ما قبل القرن التاسع عشر الميلادي ، وهناك بعض الأمثلة على ذلك .

١ - محمد بيومي مهران : حركات التهجئة في مصر القديمة - القاهرة - دار المعارف - ١٩٧٦ م .

Wilson, (John. A), The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.

٣ - عد الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك
الجزء الاول - القاهرة - دار المعارف - ١٩٣٤ *

هذا ويراعى أن الاسماء الاجنبية ذات البادية ، انما تحتفظ بهذه
البادئة على الاغلب في الترتيب اليجائي ، ويكتب مكانه في التسلسل (٣٣)
فمثلا :

O'Leary (De Lacy D. D.) Arabia before muhammad, London 1927.

ويجب أن يكتب في مكانه من التسلسل في قائمة حرف (O) *

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن القاعدة التي جرى
المعمل بها في الرسائل - كما جاءت في المراجع الاجنبية - ألا يذكر
الباحث ألقاب ووظائف أولئك العلماء والباحثون الذين رجع اليهم
صاحب الرسالة في بحثه ، ومن ثم فهو يقول : ويرى ابن الأثير ،...
ويميل طه حسين الى ويؤيد آلن جاردنر رأيه وهكذا ، غير
أن ذلك - فيما أميل اليه - لا يبدو مقبولا على هذا النحو في أساليبنا
العربية ، وتقاليدها الشرقية ، بله وتعاليمنا الاسلامية ، فليس من
المستساغ أن نقول :

ويخبرني عبد العزيز صالح ... ويذهب محمد جمال الدين مختار
الى بدون أن نذكر لقبه العلمي (الدكتور) *

ومن ثم فانني أفضل للطالب العربي أن يذكر اللقب العلمي عندما
يتحدث عن أستاذته - وهم المفروض أنهم الاسوة الحسنة له في ميدان
تخصصه - والا نقلد الاجانب في كل شيء ، ذلك لان للقوم تقاليدهم ،
ولنا تقاليدنا ، وقدر علمنا ديننا الحنيف - الاسلام - وتقاليد سلفنا
الصالح أن نوقر العلماء - التوقير كل التوقير - قال تعالى (يرفع الله
الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (٢٤) ، قال ابن عباس -

- (٢٢٣) انظر : أحمد شلبي : المرجع السابق ص ١٠٠ - ١٢٤ ، ١٥٨ -
١٦٠ ، أكرم ضياء العمري : المرجع السابق ص ٣٣ - ٣٤ ، غسان حسن
غنيم وجمال حجر : المرجع السابق ص ٧٣ - ١١٨ .
(٢٤) سورة المجادلة : آية ١٦ .

حبر الامة وترجمان القرآن ع : العلماء فوق المؤمنين مائة درجة ، فابين الدرجتين مائة علم .

وقال تعالى «شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط» (٢٥) ، وهكذا بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وثالث بأهل العلم ، وكفاهم بذلك شرفا وفضلا وجلالة ونبلا .

وقال تعالى «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (٢٦) ، وقال تعالى «فاسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون» (٢٧) ، وقال تعالى «وما يعقلها الا العالمون» (٢٨) ، وقال تعالى «بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم» (٢٩) ، وقال تعالى «انما يخشى الله من عباده العلماء» (٣٠) ، وقال تعالى «أولئك هم خير البرية» الى قوله تعالى «ذلك لمن يخشى ربه» (٣١) ، فاقتضت الايتان أن العلماء هم الذين يخشون الله تعالى ، وأن الذين يخشون الله تعالى هم خير البرية ، فهنتج أن العلماء هم خير البرية (٣٢) .

وقال سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ «العلماء ورثة الانبياء» ، وحسبك هذه الدرجة مجدا وقظرا ، وبهذه الرتبة شرفا وفكرا ، فكما لا رتبة فوق رتبة النبوة ، فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة ، وعنه ﷺ لما ذكر عنده رجلان ، أحدهما عابد والاخر عالم - فقال «فضل العالم على العابد ، كفضلي على أدناكم» ، وعنه ﷺ أنه قال «من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك به طريقا من طرق الجنة» ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم لرضا الله عنه ، وأن العالم ليستغفر له من

(٢٥) سورة آل عمران : آية ١٨ :

(٢٦) سورة الزمر : آية ٩ :

(٢٧) سورة النحل : آية ٤٣ :

(٢٨) سورة العنكبوت : آية ٤٣ :

(٢٩) سورة العنكبوت : آية ٤٩ :

(٣٠) سورة فاطر : آية ٢٨ :

(٣١) سورة البينة : آية ٧ - ٨ :

(٣٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم -

من كتاب آداب المتعلمين - تحقيق أحمد عبد القفور عطار - بيروت ١٩٦٧ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

في السموات ومن في الارض ، حتى الحيتان في جوف الماء ، وان فضل العالم العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الانبياء ، وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وانما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذهُ بأكمله .

وقال عليه السلام : يوزن يوم القيامة مداد العلماء ، ودم الشهداء ، وقال بعضهم : هذا مع أن أعلى ما للشهيد دمه ، وأدنى ما للعالم مداده ، وقال عليه السلام «من أكرم عالما فكأنما أكرم سبعين نبيا ، ومن أكرم معلما فكأنما أكرم سبعين شهيدا» ، وقال عليه السلام «من صلى خلف عالم فكأنما صلى خلف نبي ، ومن صلى خلف نبي ، فقد غفر له» .

وقال الامام علي - رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه في الجنة - «كفى بالجهل شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح به اذا نسب اليه ، وكفى بالجهل ذما ، أن يتبرا منه من هو فيه» ، وقال نسفيان بن عيينة «أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده ، هم الانبياء والعلماء» ، وقال أيضا «لم يعط أحد في الدنيا شيئا أفضل من النبوة ، وما بعد النبوة شيء أفضل من العلم والفقه» (٣٣) .

وقال عليه السلام : «نحن معاشر الانبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم» .

وفي سيرة السلف الصالح خير شاهد على ذلك ، قال الشعبي : «صلى زيد بن ثابت - فقريته اليه بغلته ليركبها ، فجاء ابن عباس ، فأخذ بركابه ، فقال زيد : خل عنك يا ابن عم رسول الله ﷺ ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء ، فقبل زيد بن ثابت يده ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ، ﷺ» (٣٤) .

وقال عليه السلام : «ليس منا من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف

(٣٣) نفس المرجع السابق ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٣٤) الغزالي : أراؤه في التربية - آداب المتعلمين ص ٨٨ ، ١٠٢ .

لعلنا بحقه» (٣٥) ومن هنا فقد اهتم كثير من الأئمة بواجبات المربين نحو طلبتهم ، ودونوا هذه الواجبات في مؤلفاتهم ، لانهم رأوا أن مهمة التعليم صناعة هي أشرف الصناعات ، كما يقول حجة الإسلام «أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي» (٤٥٤ - ١٠٥٩/٥٥٥ هـ - ١١١١ م) : فالعلم متصرف في عقول البشر ونفوسهم ، وأشرف ما في الائنان عقله ونفسه ، فمحل صناعة التعليم أشرف الاشراف ، ومن ثم فقد حظى علماء المسلمين بالاحترام الواجب للمعلم عند طلبته ، لان طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به ، الا بتعظيم المعلم وأهله ، وتعظيم الاستاذ وتوقيره (٣٦) .

وروى عن الامام على بن أبى طالب — رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه في الجنة — «ان من حق العالم ، الا تكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته في الجواب ، ولا تلج عليه اذا كسل ، وتأخذ بثوبه اذا نهض ، ولا تنفسي له سرا ، ولا تغتابن أحدا عنده ، ولا تطلبن عثرته ، وان زل قبلت معذرتة ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ، مادام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وان كانت له حاجة سبقت القوم الى خدمته» (٣٧) ، وقال نصير الدين الطوسي (٥٦٧ - ٦٧٢ هـ) : «ينبغي لطالب العلم أن لا يجلس قريبا من الاستاذ عند السبق بغير ضرورة ، بل ينبغي أن يكون بينه وبين الاستاذ قد القوس ، لانه أقرب الى التعظيم» (٣٨) .

وانطلاقا من كل هذا — وغيره كثير — فأقل التقدير من التلميذ لأساتذته أن يخطبهم باللقابهم العلمية ، وأما عند ذكر المصادر والمراجع في الرسالة ، فالأفضل عندي ، أن يذكر اسم المؤلف مع لقبه العلمى ،

(٣٥) رواه أحمد والنسائي والحاكم .

(٣٦) مقدمة آداب المتعلمين ص ٢٠ ، شرف الدين خطاب : التربية في العصور الوسطى ص ٦٣ وما بعدها .

(٣٧) الغزالي : المرجع السابق ص ٨٩ .

(٣٨) نصير الدين الطوسي : آداب المتعلمين ص ١٤٦ .

والأمر كذلك في التقدير والاعتزاز بالجميل ، أما الألقاب غير العلمية
 مثل الوزير والعميد ، وما شابهها ، فليس في الرسائل الجامعية مجال
 لها ، كما يجب أن يمتنع الطالب عن ذكر جارات : العالم الجليل ،
 وأستاذنا الكبير ، والعلامة ، فمثال ذلك يجب أن يمتنع عنه الرضالة
 الجامعية (٢٣٢) .

(٢٩) أحمد شلبي : المرجع السابق من ١٩٩٩ ، ص ٢٢٢ .

الفصل السادس

مصادر التاريخ المصرى القديم

تعتمد الدراسة في تاريخ مصر الفراعنة على مصادر أربعة أساسية هي : الآثار المصرية ، ومكتبة الرحالة والمؤرخون من الاغارقة والرومان ، الذين زاروا مصر ، وكتبوا عنها كتباً كاملة ، أو فصولاً من كتب ، ثم المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم ، وأخيراً ما جاء في التوراة والقرآن الكريم عن مصر وأحوالها ، ولنحاول الآن أن نتحدث بشيء من التفصيل عن هذه المصادر الأربعة :

أولاً : الآثار المصرية

لاريب في أن الآثار التي تركها لنا المصريون القدامى ، وما تمد به الباحث في تاريخ الكنانة من معرفة ، سطرت على جدران المعابد والمقابر والاهرامات ، والتماثيل ولوحات القبور والتوابيت وقراطيس البردى وغيرها ، إنما هي المصدر الأول لتاريخ مصر القديمة ، فهي تتحدث عن الكثير من أخبار القوم ، وتروى معلومات هامة عن عقائدهم وقانونهم .

وفي الواقع ، فإن الآثار المصرية — التي تتخاضل بجانبها آثار أى بلد آخر — إنما تمتاز بوفرة هائلة ، ترجع (أولاً) الى العقيدة الدينية التي قضت أن يتزود القوم لحياتهم الأخرى ، على نحو ما كانوا يفعلون في حياتهم الدنيا ، وترجع (ثانياً) الى تقدم المصريين في الفنون والصناعات والبناء ، مما أتاح لهم أن يشيدوا تلك الثروة الهائلة من التراث القومى المنتقط النظير ، وترجع (ثالثاً) الى جفاف مناخ مصر الذى ساعد على حفظ تلك الآثار ، فضلاً عن صيانة الاجساد ، صيانة لا يمكن أن توجد في الاحوال الطبيعية في أى جزء آخر من العالم (١) .

(١) جيمس هنرى برستد : تطور الفكر والدين في مصر القديمة — ترجمة زكى سوسن — القاهرة ١٩٦١ ص ٨٥ ، محمد جمال الدين مختار : تاريخ الحضارة المصرية — العصر الفرعونى — مصادر التاريخ الفرعونى — المجلد الاول — القاهرة ١٩٦٢ ص ٨٣ .

على أن الباحث انما يلاحظ على هذا المصدر الاصيل عدة نقاط ضعف ، منها (أولا) أن كثيرا من الآثار انما هو صادر عن المقابر أو المعابد، ومن هنا فقد كان المظهر السائد لمعظم ما يعثر عليه فيها ديني ، ومنها (ثانيا) أن كثيرا من هذه الآثار ، انما قد كتب بأمر من الملوك أو بوجهي منهم ، لهذا تفكرنا أن الملك في الحقيقة المصرية انما كان لها أكثر منه بشرا ، وجب علينا أن نكون على حذر فيما قرويه عن العروب بين مصر وجيرانها ، ذلك أن المصريين كانوا لا يستسيخون أن يهزم «الملك المؤله» في حرب ضالع غصارها ، ومن ثم فإن النصر يكاد يكون حليفه فيها دائما ، وقد تكون الحقيقة غير ذلك (٢) .

وهنا وجب على الباحث أن يفلرن هذه النصوص بما يعاصرها من نصوص الدول الاخرى ، ذات الصلة بهذه الاحداث ، حتى يتبين وجه الحق فيها ، فقد استطاعت - ومن أمثلة ذلك ، مؤسسة قادش التي دارت رحى الحرب فيها حوالي عام ٢٢٨٥ قبل الميلاد ، بين الفرعون «رعسيس الثالث» والملك الحيثي «مواتيلا» وزعم فيها كل منهما أن النصر كان من نصيبه ، غير أن الحقائق التاريخية - فيما أظن - انما هي في جانب فرعون ، وليس مع الملك الحيثي (٣) .

ومنها (ثالثا) أن هذه المصادر تتفاوت فيها المعلومات المتصلة بشطري الموادي ، ذلك لان جلها انما هو صادر عن الصعيد ، بعكس الدلتا التي قدمت القليل ، ومع ذلك فإن هذا التعميم عرضة للاستثناء بالنسبة لمدينتي تانيس وبوباسطة ، اللتين قدما نتائج هامة ، وإن كان

(٢) محمد بيومي مهران : للشيرة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعنة الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢ .

(٣) محمد بيومي مهران : مراكات التجريز في مصر القديمة - دار المعارف القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٣٢ - ٢٣٧ .

A. Burn, JEA, 1921, p. 194-195.

A. H. Gardiner, The Kadesh Inscriptions of Rameses, II, Oxford, 1960, p. 6-9.

H. Goodick, Consideration on The Battle of Kadesh, JEA, 52, 1960, p. 72-80.

معظمها آثار من الحجر ، الذى استبطاع أن يقاوم عامل الماء ، شأنه فى ذلك شأن المعبد الرائعة فى الصعيد ، التى تقوم على الأرض الزراعية على مرمى حجر من النيل .

ومنها (رابعاً) أن هذا المصدر الوطنى إنما يعيبه كذلك أن تسعة أعشار الحفائر إنما تمت فى الصحراء ، حيث شاد القوم «مساكن الأبدية» ، حيث يحفظ الرمل الجاف أكثر الأشياء عرضة للتلف ، ومن هنا كان المظهر الجنزى السائد لمعظم ما يعثر عليه ، وأما مساكن الأحياء التى كانت تبني عن قصد من مواد أقل قدرة على الاحتمال ، فكانت تقوم فى وسط الأرض الزراعية ، فالمدن والقرى النائية اليوم مبنية فوق أنقاض العصور السابقة ، وعندما كانت تنهار المنازل المبنية من اللبن كانت تحل محلها منازل أخرى تقام فوقها وهكذا يرتفع مستوى الأرض مرة بعد أخرى فوق منسوب الفيضان ، وقد أدى ذلك إلى ندرة الآثار المتلفة بالحياة اليومية ، ونواحي النشاط الدنيوى ، ومع ذلك فإن جزالة التعبير ، والثراء فى اللغات الإنسانية فى المستندات المصرية ، تفوق نظائرها كثيراً من بلاد الشرق الأدنى القديم (٤) .

ومنها (خامساً) أن السجلات الرسمية عن أعمال الفراعين فى الدولة القديمة تكاد تكون غير قائمة ، ذلك لأن الملوك كانوا مؤلفين متعالمين إلى أبعد الحدود ، وأقوياء بصورة تجعلهم لا يهتمون برواية أعمالهم حتى تصل إلى رعاياهم ، وكانت الأهرامات كافية لتقوم شاهداً على عظمتهم ، ونفس الشيء — مع درجة أقل — يمكن أن يقال عن الأسرة الثانية عشرة (٥) .

ومنها (سادساً) ندرة الآثار التى ترجع إلى بعض العصور المظلمة ، ولعل أسوأ المراحل جميعاً ما عرف باسم «العصر الوسيط الأول» (الأسرات من السابعة إلى العشرة) والشياش (الأسرات من الثالثة

4. A. H. Gardiner, *Egypt of The Pharaohs*, Oxford, 1964, p. 52-53.

5. Ibid., p. 55.

عشرة الى السابعة عشرة) ، ثم ما بين الاسرات ، من الحادية والعشرين الى الرابعة والعشرين ، مما يجعل تسلسل الاحداث في التاريخ الفرعونى غير مطرد ، تتخلله فجوات لا بد من الاستعانة في مثلها بمصادر أخرى ، ومنها (سابعا) أن زادنا من النصوص التاريخية انما يتوقف — قللة وكثرة — على مدى النجاس الذى استتمت به مصر من وقت لآخر ، وعلى مدى استقرار الامور ، وسطوة الحاكمين فيها .

ومنها (ثامنا) أن النصوص المصرية — في غالبيتها — صعبة الترجمة ، عسير التأويل ، لم ينشر الكثير منها ، أو لم يترجم ترجمة دقيقة ، وهى ، على أية حال ، مهمة بصفة خاصة فيما يتعلق بالعقائد الدينية والطقوس الجنزية ، ومنها (تاسعا) أن المصريين — شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الشعوب القديمة — لم يعرفوا التواريخ المطلقة ، ولم يتفقوا على بداية زمنية ثابتة يردون اليها الاحداث ، مما جعل مهمة الباحث صعبة وشاقة في تأريخ المصور الفرعونية ، بخاصة اذا ما تذكرنا أننا نتناول حضارة تمتد لآلاف السنين ، لم يبق منها سوى مخلفات ضئيلة .

ومع ذلك كله ، فان الآثار — مصدرنا الاول — انما تمتاز عن غيرها من المصادر الاخرى ، بأنها المصدر الوحيد الذى عاصر الاحداث والذى اشركه المصريون — عن قصد أو غير قصد — في الكشف عن تاريخهم وتخليد حضارتهم ^(٦) .

هذا ولعل أهم ما عثر عليه بين تلك الآثار — من وجهة النظر التاريخية — ما عثر بقوائم الملوك هو كشف أرخت لبعض الفراعين ، ولما سبقهم من عصور ^(٧) ، فمنذ الاسرة الخامسة (حوالى ٢٤٨٠ — ٢٣٤٠ ق م) —

(٦) محمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٨٣ ، ٩١ .
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 56.

(٧) بدأ التاريخ للفراعنة في بادىء الامر ، على بطاقات صغيرة من العاج أو الخشب ، ثم ما لبث أن تحول الى التفصيل والاسهاب على اللوحات الحجرية وعلى أوراق البردى وفوق جدران المقابر والمعابد ، وقد هذقت هذه التسجيلات الى تخليد ذكرى الملوك ، فوصفت الاعياد الملكية ، وما قام

نرى آثارا تسجل عليها أسماء الملوك وسنى حكمهم وأهم أعمالهم ، وكانت آثارهم هذه دقيقة — فى بعض الأحيان — لدرجة أنهم لم يقتصروا فيها على ترتيب الملوك ترتيبا زمنيا وحسب ، بل ذكروا مدة حكمهم بالسنة والشهر واليوم ، كما أنهم لم يقتصروا فيها على العصر التاريخى ، بل أرخوا كذلك للملك فجر التاريخ ، رغبة فى تخليد الملكية المقدسة ، وليصلوا الفراعين بأسلافهم من الأرباب الذين أورثوهم عرش الكنانة •

غير أن المعلومات التى أعطتها هذه القوائم متباينة أحيانا ، كما يعوزها الطابع العلمى أو التاريخى ، هذا فضلا عن أنها لم تقدم لنا شيئا عن النواحي الحضارية أو الثقافية ، مما جعلها محدودة الفائدة ، وربما كان السبب فى ذلك أن معظمها إنما يتصل باحتفالات دينية تتصل بالملكية ، وأخيرا فإنها لم تقدم لنا إلا القليل عن التاريخ السياسى كالحروب والغزوات ، وذلك لأن الحوادث التى كانت تحتل المكانة الأكثر أهمية فيها إنما كانت أوجه النشاط السلمية كالشعائر الملكية والرحلات وتشييد المباني (٨) •

وأما أهم هذه القوائم الملكية فهى : حجر بالرمو ، وقوائم الكرنك وأبيدوس وسقارة ، وبردية تورين •

١ - حجر بالرمو :

عثر عليه فى منف ، ثم نقل إلى صقلية عام ١٨٥٩م ، حيث أودع متحف العاصمة «بالرمو» عام ١٨٧٧م وهو قطعة من حجر الديوريت ،

به الفراعين من جلائل الأعمال ، وما قدموه لآلهتهم من قربان ، فضلا عما تناولته من الأحداث السياسية ، كحادث توحيد البلاد ، وطرد الهكسوس من مصر ، كما أسهمت نصوص المعابد وأوراق البردى فى تسجيل حروب الفراعين العظام من أمثال تحوتمس الثالث ورعمسيس الثانى والثالث (محمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٨٧) •

8. J. A. Wilson, Op. Cit., p. 63.

طولها حوالي مترين ، وارتفاعها حوالي ٧٠ سم ، وهناك غيرها أربع قطع بالمقحف المصري ، الشقرت هيئة الآثار المصرية ثلاثة منها في عام ١٩١٠م ، وعثر أحد خفرائها على القطعة الرابعة فيما بعد في خرائب منفى ، هذا الى جانب قطعة سلاحها «بترى» عام ١٩١٠م وتوجد الآن بمتحف الجامعة في لندن (٩) .

هذا وقد دون على الحجر حوليات الملوك منذ أقدم العصور ، وحتى «نفر اير كارع» ثالث ملوك الاسرة الخامسة ، كما يشير الحجر كذلك الى أسلاف «مينت» ممن كلنوا يصكمون في الدلتا والصعيد ، وأطلق عليهم اسم «أتباع الاله حور» (١٠) .

ولقد نقش حجر بالرمو من الجاليتين ، وقسم كل جانب عرضيا الى صفوف وقسم كل صف الى أقسام ، وكتب على الصف العلوى من التهجئة الرئيسية أسماء حكام ما قبل الاسرات ، الذين لا نعرف شيئا عن طولهم مدة حكمهم أو أعقابهم ، وتحت كل منهم رسم ملك جالس ، وعلى رأسه تاج الصعيد أو الدلتا ، وفي بقية الصفوف نجد الخزانة اليمنى تفصل الخزانة اليسرى بالعلامة الهيروغليفية التى ترمز الى السنة ، وتوجد بين الصفوف ديباجة أفقية تقدم اسم الملك التى تتصل به النصوص أدناها ، ويصحب اسمه عادة اسم «أمه» ، وتحت كل إشارة ارتفاع النيل فى تلك السنة بالذات .

وهكذا يبدو واضحا ، أن هذا السجل — عندما كان مكتملا — انما

9. W. M. F. Petrie, in *Ancient Egypt*, 1916, p. 114 f.
H. Gauthier, *Quatres Nouveaux Fragment de la Pierre de Palerne Musse Egyptien*, III, Pls. 24-31, p. 29-35.

10. J. H. Breasted, *ARE*, I, 1927, Parag. 76-167.

G. Daressy, *La Pierre de Palerne e la Chronologie de L'Ancien Empire*, *BIFAO*, XII, 1916, p. 16 f.

W. Kaiser, *ZAS*, 84, 1959, p. 119 f.

M. F. Read, *Egyptian Royal Accessions during The Old Kingdom*, *PSBA*, 36, 1914, p. 282 f.

كان سجلا سنويا مستمرا لكل الملوك المذكورين على وجهيه ، ومن ثم فلو أننا سلطنا بصحة معلومات صاحب هذه الحوليات لمحققنا من المتتابع الصحيح للملوك جميعا من «مينسا» الى «ني وسر ريح» سلكنا ملوك الاسرة الخامسة - رغم أن آخر اسم لحفظ لنا به هذا الحجر - إنما هو لسم «نفر لير كارع» - فضلا عن عدد السنين لكل منهم - وفسوق ذلك كله ، فلن احصاء بسيطا لكل الخانات إنما يضع بين أيدينا مجموع السنين التي استغرقها عصر الاسرات الخمسة الاولى .

وعلى أية حال ، فحتى في حالة الحجر الحاضرة المتورة ، فإنه يمكن استخدامه الى حد ما ، في الاغراض التاريخية ، ذلك لانه لو وصلنا الى كاملا ، فإن نقوشه إنما كانت تستطيع أن تعرفنا بالكثير مما قم في الماضي ، بقدر ما رغب ملوك الاسرة الخامسة أن يعرف خلفائهم من اهتماماتهم التي انصبحت على الاعياد الدينية ، وصناعة تماثيل الالهة ، والانتصارات على القبائل الاجنبية من وقت لآخر ، ومحملات للسفى وراء الحصول على المعادن ، فضلا عن بناء المعابد والقصور (١١) .

وأيا ما كان الامر ، فرغم ما في هذه المدونة من عيوب ، فإنها كانت أول محاولة معروفة لجمع أخبار الملوك وترتيبها في التسلسل القديم ، وحسبها على هذا الاعتبار أنها «نقطة البدء» وأنها سجلت غيرها بقرون طويلة ، وأن مؤرخها الذي سبق عصرنا بنحو خمسة وأربعين قرنا المتروم فيها مبادئ ، لا تزال تعتبر من شروط التاريخ السليم ، فراعى (أولا) شرط الموضوع في كتابته بأن فصل بين أحداث كل حول وآخر بخط رأسى ، يرمز الى كلمة الحول في الكتابة المصرية ، وفصل بين حوليات كل ملك وآخر بخط أفقى .

11. E. Neville, La Pierre de Palerme, Recueil de Travaux,

XXV, Paris, 1903.

J. A. Wilson, Op. Cit., p. 62.

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 63.

وراعى (ثانيا) الترتيب الزمني في تدوين أسماء الملوك وحوادثهم من الاقدم الى الاحدث ، وراعى (ثالثا) أمانة النقل — ما استطاع الى ذلك سبيلا — في رواياته ، فاكتفى من بجانبه بالرمز الى ملوك ما قبل الاسرات بأسمائهم ، دون أفعالهم التي لم تدونها عهودهم ، وبدأ يفصل بالتدريج في حوليات العصور التاريخية ذات المصادر المكتوبة ، حسبما عرفت له أخبارها ، ثم أسهب أخيرا — ما شاء الله له أن ينسب — في حوليات الاسرة الخامسة التي عاش في ظلها ، وعرف الكثير من أخبارها (١٢) .

٢ - قائمة الكرنك :

نقش هذه القائمة كاتب في عهد «تحتومس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) على جانب من مقبده الفخم بأقصى مجموعة الكرنك ، وتستقصر هذه القائمة التي تعرف أحيانا باسم «قائمة حجرة الاجداد» بمتحف اللوفر في باريس ، منذ أن نقلها الاثرى الفرنسى «طويس دافن» في عام ١٨٤٤م .

وقد صور في قائمة الكرنك هذه ، الملك «تحتومس الثالث» ، وهو يتجه بدعواته الى ولحسد وستين اسما من أسماء أسلافه الذين تحطم أولهم ، ومن ثم فقد كان أولهم «سنفرو» ، مؤسس الاسرة الرابعة ، ثم يليه بعض ملوك هذه الاسرة ثم ملوك الاسرتين الخامسة والسادسة ، ثم يتلوهم بعض ملوك الاسرات من الجادية عشرة الى السابعة عشرة .

وهكذا يتضح لنا أن «تحتومس الثالث» إنما قد سجل من الملوك من يعتقد في شرعيتهم ، أو من كان يعتبرهم أسلافه الحقيقيين ، الذين يرتبط بهم برابطة من نسب ، ذلك لان القائمة لم تسجل كل الملوك الذين جلسوا على عرش الكنانة قبل «تحتومس الثالث» اذ أغفلت الكثيرين

(١٢) سعيد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٣٤ .

منهم ، بخاصة ملوك عصر الانتقال الاول ، فضلا عن الملوك من الفترة الهكسوس (١٣) .

٣ - قائمة أبيدوس :

وقد نقش في عهد الملك «سيتي الاول» (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م) على جدران معبد الكبير في «أبيدوس» على حافة الصحراء الغربية ، عند قرية العراة المدفونة ، على مبعدة عشرة كيلومترات الى الغرب من البليتا ، والذي يعد من أروع الآثار المصرية ، والمنظر يمثل الملك «سيتي الاول» مصحوبا بولده «رعميس الثاني»^(١٤) (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) وهو يقدم القرابين الى ستة وسبعين من أسلافهم ، الذين لا تقدم صورهم الشخصية ، وإنما تمثلهم «الخراطيش» التي كتبت بداخلها أسماءهم بالهروغليفية .

هذا ويقتصر القائمة الملك «مينا» كما أن القائمة تغفل كذلك أسماء ملوك تعتبرهم غير شرعيين ، ومن ثم فهي لا تعترف بهم ، وبالتالي لا تسجل أسماءهم ، كملوك الاسرتين التاسعة والعاشرية ، وملوك عصر الانتقال الثاني ، فضلا عن تجاوزها - عن عمد - لاسم الملكة «حتشبسوت» خصيصة الفرعون العظيم تحوتمس الثالث ، فضلا عن اسم داعية التوحيد «اخناتون» وأقربائه ، سمنخ كارع ، وتوت عنخ آمون وآي ، الذين اعتبرهم خلفاؤهم صابئين وذلك لخروجهم على تقاليد الاسلاف الدينية^(١٥) .

13. Prisse D'Avennes Menuments Egyptiens, Paris, 1847, pl. I, K. Sethe, Urkunden des Agyptischen Altertums, Leipzig, IV, p. 608-610.

(١٤) هناك ثبت آخر في أبيدوس بمعبد الملك رعميس الثاني ، ولكنه تحطم ، وتوجد أجزاء منه بالمتحف البريطاني .
(B. Porter and R. L. B. Moss; Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts. Reliefs and Paintings. VI p. 35).

15. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 48.

ZAS, II, p. 81-83.

E. A. W. Budge, The Book of The Kings, I, London, 1908.

E. Meyer, Aegyptische Chronologie, Berlin, 1904, Pl I,

٤ - قائمة سقارة :

عثر على قائمة سقارة هذه في عام ١٨٦١م في مقبرة بمخف لأحد رؤساء الاشغال ويدعى «ثوري» أو «تري» (وينطق تولى أو جونيوي) من عهد الملك «رعسيس الثاني» ، وكانت تحوى أصلا خراطيش سبعة وخمسين ملكاً ، يمجدهم رعسيس الثاني ، وتوجد القائمة الآن بمتحف القاهرة ، وهي لا تبدأ بالملك «مين» ، وإنما بسادس ملوك الاسرة الاولى «عج ايب» ، وتنتهى بالملك رعسيس الثاني ، كما أنها لم تراعى الترتيب الزمنى .

هذا وقد أعقبت القائمة كذلك ملوك الاسرات من السابعة الى العاشرة ، فضلاً عن كثير من ملوك الاسرة الحادية عشرة ، وان سجلت أسماء ملوك الاسرة الثانية عشرة جميعاً ، مما يدل على أن كانت كلها انما كان متأثراً بما تأثر به كاتب قائمة أبيدوس المعاصرة لها ، ومن ثم فقد أسقطت القائمتان ملوك عصر الانتقال الثاني ، وكذا اسم «حتشبسوت» و «اخناتون» ومن تلاه من عائلته ، ثم تنتهى القائمة بالملوك الثلاثة الاوائل من الاسرة التاسعة عشرة ، وهم رعسيس الاول وسيتي الاول ورعسيس الثاني (١٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة هنا الى أن اختلاف قوائم الشمال عن قوائم الجنوب ، انما يدل على أنه كان للدلتا نظرة خاصة في شرعية الملوك ، تختلف عن تلك التى كانت لاهل الصعيد ، أما اغفال أسماء الملوك الذين اعتبرهم المصريون غير شرعيين كالهكسوس ، فهذا يتفق والعرض الذى أقيمت من أجله هذه للقوائم ، وحتى لا ينعم من لم تذكر أسماؤهم بالقبائل التى تقدم للاجداد .

٥ - يردية تورين :

ترجع هذه للبردية الى عهد «رعسيس الثاني» وتختلف عن بقية

16. E. de Rouge, Recherches sur les Monuments. Pl. I.
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 50,

القوائم في أنها كتبت على ورق البردي ، وبالخط الهيراطيقى ، كما تمتاز كذلك بأنها قد أوردت بعض الاسماء الملكية التي لم تذكرها القوائم الاخرى ، وبثلاثها قد عدلت الى المتبويب التاريخي ، حيث قسمت الملوك الى مجموعات ، ونسبت بعضها الى العواصم التي حكمت فيها .

هذا وقد عثر على بردية تورين الايطالى «دروفتي» في منف عام ١٨٢٠م ، ثم وجدت طريقها الى ملك سردينا ، ووضعت في صندوق ، ثم جمعت بقاياها في غير نظام ، ومن هنا فلن «شلمبليون» حين بدأ ينقب في ثنايا المخزون من الجزازات الكثيرة التي انتقلت الى متحف تورين ، اتضح له أن هذه الوثيقة التي تعد ثمن الوثائق المصرية لم يبق منها سوى خمسين قطعة ، هي في معظم الحالات ناقصة ، وتقدم على الاكثر ما بين ٨٠ الى ٩٠ اسما ملكيا .

وفي عام ١٨٢٦م . قام «جوستاف سيفارت» الالماني باعادة جمع الجزازات ، ثم توصل منها آخر الامر ، الى نتائج هامة تتلونها تعديل ملحوظ فيما بعد ، عندما نشرها الاثرى «فارينا» بعد الترميم في عام ١٩٣٨م^(١٧) ، ثم قام «سير آلن جاردنر» بمراجعة الاصل ، وأصلح بعض قراءات «فارينا» ونشر ذلك كله^(١٨) .

وتبدأ البردية — كما يبدأ مانيتو — بالالهة ، الذين تنسب اليهم عدد حكم أسطورية^(١٩) ، يليهم بعد ذلك «مين» كـمؤسس للملكية المصرية ،

17/ G. Farina, I. Papiri di re Restaurato, Rome, 1938.

18. A. H. Gardiner, The Royal Canon of Turin, Oxford, 1959.

(١٩) شابه المصريون في ذلك غيرهم من الشعوب القديمة ، التي أعطت فترات حكم أسطورية للملوك ما قبل العصر التاريخي ، وعلى سبيل المثال ، فإن قائمة الملوك الموميرية تذكر ثمانية ملوك حكموا قبيل الطوفان في خمس مدن عراقية . وكانت مدة حكمهم ٢٤١٢٠٠ سنة ، وأن آخرهم قد حكم ١٨٦٠٠ سنة ، وفي تاريخ العرب القديم يروى المؤرخون أن عاداً تزوج من ألف امرأة ، وعاش ألف ومائتى سنة ، وقد رأى من صلبه أربعة آلاف ولد ، كما رأى البطن العاشر من أعقابهم ، ثم خلفه ولده «شديد» فحكم ٨٥٠ سنة ، ثم جاء بعده «أخوه» فحكم ٩٥٠ سنة (محمد بنومى مهران : قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة ص ٣٩٢ — دراسات في تاريخ العرب القديم ص ٤) .

وأما بقية البردية فمجرد قائمة من الاسماء ، تلى كل اسم إشارة بطول مدة الحكم والعمر ، ثم المجموع بما يتفق وما رمى اليه «مانيتو» من ناحية التقسيم الى أسر ، وأما عدد الملوك فيكاد يكون واحدا فيهما ، وان كانت البردية قد قدمت بعض أسماء غريبة ، حتى لتبدو لنا وكأنها لا تمت بصلة الى ملوك حقيقيين .

ورغم ذلك فان جدول توزين للملوك انما يعد من أكثر المصادر التاريخية قيمة ، أو هو كان يمكن أن يكون كذلك ، لو أنه كان أكثر احتمالا ، أو لو أنه حوفظ عليه في غاية أدق ، ذلك لانه لم يسجل سوى كل حكم فحسب ، وانما سجل كذلك عدد الشهور والايام بعد اكتمال السنين ، ومن الواضح أن جامع هذه الوثيقة كانت لديه مصادر لمعلوماته ، ليست خالية من الفجوات فحسب ، بل هي كذلك دقيقة يمكن الاعتماد عليها ، فمثلا أرقام الأسرة الثانية عشرة تتفق تماما ، ومانتير اليه الآثار المعاصرة (٢٠) .

ولم يفتد على كاتب البردية ملكته التاريخية ، الا ايمانه بأساطير قومه التي جعلت للارباب نصيبا في اعتلاء عرش البلاد القديم ، فبدأ بحكم الاله «رع أتوم» ثم أرخ لحكم أرباب آخرين ، جعل مدة حكم أحدهم ٣٠٠ سنة ، وجعل مدة حكم آخر ٣٢١٦ سنة ، حتى انتهى بهم الى المعبود الملك «حور» الذي انتسب اليه ملوك ما قبل الاسرات ، واعتبروا أنفسهم أتباعه ، وانتسب اليه ملوك الاسرات واعتبروا أنفسهم ورثته وخلفاءه ، والمتجسدين لشخصيته (٢١) .

٦ - تاريخ مانيتو :

كان آخر المؤرخين المصريين القدامى المعروفين انما هو مؤرخ مصرى عظيم ، يعد أعظم مؤرخ أنجبته مصر القديمة ، وهو «مانيتو» - أو

20. A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 62.

(٢١) عبد العزيز صالح : التاريخ في مصر القديمة - مفهومه وعناصره ويواغت القومية فيه - القاهرة ١٩٥٧ ص ٢١ - ٢٢ .

«مانيتون» كما دعاه المتأغرقون — ومن أسف أن أصل اسمه المصرى لم يعرف بعد ، ويفترض «الكسندر موريه» (١٨٦٨ — ١٩٣٨) أنه كان اسما يتداخل فيه اسم المعبود مونتو ، رب الحرب ، ويظن البعض أنه بمعنى «المراعى» أو «السائس» ، وأنه قد ولد في «سمنود» (تب نتر = سبتوتس) وعاش في الفترة (٣٢٣ — ٢٤٥ ق.م) ، وربما قد وصل في السلك الكهنوتى الى منصب الكاهن الاكبر في «أون» (هليوبوليس) ، وأنه قام بدور هام في نشر عبادة «سرابيس» ليكون معبود المصريين واليونانيين على السواء (٣) .

وكان مؤرخنا الوطنى ملما باللغة المصرية القديمة ، وعلى معرفة تامة باللغة اليونانية ، ثم هو متمكن من تاريخ وديانة بلده ، مما ساعده على كتابة تاريخه حوالى عام ٢٨٠ قبل الميلاد ، على أيام بطليموس الثانى (٢٨٤ — ٢٤٥ ق.م) بصورة أفضل كثيرا ممن سبقوه ، ولعل الذى دفع «مانيتو» الى القيام بهذا العمل هو الرغبة فى اظهار الحقائق التى مسخها المؤرخ الاغريقى «هيرودوت» فى كتابه الذى كتبه قبل «مانيتو» بما يقرب من قرنين من الزمان ، أو أن «بطليموس الثانى» أراد أن يستفيد من علمه ، فكلفه بكتابة تاريخ مصر .

وأيا ما كان السبب ، فإن مانيتو قام بكتابة تاريخ بلاده فى ثلاثة أجزاء باليونانية تحت عنوان «اجبتياكا ايبو منيماتا» وخلص منه يموجز يحوى قائمة بأسماء الملوك ، مصحوبة بملاحظات قصيرة عن بعض العهود ، معتمدا فى ذلك على بعض الاسانيد المكتوبة ، والقصص الروية ، مستفيدا فى الوقت نفسه بأساليب أسلافه ، مجددا فيها .

ويقسم مانيتو مؤلفه — التاريخ الكامل لمصر — بعد حكم الالهة وأنصاف الالهة ، الى احدى وثلاثين أسرة ، من العائلات الملكية ، تبدأ

(٢٢) أحمد فخري : الموسوعة المصرية ٣٥٨/١ ، عبد الحميد زايد : مصر الخالدة — القاهرة ١٩٦٦ ص ١١٤ ، عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وأثارها — الجزء الاول — القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٣٦ .

بالملك «ميناء» ، وتنتهى بغزو الاسكندر الاكبر فى عام ٣٣٢ ق.م ، ورغم عيوب هذا التقسيم الى أسرات ، فإنه اتخذ جنسورا ثابتة فى دراسة «علم المصريات» (Egyptology) ورغم أن بعض المؤرخين المحدثين ينتقدونه كثيرا ، إلا أنه لا يوجد تقسيم آخر أكثر منه صلاحية .

هذا فضلا عن أن «مانيتو» فى تقسيمه للأسرات التى تشملها التاريخ الفرعونى كله ، قد اعتمد على معلومات صحيحة وصلت اليه من مصادر مصرية قديمة لها قيمتها ، وذلك لأنها تتفق وما جاء فى بردية تورين ، كما أشرنا من قبل .

وفوق ذلك كله ، فإن تاريخ مانيتو انما يمتاز بأنه يمدنا بأسماء الملوك الذين حكموا مصر فى عصورها الفرعونية ، مدونة بنطقها الاغريقى ، الذى كان سائدا على أيام مانيتو ، كما أنه لم يقتصر فى تاريخه على الحياة السياسية ، وانما أرخ كذلك للحياة الاجتماعية ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فأصاب الحقيقة فى كثير من الأحيان ، وإن كان قد ضل عنها ، وكساها بثوب المبالغة والاساطير ، فى أحيان كثيرة (٣) .

هذا فضلا عن أن تاريخ مانيتو ، لم يبرأ من فترة حكم الارباب ، هذا الى جانب المبالغة أحيانا فى سنى حكم الملوك ، كما تبدو فيه خلافات كثيرة فى الاسماء المؤكدة تماما ، وفى الصورة التى وصل الينا بها الكتاب ، انما نلتقى بلشياء غير مضبوطة بدرجة واضحة ، تصل الى ذروتها خلال الاسرة الثامنة عشرة ، حيث الاسماء والتسلسل التاريخى أصبح معروفا لدينا من مصادر أثرية لا يرقى اليها الشك ، ومع ذلك فإن كتاب مانيتو مايزال يسيطر على دراساتها ، ولا يمكن الاستغناء عنه ، وربما يخفى لنا بعض المفاجآت ، كما حدث منذ بضع سنوات ، حين عثر فجأة على

(٢٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

J. Baikie, A History of Egypt I, London, 1929, p. 54.

W. G. Waddile, Manetho, With an English Translation
Cambridge, London, 1940.

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 46-48.

اسم ملك مجهول يدعى «نفر خيرس» - كان قد وضعه في الاسرة الحادية والعشرين - على اناء صغير من تانيس (٢٤) .

وايا ما كلن الامر ، فما يؤسف له حقا ، أن تاريخ ملنيو الاصلى قد فقد في حريق مكتبة الاسكندرية عام ٤٨٠ قبل الميلاد ، على يد «يوليوس قيصر» ، ولم يعثر حتى الان على أية نسخة منه - كاملة كانت هذه النسخة أو ناقصة - وكل ما وصلنا منه مقتطفات مختصرة أحيانا ، ومبتورة أحيانا أخرى ، ذلك لان كتاب الاغريق لم يهتموا كثيرا بكتاب «مانيتو» ، نظرا للروح الوطنية التي تميز بها ، ومن هنا لم نثر على أي صدى له في كتابات المؤرخين الاغريق .

على أن الكتاب اليهود انما قد اعتمدوا عليه كثيرا في الدفاع عن قومهم ، كما فعل المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» ، حين أراد الرد على كاتب اغريقى متمصر ، يدعى «ايون السكندري» ، وملههم بالرجس والتشرد ، ووضاعة الاصل ، وبكل شائنة ونقيصة ، فزعم يوسف بن متى (يوسفوس فيلاقيوس) هذا ، أنه وجد في مخطوطات «مانيتو» ما يربط بين قومه اليهود والهكسوس ، ثم شفع دعواه هذه بتسجيل حكم الفراغة تسجيلا يصطبغ بالخرافة في معظمه ، وهكذا أنقذ يوسف اليهودي - عن غير قصد - جزءا من تاريخ مانيتو ، ضمنه كتابه «الرد على ايون» (ضد ايون = Contra Apionem) .

هذا وقد نقل عن «مانيتو» كذلك كتائب آخرون ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، منهم «جوليوس الاغريقى» (افريكاتوس حوالى عام ٢١٧م) و «يوسبيوس» (٢٦٤ - ٣٤٩م) و «بوسيديوس» (أوزيب حوالى عام ٣٢٧م) ، وكان آخر من نقل عن «مانيتو» جورج الراهب المعروف باسم «سينكلوس» (حوالى القرن الثامن) في مؤلفه المسمى «كرونوجرافيا»

24. P. Montet, Tanis, Paris, 1942, p. 164.

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 47.

والذى تحدث فيه عن تاريخ العالم منذ بدء الخليقة ، وحتى الامبراطور
«دقلديانوس» (٢٨٤ - ٣٠٥ م) (٢٥) .

وهناك بجانب كتاب التاريخ العام ، كتاب التاريخ الخاص ، والذين
قاموا بدور هام فى تسجيل أحداث عهود فراعينهم على جدران المعابد
والمسلات والمقابر الملكية والفردية على السواء ، كما اهتم بعض الافراد
بتسجيل تاريخ حياتهم على مقابرهم الخاصة ، ومن أمثلة ذلك الكاهن
«غنخت - ان سخمت» الذى كان كاهنا للاله «بتاح» والالهة «سخمت»
فى الاسرة الثانية والعشرين ، وقد كتب هذا الكاهن سجلا لنسبه يرجع
الى أيام الاسرة الحادية عشرة - أى - الى أربعة عشر قرنا قبل
عهده - وترجع أهمية هذا السجل المحفوظ الان بمتحف برلين (رقم
٢٣٦٧٣) الى أن صاحبه ذكر أمام كثير من أجداده أسماء من عاصروهم
من الفراعين ، ورغم ما فيه من أخطاء ، فان ذلك لا يقلل من قيمته كمصدر
تاريخى هام هو وغيره من نصوص الانساب .

وهناك الأساطير والقصص الروائى . الذى تناقله المصريون على
مر السنين ، وسجلوه بوجه خاص على البردى ، واستطاع المؤلفون أن
يصفوا فيه الاحوال القائمة ، وأن يكشفوا عن أنفسهم ومشاعرهم فى
حرية لم تتوفر فى السجلات الرسمية ، وهكذا وجد لدينا من هذا
القصص ما يصور الاحداث على عهد الراوى ، دون تغيير كبير ، ومنها
ما استمدوا عناصره من وقائع تاريخية قديمة ، امتزج بها الخيال
وداخلها الخلط والخرافة ، ولكنها جميعا أعطت المؤرخ فرصا كبيرة
ليستخلص منها الحقائق التاريخية ، والدلائل السياسية (٢٦) .

ولعل من أشهر الأساطير المصرية ، أسطورة «أوزير وإيزة» التى

(٢٥) الكسندر شاف : تاريخ مصر - القاهرة ١٩٦٠ ص ٢١ - ٣٠ .

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 46.

W. Smith, A Dictionary of The Bible, III, p. 107.

(٢٦) محمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٩٠ .

تصور قصة الكفاح بين «أوزير» و «ست» من ناحية ، وبين «حور» و «ست» من ناحية أخرى ، والتي تناولت سياسة البلاد وحضارتها في عصور لم تكن مصر قد عرفت فيها الكتابة بعد كما صورت حياة المصريين وتجاربهم في ذلك العهد السحيق ، ووصلت تاريخ الفراعنة بالهتهم العظام (٢٧) .

وهناك كذلك «قصة خوفو والسحرة» التي كتبها كهنة هليوبوليس ، ثم نسبوها الى عهد الملك خوفو ، وضمنوها أسماء يكن الشعب لها عميق الاحترام ، أمثال «زوسر» و «سنفرو» و «خوفو» ، والقصة ، على أى حال ، تتصل بأوضاع سياسية أدت الى تولي كهانة اله الشمس من ملوك الاسرة الخامسة عرش الكفانة ، كما أنها تبين الوسائل التي يلجأ اليها الفراعنة لتثبيت عروشهم في نظر الشعب ، حين أعوزهم الحق الشرعى فيه (٢٨) .

وهناك «قصة الفلاح الفصيح» التي تصور لنا الحالة الاجتماعية في مصر في أخريات عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، وكيف يستغل بعض الموظفين وظائفهم في ظلم الفقراء من الناس ، بينما يعنى كبارهم بتقبل شكوى المظلومين ، ورد حقوقهم اليهم ، لأنهم هم المسئولون عن ذلك ، وتصور لنا أن الوظيفة الكبيرة ذات المرتب الضخم ليست في كل الاحوال سياجا تحمى صاحبها من ظلم الناس ، وتصور لنا كيف ساء الحال ، وأهمل الموظفون وأجبتهم وكيف اضطرب الامن في الطرقات ، وانتشرت السرقات ، وتفشى الغش والخداع ، وكيف فسد الحكم حتى وصل الامر

(٢٧) انظر جوستاف لوفيفر : روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني ص ٢٣٧ - ٢٧٠ ، محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - الجزء الاول - الاداب والعلوم ، الاسكندرية ١٩٨٩ ص ٢٠ - ٢٨ .

J. A. Wilson, ANET, p. 14-17.

A. H. Gardiner, Late Egyptian Stories, 1932, p. 37-60.

(٢٨) جوستاف لوفيفر : المرجع السابق ص ١٣٦ - ١٥٨ ، أحمد قنبرى : تاريخ الحضارة المصرية - الادب المصرى - ص ٣٩٦ - ٤٠٢ محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٧٠ - ٧٩ .

الى القضاء ، فانحرف عن واجبه المقدس ، غير أنها من ناحية أخرى ، تصور لنا كيف أثرت الثورة في المجتمع ، فأعلنت من شأن الفرد ، وأعطت الفرصة لأقل الناس في أن يتقدم ويطالب بحقوقه ، بل وكيف كتب له النجاح في مسعاه (٢٩) .

وهناك «قصة سنو هي» التي تلقي أضواء على الاحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية في مصر في مطلع الاسرة الثانية عشرة ، ونحن في هذه القصة نرى أنفسنا أقرب الى الواقعية منا في أية قصة مصرية أخرى ثم هي من الناحية الادبية ، انما تتفوق على ما عداها بأسلوبها وتركيبها ولغتها ، وما أجتمع لها من العناصر الملائمة للقصة الناجحة ، حتى ذهب البعض الى أنها جديرة بأن توضع بين روائع الاداب العالمية (٣٠) .

وهناك «قصة ونأمون» التي ترجع الى أخريات أيام الاسرة العشرين وتصور بوضوح ضعف النفوذ المصري في الخارج في ذلك الوقت، وتتناول سلطان فرعون ، ما لاقاه رسله من مثيقة في أداء مهمته بولكنها

(٢٩) محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر
الفراعنة ص ١٥ - ٢١ . الحضارة المصرية ٨٠/١ - ٩٣ .

J. A. Wilson, Op. Cit., p. 407-410.

A. Erman, LAE, 1927, p. 116-232.

A. H. Gardiner, JEA, 9, 1923, p. 5-25.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939.
p. 183-193.

(٣٠) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٩٤ - ١٠٩ ، وكذا

J. A. Wilson, Op. Cit., p. 18-22.

A. Erman, LEA, 1927, p. 14-29.

J. W. B. Barns, The Achaemenian Ostrakon of Sinuhe,
Oxford, 1952.

A. H. Gardiner, Notes on The Story of Sinuhe, Paris, 1916.

31: A. H. Gardiner, Late Egyptian Stories, p. 61-76.

J. A. Wilson, Op. Cit., p. 25-29.

A. Erman, The Literature of Ancient Egyptians, London,
1977, p. 174-185.

W. Golenischeff, in Recueil de Travaux, 21 1899, p. 74-102.

وانظر : محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ١٢٧ - ١٣٩ .

تصور كذلك أن نفوذ مصر الدينى والثقافى كان ما يزال له سلطانه على
الاسيويين (٣١) ... وهكذا .

هذا هو المصدر الاول لدراسة تاريخ مصر القديم ، ولكنه - فى
الغالب - تاريخ سياسى ، وهو لا يساعدنا فى كل الاحوال على معرفة
ما كان عليه الشعب ، أو ما كان من تطورات فى المجتمع أو فى الفنون
المختلفة أو فى المظاهر الثقافية والدينية بوجه عام ، وهى جميعا على
أكبر جانب من الاهمية لفهم الحضارة المصرية ، ولدينا - والله الحمد -
مصادر لا حصر لها تساعدنا على تلك الدراسة ، وتمدنا بالكثير من
المعلومات ، فالمتاحف فى جميع أرجاء العالم تمتلئ بما خلفته الحضارة
المصرية القديمة ، من تماثيل ولوحات وتوابيت وهلى وأوان وأدوات
منزلية ، وأدوات الصنّاع ، وفوى الحرف المختلفة ، وهذا فضلا عن
التعاليف والتماثيل وقراطيس البردى وغيرها ، وعليها الكتابات المختلفة،
بعضها قطع أدبية ، والاخر نصوص دينية أو سحرية ، وبعضها يحتوى
على نصوص طبية (بردية أودين سمث الجراحية - بردية ابرسن -
بردية برلين الطبية - بردية تشستر بيتن الطبية - بردية كلهنون -
بردية لندن - بردية هرست) (٣٢) أو رياضية (بردية رند) أو
هندسية (٣٣) .

(٣٢) انظر : حسن كمال : الطب المصرى القديم - أربعة أجزاء -
فى مجلدين - القاهرة ١٩٦٤ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص
٣٧٩ - ٤١٠ .
(٣٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٦٣ - ٣٧٨ .

ثانيا : كتابات المؤرخين اليونان والرومان

تميزت الفترة فيما بين القرنين ، السادس قبل الميلاد والثاني بعد الميلاد بزيارة عدد كبير من الاغارقة لمصر — مؤرخين كانوا أم رحالة — وشجعهم على ذلك أن مصر قد بدأت منذ الاسرة السادسة والعشرين (٦٦٤ — ٢٢٥ ق.م) تستخدم كثيرا من الايونيين والكاريين والاعريق كجنود مرتقة في جيوشها ، وزيادة العلاقات التجارية بينهم وبين مصر ، هذا فضلا عما سمعوه عن حكمة مصر وراثتها وآثارها ، الى جانب ما تواتر عن صلات أسلافهم في آسيا الصغرى وجزر بحر ايجة بمصر ، فضلا عن الامتنان والاحترام الشديد للبلد الذي ذكرت «أوديسة هوميروس» أنها «بلاد الاطباء» أحكم أهل العالم ، وما تواتر اليهم ورووه من أن حكمتها كانت الملهمه للمشرع «سولون» ، والفلاسفة طاليس وبيثاجوراس وأفلاطون ويودكسوس وغيرهم .

على أن الباحثين انما يلاحظون على كتابات المؤرخين من الاغارقة والرومان عدة نقاط ضعف ، منها (أولا) أن البعض منهم قد تحروا الصدق فيما قالوا أنهم رأوه بأنفسهم ، الا أن كثيرا منهم انما قد أساعوا فهم ما رأوه ، أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب في تفسير أو تعليل ما سمعوه ، أو وقعت عليه أبصارهم ، ومن هنا فان المؤرخين المحدثين انما ينظرون الى هذه الكتابات بعين الحذر ، ومنها (ثانيا) أن أصحاب هذه الكتابات انما قد زاروا مصر في أيام ضعفها ، وفي عصور تأخرها واضمحلالها ، ولو أتاحت لهم الظروف زيارتها خلال عصور نهضتها وفي أيام مجدها ، لتغير الكثير من آرائهم وانطباعاتهم .

ومنها (ثالثا) أن اقامة هؤلاء الكتاب كانت في أغلب الاحايين في مدن الدلتا ، حيث اتخذت الحياة طابعا خاصا ، به مسحة أجنبية ، ومن ثم فلم يتبينوا أوجه الحياة المصرية الصادقة ، كما كانت في الصعيد ،

ومن ثم فقد أخطأوا في الكثير مما صوروه من مظاهر الحضارة المصرية القديمة (١) .

ومنها (رابعاً) أن هؤلاء الكتاب إنما قد اعتمدوا في الكثير من معلوماتهم على الأحاديث الشفهية التي كانوا يتبادلونها مع من قابلهم من المصريين ، وبخاصة صفار الكهنة والتراجمة الوطنيين وخدم المعابد والإغارقة المتمصرين ، الذين حدثوهم عن عصور موغلة في القدم لا يعرفون عنها الكثير ، كما كانوا يفسرون لهم النصوص الهيروغليفية ، تفسيراً لا يتفق والحقيقة في الكثير ، ومنها (خامساً) أن كثيراً منهم قد كتب ما كتبه من وجهة النظر اليونانية ، وكثيراً ما كانت كتاباتهم في وقت اختلفت فيه مصالح بلادهم مع مصالح مصر .

ومنها (سادساً) روح التعصب التي عرفت عند الغربيين لحضارتهم ، وأظهارها وكأنها أرقى من غيرها ، وذلك عن طريق عرض نواحي الغرابة في الحضارات الشرقية التي عاصرتها أو سبقتها ، ومنها (سابعاً) عدم معرفة كتاب اليونان والرومان للغة المصرية القديمة ، مما أدى إلى سوء فهمهم للكثير مما ذكره المصريون ونقلوه عنهم محرفاً .

ومنها (ثامناً) أن كثيراً من هؤلاء الرحالة والمؤرخين قد وفدوا إلى مصر ، كما يفد السائح العادي يلتبس الشوارد والنوادر ، أكثر مما يلتبس الحقائق ، ومنها (تاسعاً) أن كثيراً منهم احتفظ بذكرياته عن مصر في ذاكرته ، وبملاحظات دونها في أيجاز ، ولم يكتب بأسهاب ، إلا بعد أن طوف في بلاد أخرى ، وبعد أن عياد إلى وطنه ، فاختلط عليه بعد ما شاهده واحتفظ في ذاكرته وعمم أموراً ما كان ينبغي له أن يعممها (٢) .

وبدهى أن تكون النتيجة الطبيعية لذلك كله أن كتابة هؤلاء المؤرخين

(١) محمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٨٢ .
(٢) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وأثارها - الجزء الأول - ص ٢٤٠ .

قد امتلأت بالكثير من الاخطاء والاراجيف والتناقضات ، وبالتالي فقد أدت الى خلق الاساطير والخرافات عن الحياة في مصر الفرعونية .

وأما أشهر هؤلاء المؤرخين فقد كانوا : هيكتة الميلييتي وهيودوت وهيكتة الابدرى وديودور الصقلي وسترابو وبلوتارك الخيوني وغيرهم .

١ - هيكتة الميلييتي :

ينسب هيكتة هذا الى ميليتوس الاغريقية في آسيا الصغرى ، وقد كان من أوائل الاغارقة الذين زاروا مصر (حوالي عام ٥١٠ ق.م) وليبيا ، وربما فارس ، ويبدو أنه كان أكثر اهتماما بفيضان النيل وتكوين الدلتا ومزروعات البلاد ، منه بالسكان وتاريخهم ، وقد ضاع كتابه (تخطيط الارض) الذي ناقش فيه كل هذه الامور ، والذي قيل أنه ضمنه خريطة لرحلته ، أو على الأقل ضمنه صورة من خريطة موطنه الفيلسوف الجغرافي «أنا كسيمندر الميلييتي» وأثبت عليها البلاد التي زارها ، ويحتمل أنه صاحب العبارة المشهورة «مصر هبة النيل» أو «هبة النهر» التي ردها هيودوت من بعده ، ثم نسبت اليه (٣) .

٢ - هيودوت (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) :

ولد هيودوت أو «هيودتس الهاليكارناسوس» في مدينة «هاليكارناسوس» (وهي مستعمرة دورية في اقليم كاريا تدعى الان Budrum) في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى وذلك في عام ٤٨٠ ق.م (٤) .

ويبدو من كتبه هيودوت أن صاحبه قد شاهد بعض أحداث الحرب

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤١ .

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 3.

(٤) اختلف الباحثون في ميلاد وموت هيودوت ، فرأى البعض أنه ولد في عام ٤٨٩ ق.م ، ورأى آخرون أنه ولد في عام ٤٨٤ ق.م ، وأنه مات في عام ٤٣٠ ق.م ، على رأي ، وفي عام ٤٣٥ على رأي آخر (أحمد بدوي : هيودوت يتحدث عن مصر ص ١٢ ، ج ايفانز : هيودوت ص ٥) وكذا .

A. H. Gardiner, op - cit, p. 3

البيلوبونيزية (٤٣١ - ٤٠٤ ق.م) في مرحلتها الاولى ، ومن ثم فمن المرجح أن يكون هيودوت قد عاش فيما بين الحرب الميدية (٥٠٠ - ٤٧٥ ق.م) التي دفعت بحضارة اليونان الى المجد ، وبين الحرب البيلوبونيزية التي كادت أن تودي بهذه الحضارة ، أى أنه كان يعيش في العصر الذهبي من التاريخ اليوناني (٥) .

وأيا ما كان الامر ، فان هيودوت انما قد نشأ في أسرة مغروعة ، وربما قد شارك في أحداث بلده السياسية ، ومن ثم غقد تعرض لالوان من المحن التي أثرت في حياته ، ودفعت الى الهجرة الى «ساموس» ، ومنها قام برحلاته العديدة ، حيث زار مصر وسورية ، بل وجاوز بلبلن وهمدان ، ثم تنقل بين شواطئ البحر الاسود وجنوب روسيا ، وفي عام ٤٤٤ قبل الميلاد ، توجه الى بلدة «توريم» (ثوري) بجنوب ايطاليا مع فئة من المستعمرين الذين أرسلهم «بيريكليس» الى ايطاليا ومن ثم فقد صار من أوائل مستوطنى «توريم» التي بقى فيها حتى وافاه أجله ، ودفن في سوق المدينة التي كان يحبها جدا دفع بعض المؤرخين الى نسبته اليها فدعوه «هيودوت الثوري» .

وهناك في ثوري عكف هيودوت على كتابة سفره الضخم الذي قسمه النخبويون السكندريون الى تسعة أجزاء ، كل جزء منها لاحدى عرائس العلوم والفنون من بنات «زيوس» ، أما هيودوت فقد كان عندما يشير الى أجزاء كتابه لايسمىها بغير عبارات عامة ، كالاحاديث اللببية ، أو الروايات الاثورية . . . وهكذا (٦) .

كانت زيارة هيودوت لمصر ابان الحكم الفارسى لها ، وبعد ثورة «ايناروس» في عام ٤٦٠ ق.م ، ذلك لانه انما يقرر أنه رأى جماجم القتلى في معركة «بابريمس» التي انتصر فيها الثائر المصرى ، واستولى

(٥) وهيب كامل : هيودوت في مصر - القاهرة ١٩٤٦ ص ٥ .

(٦) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ١٣ - ١٧ .

على الدلتا^(٧) ولكن يجب ألا تكون هذه الزيارة بعد هذه المعركة بوقت طويل ، وألا لما استقبل في مصر بهذا الترحاب الذي سمح له بحسرية دخول المعابد المصرية والاطلاع على سجلاتها .

وليس هناك من شك في أن الحكم الفارسي ، وانتشار الاغريق في مصر ، قد سهلا الزيارة أمامه ، ونسما له بحسرية التنقل بين أقاليم البلاد ومشاهدتها ، بل أن هناك من يرجح أن هيودوت انما قد زار مصر بتوصية من الفرس^(٨) ، وإن رأى آخرون أنه لم يعتمد عليهم ، فقد كان الفرس ينظرون الى اليونان بعين الريبة والتوجس ، بل أن هيودوت انما كان يتجنب الاوساط الحكومية ، حتى أنه لم يعلم أن اللغة الرسمية في الدواوين الحكومية انما كانت وقت ذاك هي اللغة الارامية^(٩) .

وأيا ما كان الامر ، فان هيودوت استطاع أن يزور الكثير من مدائن الدلتا ، كما تجول في الصعيد حتى الجندل الأول عند أسوان ، كما شاهد اقليم الفيوم ، وإن رأى نقاده من المؤرخين المحدثين أن رحلته ، التي كانت حوالي عام ٤٦٠ ق.م^(١٠) ، لم تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر ، وربما أربعة ، وأنها قد تمت في أيام الفيضان ، وأن اقامته في مصر انما كانت مقصورة على الدلتا واقليم الفيوم .

ولعل هذا يفسر لنا عدم الاستطراد في الوصف لمدينة «طيبة» وآثارها ، حتى خلا كتابه من وصف مقابر الملوك وتمثال ممنون (وكانا يمثلان أمنتب الثالث عند مدخل معبده الجنائزى في طيبة الغربية) ،

Herodotus, III, 12, VII, 7.

(٨) أحمد بدوي : المرجع السابق ص ٢٩ .

(٩) وهيب كامل ، المرجع السابق ص ١٦ - ١٧ .

(١٠) هناك خلاف على تاريخ زيارة هيودوت لمصر ، فمن يجعلها

عام ٥٤٩ ق.م ، ومن يجعلها عقب عام ٤٥٠ ق.م ، ومن يجعلها فيما بين

عامي ٤٤٨ ، ٤٤٥ ق.م ، ومن يجعلها عام ٤٣٠ ق.م ، ومن يجعلها ما بين

عامي ٤٦٠ ، ٤٥٥ قبل الميلاد .

وربما كان جهله باللغة المصرية القديمة ، وكثرة اليونانيين في الدلتا ، سببا في أن تكون زيارته للصعيد غابرة .

وعلى أى حال ، فلقد استطاع هيرودوت أن يزور أهم المدن المصرية ، وأن يسجل كل ما رآه وسمعه في الجزء الثاني من كتابه المشهور (١١) ، فتحدث عن جغرافية مصر ومدنها ، والحوادث التاريخية التي مرت بها ، وأعمال ملوكها ومظاهر الحياة فيها ، دونما تدقيق أو تمحيص ، فضلا عن سرده للكثير من القصص الساذج ، ومن هنا جاء كتابه جامعا الغث والسمين ، حاويا الكثير من الحقائق والمفتريات في آن واحد ، ولهذا يجب أن نكون على حذر مما يوضع أمامنا بحسبانه تاريخا ، وهو من التراث الشعبي في معايير غير دقيقة الرواية ، وتأكيدات بها نواة الحقيقة وإن غلفت بالمبالغة والتحريف (١٢) .

ومن هنا فقد اختلف المؤرخون في الحكم على هيرودوت ، وعلى كتبه ، اختلافا بينا ، فعلى حين رأى «سيترون» (١٠٦ - ١٤٣ ق م) أنه أول من استطاع أن يميز بين فن التاريخ والرواية الشعرية ، حتى لقبه «أبو التاريخ» اتهمه «بلوتارك» (٤٦ - ١٢٠ م) بالتحيز لاعداء بلده ، وبأنه صديق البرابرة ، وسماه بعض المؤرخين المحدثين «أبو الابطال» ، وأنه كان عاجزا عن ادراك الحقائق ، كما كان ينقل عن سبقوه دون الإشارة اليهم ، وإن وقف آخرون موقف التأييد له (١٣) .

(١١) انظر : هيرودوت يتحدث عن مصر - ترجمة محمد صقر خفاجه ، تقديم وشرح أحمد بدوى - القاهرة ١٩٦٦ .

The History of Herodotus, Translated by G. Rowlison,
2 Vols, London, 1920.

Herodotus, The Histories, Translated, by A. de Selincourt,
Penguin Classics, 1954.

W. C. Waddell, Herodotus, Book, II, (The Loeb Classical
Library), London, 1939.

12. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 3.

(١٣) انظر : هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٩ - ١٢ ، ١٩ - ٢٤ ،

=

وعلى أى حال ، فليس هناك من شك فى أن هيرودوت ، انما قد بذل الكثير من الجهد فى اخراج كتابه عن «مصر» ، وليس هناك من ريب كذلك فى أن الرجل لم تفته دقة الملاحظة وبراعة التعليل فيما كان يشهده ويكتب عنه ، من الظواهر البيئية والاجتماعية ، وأنه قد أنصف المصريين فى كثير مما كتبه عنهم ، يبدو ذلك واضحا حين نراه يعترف بتفوقهم وعظمتهم فى ميادين العلوم والمعارف ، ثم يمتدح فضائلهم ونزواتهم ، ويثبت لهم الفضل فى الكثير من العلوم والمعارف التى أفادت الانسانية منها بعامة ، وأفاد منها قومه الاغريق خاصة .

على أن هناك أمورا كثيرة تجعلنا ننظر بعين الحذر والحيطة ، بل والشك كذلك ، فى كل ما كتبه هيرودوت ، ومنها (أولا) أنه لم يكن يعرف من لغة المصريين كثيرا ولا قليلا ، ولا نستطيع أن نزعّم أن من بين المصريين من كان يعرف لغة الاغريق ، الا أن تكون قلة نادرة لن يلقاها الرجل فى كل مازار من مكان يؤمن ثم فلم يكن هناك من سبيل الى ادارة الحديث بين هيرودوت وبين من زعم أنه لقيهم من كهان ، الا بين يدي ترجمان أو واحد من بنى قومه ، يلم بشئ من لغة المصريين على الاقل .

أما التراجمة فقد كانوا — كما هم اليوم — ولعين بالاغراب والمبالغة ، معتمدين فى ذلك على جهل الاجانب بلغة النقوش واستعدادهم للتصديق ، بسبب فرط اعجابهم بالاثار المصرية ، وأما الاغارقة من بنى قومه ، والذين لانشك كثيرا فى أنه اعتمد عليهم ، فهم قوم — مهما طال مكثهم فى مصر — أجنب عن البلاد ، لا يستطيعون فهم حضارتها ، ولا هضم تقاليدها ، ولا الايمان بعقائدها .

ومنها (ثانيا) أن هيرودوت يقرر فى مواطن كثيرة ، أن مصدر أخباره

W. A. Heidel, Hecataeus and The Egyptian Priests in
H. Book, II, Boston, 1935, p. 113 F.

Save - Soderbergh, Zuden Aethiopischen Episoden bei
Herodotus, Eranos, 44, 1946, p. 68-80.

De Meulenaere, Herodotus over de 26 te Dyn, Lruvrn, 1951.

كهنة منف ، بل انه انما يزعم أن ثبتا بأسماء الملوك قد قرئ عليه في معبد بتاح بمنف ، ولو كان ذلك صحيحا لما زل هيودوت زلته الكبرى ، حين اعتبر بناء الاهرام (الدولة القديمة) تاليا لعصر الدولة الحديثة ، ولما جهل ترتيب المشاهير من الملوك ، ولما جاء كتابه خسلوا من الملاحم التاريخية الهامة ، وخاصة ملحمة الهكسوس وثورة المصريين ضدهم وطردهم من البلاد .

وهو أمر لا نظن أن المصريين قد نسوه ، مهما طال العهد عليه ، ولو جاز ذلك لما وقع على تلك الملحمة مؤرخنا الوطني «مانيتو» بعد ذلك بما يقرب من قرن ونصف القرن ، وليس لذلك كله من تعليل ، سوى أن يكون هيودوت قد اتصل بصغار الكهنة ، أو أن يكون قد ضنوا عليه بأسرارهم^(١٤) ، وإن كان أول التعليلين أفضل ، ففيها نصيب إليه ونرجحه .

ومنها (ثالثا) أن رغبة هيودوت في اظهار علمه ، وارضاء قرائه قد دفعه الى وصف ما لم يكتب له رؤيته من الآثار المصرية ، والى أن يكتب فيما لا علم له به ، مع أن اقامته في مصر لم تتجاوز أشهراً أربعة ، وهى فترة قصيرة في حدود امكانيات وسائل انتقالات عصره^(١٥) ومنها (رابعاً) أن هيودوت^(١٦) لم يكن يختلف كثيراً عن سائر بنى قومه ، أو عن غيرهم من الغرباء الطامعين في مصر ، بدليل أنه لم يستغنى ثورة المصريين ضد الفرس في سبيل الحرية ، بل ظل يمتدح الفرس ، ويشيد بنبل مسلكهم ، ازاء من أخضعوا من شعوب الارض .

ويدهى أن تلك أمور أقل ما يمكن أن يقال فيها أنها تقلل من قيمة ما كتبه ، ذلك الذى ادعى العلم والمعرفة والثقافة والتقوى وحصافة الرأي ، حتى خدع قراءه ذهرا ، وحتى بات لديهم «أبو التاريخ» فأكثر

(١٤) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٢٧ - ٢٨ ، ٣٢ - ٣٤ ، Herodotus, II, 100, 125, 154, 264.

(١٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٢ .

(١٦) أحمد بدوى : هيودوت يتحدث عن مصر - القاهرة ١٩٦٦

ص ٢٩ - ٣٠ .

Herodotus, II, 12.

الحقائق كانت يومئذ ماثلة أمامه، وأمور البلاد كانت عارية غير مستورة، والاحتلال الفارسي قد مهد له سبيل الزيارة، وأتاح لم مالم يتح لغيره.

وهكذا يمكننا القول أن كتاب هيرودوت في جزئه الاول الذى ينتهى عند مطلع العهد الساساني، يكاد يخلو من الحقيقة التاريخية، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد عليه، سواء من ناحية ترتيب الاحداث التاريخية، أو من ناحية عدد الملوك وسنى حكمهم، أما الشطر الثانى الذى أفتتحه بعصر «بسماتيك الاول» (٦٦٤ - ٦١٠ ق م) فقد ظاهره فيه التوفيق، ذلك لأن رواته كانوا من الاغريق، وكانوا على صلة بفرعون الذى احتضنهم وأشركهم في بعض أموره، هذا فضلا عن أن هناك روايات كانت متداولة يمكن الاعتماد عليها - مع كثير من الحذر - وفوق ذلك كله، فإن ما كتبه هيرودوت عن مشاهداته الشخصية، وعن عادات المصريين وتقاليدهم، ووصف آثارهم، لذو قيمة كبيرتان نحن نتاولناه بمزيد من الحذر (١٧).

أما فيما يتصل بالجغرافية، فإن هيرودوت يقدم بعض المعلومات القيمة، بخاصة فيما يتصل بالدلتا، أما فيما وراء الفيوم جنوبا، فإنه لا يذكر سوى مدن قليلة، مثل أخميم (١٨)، وطيبة وسين (١٩)، واليفانتين

(١٧) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٣٧ ،

Herodotus, II, 147-157.

(١٨) أخميم، أو خمين عن أصل قديم يعنى وجه المعبود مين أو واجهة معبده، وكان مين الها لأخميم وقفط، وحاميا للقوافل، وربما للسيول في الصحراء الشرقية، وهي الآن مدينة كبيرة في مقابل سوهاج عبر النهر، وكانت عاصمة الاقليم التاسع من أقاليم الصعيد، وأسمها بالمصرية «أبو»، كما سميت «خنت مين» نسبة الى معبودها مين، وهو أصل اسمها في القبطية «شمين» وسماها الاغريق «خمس» و «بانو بوليس» وعلى مقربة منها عدة جبانات على حافة الهضبة كمقابر الحواويش، وتنتمى الى الدولة القديمة والوسطى، ومقابر «السلاموني» من العصر البطلمي والروماني، حيث يوجد في أعلى المقابر معبد منحوت من الصخر، يرجع الى عهد «تحتومن الثالث» على الأقل، ثم قام الملك «آي» بترميمه، فنسب اليه خطأ (عبد العزيز صالح) : المرجع السابق ص ٣٥، الموسوعة المصرية ٨٥/١.

(١٩) سين أو سوينى أو سيينى، وهو الاسم الاغريقى لمدينة أسوان

(جزيرة أسوان) ، ثم «نيوبوليس» الغامضة ، ومن بين الأقاليم الثمانية عشرة التي ذكرها ، لا نستطيع تحديد أكثر من نصفها بسهولة ، ومع ذلك فإن قائمته تحوى أسماء لا نجدها في غيرها من المصادر ، وربما كان مرجع ذلك سوء فهم الواحد أو الآخر (٢٠) .

وأما روايته عن الديانة المصرية ، فرغم ما تتسم به من اغاضة ، فإنها تدعو لليأس ، وقد ذكر بعض المعلومات عن الآلهة : آمون وبوباستس وايزة وأوزير ، بأسمائها المصرية ، وإن فضل مقابلاتها اليونانية ، لأنه إنما كان يعتقد أن الهيلينيين قد استقوا آلهتهم وأخيلتهم الدينية من مصر .

وأما عن العادات المصرية القديمة ، فقد أخطأ في الكثير منها ، فمثلا ادعى أن النساء المصريات اعتدن أن يخرجن إلى الاسواق دون الرجال ، وعلى أن يحملن البضائع فوق رؤوسهن دون الرجال ، ولم يكن في ذلك الحكم العام شيء من الصحة ، وإنما حدث اللبس عنده عندما شاهد صور النساء في مناظر المقابر والمعابد يحملن الهدايا والقرايين فوق رؤوسهن ويمشين بها في صفوف ، فظنها تعبر عن الحياة الفعلية في عصور تصويرها ، بينما لم تكن في حقيقة أمرها غير رموز مجسمة لأسماء الضياع والقرى والمدن التي امتلكها أصحاب المقابر والمعابد ، وتمنوا أن تشترك بخيراتهما في أداء القرايين الضرورية لمقابرهم ومعابدهم ، ولما كانت أغلب الضياع والقرى والمدن أسماء مؤنثة ، عبر المصريون عنها بصور الاناث ، كما عبروا عن أسمائها القليلة المذكورة بصور الرجال (٢١) .

الحالية ، وكانت تدعى بالمصرية ، منذ الأسرة العشرين ، «سونو» ثم تحول في القبطية إلى «سوان» و «سويان» ، والاسم بمعنى السوق ، إشارة إلى دور أسوان التجارى بين مصر والنوبة والسودان (عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٣) .

20. A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 4.
(٢١) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها - الجزء الاول - القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٤٢ .

ينسب هيكااته الابدرى الى بلدة «أبديرا» في بلاد اليونان بمقد زار مصر حوالي عام ٣٢٠ ق م ، على أيام «بطليموس الاول» (٣٣٣ - ٢٨٤ ق م) وقام بوضع كتاب عن مصر ، فقد معظمه ، يتحدث فيه عن مصر بصفة عامة ، وعن العقائد والاساطير الدينية المصرية بصفة خاصة ، وقد اتسمت كتاباته بروح التعصب والتحيز لوطنه .

٤ - ديودور الصقلى : (حوالى ٨٠ - ٣٠ ق م)

قام ديودور الصقلى في عام ٥٩ قبل الميلاد برحلة سياحية لمصر ، ولفترة قصيرة ، ثم ألف كتابا عن «التاريخ العام» منذ فجر التاريخ حتى حملة «يوليوس قيصر» على بلاد الغال في عام ٥٨ ق م بمقد أفرد الجزء الاول منه لتاريخ مصر وهو يروى مرة أو اثنتين من تجاربه للشخصية ، وأما محاضره الاصلية فكانت للكتاب الذين سبقوه مثل «هيكااته الابدرى» و «أجاثارخيدس السفودى» الجغرافى المؤرخ (القرن الثانى قبل الميلاد) ، ولم يستطع «ديودور» أن يتجنب الاستعانة بهيرودوت على نطاق واسع ، وان انساق وراء جمهرة نقاده (٣٣) .

هذا وقد تناول ديودور أوضاع مصر السياسية والاجتماعية والدينية ، كما تناولها هيرودوت ، ولكنه كان أكثر منه انصافا للمصريين ، وأكثر فحافة في تفسير عقائدهم واساطيرهم ، فكتب عما تواتر اليه من آرائهم في نشأة الوجود وعقارب المعبودات وعمران الكون ، ثم يتبع هذا قسم مستفيض عن أرض مصر ونهرها والحياة الزراعية والحيوانية بها وعن الفيضان وأسبابه ، ثم يتحدث عن تاريخ مصر ، فيسلم بأن «ميناء» هو أول ملوكها ، ثم يتحدث عن «طيبة» حديثا مدعما بالمعالم القديمة البالغة الدقة لآثار «أوزيماندياس» (رعمسيس الثانى) المبروف اليوم باسم «الرمسيوم» في طيبة الغربية ، وان كان يؤخذ عليه أنه جعل تأسيس «منف» تاليا لتأسيس طيبة ولحكم رعمسيس الثانى .

ومع ذلك فإن ما كتبه عن القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد يجعل كتابه بالغ الأهمية ، فهو يقف في هذا المضمار ، جنباً إلى جنب مع «ثيوسيديدس» و «أكسنفون» (٤٣٠ - ٣٥٥ ق م) كمؤرخ حجة ، أما عن العصور القديمة فإن كثيراً مما يرويهِ لا يمكن التحقق منه عن طريق مصدر آخر ، ولما كان مؤلفه بعد تجميعها ، فإنه يصبح ذا قيمة لاتبارى .

وأياً ما كان الامر ، فإن «ديودور» يمثلو باعتماده على الكثير من المصادر ، وبحسن عرضه لآراء من سبقوه وبدقته ونزوعه إلى البحث عن الحقيقة ، كما كانت له عبارات صائبة ، مثل قوله «إن مصر حمتها الطبيعة من جميع جهاتها» ، كما استطاع أن يقدر آثارها ، ويقدر أصحاب الفضل فيها تقديراً سليماً ، فهو - مثلاً - يرجع شهرة الاهرام إلى دقة مبانيتها ومهارة صناعتها وليس فقط إلى ضخامة مبانيتها ، وكثرة تكاليفها فيعجب بمهندسيها أكثر من إعجابه بالملوك الذين أمروا ببنائها ، ودبروا نفقات أنشائها ، ذلك لأن الأولين إنما بذلوا من أرواحهم وجهودهم ، وخلصا أفكارهم ، حتى تم إنجاز هذه الصروح الشامخة ، بينما استغل آخرون ذلك كله لمصلحتهم الخاصة (٣٣) .

٥ - مسترابو : (حوالي ٦٣ - ٢١ ق م)

سترابو ، أو استرابون هذا من مواطني (بوننيس) زار الاسكندرية حوالي عام ٢٥ قبل الميلاد ، على أيام الامبراطور «أغسطس» (٣٧ ق م - ١٤ م) وأقلام بها نحو من خمس سنوات ، ثم صحب صديقه الوالى الرومانى «اليوس جالليوس» في حملة حتى الجندل الاول (حوالى عام ٢٥/٣٤ ق م) ، وقد تحدث عن مصر في الجزء السادس عشر من مؤلفه

(٢٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٣ وهيب كامل .
ديودور في مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 5.

A. F. Miot, Diodore de Sicile, Paris, 1834.

W. G. Waddell, an Account of Egypt by Diodorus the Sicilian, in the University of Egypt, Bulletin of the Faculty of Arts, I, Part, I, 1933, p. 1-47, Part, 2, 1933, p. 162-28.

«الجغرافية» (Geographica) (٢٤) ، فوصف النيل ومصر ، وإن اهتم كثيرا بالدلتا كما صحبه في حملته على اليمن عام ٢٤ ق م .

وكان اهتمام «سترابو» جغرافيا في الدرجة الاولى ، فهو يبدأ بحديث موجز عن النيل ، ثم يتابعه بوصف مفصل عن الاسكندرية والاقليم المتاخم لها شرقا ، ثم يتابع الكتابة بعد ذلك تبعا للترتيب الطبوغرافى ، وتتناول اقاليم ومدن الدلتا حفا من التفاصيل الكاملة ، وهذا الضغط على الدلتا يستحق أكثر الترحيب ، ذلك لان الوثائق الوطنية عن الدلتا جد شحيحة في هذه الناحية، هذا وقد أشار «سترابو» كذلك الى مقياس النيل في «اليفانتين» (٢٥) ، وهو نموذج مشهور من طراز من الدرج كانت تسجل على جدرانها سنويا الارتفاعات التى يصل اليها فيضان النيل ، كما قدم لنا تسجيلات هامة عن المباني والعبادات .

أما ملاحظاته على التاريخ والعبادات الدينية فخاضعة للنقد الذى أشرنا اليه بالنسبة للمؤلفين السابقين ، وإن كان كان يذكر له أنه أول من أشار الى تمثالى ممنون ، والى أن أحدهما كان يصدر عنه عند الفجر صوت كان يستطيع تمييزه الكثيرون من الزوار الاغريق والرومان ، وأخيرا فلقد أفاد استرابو كثيرا من «ايراتو سثينيس» (٢٦٦ - ١٩٢

(٢٤) انظر :

The Geography of Strabo, Translated by Hamilton,
London, 1912.

The Geography of Strabo, Translated by H. Jones,
8 Vols, London, 1949.

(٢٥) اليفانتين : وتعرف الان باسم جزيرة أسوان فى مقابل مدينة أسوان عبر النهر ، ويعنى اسمها فى المصرية (فيل) ، وقد نقل الى اليونانية تحت اسم «اليفانتين» ونظرا لتحكم جزيرة اليفانتين (يب) ومدينة أسوان فى مدخل مصر الجنوبى . أقيمت قلعه فى كل منهما ، وكان «خنوم» سيد الشلال معبود اليفانتين (أبو = يب) الرئيسى ، ومعه المعبودتان «عنفت» و «ساتت» وقد عثر فى خرائب المدينة على أطلال معابد كثيرة ، أهمها معبد خنوم ، ومعبد من الامرة الثامنة عشرة ، كما وجد خلفها مقابر حكام أسوان من عهد الدولة القديمة والوسطى (انظر :

H. Goedick, ZAS, 81, 1956, p. 81-124 E. G. Kraeling,

The Brooklyn Museum Aramic Papyri, New Haven, 1963, p. 21.)

ق ٥٠م) في كتابه عن «الجغرافية» ، وأما كتابه في التاريخ الذي جمع مادته من كتابه في الجغرافية ، فلم يصل إلينا للأسف الشديد (٣٧) .

٦ - بلوتارك الخيرونى :

يعد «بلوتارك الخيرونى» (٥٠ - ١٢٠ م) من أصدق المؤرخين المقدامى ، وأكثرهم أمانة في النقل ، وقد ولد «بلوتارك» عام ٥٠ (وربما عام ٤٦م) بمدينة «خيرونيا» في وسط بلاد اليونان ، ثم أرسله أبوه حوالى عام ٦٦م الى أثينا لدراسة الفلسفة وعلوم الطبيعة والخطابة ، غير أنه برع في علم الاخلاق ، ثم تنقل في بلاد كثيرة ، فزار روما واسبرطة وكورنث والاسكندرية وغيرها في عام ٩٥م عين كاهنا بمعبد «أبو اللون» بمدينة «دلفى» وبقي فيها حتى توفي عام ١٢٠م (وربما عام ١٢٧م) .

وقد ألف بلوتارك (بلوتارخوس) كثيرا من الرسائل زاد عددها على الستين ، سميت بالاخلاقيات ، تناول فيها موضوعات شتى في الاخلاق والدين والسياسة والفلسفة ، كما ألف في الطبيعة والفلك والتاريخ الطبيعى والآثار والتراجم (٣٨) .

هذا وقد اهتم بلوتارك في كتاباته بالعقائد المصرية ، واهتم بصفة خاصة بقصة «أوزير وايزة» والتي كان قد رواها من قبل تيودور، فكتب كتابه "Die iside et Osiride" الذى يروى فيه - بعد المقدمة - بلغة بسيطة ، قصة «أوزير» الذى اغتاله أخوه الشرير «تيفون» (ست) ثم انتقم له ولده «حور» الذى كانت أمه «ايزه» قد نشأته في عزلة خفية،

26. K. Baedeker, Egypt and Sudan, Leipzig, 1939, p. 345.

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 6-7.

B. Porter and R. L. B. Moss, Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts Reliefs and Paintings, II Oxford 1927, p. 160.

(٢٧) بلوتارخوس : ايزيس وأوزيريس - ترجمة حسن صبحى البكرى ومراجعة محمد صقر خفاجة - القاهرة ١٩٥٨ ص ٣ - ٥ .

ويتفق قصة بلوتارك هذه مع القصة التي يمكن بناء هيكلها من النصوص المصرية ، وإن حملها بالكثير من التفاصيل التي استقى بعضها على الأقل من بعض مصادر مصرية لم تصل إلينا (٢٨) .

وعلى أى حال ، فقد كانت له ومضات طريفة في تفسير الديانة المصرية القديمة وشطحات أخرى غنية ، فمن الأولى ما رآه من أن القصة الازيرية لا ينبغي أن تؤخذ بحرفيتها ، وأن لها كثيرا من الألوان كألوان «قوس قزح» (٢٩) المتعددة ، وأن يكن في تصويره لهذه الألوان قد أصاب الحقيقة مرة ، وأخطأها مرات ، كما أننا آخر الأمر لانستطيع أن نجزم بأن التفسيرات التي قدمها بلوتارك ليست من أصل مصري (٣٠) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه — فضلا عما ذكرنا من المؤرخين — إنما يوجد عدد كبير من الكتاب الذين اعتمدنا على كتاباتهم في دراسة التاريخ المصري القديم ، فهناك «أفلاطون» (٤٢٩ - ٣٤٧ ق.م) الذي نلتقى في كتاباته من وقت لآخر ببعض الاشارات التي لا تخلو من أهمية فهو يعرف مثلا اسم «نيت» آلهة «سايس» (ساو = صا الحجر — مركز بسيون ، بمحافظة الغربية) ، كما يحدد تحديدا صحيحا اختصاصات «تحت» آله الاداب والعلوم والفلك ، وكذا لعبة «الداما» (٣١) .

(٢٨) بلوتارخوس : المرجع السابق ص ٢٩ - ٣٩ ،

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 8-9.

(٢٩) ينشأ قوس قزح في السماء ، أو على مقربة من مسقط الماء من الشلال ونحوه ، وتكون في ناحية الافق المقابل للشمس ، وترى فيه ألوان الطيف متتابعة ، وسببها انعكاس أشعة الشمس من رذاذ الماء ، وقد أخطأت التوراة (تكوين ٩ : ١٣ - ١٥) عندما رأت أن الله سبحانه وتعالى أنشأها لتكون تذكرة له بالآية بعد أن أغرق الأرض أبدا ، بعد طوفان نوح المشهور ، وقزح من أسماء الشيطان ، ولهذا نهى رسول الله ، ﷺ ، عن هذه التسمية ، مؤثرا تسميتها «قوس الله» .

(٣٠) عبد العزيز صالحي : المرجع السابق ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ،

بلوتارخوس : المرجع السابق ص ٣٩ - ٤١ .

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 9.

31. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 4.

وهناك كذلك «بليني الأكبر» (٢٣ - ٧٩ م) صاحب موسوعة *Historia Naturalis* (٢٢)، وهي تجميع ضخم لقدامى المؤلفين، نالت مصر فيها نصيبها الوافي، وعلى أى حال، فالرجل يعد حجة في جغرافية مصر.

وهناك «كلوديوس بتولمايوس»، وهو من مدينة «بطلمية» (٢٣)، وقد قام بأبحاثه خلال النصف الأول من القرن الثاني الميلادي (١٣١ - ١٥٠ م)، وقد أخرج كتابه في الجغرافية، حوالي عام ١٥٠ م. والحق أن بطولمايوس، وهو من مدينة «بطلمية» (٢٢)، غير أن الأجزاء التي تناولت مصر والنواحي المتاخمة لها في هذا الكتاب قصيرة، وتحتوي أساساً قائمة في المقاطعات فقط، ومع كل مقاطعة دائرتها الإقليمية، وأخيراً هناك «كليمنت الإسكندري» (١٥٠ - ٢١٥ م) والذي كتب في الديانة المصرية وطقوسها ومواكبها، وفي الرموز المهرغولية ومفهوماتها (٢٤).

32. Pliny, *Natural History*, Translated by H. Rackham.
London, 1967-1952.

(٢٣) بطلمية: ثاني مدينة اغريقية أقيمت في مصر بعد الفتح المقدوني (نقراطيس - الاسكندرية - بطليموس)، على أطلال مدينة مصرية تدعى «سوى» أو «بسا»، وقد أطلق عليها في عهد البطالمة «ببسي بطليموس» أي «ببسي» التي أنشأها بطليموس، وأصبحت في عهد «كلوديوس بتولمايوس» عاصمة مقاطعة ثني، وكانت تتمتع بكافة مظاهر نظم المدن الاغريقية، وتقع أطلالها الآن تحت مدينة المنشأة، على مبعده بضعة كيلو مترات جنوبى مدينة سوهاج.

(Ptol. II, 5, 66)

34. Ptolemy, *Geographia*, Edited by C. F. Nobble, 3 Vols. 1843-1845.
(٢٤) عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٢٤٤.
A. H. Gardiner, *Op. Cit.*, p. 82.

ثالثا : المصادر الاجنبية المعاصرة

وأما ثالث المصادر الرئيسية لتاريخ مصر القديم ، فهو المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم ، ذلك أن مصر انما كانت على علاقة ببلدان هذه المنطقة في فترات من تاريخها ، وخاصة في عصر الدولة الحديثة ، فتبادل حكامها مع الفراعين رسائل كثيرة ، اختلفت في عصور السلام عنها في عصور الحرب ، ففي الاولى نجد الود والاحترام المبالغ فيه ، ان لم يكن الخضوع والتذلل ، وفي الثانية نجد ادعاءات مبالغ فيها كذلك ، فواجب الباحث ازاء هذه الكتابات مقارنتها بما يعاصرها في مصر ، فهي - شأنها في ذلك شأن أمثالها في مصر - تبالس في النصر القاطع فتحيله الى نصر عظيم ، كما أنا تخفى الهزائم أحيانا ، أن لم تحيلها الى نصر مبین ، ومن المقارنة بينها جميعا يستطيع الباحث أن يتبين - ولو بقدر - الحقائق التاريخية •

هذا الى أنها انما تعين الباحث كذلك على تعيين عهود الفراعين بالنسبة الى من عاصرهم من ملوك الشرق وأمرائه ، كما أن هذه الرسائل المتبادلة انما تعطي فكرة عن العلاقات الدولية والحالة الحضارية لهذه المنطقة العامة من العالم ابان كتابها^(١) •

ولعل من أوضح الامثلة على ذلك ما عرف باسم «رسائل العمارة»

(١) انظر : محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢ - ٣ •

التي عثر عليها عام ١٨٨٧م في أطلال مدينة العمارنة، في المبنى الذي كانت تحفظ فيه المراسلات الملكية ، وهي مكتوبة بالخط المسماري على لوحات من الطين المجفف ، وليس من شك في أهمية هذه الرسائل والمراسلات الملكية ، ذلك لأنها إنما تعتبر من أهم المصادر الأساسية المعاصرة في دراستنا لحالة الامبراطورية المصرية في أخريات أيام «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥-١٣٦٧ ق.م) وطوال عهد ولده اخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ ق.م)، فضلا عن علاقات مصر بدول الشرق الأدنى القديم (٢) .

(٢) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن «رمائل العمارنة» (انظر: محمد بيومي مهران : اخناتون - القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٣٣ - ٢٤٥) .

رابعاً : المصادر اليهودية

١ - التوراة :

التوراة كلمة عجمية تعني الهداية والارشاد ، ويقصد بها الأسفار الخمسة الأولى (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية) والتي تنسب الى موسى عليه السلام ، وهي جزء من «العهد القديم» ، والذي يطلق عليه تجاوزاً اسم «التوراة» (Torah) من باب اطلاق الجزء على الكل ، أو لاهمية التوراة ونسبتها الى موسى عليه السلام ^(١) .

والتوراة أو العهد القديم ، تميزا له عن العهد الجديد ^(٢) (كتاب النصرى المقدس) هو كتاب اليهود الذي يضم ، الى جانب تاريخهم ، عقائدهم وشرائعهم ، ويقسمه أحبار يهود فلسطين ، وليس يهود الاسكندرية ، الى ثلاثة أقسام : الناموس والانبياء والكتابات ^(٣) .

هذا ويتفق اليهود والنصارى على قدسية العهد القديم ، وأن اختلفوا في أسفاره ، عددا وشرعية ، فاليهود يتفقون جميعا على أسفار موسى الخمسة ، ولكنهم يختلفون على بقية أسفار العهد القديم ، ذلك لان السامريين منهم لا يعترفون الا بأسفار موسى الخمسة ^(٤) ، وربما

(١) قدم الدكتور محمد بيومي مهران دراسة مفصلة عن التوراة ، حيث خصص لها الجزء الثالث من سلسلة كتابه «اسرائيل» (انظر : محمد بيومي مهران : اسرائيل - الجزء الثالث - الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١ - ٣٧٩) .

(٢) انجيل متى ٢٦/٢٨ ، رسالة كورنثوس الثانية ٦/٣ ، ١٤ .

3. Epstein, (I.) Judaism, A Historical Presentation, (Penguin) Books 1970, p. 23.

Unger, (M.F.) Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 1109.

(٤) صحيفة سعيه : المدخل الى الكتاب المقدس - القاهرة - ص ٣٥ -

يضيفون إليها أحياناً سفر يشوع ، ومن ثم فإن كتابهم المقدس إنما يتكون من ستة أسفار فقط^(٥) ، وأما بقية يهود فيؤمنون بكل أسفار العهد العبري ، وعددها ٣٩ سفر^(٦) .

ولم يكن الأمر عند النصارى بأفضل منه عند اليهود ، ذلك لأن هناك على الأقل طبعتين للعهد القديم الواحدة تستعملها الكنائس البروتستانتية ، والإرثوذكسية الشرقية ، بأسفار عدة اعتبرها البرتستانتي ، الذين احتفظوا فقط بأسفار العهد القديم العبري أسفاراً زائفة (أبو كريفا = Apocrypha) ، هذا إلى جانب الاختلاف في عدد أصحاحات تورا البروتستانت عن تلك التي في تورا الكاثوليك^(٧) .

هذا فضلاً عن أن هناك خلافاً طفيفاً في بعض التسميات إلى جانب هذا الخلاف في الترتيب الذي وضعت به الأسفار في العهد القديم العبري ، عن الترتيب الذي وضعت به نفس الأسفار في العهد القديم المسيحي ، ذلك لأن اليهود في فلسطين إنما قد راعوا التسلسل التاريخي للأسفار ، وهو نفس الترتيب الذي نجده في الطبقات العربية للعهد القديم ، ومن هنا نشأ الخلاف في أسفار العهد القديم بين اليهود والنصارى^(٨) .

٣٦ ، محمد بدر ، الكنز في قواعد اللغة العبرية . القاهرة ١٩٢٦ م ص ٢٨ - ٢٩ ، قاموس الكتاب المقدس - الجزء الأول - بيروت ١٩٦٤ ص ٤٥٦ - Unger, (M. F.), Op. Cit., p. 1050.

(٥) حسن ظاظا : للفكر الديني الإسرائيلي - القاهرة ١٩٧٤ ص

٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٦) هناك من أخبار اليهود من يرى أنها ٢٤ سفر ، بضم بعض الأسفار إلى بعض ، بينما يرى آخرون أنها يجب أن تتفق وعدد الحروف الأبجدية العبرية ، وهي ٢٢ حرفاً (فؤاد حسنين : التوراة الهيروغليفية - القاهرة ١٩٦٨ ص ١٣ - ١٤) ، وكذا (Josephus, Contra Apion, I, 8)

(٧) انظر : الطبعة البروتستانتية (القاهرة ١٩٧٠) ، والطبعة الكاثوليكية (بيروت ١٩٥١) مع ملاحظة أن الطبعة الكاثوليكية تزيد عن الطبعة البروتستانتية بسبعة أسفار ، فضلاً عن ١٥ أصحاحاً تم أنظر الجدول المرفق للطبعتين (محمد بيومي مهران : لمرثيل ٨/٢ - ١٠) .

(٨) حبيب سعيد : المرجع السابق ٣٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ١٤ - ١٥ ، محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص

٦ - ٧ ، ١٩ ، ٢٠ .

وأما المسلمون فلهم رأى يختلف كثيرا عن اليهود والنصارى ، ذلك لان الاسلام الحنيف انما يؤمن بموسى عليه السلام ، رسولا نبيا ، ثم يقرر بمعد ذلك أنه قد جاءته صحف (٩) ، وأنزلت عليه التوراة (١٠) . ومن اليدعى أن التوراة شيء ، والمهد للقيديم شيء آخر ، فالتوراة لاتعدو أن تكون جزءا من العهد القديم ، بل هي أسفار خمسة من جملة أسفار العهد القديم البالغ عددها ٣٩ سفرًا ، على الأقل كما رأينا آنفا .

ومن ثم فان حديث القرآن الكريم عن توراة موسى لا ينطبق أبدا على كتاب اليهود المتداول اليوم ، والمعروف بالعهد القديم ، وبالتالي فمن من يعتقدون أن القرآن الكريم يؤمن بالعهد القديم انما يخطئون الخطأ كل الخطأ ، هذا فضلا عن أن التوراة التي يؤمن بها القرآن الكريم ، انما هي التي أنزلها الله تعالى هدى وتورا ، فهي تقرر وحدانية الله تعالى ، وتزنيه عن كل مظاهر النقص ، وترتكز على الاعتراف باليوم الآخر ، والايان بما فيه من ثواب وعقاب ، وجنة ونار ، والتي تضمنت عظات وأفكار ، وشريعة لبنى اسرائيل يحكم بها أنبياءهم ، فضلا عن الاعتراف لهؤلاء الانبياء بالعصمة والاسوة الحسنة .

غير أن هذه التوراة الاصلية الاصلية بينودها ونصوصها وتعاليمها السماوية وموادها الكاملة ، لا وجود لها الان بهذه الصورة الالهية ، التي كانت عليها وقت موسى عليه السلام ، فلقد امتدت اليها يد أثيمة من يهود فحرفت وبذلت ، ثم كتبت سواها بما يتلائم من اليهوديوتوام مع مخططاتهم ، ثم زعموا ، بعد كل هذا ، أنها التوراة التي أنزلها الله

(٩) انظر : سورة النجم : آية ٣٦ ، سورة الاعلى : آية ١٩ .

(١٠) جاءت كلمة التوراة في القرآن الكريم ١٨ مرة (انظر : سورة آل عمران : آية ٣ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٥ ، ٩٣ ، ٩٣ ، سورة المائدة : آية ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٩١ ، سورة الاعراف : آية ١٥٧ ، سورة التوبة : آية ١١١ سورة الصف : آية ٦ ، سورة الجمعة : آية ٥) .

تعالى على موسى «كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذبا» (١١) .

هذا وقد روى أن سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، رأى يوما ورقة من التوراة في يد الفساروق عمر بن الخطاب ، فأمره بالقاءها ، لما بها من أباطيل ، وما فيها من تحريف ، فلقد أخرج الامام أحمد بن حنبل وابن أبي شيبة والبخاري من حديث جابر بن عبد الله ، أن عمر بن الخطاب أتى النبي ، ﷺ ، بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه عليه فغضب فقال : أمتهوكون (١٢) فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسى بيده ، لو أن موسى عليه السلام كان حيا ما وسعه الا أن يتبعنى (١٣) .

(١١) انظر : سورة الكهف : آية ٥ وانظر : تفسير البيضاوى ٤/٢ (القاهرة ١٩٦٨) ، تفسير الفخر الرازى ٧٧١/٢١ - ٧٨ (القاهرة ١٩٣٨) تفسير الطبرى ١٩٣/١٥ - ١٩٤ (ط الحلبي) ، تفسير الطبرى ١١٥/١٥ - ١١٨ (بيروت ١٩٦١) تفسير القرطبي ص ٣٩٧٠ (ط دار الشعب - القاهرة ١٩٧٠) ، تفسير روح المعانى ٢٠٤/١٥ (بيروت ١٩٧٨) ، عبد الله محمود شحاته : في نور القرآن ص ١٢٧ - ١٢٩ (القاهرة ١٩٧٣) .
وانظر : عن الايات القرآنية التى تعرضت لتحريف اليهود لتوراة موسى عليه السلام (سورة البقرة : آية ٧٩ ، ١٥٩ ، سورة آل عمران : آية ٧٨ ، سورة النساء : آية ٤٦ ، سورة المائدة : آية ١٣ ، ١٥ ، سورة الانعام : آية ٩١) ، وانظر : تفسير الطبرى ٢٦٧/٢ - ٢٧٤ ، ٥٣٧ - ٥٣٨/٨ ، ٤٣٩ - ٤٣٠/١٠ ، ١٢٥ - ١٣٥ ، ١٤٠ - ١٤٤ (دار المعسارف ١٩٦٠/٥٧) ، تفسير الكشاف ١٥٧/١ - ١٥٨ ، ٥١٦ - ٥١٨ ، ٦٢٦ - ٦٢٧ (القاهرة ١٩٦٦) ، تفسير النسفى ٦٥/١ ، ٣٢٠ - ٣٢١ ، ٣٩٧ - ٣٩٨ (بيروت ١٩٨٠) ، تفسير الطبرى ٣٢٥/١ - ٣٢٨ ، ٤٦/٢ - ٤٨ ، ٥١/٦ - ٥٧ ، تفسير روح المعانى ٣٠١/٤ - ٣٠٣ ، ٢٦/٢ - ٢٧ ، ٤٥/٣ - ٤٨ ، ٨٨/٤ ، ٨٩ ، ٩٩ ، تفسير الفخر الرازى ١٣٨/٣ - ١٤٠ ، ١١٧/١٠ - ١١٩ ، ٧٧/٢١ - ٧٨ ، تفسير المنار ٢٩٨/٢ - ٢٩٩ ، ٢٨٢ - ٢٨٤ ، ١١٠/٥ - ١١٦ ، ٢٣٣/٦ - ٢٣٥ ، ٥٠٨/٧ - ٥١٠ (القاهرة ١٩٧٣) ، تفسير ابن كثير ١٦٧/١ - ١٦٩ ، ٥٣/٢ - ٥٤ ، ٦٠ - ٦١ ، ٢٩٣/٣ - ٢٩٤ ، في ظلال القرآن ٨٥/١ - ٩٧/٥ ، ١٠٨/٦ - ١١٠ ، ١١٣ - ١١٤ ، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٩٠/١ - ٩٢ ، ١٣٦ - ١٣٧ ، ٥٠/٣ - ٥١ ، ١٥٣ ، ٥٨/٤ (القاهرة ١٩٧٣) .

(١٢) المتهوك : المتحير الشاك .

(١٣) فتح البارى ٤٠٤/١٣ (ط الخيرية) ، مسند الامام احمد

وهكذا يقرر الاسلام بمصدقية — الكتاب والسنة — أن التوراة وليس المهد القديم كله مكتاب أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم موسى عليه السلام، غير أن اليهود، من بعد موسى، قد حرفوه وبذلوه، ثم كتبوا سواه بأيديهم، ثم زعموا بعد ذلك كله، كذبا على الله وعلى الناس، أنه من عند الله «كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذبا» (١٢).

وسؤال البداية الآن : إذا كانت هناك توراة أنزلت على موسى حقا، وهذا ما تؤمن به، وإذا كانت هذه التوراة المتداولة اليوم، ليست هي توراة موسى فهذا ما لا شك فيه، فما حكم الرواية عن هذه التوراة؟ والجواب عند العلماء : أن هناك كثيرا من الأدلة التي تشير إلى منع النقل عن هذه التوراة، منها ما جاء في القرآن الكريم من الآيات الدالة على تصريف التوراة، مما أفقد الثقة فيها فوغيما يمدحون به منها، وقد سبق لنا أن عرضنا لهذه الآيات القرآنية آنفا .

ومنها ما رواه الامام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة أنه قال : «كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويشيرونها بالعربية لأهل الاسلام، فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم فقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم .. الآية» (١٥).

ومنها ما رواه أيضا الامام البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس حيث قال : يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الاخبار بالله تقرأونه لم يشب، وقد عدتكم

٥٨٧/٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ١/ ٢٩٨ (بيروت ١٩٦٦)،
على عبد الواحد وافي : الاسفار المقدسة في الايمان السابقة للإسلام -
القاهرة ١٩٦٤ ص ١٧ - ١٨ .

(١٤) سورة الكهف : آية ٥ .

(١٥) صحيح البخاري ١٣٦٤٩ (ط. دار الجيل بيروت - عن طريق الحديث بالقاهرة - تقديم أحمد محمد شاكر ١٩٨٦) : «والآية في سورة البقرة : آية ١٣٦ ، وانظر أيضا : سورة البقرة : آية ١٥٩ ، سورة آل عمران : آية ٧٨ ، سورة المائدة : آية ١٥ ، سورة الانعام : آية ٩١ .

الله أن أهل الكتاب بدلوا ملكتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم» (١٦) .

غير أن هناك أدلة تجيز النقل عن التوراة ، منها قول الله تعالى : مخاطباً نبيه ، ﷺ ، «قل غاثوا بالتوراة فقلوها لن كنتم صادقين» (١٧) وهذا صريح في جواز الرجوع إلى التوراة والاحتكام إليها (١٨) .

ومنها ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن عبد الله بن عمرو ، أن النبي ﷺ قال : بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» (١٩) .

ومنها ما ثبت أن النبي ﷺ استمع لبعض اليهود وهم يقولون التوراة ، ومن ذلك ما رواه الامام أحمد بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال : «ان الله عز وجل ابتعث نبيه لادخال رجل الجنة ، فدخل الكنيسة ، فاذا يهودى يقرأ عليهم التوراة ، فلما أتوا على صفة النبي ﷺ ، أمسكوا ، وفي ناحيتها رجل مريض ، فقال النبي ﷺ : ما لكم أمسكتم؟ فقال المريض : انهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا ، ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة فقرأ ، حتى أتى على صفة النبي ﷺ ، وأمته ، فقال : هذه صفتك وصفة أمك ، أشهد أن لا إله الا الله وأنت رسول الله» (٢٠) .

(١٦) صحيح البخارى ٢٣٧/٣ (باب لايسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها)

(١٧) سورة آل عمران : آية ٢١ .

(١٨) محمد حسين الذهبي : الامرائيليات في التفسير والحديث - القاهرة ١٩٨٦ ص ٤٥ .

(١٩) صحيح البخارى ٢٠٧/٤ (باب ماذكر عن بنى إسرائيل)

(٢٠) مسند الامام أحمد ٤١٦/١ .

ويقول الدكتور الذهبي : فقول الرسول ﷺ ، لهم : ما لكم أستمعتم ، ثم استماعه للرجل المريض وهو يقرأ التوراة في رضا وعدم انكار عليه ، دليل على اباحة الاخذ عن كتب أهل الكتاب (٣) .

هذا وقد حاول بعض العلماء التوفيق بين للاتجاهين ، فذهب الامام ابن حجر العسقلاني الى أن الفهم كان قبل استقرار الاحكام الاسلامية والقواعد الدينية ، خشية الفتنة ، فلما زال المحذور وقع الاذن في ذلك ، لما في سماع الاخبلة التي كانت في زمانهم من الاعتبار (٣) ، فضلا عن الاحتياج الى الرد على المخالف ، بدليل نقل الائمة قديما وحديثا من التوراة والزام اليهود بالتصديق لسيدنا محمد ، ﷺ ، بما يستخرجونه من كتبهم (٣) .

وبدهى أن جواز الرجوع الى كتب أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ، انما يصح فيما لم تصل اليه يد التحريف والتبديل من الحقائق التي تصدق القرآن وتلزم المماندين منهم ومن غيرهم الحجة ، ومن ثم فلا يجوز لمسلم أن يقبل ما يحدثون به على اطلاقه ، ولا أن يرده على اطلاقه ، بل يقبل منه ما جاء موافقا لما في القرآن أو السنة ، لان هذه الموافقة دليل على أنه مسلم من التحريف والتبديل ، ويرد منه ما جاء مخالفا لما في القرآن والسنة ، أو كان لا يتفق مع العقل ، لان هذه المخالفة دليل على أنه مما تطرق اليه التحريف والتبديل .

وخلاصة القول في حكم روايات الاسرائيليات ، فيما يرى الدكتور الذهبي ، أن ما جاء موافقا لشرعنا صدقناه ، وجازت روايته ، وما جاء مخالفا لما في شرعنا كذبناه وحرمت روايته ، الا لبيان بطلانه ، وما سكت عنه شرعنا توقفنا فيه ، فلا نحكم عليه بصدق ولا كذب ، وتجاوز روايته ،

(٢١) محمد حسين الذهبي : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح البخاري ٣٨٨/٦ (القاهرة ١٣٨٠ هـ) .

(٢٣) فتح الباري ٣٠٩/١٧ .

لأن غلب ما يروى من ذلك راجع إلى القصص والأخبار، لا إلى العقائد والأحكام ، وروايته ليست إلا مجرد حكاية له ، كما هو في كتبهم أو كما يحدثون به ، بصرف النظر عن كونه حقا أو غير حق (٢٤) .

ويقول العلامة ابن خلدون في تاريخه : والقوم أعلم بأخبارهم ، إذا لم يعارضها ما يقدم عليها ، وكما قال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب » فقد قال ، ﷺ « ولا تكذبوهم » ، مع أن ذلك راجع إلى أخبار اليهود ، وقصص الأنبياء التي كان التنزيل فيها من عند الله تعالى ، لقوله ﷺ ، بعد ذلك « وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم » ، وأما الخبر عن الواقعات المستندة إلى الحس فخير الواحد كاف فيه ، إذا غلب على الظن صحته ، فينبغي أن نلحق هذه الأخبار بما تقدم من أخبارهم ، لتكمل لنا أحوالهم من أول أمرهم إلى آخره ، والله أعلم (٢٥) .

وعلى أية حال ، فلقد تحدثت التوراة ، أو العهد القديم ، في كثير من أسفاره عن علاقة مصر ببنى إسرائيل منذ تشريف أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام أرض الكنانة بالزيارة (في حوالي عصر الاسرة الثانية عشرة على الأرجح) (٢٦) ، وحتى نهاية دويلتهم التي أقاموها في أرض كنعان في عام ٥٨٦ ق.م ، وحدث السبي البابلي المشهور (٥٨٦ - ٥٣٩ ق.م) ثم قيام الجالية اليهودية في مصر ، وعلى أيام الحكم الفارسي ، كما في أسفار التكوين والخروج والعدد والتثنية والقضاة والملوك الأول والثاني

(٢٤) محمد حسين الذهبي : المرجع السابق ص ٤٩ - ٥٣ ، وانظر : آراء أخرى في : ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص ١٧ - ٢٠ ، ٤٥ - ٤٦ ، تفسير ابن كثير ٤/١ ، البداية والنهاية ٦/١ - ٨ ، تفسير القاسمي ٤٤/١ - ٤٥ ، تفسير البقاعي ص ٨٩ - ٩٠ ، عمدة التفسير ١٥/١ ، تعليق أحمد محمد شاكر .

(٢٥) عبد الرحمن بن خلدون : تاريخ ابن خلدون ١٣٤/٢ - ١٣٥ (بيروت ١٩٨١) ، وانظر : البداية والنهاية ١٣٢/٢ - ١٣٤ .

(٢٦) انظر : عن رحلة الخليل إلى أرض الكنانة (محمد بيومي مهران : إسرائيل ٨٢/١ ، ٩٩ - ١٠٤) ، مصر - الجزء الثاني من ٤١٥ - ٤٣٦ (الاسكندرية ١٩٨٨) .

ونحنميا والزمير واشعيا وأرمياء وحزقيال وهشوشع وفاهوم والمكابيين
الاول والثاني وغيرها (٣٧) .

وقد تحدثت التوراة في هذه الاسفار عن المصريين وعلاقاتهم ببني
اسرائيل ، فضلا عن الحديث عن أنبياء بني اسرائيل ذوي الصلة بمصر ،
كما يبدو واضحا في قصص ابراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون ،
عليهم السلام ، فضلا عن الملائكة المصرية اليهودية على أيام داود
وسليمان عليهما السلام كما جاء ذلك في أسفار التكوين والخروج والملوك
الاول والثاني ، وأخبار الأيام الاول والثاني .

هذا الى جانب ما جاء في التوراة عن بعض الملوك المصريين من أمثال
سيسنق الاول (٣٨) وطهرقا (٣٩) ونخاو الثاني (٤٠) وابريس (٤١) ، ثم ذلك
الذي دعت به «سوا» (٤٢) وقبل هؤلاء وأولئك الملوك الذين عاشوا
ابراهيم الخليل ويوسف الصديق وموسى الكليم (٤٣) بصلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين ، فضلا عما جاء في التوراة عن امرأة فرعون التي
ربت موسى (٤٤) ، وابنة فرعون التي تزوجت من سليمان (٤٥) ، وفي
أثناء ذلك كله انما تحدثت التوراة كثيرا عن مصر ، وبسطت طرفا من

(٢٧) قدم الدكتور محمد بيومي مهران دراسة مفصلة عن هذه
الاسفار (انظر : محمد بيومي مهران : اسرائيل ١٨/٣ - ١٩٦٠) .

(٢٨) ملوك اول ٢٥/١٤ - ٢٧ ، أخبار أيام ثان ٢٢/٢٢ - ٩ .

(٢٩) ملوك ثان ١٩/٩ ، اشعيا ٣٧/٩ ، وانظر : (محمد بيومي

مهران : اسرائيل ٢/٩٧٢ - ٩٧٧ - الاسكندرية ١٩٧٨) .

(٣٠) ملوك ثان ٢٣/٢٩ ، أخبار أيام ثان ٣٥/٢١ - ٢٥ ، ارمياء

٢/٤٦ .

(٣١) ملوك ثان ٢٤/٣٠ ، ارمياء ٤٤/٣٠ .

(٣٢) ملوك ثان ١٧/٤ ، وانظر عن الآراء التي دارت حول «سوا»

هذا (محمد بيومي مهران : اسرائيل ٢/٩٤٠ - ٩٤٦) .

(٣٣) انظر عن ابراهيم (تكوين ١٢/١٠ - ٢٠ ، ١٣/١٢ - ٣) وعن

يوسف (تكوين ١/٣٩ - ٢٦/٥٠) وعن موسى (خروج ١/٢ - ٢١/١٥) .

(٣٤) خروج ٢٢/٥٠ - ٢٢/٢٠ .

(٣٥) ملوك اول ٣/٢٤/٩ .

مناحي الحياة المصيرية ، وبخاصة الفواهي السياسية والاقتصادية والعمرانية وغيرها .

هذا ومن المعروف أن اليهود قد سجلوا في كتابهم المقدس «التوراة» (أو العهد القديم) تاريخهم منذ برأ الله الخليقة ، وذرا البشر ، وحتى القرن الثاني قبل مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، بل أن التوراة إنما سجلت الى حد ما كثيرا من الاحداث التاريخية التي وقعت في منطقة الشرق الاكفى القديم ، في الفترة فيما بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وخاصة تلك التي تتصل بتاريخ اليهود .

وزعم أن التوراة إنما تمثل مصدرا تاريخيا لا غبار عليه في بعض الاحايين ، غير أنها كانت وما تزال — الى أن يمن الله علينا بمزيد من كسوف حفريه عن أحقاب مافتتنا نجهل الوجه الذى كانت عليه — ركامات من متناقضات ، أو ربما عقدا منظوما من حلقات متباينات — صحيح أنه قد توصل عديد من باحثين الى التحقق من عدة وقائع ، ولكنه صحيح أيضا أن الوقائع في حد ذاتها ليست هي التاريخ ، إلا أن تتداخل وتترابط فتتطرد (٣٦) .

ان التوراة — ولو كره المفتتون بها — ليست من التاريخ بشيء ، وإن سلمنا أنها قد اشتملت على وقائع لها سند من تاريخ (٣٧) ، ولا يسعنا — كما فعل علماء القرن الماضي — أن نأخذ بتلك المعطية ، من أن الوثيقة التاريخية ، إنما تتطوى أساسا على ما ظن صاحبها أنه قد حدث ، وربما ماود أن يكون قد حدث ، وأحيانا مايريد لغيره ، أن يظنوا

36. Mendenhall, (G.), Bible History in the Transition in the Bible and Ancient Near East, N. Y., p. 37.

37. Bright, (J.), Modern Study of the Old Testament Literature in the Bible and the Ancient Near East, N. Y., 1961, p. 14.

Mendenhall, Op. Cit., p. 34.

أن قد حدث ، فانا لو فعلنا لا وجدنا تفسيراً منطقياً لما اشتملت عليه التوراة من تناقضات (٣٨) .

وفي الواقع أن التوراة ليست بوثائق تاريخية ، وانما هي قد تشكلت من واقع تدوينات متعاقبة لاصول من مآثورات قديمة ، وأن المآثور — بوصفه أصلاً قصة محكية تناقلتها ذاكرة الناس جيلاً اثر جيل — ليخضع لقوانين غير تلك التي تهيم على الكلمة، اذ تكتب تسجيلاً لتاريخه .

صحيح أن التوراة قد استقرت آخر الامر في صورة من وثيقة مكتوبة ، فيما بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد ، ولكنها أصلاً مجموعة من قصص محكى ، لم يتهاى لحرف منها أن يدون فيسجل الا بعد احقاب طوال ، قد بلغ ثمانية قرون في بعض الأسفار ، وعشرة في أسفار أخرى .

ولو أخذنا مثلاً ، قصص الاباء الاولين ، ودققنا النظر فيها لوجدنا انها مجموعة من قصص ، لكل طابعها الخاص ، ومفزاها المنفرد ، تتجه الى وعظ وقد تنحو الى سخرية أو ترفيه ، لا تحفل بالتزام دقة ، ولا تسعى الى تحقيق ، بقدر ما يعينها التأثير على السامعين ، لا روابط بين بعضها البعض ، الا ما ابتدع من بعد ، خيوطا واهية من أنساب واضحة الافتعال ، ومن ثم فلا يعمل عليها علمياً ، تحديداً لمواقعها من حيث زمان ، أو تنسيقاً فيما بينها من حيث تتابع (٣٩) .

ومن ثم فلا عجب أن يكون الطابع العام الاول الذي يبقى في نفس قارئ التوراة ككتاب تاريخ ، أنها لا تكاد تريد عن كونها مجموعة من

(٣٨) حسين ذو الفقار صبرى : توراة اليهود — المجلة — العدد ١٥٧ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٢ — ١٣ .

Carr, (E. H.), What is History ? N. Y., 1962, p. 15-16.

(٣٩) حسين ذو الفقار صبرى : المرجع السابق ص ١٣ ،

Lods, (A.), Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eighth Century, London, 1962, p. 159.

وانظر : عن كتاب التوراة (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٨/٣ — ٩٦) .

الخرافات والقصص التي صيغت في جو أسطوري ، حافل بالاثارة ،
مجايف للمعقل والمنطق ، غاص بالمتناقضات ، مشبع بالسخف ، مفعم
بمشاعر العدوان والتعطش الى الدماء (٤٠) .

وعلى أى حال ، فما يهم في هذا الصدد أن تكون التوراة بعد ذلك
كتابا مقدسا ، أو لا تكون ، فذلك شأن من يريدون أن يروها في نصها
الراهن على هذا النحو أو ذاك ، ولكن الذي يهم ألا تكون كتاب تاريخ
يحاول فرض مضمونه على الحاضر والمستقبل ، كما يحاول فرضه
على الماضي .

واذا كان ما يعزى للتوراة من قيمة تاريخية لا يجد له سنداً ، إلا
فيما يزعم لها من قداسة ، فالذي لا شك فيه أن هناك ثمة علاقة بين قيمة
التوراة ككتاب تاريخ ، وقيمتها ككتاب مقدس ، ذلك أنه كلما تدعمت
قيمتها ككتاب مقدس ، تضاعفت الرغبة في صدق ما تضمنه من وقائع ،
وسهل وصول هذه الوقائع الى يقين الناس ، على أنها من حقائق التاريخ
التي لا ينبغي الشك فيها وقد أدركت اليهودية الصهيونية هذه الحقيقة ،
فأحسنت استغلالها اعلاميا في الغرب المسيحي ، لدعم ما زعمت أنه حقها
في انشاء دويلة اسرائيل .

ولكن أية قيمة موضوعية تبقى لتاريخ لا يجد سنداً له ، إلا فيما
يزعم لكتاب واحد من قدسية ؟ وهي بعد «قدسية» ، توجه اليها سهام
الريب من أكثر من جانب ، وليس بالوسع القول بأنها ترقى فوق مظان
الشبهات (٤١) .

وانطلاقاً من كل هذه ، فإننا سنتعامل مع التوراة — أو العهد
القديم — في دراستنا هذه وغيرها — كمصدر تاريخي ، دون أن نتقيد
كثيراً بتلك الهالة التي فرضتها التوراة على المؤمنين بها . ذلك لأن من

(٤٠) صيرى جرجس : للتراث اليهودي — القاهرة ١٩٧٠ ص ٥١ .

(٤١) نفس المرجع السابق ص ٥٨ — ٥٩ .

كتبوا التوراة كانوا بشرا مثلنا ، وهم كمؤرخين لا يختلفون كثيرا عن
نظائرهم من معاصريهم في الشرق (٢٢) .

هذا فضلا عن أنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل المناقشة ، بل لا يحتمل
أن نخطئه ، ومادامت التوراة كتب تاريخ ، كما هي كتاب دين ، فليس
هناك ما يمنع المؤرخ من أن يناقشها منقشة حرة ، دون تمييز ، يتقبل
ما يقوله يصدر رحيب ، إن كان يتفق مع الإحداث التاريخية ، ويوافق
المنطق والمقول ، ويرفضه حين يذهب بعيدا عن ذلك ، تحيزا لليهود ،
أو جهلا بحقائق التاريخ ، وما أكثر هذين النوعين من المواد التاريخية
في توراة يهود (٢٣) .

٢- كتابات المؤرخ اليهودي يوسف بن متى :

ولقد «يوسف بن متى» أو «يوسفوس فيلاطينوس» في اورشليم
القدس عام ٣٧م ، وتوفي في روما عام ٩٨م (أو عام ١٠٠م) ، وكان قد
أرسل إلى روما من قبل المحكمة العليا عند اليهود (السندريين) (٢٤)
للدفاع عن الاحبار الذين سجنوا بأمر المفوض الروماني ، وقد أدى
مهمته بنجاح ، ثم عاد إلى القدس ، واشترك في ثورة ضد الرومان
انتهت بأسره .

غير أن القائد الروماني «فببسيان» أنقذه من الأسر ، ثم سرعان
ما نال يوسف اليهودي تقدير القائد الروماني ، ثم صاحب ابنه «تيتوس»
عام ٧٠م إلى القدس ، ثم عاد معه إلى روما ، حيث حصل اسم

(٢٢) انظر : نجيب ميخائيل : مصر والشوق الأدنى القديم ، الجزء
الثالث - الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢٧٣ ،

Sayce, (A. H.), Early History of the Hebrew.

(٢٣) انظر : عن التوراة والحقائق التاريخية (محمد بيومي مهران
امرائيل - الجزء الثالث - الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٦٣ - ٢٩٦) .

(٢٤) انظره من «السندريين» (محمد بيومي مهران : امرائيل ..
الجزء الرابع - الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٨٥ - ١٨٧) .

«فيلافايوس» باعتباره عبداً حرره سيده «فسبانيان» ثم منح بعد ذلك حقوق المواطن الرومانى (٤٥) .

وهناك فى روما كتب يوسف اليهودى كتبه المعروفة ، والتى من أهمها «آثار اليهود» (The Jews Antiquities) و «الطوبى اليهودية» (The Jewish Wars) فى سبعة أجزاء بالارامية ، ترجمت فيما بعد الى اليونانية ، ثم كتب «تاريخ اليهود القديم» فى عشرين جزءا ، منذ بدء الخليقة ، وحتى عام ٦٦م (٤٦) .

هذا وقد تحدث يوسف اليهودى هذا كثيرا عن «مصر» ، وخاصة فى العلاقات بين مصر وبنى اسرائيل ، وقد تميزت كتاباته بتحيزه لقومه اليهود ، واعطائهم من البطولات ما لم يكن لهم أبدا ، وتفسير الاحداث التاريخية بما يتفق وهواه ، فضلا عن هوى قومه اليهود ، حتى ان كان ذلك على حساب الحقيقة التاريخية ، بل هو كذلك فى أغلب الاحيان ، هذا الى جانب اعتماده الى حد كبير على العهد القديم فى كتاباته .

وهكذا بدأ يوسف اليهودى يتحدث عن «مصر» ، عندما أراد الرد على كاتب اغريقى متمصر يدعى «اييون السكندري» فى كتابه «الرد على اييون» (Against Apion) ، والذي رمى اليهود بالرجس والتشرد ، ووضاعة الاصل ، وبكل شائنة ونقيصة ، وهنا زعم يوسف اليهودى أنه يروى الكلمات الاصلية لمانيقو عن الغزو الهكسوسى لمصر ، فى عهد ملك دغاه «توتيمايوس» (٤٧) (تيمايوس ، فيما يرى ولیم أولبرايت) (٤٨) .

(٤٥) باروخ سبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة - ترجمة حسن حنفى - القاهرة ١٩٧١ ص ١٦٧ ، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - الجزء الاول - ترجمة جورج حداد وعبدالكريم رافق - بيروت ١٩٥٨ ،

Harvey, The Oxford Companion to Classical Literature, p. 228.

(٤٦) انظر : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم - الاسكندرية

١٩٨٨ ص ٣١ - ٣٢ .

47. Waddell, (W. C.), Manetho, (With an English Translation), London 1940, p. 79 F.

48. Albright, (W. F.), BASOR, 99, No. 44.

ثم زعم بعد ذلك أنه وجد في مخطوطات «مانيتو» المؤرخ المصرى القديم، ما يربط بين قومه اليهود والهكسوس .

وهكذا ربط بين قصة التوراة عن دخول بنى اسرائيل مصر وخروجهم منها ، وبين قصة الهكسوس وطردهم من مصر ، بقيادة «أحمس الاول» حوالى عام ١٥٧٥ ق.م^(٤٩) .

وانطلاقا من هذه الدعوى الكذوب ، فان يوسف اليهودى لم يقبل تفسير «مانيتو» لكلمة «الهكسوس» ، من أنها تعنى «الملوك الرعاة» ، على أساس أن «هك» تعنى فى اللغة المقدسة «ملك» وأن «سوس» تعنى فى اللغة الدارجة «راعى» ، فيتابع يوسف هذا الاشتقاق باشتقاق آخر لاسم الهكسوس من مصدر آخر ، بمعنى «الاسرى الرعاة» لان كلمة «هك» تعنى «أسير» ، لان قصة التوراة عن دخول بنى اسرائيل مصر، ثم الخروج منها ، فى نظره ، لهما أصول فى احتلال الهكسوس لمصر، ثم طردهم منها^(٥٠) .

وأكبر الخن أن يكون ذلك أثرا من الخلط بين اللغتين المصرين «حقا» بمعنى (حاكم) ، و «حاق» بمعنى (غنيمة) ، ويوسف اليهودى لم يكن مؤلفا ، وإنما كان ناقلا ، نقل عن مانيتو ، وحرف مانقل لحاجة فى نفسه ، وهو بعد ذلك قد كان غريبا على مصر ، وعن لغة المصرين ، وكان اعتماده على الرواية (ان صدقنا أنه كان أمينا فيما يروى) ، أكثر من اعتماده على الاستقصاء والتحرى ، سمع تأويل المصرين لاسم الهكسوس ، فنقل عنهم ثم خرج ودون^(٥١) .

(٤٩) انظر : قصة دخول الهكسوس مصر وطردهم منها (محمد بيويمى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٦ ص ١١٩ - ٢٢٣) .

50... Gardiner, (A. H.) Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961, p. 154-156.
(٥١) أحمد بدوى : فى موكب الشمس - الجزء الثانى - القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

والواقع ، فيما يرى سير ألن جاردنر ، أنه على الرغم من وجود أسس لغوية للاشتقاق ، فإن يوسف قد جانبه الصواب وأن كلمة «هكسوس» مشتقة من غير شك من اصطلاح «حقا خست» بمعنى «رئيس أو حاكم البلد الاجنبية الجبلية» ، ويجمع على «حقاوا - خاسوت» أى «حكام البلاد الاجنبية الجبلية» ، والكلمة كانت تعنى منذ عهد الدولة الوسطى «مشايخ البدو»^(٥٢) .

ومن البدهى أن يوسف اليهودى انما كان يعنى بربط قومه اليهود بالهكسوس ، رفع شأنهم هوهم الذين كان الاغريق وقت ذلك يحتقرونهم ويحطون من شأنهم ، فضلا عن أن يبرهن للملا ، أن اليهود والهكسوس من عنصر واحد ، وأنهم قد خرجوا من مصر منذ حوالى ألف سنة قبل حرب طروادة ، التى كانت ، فى نظر الاغريق ، تاريخا سحيقا فى القدم .

ومن ثم ، فإن دعوى يوسف هذا فى الربط بين الهكسوس وأجداده العبرانيين ، لم تكن الا من نوع تلك الدعاية الكاذبة التى لايزال يحذقها أحفادهم الصهاينة المحدثون ، وأنه ليست هناك أية صلة بين اليهود والهكسوس ، من ناحية الجنس ، وان عاش بنو اسرائيل فى مصر حيناً من الدهر ، تحت ظلال الهكسوس^(٥٣) ، كما أن اقتباسات يوسف اليهودى من مانيتو ، ربما توحى بصوادر وقعت فى أوائل الاسرة التاسعة عشرة ، ثم اختلطت بذكر حوادث الهكسوس^(٥٤) .

52. Griffith, (F. L.), in PSBA, 19, 1897.

Gardiner, (A. H.), Op: Cit., p. 154.

• (٥٣) انظر محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣٦١/١ - ٣٧٦ .

54. Gardiner, (A. H.), The Geography of the Exodus, JEA, 10, 1924, p. 87-88.

خامساً : المصادر الاسلامية

١ - القرآن الكريم :

القرآن الكريم كتاب الله ^(١) الذى «لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» ^(٢) ، نزل على مولانا وسيدنا وجدنا محمد رسول الله ﷺ ، منجما في ثلاث وعشرين سنة ^(٣) (فيما بين عامي ١٣ ق م ، ١١ هـ = ٦١٠ - ٦٣٢ م) ، حسب الحوادث ومقتضى الحال ، وكانت الآيات والصور تدون ساعة نزولها اذ كان رسول الله ﷺ ، اذا ما نزلت آية أو آيات يقول : «ضعوها في مكان كذا ٠٠٠ من سورة كذا» ، فقد ورد أن جبريل ، عليه السلام ، كان ينزل بالآية أو الآيات على النبي ، فيقول : «يا محمد أن الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا من سورة كذا» ، ولهذا اتفق العلماء على أن جمع القرآن «توقيفى» بمعنى أن ترتيبيه بهذه الطريقة التى نراه عليها اليوم في المصاحف ، انما هو بأمر ووحى من الله ^(٤) .

وهكذا تمر الايام بالرسول الكريم ﷺ ، وهو على هذا العهد

(١) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن القرآن الكريم كمصدر تاريخي (انظر : محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الاول - الرياض ١٩٨٠ - الفصل الاول - القرآن الكريم ص ١٧ - ٨٨) .
(٢) سورة فصلت : آية ٤٢ .

(٣) قارن : صحيح البخارى ٩٦/٦ .

(٤) السيوطى : الاتقان في علوم القرآن - الجزء الاول ، القاهرة ١٢٧٨ هـ - ص ٤٨ ، ٦٣ ، الزركشى : البرهان في علوم القرآن ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٣٢٤ ، ٣٣٧ ، ٢٤١ ، السجستانى : كتاب المصاحف ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٣١ ، مقدمتان في علوم القرآن ، صححه ونشره آرثر جفرى ، القاهرة ١٩٥٤ ص ١٦ - ٣٢ ، ٤٠ - ٥٨ ، ٤١ ، محمد أبو زهرة : القرآن ٢٧ : ٤٧ - ٤٩ .

يأتيه الوحي نجما بعد نجم ، وكتاب الوحي^(٥) يسجلونه آية بعد آية ، حتى إذا ما كمل التنزيل ، وحين انتقل الرسول الأعظم الى الرفيق الأعلى (في يونية ٦٣٢م) كان القرآن كله مسجلا في صحف — وإن كانت مفرقة لم يكونوا قد جمعوها بين الدفتين ، ولم يلزموا القراءة توالى سورها — وفي صدور الحفاظ من الصحابة^(٦) ، رضوان الله عليهم ، هؤلاء الصفوة من أمة محمد النبي المختار ، والذين كانوا يتسابقون الى تلاوة القرآن ومدارسته ، ويبدلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه ، ويعلمونه أولادهم وزوجاتهم في البيوت .

ومن هنا كان حفظة القرآن الكريم في حياة الرسول — ﷺ — لا يحضون ، وتلك — ويم الله — غناية من الرحمن خاصة بهذا القرآن العظيم ، حين يسره للحفظ ، وصدق جل من قال «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر»^(٧) ، فكتب له الخلود ، وحماء من التحريف والتبديل ، وصانه من أن يتطرق الضياع الى شيء منه عن طريق حفظه في السطور وحفظه في الصدور^(٨) ، مصداقا لقوله تعالى «وانه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد»^(٩) ، وقوله

(٥) لعل أشهر كتاب الوحي — والذين يقال أن عددهم ٣٩ كتابا — هم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وأبى ابن كعب وزيد بن ثابت والمغيرة ابن شعبة والزبير بن العوام وشرحبيل وعبد الله بن رواحة (فتح الباري ١٨/٩) وكانوا يضعون ما يكتبون في بيت النبي ، ﷺ ، ثم يكتبون لانفسهم منه حבורا ، يحفظون منها (البرهان ٥٨/١ ، الاتقان ٥٨/١ ، محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم — الكويت ١٩٧٤ ص ٣٤ — ٣٥) .

(٦) الاتقان ٥٩/١ ، البرهان ٢٣٥/١ ، كتاب المصاحف ص ٥ ، مقدمتان في علوم القرآن ص ٣٢ .

(٧) سورة القمر : آية ٣٢ ، وانظر : تفسير القرطبي ص ٦٣١٠ — ٦٣١٣ ، تفسير ابن كثير ٤٥٤/٧ — ٤٥٥ ، صفوة التفاسير ٢٨٨/٣ ، في ظلال القرآن ٣٤٣٣/٦ ، تفسير النسفي ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٨) محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم — الكويت ١٩٧٠ ص ١٢ — ١٤ .

(٩) سورة فصلت : آية ٤١ — ٤٢ .

تعالى «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون»^(١٠) ، وقوله تعالى «ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه»^(١١) .

وليس هناك من ريب في ان القرآن الكريم كمصدر تاريخي ، انما هو أصدق المصادر وأصحها على الإطلاق فهو موثوق السند — كما بينا آنفا — ثم هو قبل ذلك وبعده كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن ثم فلا سبيل الى الشك في صحة نصه^(١٢) ، بحال من الاحوال ، لانه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل ، فلقد دون في البداية باملاء الرسول ﷺ ، وتلى فيما بعد أمامه ، وحمل تصديقه النهائي قبل وفاته^(١٣) ، ولان القصص القرآني انما هو أنباء وأحداث تاريخية ، لم تلبس بشيء من الخيال ، ولم يدخل عليها شيء من غير الواقع^(١٤) .

ثم ان الله — سبحانه وتعالى — قد تعهد ، كما أشرنا آنفا ، بحفظه دون تحريف أو تبديل ، ومن ثم فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها الى حفظ الناس^(١٥) ، فقال تعالى «والربيانون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله»^(١٦) ، أى بما طلب اليهم حفظه .

(١٠) سورة الحجر : آية ٩ ، وانظر تفسير الطبرى ٦/١٤ - ٨ ، تفسير روح المعاني ١٦/١٤ ، تفسير الكشاف ٥٧٠/٢ ، تفسير الفخر الرازى ١٥٨/١٩ - ١٥٩ ، تفسير الطبرى ١١/١٤ - ٢٤ ، تفسير النسفى ٢٤/٣ ، تفسير الدر المنثور للسيوطى ٩٤/٤ - ٩٥ ، تفسير ابن كثير ٣٤٤/٤ - ٣٣٥ .

(١١) سورة القيامة : آية ١٧ - ١٩ .

(١٢) طه حسين : الادب الجاهلى - القاهرة ١٩٣٣ ص ٦٨ .

(١٣) محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم ص ٤٩ .

(١٤) عبدالكريم الخطيب : القصص القرآني - القاهرة ١٩٦٤ ص ٥٢ .

(١٥) محمد عبد الله دراز : النبا العظيم ص ١٢ - ١٤ .

(١٦) سورة المائدة : آية ٤٤ ، وانظر تفسير الطبرى ١٠/٣٢٨ -

٣٥٨ ، تفسير القرطبي ص ٢١٨٥ - ٢١٨٨ ، تفسير ابن كثير ٢/١٠٥ -

١١٢ ، في ظلال القرآن ٢/٨٩٦ ، تفسير النسفى ١/٢٨٤ - ٢٨٥ ، تفسير

المنار ٦/٣٢٨ - ٣٣٠ ، صفوة التفاسير ١/٣٤٥ .

والسر في ذلك أن سائر الكتب السماوية انما جىء بها على التوقيت، لا التأييد ، وأن هذا القرآن جىء به مصداقا لما بين يديه من الكتب . ومهيمننا عليها ، وصدق الله العظيم حيث يقول «وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه» ومن هنا كان القرآن الكريم جامعا لما في هذه الكتب من الحقائق الثابتة ، زائدا عليها ما شاء الله زيادته ، وكان سادا مسدها ولم يكن شىء منها يسد مسده ، ففضى الله أن يبقى حجة الى يوم القيامة ، واذا قضى الله أمرا يسر له أسبابه، وهو الحكيم العليم^(١٧) .

ومع ذلك — ويا للعجب — فان ميدان الدراسة في التاريخ القديم قد حرم من هذا المنهل الغزير ، ربما لان هذا الميدان قد ظل الى عهد قريب يتصدر الطلبة فيه العلماء الاوربيون ، ومن هنا نخوهم من العلماء العرب ، وأن هؤلاء وأولئك لم يتطرقوا في دراساتهم الى الاحداث التاريخية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ، وربما لان هذه الدراسة بعيدة عن أهدافهم في البحث ، أو أن مجال البحث فيها قد لا يستهويهم لسبب أو لآخر ، وأيا ما كان السبب ، فان ميدان البحث في التاريخ القديم، انما قد خسر بذلك أصح مصادره وأصدقها على وجه الاطلاق . ومن عجب فان المؤرخين المحدثين — الاوربيين منهم والعرب — انما ينظرون الى التوراة وكأنها المصدر الاساسى لدراسة فترة معينة من تاريخ الشرق الادنى القديم ، رغم أنهم يجمعون — أو يكادون — على أنها غير موثوقة السند ، ورغم أن هناك الكثير من الابحاث التي كتبها المؤمنون بالتوراة ، فضلا عن غير المؤمنين بها ، وهى جميعا انما تثير جدلا حول وثاقة نصها بل حول نسبة هذا النص لهذا الشخص أو ذاك .

ورغم ذلك كله لم يفكر واحد من هؤلاء المؤرخين في أن يرجع الى القرآن الكريم ، ذلك الكتاب السماوى العظيم ، الذى تجمع آراء العلماء في العالم كله على وثاقته نصحاً أو كما يقول «سير وليم هوير» (١٨١٩) —

١٩٥٥) - وهو من أشد المتعصبين ضد الاسلام - «ان العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن الكريم ظل أربعة عشر قرناً كاملاً ، بنص هذا مبلغ صفائه وحقته» ، ثم يؤكد بعد ذلك أن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد ، حتى وصل إلينا بدون أى تحريف ، وأنه قد حفظ بعناية شديدة ، بحيث لم يطرأ عليه أى تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها ، والمتداولة في البلاد الاسلامية الواسعة ، فلم يوجد الا «قرآن» واحد ، لجميع الفرق الاسلامية في كل العصور وكل الأزمان ، وهذا الاستعمال الاجماعي لنفس النص المقبول من الجميع ، انما يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل من الله ، والموجود معنا الآن (١٨) .

ويؤكد العالم الفرنسي «لوبلوا» أن القرآن الكريم هو الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أى تغيير (١٩) ، كما يقرر العالم الالماني «تيودور نولدكه» (١٨٦١ - ١٩٣٠) أن النص القرآني انما بقى على أحسن صورة من الكمال والمطابقة (٢٠) .

هذا ويؤكد العلماء في كل أنحاء العالم أن المصحف الذي كتب على أيام أبى بكر الصديق (١١ - ١٣ هـ = ٦٣٢ - ٦٣٤ م) هو نفس المصحف الذي كتب على أيام الرسول ، ﷺ ، وهو نفس المصحف الذي كتب على أيام عثمان بن عفان (٢٤ - ٣٥ هـ = ٦٤٤ - ٦٥٦ م) ، ومن ثم فإن كل قراءة قرآنية يجب أن تكون متفقة مع نصه ، وأن الشك فيه كفر ، وأن الزيادة عليه أبداً لن تجوز ، وأنه القرآن المتواتر الخالد الى يوم القيامة (٢١) .

18. B. St. Hilaire, Mahomet et le Koran, p. 33.

W. Muir, The Life of Mohammad and History of Islam.

Edinburgh 1923.

19. Lellois la Koran et la Bible Hebraique, Paris, 1887, p. 47.

20. T. Noeldeke, Geschichte des Qurans, Leipzig, 1961, p. 16.

(٢١) محمد أبو زهرة ، القرآن - القاهرة ١٩٧٠ ص ٤٣ ، تفسير القرطبي ٨٠/١ - ٨٦ ، فتاوى ابن تيمية ٤٢٠/١٣ - ٤٢١ .

وليس هناك من ريب في أن القرآن الكريم انما يقدم لنا — عن طريق القصص القرآنى — معلومات هامة وصحيحة تهاما عن عصور ما قبل الاسلام ، وأخبار دولها ، أيديتها الكشوف الحديثة كل التأييد .

وفي التاريخ المصرى القديم يقدم لنا القرآن الكريم — عن طريق قصة موسى — كثيرا من المعلومات عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر الفراعنة فيحدث القرآن الكريم عن الملكية الالهية في مصر ، بل انه انما يشير بطريقة أو بأخرى ، الى أن الوهية الفرعون انما كانت موضع جدل شديد بين النبى الكريم والملك الفرعون ، بل هي الصخرة التى تحطمت عليها كل أوجه التقارب بينهما .

ولعل مما يزيد الامر أهمية أننا لانعرف بين دعوات الانبياء الكرام ، دعوة يتعرض صاحبها لزعم من أرسل اليه ، على أنه «اله الناس» ، غير موسى عليه السلام ، بل أن الفرعون انما يهدد النبى نفسه ، «لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين»^(٢٢) ، ثم يعلن للناس كافة «ما علمت لكم من اله غيرى»^(٢٣) ، وعندما يتقدم موسى بآياته الكبرى ، اذا بفرعون يعلن رفضه للدعوة ، «ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الاعلى»^(٢٤) .

ويقدم لنا القرآن الكريم ، عن طريق قصة موسى كذلك ، شيئا من السحر ، الذى شاع في مصر في فترة من تاريخها القديم ، حيث نرى المصريين ، فيما تشهد قصص أدبهم ، يحبون أحاديث السحر ، وخوارق الاعمال ، وفيما نسبوه الى خوفو في «بردية وستكار» أو «قصة خوفو والسحرة» ، والتي سبقت الاشارة اليها ، من حب للسحر واقبال عليه ،

وكذا محمد حسين هيكل : حياة محمد — القاهرة ١٩٦٥ ص ٥١ — ٥٥ ،
W. Muir, Op. Cit., p. XIV-XIX

(٢٢) سورة الشعراء : آية ٢٩ .

(٢٣) سورة القصص : آية ٣٨ .

(٢٤) سورة النازعات : آية ٢٢ — ٢٤ .

ما يصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس في المصور القديمة من خيالات يردونها الى السحر ، ويستعينون عليها •

بل ان القرآن الكريم انما يشير الى أن القوم قد برعوا في سحرهم ، لدرجة جعلتهم واثقين من نصرهم على النبي الكريم ، ومن ثم فقد خيروه ، ثقة في أنفسهم وفي سحرهم بأن يبدأ في سحره أو أن يكونوا هم البادئين ، وأعطاهم حق السبق في عرض مهارتهم ، وحين فعلوا خيل للنبي الكريم أن حبالهم وعصيمهم التي ألقوا بها أمامه ، انما هي حية تسمى على الارض ، فأوجس من ذلك في نفسه خيفة ، لولا أن تداركته عناية الله يومئذ ثم فقد ألتهمت عصاه حبالهم وعصيمهم التي سحروا بها أعين الناس واسترهبوهم •

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة : «قالوا يا موسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين» قال القوا قلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم وأوحينا الى موسى أن الق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون» (٢٥) •

هذه أمثلة ، وغيرها كثير وكثير ، مما يقدمه القرآن الكريم من حقائق ترقى فوق كل شك الى الباحثين في التاريخ المصري القديم ، غير أن ذلك لايعنى — بحال من الاحوال — أن القرآن الكريم كتاب تاريخ ، يتحدث عن أخبار الامم ، كما يتحدث عنها المؤرخون ، وانما هو كتاب هداية وارشاد للتي هي أقوم (٢٦) ، أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستوراً للمسلمين في حياتهم ويدعوهم الى التوحيد (٢٧) ، والى تهذيب النفوس ،

(٢٥) انظر : سورة الاعراف : آية ١١٦ - ١١٧ ، سورة طه : آية ٦٧ - ٦٥ •

(٢٦) سورة الامراء : آية ٩ •

(٢٧) انظر : سورة نوح : آية ٢٠ ، سورة يوسف : آية ٣٧ - ٤٠ ، سورة النساء : آية ١٧١ - ١٧٢ ، سورة آل عمران : آية ٥٩ ، سورة المائدة : آية ٧١ - ٧٦ •

والى وضع مبادئ للاخلاق^(٤٨) ، وميزان للعدالة^(٤٩) ، واستتباط لبعض الاحكام^(٥٠) ، فاذا ما عرض لمحادثة تاريخية فانما للمعبرة والعظة^(٥١) .

ومع ذلك فيجب ألا يغيب عن بالنا ، دائما وأبدا ، أن القصص القرآني أن هو الا الحق المصراح ، وصدق الله العظيم حيث يقول : «ومن أصدق من الله حديثا»^(٥٢) ، ويقول «ان هذا لهو القصص الحق»^(٥٣) ، ويقول «نحن نقص عليك نبأهم بالحق»^(٥٤) ، ويقول «والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق»^(٥٥) ، ويقول «انا نزلنا إليك الكتاب بالحق»^(٥٦) ، ويقول «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون»^(٥٧) .

وايمانا ويقينا بكل هذه الآيات الكريمة ، يمكننا القول ، على وجه اليقين ، أن القرآن الكريم هو الذى يصدق الاحداث التاريخية،وليست الاحداث التاريخية هى التى تصدق القرآن الكريم ، فهو كتاب الله الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»تنزيل من حكيم حميد»^(٥٨) .

وانطلاقا من هذا يمكننا أن ننظر الى ما جاء فى قصة يوسف عليه السلام ، عن السنوات السبع العجاف التى كانت ستحل بالبلاد ، لولا رحمة الله وحكمة الصديق عليه السلام .

(٢٨) انظر : سورة البقرة ٤٤ ، سورة الاعراف : آية ٨٥ - ٨٨ ، سورة هود : آية ٨٤ - ٨٨ .

(٢٩) انظر مثلا : قصة داود (سورة ص : آية ٢١ - ٢٦) .

(٣٠) انظر : سورة المائدة : آية ٢٧ - ٣٢ ، ٤٢ - ٥٠ ، سورة البقرة : آية ١٧٨ - ١٧٩ .

(٣١) انظر عن أهداف القرآن مقاصده (تفسير المنار ٢٠٦/١ - ٢٩٣) .

(٣٢) سورة النساء : آية ٨٧ .

(٣٣) سورة آل عمران : آية ٦٢ .

(٣٤) سورة الكهف : آية ١٣ .

(٣٥) سورة فاطر : آية ٣١ .

(٣٦) سورة الزمر : آية ٢ ، ٤١ .

(٣٧) سورة الجاثية : آية ٦ .

(٣٨) سورة فصلت : آية ٤٢ .

يقول الله تعالى: «وقال الملك انى ارى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وآخر يابسات ، يا أيها الملأ أفتوني في رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون» قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين» وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا انبئكم بتأويله فأرسلون ، يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وآخر يابسات ، لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون ، قال قززعون سبع سنين دأبا ، فما هضدتم فذروه في سنبله ، الا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمت لهن ، الا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون» (٣٩) .

وقال الامام الزمخشري : تأول عليه السلام البقرات السمان، والسنبلات الخضر ، بسنين مفاصيب، والعجاف اليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيىء مباركا خصيبا ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي (٤٠) ، لان هذا العام الثامن لا يقابله رمز في رؤيا الملك ، فهو اذن من العظم اللدنى ، الذى علمه الله يوسف ، فيبشر به من أرسله الملك ليبشر به الملك والناس جميعا ، بالخلاص من الجذب والجوع بعام رضى رغيد .

والمعروف من أحداث التاريخ المصرى ، أن مصر انما كانت عرضة للمجاعات ، وققرات من تدهور الانتاج الزراعى والحيوانى على مر العصور ، وقد كان ذلك في أغلب الاحايين من آثار اضطراب النيل

- (٣٩) سورة يوسف : آية ٤٣ - ٤٩ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٦ / ١١٦ - ١٣٢ (القاهرة - دار المعارف ١٩٦٩) ، تفسير المنار ١٢ / ٢٦١ - ٢٦٤ (القاهرة ١٩٧٣) ، في ظلال القرآن ٤ / ١٩٩٢ - ١٩٩٤ (بيروت ١٩٨١) ، تفسير الجلالين ص ٣١٠ - ٣١٢ (بيروت ١٩٨٥) ، تفسير القرطبي ص ٣٤٢٧ - ٣٤٣٤ (القاهرة ١٩٧١) ، صفوة التفاسير ٢ / ٥٤ - ٥٦ (بيروت ١٩٨١) ، تفسير الفخر الرازى ١٨ / ١٤٧ - ١٥٣ (القاهرة ١٩٣٨) ، تفسير ابن كثير ٢ / ٧٤٢ - ٧٤٣ (بيروت ١٩٨٦) ، تفسير النسفى ٢ / ٢٢٢ - ٢٢٥ (دار الفكر - بيروت ١٩٨٤) .

(٤٠) الزمخشري : تفسير الكشاف ٢٠ / ٤٧٧ (القاهرة ١٩٦٦) .

وامتناع فيضه ، واخلاقه بالوفاء ، كما تعود وتعود منه الناس كل عام ،
 فاذا ماتدهور وأقام على نقائصه ، لم تكد مياهه لتصل الى الارض التي
 تتحرق شوقا اليه ، وتنتظر العام كله أو جله للقاءه ، فمندئذ فلا رى ولا
 استقبات ، ثم لا زرع ولا ضرع ، فتكون الكارثة التي تنزل بالبلاد
 والعباد (٤١) .

والتاريخ يحددنا أن الله تعالى ما جعل بلدا في العالم ، تتوقف حياته
 ووجوده ، ومصيره ومستقبله ، في السلم أو في الحرب أو يرتبط سكانه
 وتاريخه ، بنهر ، مثلما تفعل مصر والنيل ، ومن ثم اذا ما بلغ النيل في
 فيضه أحيانا فتعظم أمواجه ، وتضرى أمواجه ، فاذا هو يندفع طولها
 غنيفا مدمرا مغرقا كل شيء ، ثم لا يكاد ينحسر عن الارض ، الا وقد
 انقضى من أوان البذر وقت ، قد يكون على الانتاج أيام الحصاد سوى
 المسغبة ، وأن لم يبلغ ذلك في سوئه مبلغ نقص الماء ، ذلك أن النهر أن
 هبط عن معدله الطبيعي ، فهي «الشدة» التي قد تصل الى «المجاعة» ،
 واذا كان الفيض المغرق يعنى «الطاعون» فان المجاعة تعنى «الموتان» ،
 الذى قد ينتشر معه الطاعون بدوره بعد ذلك ، حتى يتناقص السكان
 بدرجة مضيفة (٤٢) .

ويقدم لنا التاريخ المصرى أمثلة كثيرة لانخفاض النيل في مصر قبل
 وبعد عصر يوسف عليه السلام ، وما ينتج عن ذلك من كوارث اقتصادية ،
 ومن أسوأ الامثلة ، ما حدث على أيام الثورة الاجتماعية الاولى
 (الاسرات ٧ - ١٠) ، يقول المتنبى «نفرتى» : «لقد جف نيل مصر
 حتى ليخوضه الناس بالقدم ، وسوف يبحث الناس عن الماء لتجرى عليه

(٤١) انظر : احمد عبد الحميد يوسف : مصر في القرآن والسنة -
 القاهرة ١٩٧٣ ص ٢٥٥ ، تفسير ابن كثير ٣٢١/٤ ، تفسير النسفى ٢٨٨/٢ ،
 تفسير القرطبى ص ٣٤٤٦ - ٣٤٤٧ ، صفوة التفاسير ٥٧/٢ .
 (٤٢) جمال حمدان : شخصية مصر - القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٤١ - ٢٤٥ .

السفين ، فيجدوا أن الطريق صار شاطئاً ، وأن الشاطئ قد صار ماء» (٤٣) .

وهكذا رأينا «عنخ تفي» حاكم «نخن» (٤٤) في نفس الفترة يتحدث عن سنى المجاعة فيقول ، أنه أمد خلالها مدنا أخرى ، إلى جانب مدينته ، بالهبات والمجوع ، وقد امتدت دائرة نشاطه حتى «ندرة» (على مبعدة

43. Erman, (A.), The Literature of the Ancient Egyptian London, 1927, p. 113.

(٤٤) نخن : أو مخن هو اسم عاصمة مصر العليا فيما قبل التوحيد ، وقد ترجمها «كورت ريت» بمعنى الحصن وقد تغير الاسم في العصر الاغريقى الى «هيراكوبوليس» بمعنى مدينة الصقر ، رمز الاله الباشق «حورس» الذى كان الاله الرئيسى فيها ، وموقعها الان على حافة الصحراء الغربية ، على مبعدة ١٧ كيلا شمالى ادفو ، بمحافظة أسوان ، ويفصله عن النيل قريتي المويسات والجمعاوية وترعة الرمادى ، ويواجهها على الضفة الشرقية للنيل مدينة «نخب» (الكاب) .

ويرجع تاريخ «نخن» (البصيلية) الى عصر ما قبل الاسرات ، فقد عمرت منذ عصر البدارى ، واثناء عصرى نقادة ، وعند بداية التاريخ قامت مصر العليا بتكوين اتحاد ، كانت عاصمته «نخن» ومعبوده الاله «حور» الذى رمز له بالصقر ، وكان معبودا أصيلا هناك فيما يرى البعض ، وقد تجمع حكام مصر العليا (الصعيد) وكذا الالهة المحلية ، والذين أطلق عليهم «أتباع حور» وقد عرفوا في التاريخ باسم أصحاب «مملكة مصر العليا» وعلى أيديهم تحققت وحدة مصر كلها ، تحت قيادة الملك «مينا» مكونين أول أسرة ملكية في التاريخ البشرى ، حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، وذلك بدأ المظهر الختامى لتاريخ ما قبل الاسرات من «نخن» (هيراكوبوليس البصيلية) ، وانتهى بغزو مصر السفلى على يد الملك «مينا» ، ثم توحيد القطرين .

هذا وقد ظلت «نخن» محتفظة بمركزها السياسى طوال عصر التأسيس (الاسرتين الاولى والثانية) ، ثم عاصمة للاقليم الثالث من قاليم الصعيد (مصر العليا) ، حتى سلمت الراية الى مدينة «الكاب» ، وهذه بدورها قد سلمتها الى «اسنا» في عصر البطالمة ، انظر : محمد بيومى مهران : مصر - الكتاب الاول - الاسكندرية ١٩٨٢ ص ٣٠٥ - ٣٢٣ ،

Gardiner, (A. H.), Oram., I, Oxford, 1947, N. 320.

Quibell, (J. E.) and Green. (F. W.), Hierakonpolis. I, II, London, 1900-1902.

Kess, (H.), Goetterglaube, Leipzig, 1941, p. 178.

Sethe, (K.), in ZAS, LIII, p. 55 F.

Wilson, (J. A.), Buto and Hierakonopolis in The Geography of Egypt, in JNES, 14, 1955, p. 209-236.

ه كىلا شمال غرب مدينة قنا عبر النهر) بهذا أنقذ الصعيد الاقصى الذى كاد أن يموت جوعا ، حتى ليكاد كل رجل هناك أن يفتال أطفاله» (٤٥) .

على أن المصريين اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة وحسن التدبير، اد كانوا يدخرون غلة الارض من الرى لايام الجفاف ، ومن يسرهم لمسرهم ، ومن رخاهم لشدتهم ، وكانت حكمة الملوك والامراء وحكام الاقاليم وحسن تدبيرهم ، خليقا أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون (٤٦) .

ومن ثم فقد رأينا «خيتى» أمير أسيوط ، على أيام الالهناسين يقول : اننى غنى بقمح الشمال حيث كانت الارض فى جفاف ، وعندما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب والخبز ، وسمحت لكل مواطن أن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته ، وقد أعطيت الارملة وولدها، وتجاوزت عن الضرائب التى فرضها أبى بمولات المراعى بالمواشى» (٤٧)

ويقول «ببى» أمير الكاب من الاسرة الثالثة عشرة ، التى سبقت قليلا جدا عصر يوسف عليه السلام ، وربما قد عاصرته ، أو عاصرت أوائله ، يقول «لقد كنت أكدس القمح المطلوب ، وكنت يقطا فى فصل البذر ، فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين ، أعطيت مدينتى القمح فى كل مجاعة» (٤٨) .

على أن العلماء ، على كثرة ما قرأوا من أخبار المجاعات فى مصر

45. Gardiner, (A. H.), Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. III. Breasted, (J. H.), ARE, I, 9906, p. 181.

(٤٦) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٥٧ - ٥٨ .
(٤٧) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر
الفرعنة ص ١٢٨ - ١٣٩ .

48. Vandier, (J.), La Famine dans l'Egypte Ancienne, le Caire, 1936, p. 101 F.

التقديمية : انما يقفون خاصة موقف الفلاحين من مجاعة نقشت أخبارها على الصخر في جزيرة سهيل جنوبي أسوان ، ولئن كان الخير منسوبا الى أيام الملك «زوسر» من الاسرة الثالثة ، فالذى لاشك فيه انما نقش بعده بعشرين قرنا ، نقشه كهان المبود «خنوم» ربما عام ١٨٧ ق م ، على أيام «بطليموس الخامس» (٢٠٥ - ١٨٠ ق م) ، وربما العاشر (١٠٧ - ٨٨ ق م) ، في أكبر الظن .

وربما غير بعيد أن يكون النص صوتا من واقع بعيد ، يرجع الى أيام يوسف عليه السلام ، وأن كهان «خنوم» حين كتبوه ، انما كانوا تحت تأثير ما كان شائعا يومئذ من أصداء الماضي السحيق ، وبما ورد في التوراة^(٤٩) من أصداء السنين السبع الشداد التي جرت بها السنة من كان بمصر من يهود يومئذ ، بخاصة وأن الترجمة السبعينية للتوراة^(٥٠) ، انما تمت بمصر على أيام بطليموس الثاني (٢٨٤ - ٢٤٦ ق م) ، وأن هناك جالية يهودية كانت تقيم في «اليفسنتين» (جزيرة أسوان) ، وتطل من حيث الموقع على جزيرة سهيل ، حيث نقش نص المجاعة^(٥١) .

وعلى أية حال ، وأيا ما كان أمر هذه المجاعات التي كانت بسبب عدم فيضان النيل ، فإن المجاعة التي كانت ستحدث على أيام يوسف الصديق عليه السلام في عهد الهكسوس ، انما كانت حقيقة لا ريب فيها . لولا أن تداركت رحمة الله أرض الكنانة بحكمة نبي الله يوسف الصديق ،

(٤٩) تكوين ١/٤١ - ٥٧ .

(٥٠) انظر عن «الترجمة السبعينية للتوراة» : (محمد بيومي مهران :

اسرائيل ١٠٧/٣ - ١١٢) .

(٥١) انظر عن «الجالية اليهودية في أسوان» (محمد بيومي مهران :

اسرائيل ١٠٧/٢ - ١١٠٢) .

انظر عن : نقش المجاعة على جزيرة سهيل جنوبي أسوان (محمد بيومي مهران : مصر ٣٦٣/١ - ٣٦٦ ،

Wilson, (J. A.), ANET, 1966, p. 31-32.

Parguet, (P.), La Stèle de la Famine a Saad, Cairo, 1935.

Vandier, (J.), Op. Cit., p. 132-139.

ومن ثم فقد كانت أيلام الصديق في مصر خيرا كلها - دينا وهنيا - بل ان وجود يوسف في مصر ، حينما من الدهر ، شرف مابعده شرف ، وأن دعوته انما كانت رحمة وهداية للمصريين ، ما في ذلك من ريب ، وأن الصديق عليه السلام ، قد أنقذ الله به مصر من مجاعة محققة ، كادت تهلك الحرث والنسل ، وأنه ، عليه السلام ، قد نشر في مصر دعوة التوحيد ، وبث العقيدة الصحيحة ، ما في ذلك شبهة من شك .

وهكذا حمل الصديق عليه السلام ، الى مصر ، نور الايمان، وهداية التوحيد ، وعدالة الله رب العالمين ، وكل ما هو خير وطيب من نعم الله التي يجريها سبحانه وتعالى ، على أيدي المصطفين الاخيار من أنبيائه الكرام ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن دعوة التوحيد ، التي نادى بها يوسف الصديق عليه السلام ، انما قد انفرد بها القرآن الكريم ، من دون التوراة ، فالقرآن العظيم انما يشير الى أن الصديق انما قد انتهر الثقة المكيئة التي اكتسبها بين السجناء ، بسبب تأويل الرؤيا ونفسير الاحلام ، فيقوم بدعوته الدينية ، شارحا عقيدة الانبياء جميعا في وحدانية الله الخالق العظيم ، وهاتفا بمستمعيه (٥٢) «انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبع ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار ، ماتعبدون من دون الله الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (٥٣) .

(٥٢) محمد رجب البيومي : البيان القرآني ص ٢٢٥ ، عبد الوهاب النجار : قصص الانبياء - القاهرة ١٩٦٦ ص ١٤٠ .
(٥٣) سورة يوسف : آية ٣٧ - ٤٠ ، وانظر : تفسير الطبري ١٠٠/١٦ - ١٠٦ ، تفسير المنار ٢٥٠/١٢ - ٢٥٦ ، صفوة التفاسير ٥٦/٢ - ٥٢ ،

وذلك لان يوسف عليه السلام ، لم يكن عالما يؤول الرؤيا فحسب ، بل كان رسولا نبيا أرسله الله هاديا للناس في دنياهم وآخرتهم ومعاشهم ومعادهم ، فما كان يرى فرصة يتنفس فيها برسالته ، الا انتهازها ، ولا نهضة صالحة للدعوة الا علق بها^(٥٤) ، ولهذا فلاشارة الى الاخرة في قصة يوسف مقصورة على القرآن^(٥٥) ، من دون التوراة .

أضف الى ذلك ، أن القرآن الكريم انما يتحدث بوضوح عن رسالة يوسف عليه السلام ، أثناء عرضه لقصة موسى عليه السلام ، يقول تعالى «ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيانات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب»^(٥٦) .

وفي الواقع انها المرة الوحيدة في القرآن الكريم التي يشار فيها الى رسالة يوسف عليه السلام ، للمقوم في مصر ، وقد عرفنا من سورة يوسف أنه وصل الى أن يكون على خزائن الارض أمينا ، وأنه أصبح «عزيز مصر»^(٥٧) .

وهي أول دعوة لنبي في مصر ، جاء ذكرها في القرآن الكريم ، فما حدثنا القرآن الكريم عن أنبياء بعثوا في مصر قبل يوسف ، وان أشار

=
تفسير البياضاي ١/٢٦٤ - ٢٦٥ ، تفسير البحر المحيط ٥/٣٠٦ - ٣٠٩ ، تفسير النسفي ٢/٢٢٢ - ٢٢٣ ، تفسير ابن كثير ٢/٧٣٩ - ٧٤١ ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٤/١٩ - ٢٠ .

(٥٤) محمد جاد المولى وآخرون : قصص القرآن ص ١٠٣ .

(٥٥) سورة يوسف : آية ٥٧ .

(٥٦) سورة غافر : آية ٣٤ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٤/١١٩ - ١٢٠ ، في ظلال القرآن ٥/٣٠٨١ ، صفوة التفاسير ٣/١٠٢ ، تفسير البحر المحيط ٧/٤٦٤ - ٤٦٥ ، تفسير القرطبي ص ٥٧٥٦ - ٥٧٥٧ ، تفسير النسفي ٤/٧٨ - ٧٩ .

(٥٧) في ظلال القرآن ٥/٣٠٨١ .

الحديث الشريف الى زيارة أبى الانبياء ، ابراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام ، لمصر (٥٨) .

٢ - الحديث الشريف :

الحديث هو ما ورد عن سيدنا رسول الله ، ﷺ ، من قول أو فعل أو تقرير (٥٩) ، وللحديث مكانة كبرى في الدين تلى مرتبة القرآن الكريم مباشرة ، وصدق رسول الله ، ﷺ ، حيث يقول «تركتم فيكم أمري ، لن تضلوا ما تمسكتم بهما بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتي» (٦٠) .

والحديث الشريف مفسر القرآن ، ذلك أن كثيرا من آيات الذكر الحكيم مجملة أو مطلقة أو عامة ، فجاء رسول الله ، ﷺ ، فبينها أو قيدها أو خصصها (٦١) ، قال الله تعالى «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم» (٦٢) ، ومن هنا كان الحديث هو المصدر الثانى للشرعة الاسلامية ، ثم هو أصدق المصادر التاريخية ، بعد القرآن الكريم (٦٣) .

ولاريب في أننا نجد في الحديث الشريف تفسيراً لكثير من الاحداث التاريخية التى تعرض لها القرآن الكريم عن مصر ، كقصص يوسف ، وقصة موسى ، عليهما السلام ، فضلا عن الحديث عن مصر نفسها، وكما أشرنا من قبل ، فان سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، ﷺ ، انما قد بشر المسلمين بفتح مصر ، فقال ، ﷺ ، «إذا افترحت مصر، فاستقوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما» وفي رواية «ستفتح عليكم بعدى

-
- (٥٨) انظر : صحيح البخارى ٤/١٧١، ٢٧/٩ - ٢٨ (دار الحديث - القاهرة) ، فتح البارى ٦/٣٩٤ .
(٥٩) انظر : تعريفات أخرى (مصطفى السباعى : السنة ومكانتها في التشريع الاسلامى - القاهرة ١٩٦١ ص ٥٩ - ٦٠ .
(٦٠) الحديث رواه أصحاب السنن .
(٦١) فتاوى ابن تيمية ١٥/٤٤٣ ، ١٣/١٩ ، ١٧/٤٣١ - ٤٣٢ (الرياض ١٣٨٣/٨١هـ) .
(٦٢) سورة النحل : آية ٤٤ .
(٦٣) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن الحديث الشريف (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الاول - الرياض ١٩٨٠ ص ٨٩ - ٩٨) .

مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة» وفى رواية
ثالثة «ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ،
فان لهم ذمة ورحما» (٦٤) .

وأما الذمة ، فان «مارية» أم ابراهيم ، ولد المصطفى ، ﷺ ، انما
كانت امرأة صعيدية من قرية ، بمحافظة المنيا ، تعرف الان باسم «قرية
السبع عباد» ، نسبة الى الصحابى الجليل «عبادة بن الصامت» الذى
بنى بها مسجداً ، فعرفت القرية به (٦٥) ، وأما الرحم ، فان «هاجر»
رضى الله عنها ، زوج أبى الانبياء ابراهيم ، وأم ولده اسماعيل ، عليهما
السلام ، مصرية كذلك (٦٦) .

هذا وقد حدثنا الرسول ، ﷺ ، كذلك ، عن امرأة فرعون ، التى
احتضنت موسى عليه السلام وآمنت به ثم ضربت المثل الاعلى للمرأة
فى كل عصر ، حين وقفت مع الحق ، أيا كان الثمن ، وأيا كان من تقف
ضده ، حتى وان كان زوجها فرعون مصر ، أعظم ملوك الارض وقت
ذاك ، حتى ضرب الله بها المثل للمؤمنين .

والتاريخ يحدثنا أن تلك السيدة الجليلة ، قد استطاعت أن تحرر
فكرها ووجدانها من كل الاواصر والمؤثرات والقيود ، فترفض أن تسير
فى ركاب زوجها الفرعون ، وأن تنساق فى تيار المجتمع الذى تعيش فيه ،
بل وتعلن عن موقفها فى ثبات وإيمان ، بعد أن اتضح لها ضلال فرعون
وكفره ، وتبين لها الحق فى دعوة موسى ، رغم ضغط المجتمع وشدة
وطولته ، ورغم مغريات الحياة الرخوة الناعمة فى قصر أعظم ملوك الارض ،
ورغم آصرة الزوجية التى تربطها بفرعون ، فكانت مثالا للشخصية

(٦٤) انظر: صحيح مسلم ١٩٧/٤ ، الكندى : فضائل مصر - القاهرة
١٩٧١ ص ٢٦ - ٢٧ ، سيرة ابن هشام ٦/١ - ٧ ، طبقات ابن سعد
٩٢/١ - ٩٣ .

(٦٥) ياقوت الحموى : معجم البلدان ٣٨١/١ ، ٢٩٥/٢ (بيروت
١٩٥٥) القاموس الجغرافى ٢٣٢/١ .
(٦٦) الكندى : المرجع السابق ص ٢٧ - ٢٨ .

الانسانية المستقلة في الايمان بالمبادئ والقيم^(٦٧) ، وصدق الله العظيم حيث يقول «وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين»^(٦٨) .

ويقول صاحب الظلال ، عن امرأة فرعون ، فى تفسيره لهذه الآية : وافراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران ، يدل على المكانة العالية التى جعلتها قرينة مريم فى الذكر ، بسبب الملابس التى اياها التى أشرنا إليها ، وهما الاثنان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة للمتصدقة لقانتة ، يضرب بهما الله لأزواج النبى ، ﷺ ، بمناسبة الحادث الذى نزلت فيه آيات صدر سورة التحريم ، ويضربهما للمؤمنات من بعد فى كل جيل^(٦٩) .

ومن هنا يروى الامام مسلم بسنده فى صحيحه عن أبى موسى قال قال رسول الله ، ﷺ «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء ، خیر مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون»^(٧٠) .

وروى الامام البخارى فى صحيحه (باب قول الله تعالى : وضرب الله مثلا امرأة فرعون الى قوله : وكانت من القانتين) عن أبى موسى رضى الله عنه ، قال قال رسول الله ، ﷺ ، «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء ، الا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وان فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(٧١) .

(٦٧) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٤٠١ .
 (٦٨) سورة التحريم : آية ١١ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٦١٥/٤ - ٦١٦ ، صفوة التفسير ٤١٢/٣ ، تفسير القرطبي ص ٦٦٨١ - ٦٦٨٢ ، تفسير البحر المحيط ٢٩٥/٨ ، تفسير النسخى ٢٧٢/٤ ، فى ظلال القرآن ٣٦٢٢/٦ - ٣٦٢٢/٦ .
 (٦٩) فى ظلال القرآن ٣٦٢٢/٦ ، وانظر ٣٦٠٨/٦ - ٣٧٢٢ (بيروت ١٩٨١) .
 (٧٠) صحيح مسلم ١٩٨/١٥ (دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨١) .
 (٧١) صحيح البخارى ٩٢/٤ - ١٩٣ (دار الجيل - بيروت) .

وروى الامام أحمد في المسند والفضائل ، والترمذى في السنن .
والحاكم في المستدرک ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن عبد البر في
الاستيعاب وغيرهم ، عن أنس أن النبي ﷺ قال : حسبك من نساء
العالمين : مريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد
وآسية امرأة فرعون» (٧٣) .

وأخرج الامام أحمد في الفضائل ، والحاكم في المستدرک أن عائشة
قالت لفاطمة بنت رسول الله ﷺ : ألا أبشرك ، انى سمعت رسول
الله ﷺ يقول : سيدات نساء أهل الجنة أربع : مريم بنت عمران :
وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وخديجة بنت خويلد وآسية امرأة فرعون» (٧٣) .

٣ - كتب التفسير :

نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، وعلى أساليب العرب وكلامهم (٧٤) ،
قال تعالى «أنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» (٧٥) وهذا أمر طبيعي
لأنه أتى يدعو العرب - بادئ ذي بدء - ثم الناس كافة ، الى الاسلام ،
ومن ثم فلا بد أن يكون بلغة يفهمونها بتصديقا لقوله تعالى «وما أرسلنا
من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم» (٧٦) .

هذا ورغم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين ، وفى بيئة عربية
كانت تفاخر من نواحي الحضارة بفن القول ، فانه لم يكن كله فى متناول
الصحابة جميعا ، يستطيعون أن يفهموه اجمالا وتفصيلا بمجرد سماعه ،

(٧٢) مسند الامام أحمد ٣/ ١٣٥ ، الامام أحمد بن حنبل ، كتاب
فضائل الصحابة - الجزء الثانى - بيروت ١٩٨٣ ص ٧٥٥ ، سنن الترمذى
٧٠٢/٥ ، ابن حبان ص ٥٤٩ ، المستدرک للحاكم ٣/ ١٥٧ ، أبو نعيم
الاصفهانى حلية الاولياء وطبقات الاصفياء - الجزء الثانى - دار الفكر -
بيروت ١٩٨٤ ص ٣٤٤ ، ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الاصحاب
٣٧٧/٤ ، مجمع الزوائد للهيثمى ٩/ ٢٢٣ .
(٧٣) الامام أحمد بن حنبل : كتاب فضائل الصحابة ٢/ ٧٦٠ (بيروت
١٩٨٣) .

(٧٤) ابن قتيبة : تاويل مشكلات القرآن ص ٦٢ .

(٧٥) سورة يوسف : آية ٢ .

(٧٦) سورة ابراهيم : آية ٤ .

لان العرب كما يقول ابن قتيبة^(٧٧) ، لا تستوى في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه ، بل ان بعضها يفضل في ذلك على بعض^(٧٨) .

غير أن هذا لا يمنعنا من القول بأن الصحابة ، رضوان الله عليهم ، كانوا أقدر الناس على فهم القرآن ، لانه نزل بلغتهم ، ولانهم شاهدوا الظروف التي نزل فيها ، ومع ذلك فقد اختلفوا في الفهم حسب اختلافهم في أدوات الفهم ، وذلك لاسباب ، منها أنهم كانوا يعرفون العربية على تفاوت فيما بينهم ، وان كانت العربية لغتهم ، ومنها أن منهم من كان بلازم النبي ، ﷺ ، ويقيم بجانبه ، ويشاهد الاسباب التي دعت الى نزول الآية ، ومنهم من ليس كذلك^(٧٩) .

وهكذا نشأ علم التفسير لفهم القرآن وتدبره ، ولتبيان ما أوجز فيه ، أو ما أشير اليه اشارات غامضة ، أو لما غمض علينا من تشابيه واستعاراته وألفاظه ، أو لشرح حكمه^(٨٠) هذا وقد نشأ علم التفسير في عصر الرسول ، ﷺ ، فكان النبي أول المفسرين للقرآن ، ثم تابعه أصحابه من بعده^(٨١) ، على أساس أنهم الواقفون على أسرارهم المهتدون بهدى النبي ، ﷺ^(٨٢) .

ولعل أشهر المفسرين من الصحابة ، سيدنا الامام علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه في الجنة ، ورضي الله عنه ، وعبد الله بن عباس ، جبر

-
- (٧٧) ابن قتيبة : رسالة في المسائل والاجوبة ص ٨ ، ثم قارن : مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٦ .
- (٧٨) قدم المؤلف دراسة عن التفسير (انظر : محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٩٩/١ - ١١٢ ، الرياض ١٩٨٠) .
- (٧٩) أحمد أمين : فجر الاسلام - بيروت ١٩٦٩ ص ١٩٧ - ١٩٨ .
- (٨٠) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية - بيروت ١٦٤ ص ١٦ ، وانظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١٣/٢ .
- (٨١) فتاوى ابن تيمية ٣٣١/١٣ - ٣٣٣ .
- (٨٢) انظر : شروط المفسر وآدابه (السيوطي) لاتقان في علوم القرآن ١٨٧/٢ - ١٨٩ ، الصابوني : التبيان في علوم القرآن - بيروت ١٩٧٠ ص ١٧٧ - ١٨١ ، تفسير المنار ١٧/١ - ٢٦ .

الامة وترجمان القرآن - وعبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهم
أجمعين (٨٢) .

وفي عصر التابعين تضخم التفسير بالاسرائيليات والنصرانيات لسبب
أولاً آخر ، مما دفع الامام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ) الى أن يقول
«ثلاثة ليس لها أصل ، التفسير والملاحم والمغازي» أى ليس لها اسناد ،
لأن الغالب عليها المراسيل (٨٤) ، وإلى أن يقول الامام ابن تيمية :
«الموضوعات في كتب التفسير كثيرة» (٨٥) .

ومع ذلك ، ورغم هذه الشوائب ، فالذى لاشك فيه أن كتب التفسير
تحتوى على ثروة تاريخية قيمة ، فلقد قدم لنا المفسرون بعض المعلومات
التي تدل على أن سند الرواية والتواتر موصول ، فمثلاً حين يحدثنا
القرآن الكريم عن ذلك المصرى الذى قتله موسى عليه السلام ، فإن
الامام النسفى انما يروى أن اسمه «فاتون» ، ولا ندري كيف استقام
لمفسرى الاسلام هذا الاسم ، الذى تدل صيغته المصرية على أن سند
الرواية والتواتر موصول ، ذلك أن اسم «فاتون» انما هو اسم مصرى
خالص ، مؤلف من اسم الشمس (أتون) ، مع «فاء التعريف» (٨٦) .

وهناك مثال آخر فى تفسير قوله تعالى : «وقال فرعون يا أيها الملا
ما علمت لكم من اله غيرى ، فأوقد لى ياهامان على الطين ، فليجعل لى
مرحاً ، فألقى لى لطلح الى اله موسى ، وأنى لاظنه من الكاذبين» (٨٧) .

ولعل من الاهمية بمكان أن نقف قليلاً عند هذه الآية ، وأقوال

(٨٣) انظر عن أشهر المفسرين من الصحابة/حاجى خليفة : كشف
الظنون عن أسامى الكتب والفنون - استنبول ١٣٢١هـ ، ١٧٨/٢ ، الاتقان
فى علوم القرآن ١٨٧/٣ - ١٨٩ ، فتاوى ابن تيمية ٣٦٤/١٣ - ٣٦٦ ،
أحمد أمين : المرجع السابق ص ٢٠٢ - ٢٠٤) .

(٨٤) ابن تيمية : مقدمة فى أصول التفسير - دمشق ١٩٣٦ ص ١٤ .

(٨٥) ابن تيمية : المرجع السابق ص ١٩ .

(٨٦) تفسير النسفى ٢٢٩/٣ ، أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع

السابق ص ٩٦ - ٩٨ .

(٨٧) سورة القصص : آية ٣٨ ، وانظر : سورة هافر : آية ٣٦ .

المفسرين فيها ، ذلك أن ما عرف عن فراتين مصر ، وما تشهده به اليوم آثارهم ، أنهم لما كانوا ينتشون ، ما شاعوا ، من الحجر ، وهو كثير واغر يضيهم عما سواه ، إن أرادوا ، لما ينتشون ، العوام وطول للبقاء ، فكانوا يتخذون منه المعابد والمسلات والقبور ، ولم يصطنعوا الطوب المحروق ولم يبر ذلك كانوا يتخذون «الطين» من طين غير مصروق ، فكانوا يتخذون منه بيوتهم ، سواء أكانت للعلية من القوم والملوك ، أم للعامة وغمار الناس ، وربما تردد القاري غير المسلم فيما يسمع من قول الله في أمر فرعون أن يوعد له هامان على الطين ، وقد عرف أن المصريين ، فيما خلفوا من آثارهم ، لم يتخذوا الآجر المحروق في البناء قبل عصر الرومان (٨٨) .

والعل سئلا يتساءل : ماذا من الطوب المحروق الذي جاء في الآية للكريمة على عهد فرعون موسى ، وقد سبق عصره للرومان بأكثر من ألف عام ؟

يرى الامام الطبري في تاريخه عن قتادة : أن فرعون موسى كان أول من طبخ الآجر ليبنى به الصرح (٨٩) ، وروى الامام النسفي في تفسيره لقوله تعالى «فاوقد لي يا هامان على الطين» ، أى اطح لي الآجر واتخذ ، وإنما لم يقل مكان الطين هذا ، لانه أول من عمل الآجر ، فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة ، ولانه أفصح وأشبه بكلام الجبارة ، إذ أمر هامان وزيره بالإيقاد على الطين منادى باسمه بـ «يا» في وسط الكلام ، دليل التعظيم والتجبر (٩٠) .

وروى الامام السيوطي (٩١) في تفسيره عن ابن أبي حاتم عن قتادة : كان فرعون أول من طبخ الآجر ، وصنع له الصرح ، وأخرج ابن المنذر

(٨٨) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٨٩) تاريخ الطبري ٤٠٥/١ (القاهرة ١٩٦٧) .

(٩٠) تفسير النسفي ٢٣٧/٣ .

(٩١) السيوطي : البحر المنثور في التفسير بالمأثور ١٢٩/٥ (طهران ١٣٧٧هـ) .

عن ابن جريج قال : فرعون أول من صنع الآجر وبنى به ، وأخرج ابن عبد حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله تعالى «فأوقد لى يا هامان على الطين» ، قال : أوقد على الطين حتى يكون أجرا .

وروى الامام القرطبي عن ابن عباس ، جبر الامة وترجمان القرآن ، أن فرعون موسى كان أول من صنع الآجر وبنى به (٩٢) ، وقال الامام البيضاوى : أول من اتخذ الآجر فرعون ، ولذلك أمر باتخاذة على وجه يتضمن تعليم الصنعة ، ولذا نادى هامان باسمه بـ «يا» في وسط الكلام (٩٣) ، ويقول ابن الاثير في تاريخه : أمر فرعون هامان بعمل الآجر ، وهو أول من عمله ، وجمع الصناع وعمله في سبع سنين ، وارتفع البنيان ارتفاعا لم يبلغه بنيان آخر (٩٤) ، ومن ثم فإن أكبر الظن أن المفسرين ، كما بدا لنا من قبل ، كانوا يستندون الى طائفة من الخبر الصحيح كانت بين أيديهم ، وإن اختلف ذلك بما لاقية له من الاوهام .

ومهما يكن من أمر ، فلقد أعرشنا الاضافير على ما يوافق أقوال المفسرين ، من حيث البناء بالآجر ، فلقد عثر «سير فلندرز بترى» على طائفة من غير مالوف المصريين من الآجر المحروق بنيت به قبور ، وأقيمت به بعض أسس المنشآت ، ترجع الى عصور الفراعين : رمسيس الثانى ومرنبتاح وسيتى الثانى ، من الاسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ — ١١٨٤ ق م) ، وكان عثوره عليها فى «نبيشة» و «دفنة» ، غير بعيد من «بى رمسيس» (قنتير) عاصمة هؤلاء الفراعين فى شرق الدلتا .

وقال «بترى» فى ذلك : ان حرق اللبن كان نادرا الى عصر الرومان ، وهو قول لا يكاد يخالف قول المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى ، وهو كذلك من قرائن القرآن الكريم التى نتخذها مطمئنين فى تحديد عصر خروج بنى اسرائيل من مصر ، على أيام

(٩٢) تفسير القرطبي ص ٥٠٠٤ .

(٩٣) تفسير البيضاوى ١٢٨/٤ (القاهرة ١٩٦٨) .

(٩٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١٨٥/١ (بيروت ١٩٦٥) .

الاسرة التاسعة عشرة ، والتي بدأت — كما ألمح القرآن ، وأثبتت الحفائر — تصطنع في بنائها الطوب المحروق (الآجر) (٩٥) .

وهناك قصة قطع الايدي والارجل من خلاف، التي هدد بها فرعون السحرة الذين آمنوا بموسى وهارون ، قال تعالى على لسان فرعون «فإني آمنتكم قبل أن آذن لكم ، انه لكبيركم الذي علمكم السحر، فإلقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولاصليكنم في جذوع النخل، ولتعلمن أننا أشد عذابا وأبقى» (٩٦) ، وقال تعالى «لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لاصليكنم أجمعين» (٩٧) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هذا الوعيد من فرعون لسحرته ، انما انفرد به القرآن من دون التوراة ، وهو خبر خليق بالأمميين قبوله والايمان به ، لانه تنزيل «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (٩٨) بموع ذلك فقد شاء الله أن نجد مصداقا لما بين أيدينا من القرآن ، وأن ينحدر اليها من وثائق التاريخ نص يصور وسائل التعذيب في زمان فرعون، يقال ابن عباس ، رضى الله عنهما ، «كان أول من صلب هو أول من قطع الايدي والارجل من خلاف فرعون ، وقد جاءت هذه الرواية في معظم كتب التفسير» (٩٩) .

(٩٥) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ١٣٨ ، وكذا

Petrie, (W. M. F.) Nebesheh and Defench, p. 18-19, 47.

(٩٦) سورة طه : آية ٧١ .

(٩٧) سورة الاعراف : آية ١٢٤ ، وانظر : تفسير النسفي ٧٠/٢ ، تفسير المنار ٦٢/٩ - ٦٦ ، تفسير الطبري ٣٣/١٣ - ٣٤ ، تفسير القرطبي ص ٢٦٩٦ - ٢٦٩٧ ، صفوة التفسير ٤٦٤/١ - ٤٦٥ ، تفسير البحر المحيط ٣٦٤/٤ - ٣٦٥ ، في ظلال القرآن ١٣٥٠/٣ - ١٣٥١ ، تفسير ابن كثير ٣٨١ - ٣٨٠/٢ .

(٩٨) سورة فصلت : آية ٤٢ .

(٩٩) تفسير الفخر الرازي ١٣٥/٤ ، تفسير البحر المحيط ٣٦٥/٤ ، تفسير الطبري ٣٤/١٣ ، تفسير النسفي ٧٠/٢ ، تفسير البيضاوي ٢٣/٣ ، تفسير الدر المنثور ١٠٧/٣ ، تفسير ابن كثير ٣٨٠/٢ ، البداية والنهاية في التاريخ ٢٥٨/١ .

بأما النص الذي يصور وسائل التعتيب في زمان فرعون ، فقد ورد في مبد «عمدا» من بلاد النوبة المصرية ، ويرجع إلى السنة الرابعة من عهد «مرنبتاح» أي حوالى عام ١٢٢٠ ق م ، ويؤكد أن مرنبتاح هذا ، والذي شاع في الناس أنه فرعون موسى (وهذا ما نميل إليه وترجمته) (١٠٠) ، إنما قطع من خلاف وصلب ، وقد نشر هذا النص الزميل الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف (١٠١) .

غير أن هناك في بعض كتب التفسير خيالا كثيرا ، وبعض روايات تقرب إلى الاساطير منها إلى حقائق التاريخ ، فمثلا يروى المفسرون والمؤرخون المسلمون مبالغات كثيرة في تقدير عدد رجال جيش فرعون الذي طارد به بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر ، حتى ذهبت رواية إلى أن فرعون تبع بنى إسرائيل في ألف ألف (مليون) ، وأخرى ذهبت إلى أن الجيش كان من الفرسان ، في ألف ألف وسبعمئة حصان (مليون وسبعمئة ألف) . وتذهب رواية ثالثة إلى أنهم مليون وسبعمئة ألف ، وتذهب رواية رابعة إلى أنهم مليون ومائة ألف ، وتذهب رواية خامسة إلى أنهم مليون وخمسمائة ألف ، بل إن رواية سادسة تذهب إلى أن فرعون كان في سبعة آلاف ألف (٧ مليون) ، وكان بين يديه مائة ألف ألف نائب ، ومائة ألف ألف حراب ، ومائة ألف ألف معهم الاعمدة .

ويدهى أن سكان مصر جميعا وقت ذاك ، ربما لم يبلغوا هذا العدد ، ثم أننا ، حتى لو صدقنا مبالغات التوراة ، ومن تابعها من المفسرين عن أعداد بنى إسرائيل وقت الخروج ، فإن عددهم (وهو جد مبالغ فيه) «سبعمئة ألف ، غير الاولاد والشيوخ» (١٠٢) ، ولا يتطلب ، بحال من

(١٠٠) - انظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣١٤/١ - ٤٣٦ .
(١٠١) - أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ١١٠ ، وكذا Youssef, (A. A.), Merenptah's fourth year Text at Amada, in ASAE, LVIII, 1964, p. 273.E .

(١٠٢) - انظر : محمد بيومى مهران ، اسرائيل ٢٦٦/١ - ٢٦٨ ، ٤٤٣ - ٤٤٤ ، وكذا

Petrie, (W. M. Egypt and Israel, London, 1925, p. 41-46.

الاحوال ، هذه الملايين من جنود مصر ، لطردتهم ثم كيف تمكن فرعون من جمع هذه الملايين من الخيل والرجال من كل أنحاء مصر ، حين علم فجأة بخروج بنى اسرائيل ، ثم خرج وراءهم مطلزدا •

ولعل أقل الاعداد مبالغة ، تلك التى قدرها الامام النفسى ، حيث يقول : ان موسى خرج ببني اسرائيل من أول الليل ، وكانوا سبعين ألفا ، وقد استعاروا حليهم ، فركب فرعون فى ستمائة ألف من القبط ، فقص أثرهم (١٠٣) •

والامر كذلك بالنسبة الى عدد السحرة ، فلقد اضطرب الناقلون للاخبار فى عدد السحرة اضطرابا متناقضا يعجب العاقل — كما يقول أبو حيان فى بحره المحيط — من تسيطره فى الكتب ، فمن قائل تسعمائة ألف ساحر ، ومن قائل سبعين ساحرا ، لما بينهما من الاعداد المعينة المتناقضة ، كالقول بأنهم ١٢ ألف ، ١٥ ألف ، ١٧ ألف ، ٣٠ ألف ، ٨٠ ألف ، ٧٠ ألف ، على أن من أغرب الروايات أنهم كانوا ٧٢ ساحرا ، اثنان من المصريين ، ٧٠ من بنى اسرائيل ، أو تسعمائة ، ثلاثمائة من الفرس ، وثلاثمائة من الروم ، وثلاثمائة من الاسكندرية (١٠٤) •

ويدهى أن المبالغة واضحة فى هذه الاعداد ، فما كان التنافس بين السحرة وموسى يحتاج الى تسعمائة ألف ساحر ، وربما كان رقم ٧٢

Cook, (S. A.), The Rise of Israel, in CAH, II, Cambridge, 1031, p. 358.

(١٠٣) تفسير أبى السعود ٢٤٤/٦ ، تفسير البنى ٥٨/١ ، تفسير الخازن ٥٨/١ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٨٤/٥ ، تفسير الطبرى ٢٧٥/١ - ٢٧٩ ، تفسير النفسى ٦٠/٣ ، تاريخ الطبرى ٤١٤/١ - ٤١٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٧٠/١ ، تاريخ اليعقوبى ٣٦/١ ، ثم قارن : خروج ٥/١٤ - ٩ •

(١٠٤) انظر : تفسير الطبرى ٢٥/١٣ ، تفسير النفسى ٥٧/٣ ، تفسير الدر المنثور ١٠٦/٣ ، تفسير القرطبى ٢١٤/١١ ، تفسير البحر المحيط ٣٦٠/٤ ، ٢٦/٦ ، ابن كثير : مختصر التفسير ٤٨٦/٢ ، البداية والنهاية ٢٥٤/١ ، الكامل فى التاريخ لابن الاثير ١٠٣/١ •

ساحرا مقبولا نوعا ما ، وأما الاماكن التى جاء منها السحرة ، كبلاد
 الفرس والروم والاسكندرية ، فليت الذين كتبوا ذلك يعلمون أن
 الاسكندرية أنشئت عام ٣٣٢ ق.م ، وبعد هذه الاحداث بما يقرب من
 ألف عام ، وأن الفرس ظهروا فى مصر عام ٥٢٥ ق.م ، أى بعد هذه
 الاحداث بحوالى ٧٠٠ عام بالروم بعدها بما يقرب من اثنى عشر قرنا ،
 وأن مصر كانت تموج بالسحرة ، الذين بلغوا فى السحر شأوا عظيما ،
 وما كانوا فى حاجة الى بنى اسرائيل ، الذين ما كانوا يعرفون علما أو
 فنا أو صناعة ، غير السخرة فى بناء المدن ورعى مواشيهم ، ثم كيف
 يستعين فرعون على موسى ببنى اسرائيل ، وهو الذى جاء لانقاذهم من
 فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم ثم أن سياق القصة
 فى القرآن الكريم يشير الى استعانة فرعون بالسحرة المصريين ، وليس
 ببنى اسرائيل .

٤ - كتب التاريخ والجغرافية :

كتب المؤرخون والجغرافيون العرب بعض صفحات من كتبهم عن
 تاريخ مصر القديم ، وذلك حين كان يتعرض الواحد منهم غالبا لقصص
 الانبياء ذوى الصلة بمصر ، كابراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون
 والمسيح ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وكتاباتهم ، فى معظمها ، ان لم تكن جميعها ، روايات اعتمدت فى
 الدرجة الاولى على الاسرائيليات والنصرانيات ، بل وحتى هذه ، رغم
 قيمتها العلمية الضئيلة ، ان كانت ذات قيمة علمية أصلا ، لم تؤخذ من
 مصادرها الاصلية ، وانما اعتمدت على الرواية من أفواه الرجال ، وهو
 أمر لا يمكن الاطمئنان اليه ، ذلك أن رواة الاخبار ، حتى ان كانوا
 بعيدين عن الميول والاهواء ، وحتى ان كانوا من أصحاب الملكات التى
 تستطيع التمييز بين الغث والسمين ، فان للذاكرة آمادا لا تستطيع
 تجاوزها .

ولعل عذرهم فى ذلك أن عصر الاكتشافات الحديثة الذى نعيشه

الان لم يكن قد بدأ بعد ، وأن الاعتماد في التاريخ انما كان على ما جاء
في التوراة أو العهد القديم كما نقل اليهم عن طريق مسلمة أهل الكتاب،
ممن كانوا يقيمون في بلاد العرب ، وهم ليسوا بأفضل منهم في هذا
الميدان (١٠٥) .

وأخـر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على مولانا وسيـدنا وجدنا
محمد رسول الله ، وعلى آله الطيبين الطاهرين

(١٠٥) انظر دراسة نقدية لكتب المؤرخين والجغرافيين المسلمين
(محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الاول - الاسكندرية ١٩٨٨ ص
١٣٣ - ١٥١) .

المراجع المختارة

اولا : المراجع العربية

القرآن الكريم

كتب الحديث

التوراة

ابن ابي حاتم (عبد الرحمن) : الجرح والتعديل
(٨ اجزاء)

ط الهند ١٩٥٣

ابن الاثير (عز الدين) : الكامل في التاريخ - المجلد
الاول -

بيروت ١٩٦٥

ابن الصلاح (عثمان بن عبد الرحمن) : مقدمة
ابن الصلاح في علوم الحديث

بيروت ١٩٧٨

ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب في الاخبار من
ذهب - نشر حسام الدين القدسى

القاهرة ١٣٥٠ هـ

ابن المدينى : العلل - تحقيق مصطفى الاعظمى

بيروت ١٩٨٠

ابن تيمية (احمد بن عبد الحليم) : مقدمة في اصول
التفسير

دمشق ١٩٣٦

ابن حجر العسقلانى : نخبة اهل الفكر في مصطلح
اهل الاثر

القاهرة ١٣٠٨ هـ

ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح
البخارى

القاهرة ١٣٨٠ هـ

ابن خلدون (عبد الرحمن) : مقدمة ابن خلدون

بيروت ١٩٨١

ابن خلكان : وفيات الاعيان - تحقيق احسان عباس

بيروت ١٩٧٨

ابن قتيبة : تاويل مختلف الحديث

القاهرة ١٩٦٦

الدكتور احمد بدر : اصول البحث العلمى ومناهجه

الكويت ١٩٨٢

الدكتور احمد شلبى : كيف تكتب بحثا او رسالة ؟

القاهرة ١٩٧٤

الدكتور احمد محمد الحوفى : الطببرى

القاهرة ١٩٦٣

- الدكتور أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ الاسكندرية
 الدكتور اسد رستم : مصطلح التاريخ بيروت ١٩٥٥
 الدكتور اكرم ضياء العمرى دراسات تاريخية - مع
 تعليقه فى منهج البحث وتحقيق المخطوطات المدينة المنورة ١٩٨٣
 الدكتور التهامى نقرة : سيكولوجية القصة فى القرآن
 الكريم تونس ١٩٧٤
 الثعلبى (احمد بن محمد بن ابراهيم النيسابورى) :
 قصص الانبياء - المسمى عرائس المجالس - ط الطبى القاهرة
 الحافظ العراقى : ذيل ميزان الاعتدال - جامعة
 أم القرى مكة المكرمة ١٤٠٦ هـ
 الحاكم النيسابورى : معرفة علوم الحديث بيروت ١٩٧٧
 الخطيب البغدادي : الكفاية فى علم الرواية حيدر آباد ١٣٥٧ هـ
 الخطيب البغدادي : تقييد العلم - تحقيق يوسف العش دمشق ١٩٤٥
 الذهبى : ميزان الاعتدال فى نقد الرجال - تحقيق
 على محمد البجاوى القاهرة ١٩٦٣
 الذهبى : تذكرة الحفاظ - تحقيق عبد الرحمن المعلمى حيدرآباد ١٣٧٥ هـ
 الذهبى : المشتبه - تحقيق على محمد البجاوى القاهرة ١٩٦٢
 السخاوى (محمد بن عبد الرحمن) : الاعلان بالتوبيخ
 لمن ذم التاريخ - دار الكتاب العربى - بيروت ١٩٨٣
 السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) : الشماريخ فى
 علم التاريخ - نشر وتقديم ابراهيم السامرائى بغداد ١٩٧١
 الشافعى (الامام محمد بن ادريس) : الرسالة -
 تحقيق أحمد محمد شاكر القاهرة ١٩٤٠
 الطبرى (الامام محمد بن جرير) : تاريخ الرسل
 والملوك (تاريخ الطبرى) تحقيق محمد أبو الفضل
 ابراهيم القاهرة ١٩٦٠
 الغزالى (الامام أبو حامد محمد) : آراؤه فى التربية
 - كتاب آداب المتعلمين - تحقيق أحمد عبد الغفور
 عطار بيروت ١٩٦٧
 الغزالى (الامام أبو حامد محمد) : المستصفى فى علم
 الاصول (جزعان) - ط مصطفى محمود القاهرة ١٩٣٧

- المسعودى : التنبيه والاشراف القاهرة ١٩٦٨
- المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر بيروت ١٩٧٣
- الدكتور جواد على : الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام (١٠ أجزاء) بيروت ١٩٧١/٦٨
- حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله) : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون استنبول ١٣٢١هـ
- الدكتور حسن حلاق : مقدمة فى مناهج البحث التاريخى - بيروت ١٩٨٦
- الدكتور حصن عثمان : منهج البحث التاريخى - دار المعارف القاهرة ١٩٦٥
- الدكتورة حكمت أبو زيد : التاريخ : تعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٦١
- سبط بن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان حيدرآباد ١٩٥٢
- الدكتورة سيدة الكاشف : مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث فيه القاهرة ١٩٧٦
- الدكتور شاكر مصطفى : التاريخ هل هو علم أم فن؟ مجلة عالم الفكر - المجلد الاول - العدد الاول - الكويت ١٩٧٤
- الدكتور عادل حسن غنيم والدكتور جمال محمود حجر : فى منهج البحث التاريخى - دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٩
- عباس محمد العقاد : الفلسفة القرآنية القاهرة ١٩٥٤
- الدكتور عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن القاهرة ١٩٦٦
- الدكتور عبد العزيز الدورى : بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب بيروت ١٩٦٠
- عبد القادر احمد طليمات : ابن الاثير الجزرى المؤرخ القاهرة ١٩٦٩
- الدكتور عثمان موانى : منهج النقد التاريخى الاسلامى والمنهج الاوروبى - دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٤
- الدكتور عزيز العظمة : الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية بنىوت ١٩٨٣
- عصام الدين حفى ناصف : محنة التوراة على ايدى اليهود القاهرة ١٩٦٥
- على ادهم : تاريخ التاريخ - دار المعارف القاهرة ١٩٧٧

- الدكتور على عبد الواحد وافي : ابن خلدون :- منشئه
علم الاجتماع
القاهرة ١٩٨٤
- الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامي للتاريخ
دار العلم للملايين -
بيروت ١٩٨٣
- الدكتور لطفي عبد الوهاب : مناهج الفكر التاريخي
مطبعة كريدية -
بيروت ١٩٧٩
- الدكتور محمد البهي : الفكر الاسلامي الحديث -
مكتبة وهبة -
القاهرة ١٩٨١
- الدكتور محمد الطالبي : منهجية ابن خلدون التاريخية
الدكتور محمد الطالبي : التاريخ ومشاكل اليوم والغد
مجلة عالم الفكر - المجلد الخامس - العدد الاول
الكويت ١٩٧٤
- الدكتور محمد رشاد خليل : المنهج الاسلامي لدراسة
التاريخ وتفسيره
القاهرة ١٩٨٤
- الدكتور محمد بيومي مهران : محاضرات في منهج
للبحث التاريخي
الاسكندرية ١٩٧٨
- الدكتور محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية
الاولى في مصر الفرعونية
الاسكندرية ١٩٦٦
- الدكتور محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الاول
- دار المعرفة الجامعية -
الاسكندرية ١٩٨٨
- الدكتور محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الثاني
الثاني - دار المعرفة الجامعية
الاسكندرية ١٩٨٨
- الدكتور محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الثالث
- دار المعرفة الجامعية
الاسكندرية ١٩٨٨
- الدكتور محمد بيومي مهران : الحضارة المصرية
القديمة - الجزء الاول - الاداء بالعلوم
الاسكندرية ١٩٨٩
- الدكتور محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم
الدكتور محمد بيومي مهران : تاريخ العراق القديم
الاسكندرية ١٩٩٠
- الدكتور محمد بيومي مهران : اخنساتون : عصره
ودعائه
القاهرة ١٩٧٩
- محمد عبد الغني حسن : علم التاريخ عند العرب
القاهرة ١٩٦١

- الدكتور محمد عواد حسين : صناعة التاريخ - مجلة
عالم الفكر - المجلد الخامس - العدد الاول
١٩٧٤ الكويت
الدكتور محمود قاسم : المنطق ومناهج البحث
١٥٩٣ القاهرة
الدكتور مصطفى السباعي : السنة ومكانتها التشريع
الاسلامى
١٩٦١ القاهرة
الدكتور مصطفى العبادي : محاضرات في مناهج الفكر
التساريخي
١٩٨٤ بيروت
منح خوري : التاريخ الحضارى عند توينبى - دار
العلم للملادين
١٩٦٠ بيروت
ياقوت الحموى : معجم الادباء - ط الطبى
١٩٣٦ القاهرة

ثانيا : المراجع المترجمة الى اللغة العربية

- ادواركار : ماهو التاريخ ؟ ترجمة ماهر كيالى ،
١٩٨٠ بيروت
ارنست كاسيرر : في المعرفة التاريخية - ترجمة احمد
حمدي محمود
القاهرة
اول - راوس : التاريخ : اثره وفائده - ترجمة مجدى
١٩٦٨ القاهرة
حنفى ناصف ، ومراجعة محمد انيس
ارنولد توينبى : دراسة في التاريخ (٤ اجزاء)
٠٠٠٠ بيروت
ترجمة منح خورى
البان ج . ويدجيرى : المذاهب الكبرى في التاريخ -
١٩٧٩ بيروت
ترجمة ذوقان قرقوط
ياروخ سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة -
١٩٧١ القاهرة
ترجمة وتقديم حسن حنفى
جفرى باراكرو : الاتجاهات العامة في الابحاث
١٩٨٤ بيروت
التاريخية - ترجمة صالح احمد العلى
جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ - ترجمة عادل زعيتر
١٩٥٤ القاهرة
جولد تسهير : مذاهب التفسير الاسلامى - ترجمة
٠٠٠٠ القاهرة
عبد الحليم النجار - دار الكتب الحديثة
جوزف هوريس : قيمة التاريخ - ترجمة نسيم نصر
١٩٨٢ بيروت

- جورج سارتون : تاريخ العلم - ترجمة ليف من
بيروت ١٩٧٢/٦٣ العلماء ، باثراف ابراهيم بيومى مذكور
- حيدر بامات : مجال الاسلام - ترجمة عادل زعيتر
القاهرة ١٩٥٦
- عبد الحميد صديقى : تفسير التاريخ - ترجمة كاظم
الكويت ١٩٥٥ الجوادى
- ف.ج. هرنشو : علم التاريخ - ترجمة وتعليق وازافة
القاهرة ١٩٣٨ عبد الحميد العبادى
- فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين - ترجمة
بغداد ١٩٦٣ صالح احمد العلى ، ومراجعة محمد توفيق حسن
- فرانز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث
العلمى - ترجمة أنيس فريشة ومراجعة وليد عرفات
بيروت ١٩٨٠
- فردريك أنجلز : التفسير الاشتراكى للتاريخ - ترجمة
القاهرة ١٩٤٧ راشد البراوى
- كارل بوبر : عقم المذهب التاريخى - ترجمة
الاسكندرية ١٩٥٩ عبد الحميد صبرة - دار المعارف
- كولنجوود : فكرة التاريخ - ترجمة محمد بكير خليل
القاهرة ١٩٦١
- لويس جوتشلك : كيف نفهم التاريخ - ترجمة عايدة
بيروت ١٩٦٦ سليمان عارف وأحمد مصطفى أبو حاكمة
- لانجلوا وسينيوبوس : المدخل الى الدراسات التاريخية
الكويت ١٩٨١ ترجمة عبد الرحمن بدوى
- ه. جب : علم التاريخ - دائرة المعارف الاسلامية -
بيروت ١٩٨١ ترجمة ابراهيم خورشيد وآخرون
- هيوج أنتكن : دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم
بيروت ١٩٨٢ الاجتماعية - ترجمة محمود زايد
- و. ه. وولش : مدخل لفلسفة التاريخ - ترجمة أحمد
القاهرة ١٩٦٢ حمدى محمود

ثالثا : المراجع الاجنبية

- Almack, (J. C.), Research and Thesis Writing, Boston, 1930.
- Aron, (R.), Introduction a la Philosophie de L'Histoire Essai sur les
Limites de L'objectivite Historique, Gallimard, 1948.

- Barnes, (H. E.), A History of Historical Writing,
- Carr, (E. H.), What is History, London, 1961.
- Clark, (G. K.), Guide for Research Student Working on Historical Subjects, Cambridge, 1958
- Cole, (A. H.), and Bigelow, (K. W.), A Manual of Thesis Writing, New York, 1949.
- Collingwood, (R. G.), The Idea of History, New York, 1956.
- Derricourt, (R. M.), Radio Carbon Chronology for Egypt and North Africa, in JNES, 1971.
- Fling, (F. M.), The Writing of History, an Introduction to Historical Method, New Haven, 1926.
- Flint, (R.), History of The Philosophy of History, Edinburg, 1893.
- Gardiner, (P.) Theories of History, London, 1954.
- Geyle, (P.), Toynbee and Sorokin, The Pattern of The Past, Beacon Press, 1949.
- George, (H. B.), The Relations of Geography and History, Oxford, 1924.
- Haddon, (A.), A History of Anthropology, London, 1927.
- Jaspers, (K.), The Origin and Goal of History,
- Libby, (W. F.), Radiocarbon Dating, Chicago, 1952.
- Margoliouth, (D. S.), Lectures on Arabic Historians, Calcutta, 1930.
- Meinecke, (F.), Machiavellism in Politics and History, by D. Scott, 1975.
- Minto, (J.), Reference Books, London, 1929.
- Nicholson, (R. A.), A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1962.
- Oman, (C.), on The Writing of History, London, 1963.
- Rosental, (F.), A History of Muslim Historiography, Leiden, 1952.
- Roth, (L.), Thought of The Modern World, in The Legacy of Israel, Oxford, 1947.
- Rowse, (A. L.), The Use of History, London, 1964.

- Sarton, (G.), Introduction to The History of Science, IV, Cambridge, 1952.
- Sauvaget, (J.), Historiens Arabes, Paris, 1946.
- Seligman, (E.), The Economic Interpretation of History.
- Schluter, (W. C.), How to Do Research Work, New York, 1927.
- Simon, (R.), Histoire Critique de Vieux Testament, Paris, 1678.
- Smith, (H. S.), Egypt and C. 14 Dating, Antiquity, 1964.
- Steinmuller, (J. E.), Companion to Scripture Studies, II, N. Y., 1942.
- Taylor, (H.), History as a Science, London, 1933.
- Tholfson, (T. R.), Historical Thinking.
- Toynbee, (A.), A Study of History, London, 1948.
- Unger, (M. F.), Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970.
- Vincent, (F. A.), Aids to Historical Research, New York, 1934.
- Walsh, (W. N.), Introduction to Philosophy of History, London, 1951.
- Wells, (H. G.), The Outline of History London, 1963.
- Whitney, (F. L.), Elements of Research, New York, 1927.
- Wilson, (J. A.), The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.
- Woolley (L.), Digging up The Past, (Pelican Book), 1967.
- Encyclopaedia of Islam.
- Encyclopaedia of Religion and Ethics.
- The Jewish Encyclopaedia.

مؤلفات

الاستاذ الدكتور محمد بيومى مهران
استاذ تاريخ مصر والشرق الاقصى القديم
كلية الاداب - جامعة الاسكندرية

أولا - التاريخ المصرى القديم :

- ١ - الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية الاسكندرية ١٩٦٦
- ٢ - مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث الاسكندرية ١٩٦٩
- ٣ - حركات التحرير فى مصر القديمة القاهرة ١٩٧٦
- ٤ - اخناتون : عصره ودعوته القاهرة ١٩٧٩

ثانيا - فى تاريخ اليهود القديم :

- ٥ - التوراة (١) - مجلة الاسطول - العدد ٦٣ الاسكندرية ١٩٧٠
- ٦ - التوراة (٢) - مجلة الاسطول - العدد ٦٤ الاسكندرية ١٩٧٠
- ٧ - التوراة (٣) - مجلة الاسطول - العدد ٦٥ الاسكندرية ١٩٧٠
- ٨ - قصة ارض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة - مجلة الاسطول - العدد ٦٦ الاسكندرية ١٩٧١
- ٩ - النقاوة الجنسية عند اليهود - مجلة الاسطول - العدد ٦٧ الاسكندرية ١٩٧١
- ١٠ - النقاوة الجنسية عند اليهود - مجلة الاسطول - العدد ٦٨ الاسكندرية ١٩٧١
- ١١ - اخلاقيات الحرب عند اليهود - مجلة الاسطول - العدد ٦٩ الاسكندرية ١٩٧١
- ١٢ - التلمود - مجلة الاسطول - العدد ٧٠ الاسكندرية ١٩٧٢
- ١٣ - اسرائيل - الجزء الاول - التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨
- ١٤ - اسرائيل - الجزء الثانى - التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨
- ١٥ - اسرائيل - الجزء الثالث - الحضارة الاسكندرية ١٩٧٩

- ١٦ - اسرائيل - الجزء الرابع - الحضارة
 ١٧ - النبوة والانبياء عند بني اسرائيل
 الاسكندرية ١٩٧٩
- ثالثا - في تاريخ العرب القديم :

- ١٨ - الساميون والاراء التي دارت حول موطنهم
 الاصلى
 الرياض ١٩٧٤
 ١٩ - العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة
 الرياض ١٩٧٦
 ٢٠ - مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة
 الرياض ١٩٧٧
 ٢١ - الديانة العربية القديمة
 الاسكندرية ١٩٧٨
 ٢٢ - العرب والفرس في العصور القديمة
 الاسكندرية ١٩٧٩
 ٢٣ - الفكر الجاهلي
 القاهرة ١٩٨٢
- رابعا - في تاريخ العراق القديم :

- ٢٤ - قصة الطوفان بين الاثار والكتب المقدسة
 الرياض ١٩٧٦
 ٢٥ - قانون حمورابي واثره في تشريعات التوراة
 الاسكندرية ١٩٧٩
- خامسا - سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم :

- ٢٦ - الجزء الاول - في بلاد العرب
 بيروت ١٩٨٨
 ٢٧ - الجزء الثاني - في مصر
 بيروت ١٩٨٨
 ٢٨ - الجزء الثالث - في بلاد الشام
 بيروت ١٩٨٨
 ٢٩ - الجزء الرابع - في العراق
 بيروت ١٩٨٨

سادسا - سلسلة مصر والشرق الادنى القديم :

- ٣٠ - مصر - الجزء الاول -
 الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣١ - مصر - الجزء الثاني -
 الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣٢ - مصر - الجزء الثالث -
 الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣٣ - الحضارة المصرية - الجزء الاول
 الاسكندرية ١٩٨٩
 ٣٤ - الحضارة المصرية - الجزء الثاني
 الاسكندرية ١٩٨٩
 ٣٥ - تاريخ العرب القديم
 الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣٦ - الحضارة العربية القديمة
 الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣٧ - بلاد الشام
 الاسكندرية ١٩٩٠

- ٣٨ - تاريخ السودان القديم
 ٣٩ - المغرب القديم
 ٤٠ - العراق القديم
 ٤١ - التاريخ والتاريخ
 الاسكندرية ١٩٩٠
 الاسكندرية ١٩٩٠
 الاسكندرية ١٩٩١

سابعاً - سلسلة : في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين :

- ٤٢ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الاول - بيروت ١٩٩٠
 ٤٣ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثاني - بيروت ١٩٩٠
 ٤٤ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث - بيروت ١٩٩٠
 ٤٥ - السيدة فاطمة الزهراء - بيروت ١٩٩٠
 ٤٦ - الامام على بن ابي طالب (الجزء الاول) - بيروت ١٩٩٠
 ٤٧ - الامام على بن ابي طالب (الجزء الثاني) - بيروت ١٩٩٠
 ٤٨ - الامام الحسن بن علي - بيروت ١٩٩٠
 ٤٩ - الامام الحسين بن علي - بيروت ١٩٩٠
 ٥٠ - الامام علي زين العابدين - بيروت ١٩٩٠
 ٥١ - الامام جعفر الصادق - تحت الطبع

ثامناً - معجم البلدان الكبرى في مصر والشرق الادنى القديم :

- (بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور/محمد جمال الدين مختار) - تحت الطبع
 ٥٢ - الجزء الاول : مصر - الجزيرة العربية - بلاد الشام
 تحت الطبع
 ٥٣ - الجزء الثاني : العراق - المغرب - السودان - تحت الطبع



المؤلف في سطور

دكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

- ١ - ولد في البصيلية - مركز انفو - محافظة أسوان .
- ٢ - حفظ القرآن الكريم ، ثم التحق بمعهد المعلمين بقنا ، حيث تخرج فيه عام ١٩٤٩ .
- ٣ - عمل مدرسا بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩ - ١٩٦٠) .
- ٤ - حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٦٠ م .
- ٥ - عين معيدا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٦١ م .
- ٦ - حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف في التاريخ القديم من كلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٦٩ م .
- ٧ - عين مدرسا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٦٩ م .
- ٨ - عين أستاذا مساعدا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٤ م .
- ٩ - عين أستاذا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٩ م .
- ١٠ - أعير الى جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض في الفترة ١٩٧٣ - ١٩٧٧ م .
- ١١ - عين عضوا في مجلس ادارة هيئة الآثار المصرية في عام ١٩٨٢ م .
- ١٢ - عين عضوا بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة في عام ١٩٨١ م .

- ١٣ - أعير الى جامعة ام القرى بمكة المكرمة فى الفترة ١٩٨٣ - ١٩٨٧م.
- ١٤ - عين رئيسا لقسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية فى كلية الآداب جامعة الاسكندرية (١٩٨٧ - ١٩٨٨م) .
- ١٥ - اختير مقررًا للجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨ - ١٩٨٩م) .
- ١٦ - عين استاذًا متفرغًا فى كلية الآداب - جامعة الاسكندرية فى عام ١٩٨٨م .
- ١٧ - عضو لجنة التراث الحضارى والآثرى بالمجالس القومية المتخصصة .
- ١٨ - عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية فى هيئة الآثار .
- ١٩ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم .
- ٢٠ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم .
- ٢١ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة المساعدين فى التاريخ .
- ٢٢ - اشرف وشارك فى مناقشة أكثر من ٣٥ رسالة دكتوراه وماجستير فى تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم فى الجامعات المصرية والعربية .
- ٢٣ - أسس واشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية منذ عام ١٩٨٢م .
- ٢٤ - شارك فى حفائر كلية الآداب - جامعة الاسكندرية فى الوقف - مركز دشنا - محافظة قنا ، (فى عام ١٩٨٠/١٩٨١م) ، وفى «تل الفراعين» مركز دسوق - محافظة كفر الشيخ (فى عام ١٩٨٣/٨٢) .
- ٢٥ - عضو اتحاد المؤرخين العرب .

فهرست الموضوعات

الفصل الأول

- التاريخ : ماهيته وأهدافه ومكانته بين العلوم والفنون ... ١
١ - تعريف التاريخ ... ٣
٢ - غاية التاريخ وأهدافه ... ٧
٣ - مكانة التاريخ بين العلوم والفنون ... ١٥

الفصل الثاني

- المذاهب المختلفة في تفسير التاريخ ... ٢٥
١ - التفسير الدينى ... ٢٨
٢ - التفسير الفردى ... ٣٣
٣ - التفسير النفسى ... ٤١
٤ - التفسير الطبيعى ... ٤٣
٥ - التفسير المادى ... ٤٤
٦ - التفسير الحضارى ... ٥٦
٧ - التفسير الاخلاقى ... ٦٥
٨ - التفسير الاسلامى ... ٧٧

الفصل الثالث

- تاريخ الكتابة التاريخية ... ٩١
١ - فى الشرق الادنى القديم ... ٩٤
٢ - كتابة التاريخ عند اليهود ... ٩٧

- ٣ - كتابة التاريخ عند اليونان والرومان ١٠٣
- ٤ - كتابة التاريخ في أوائل العصر المسيحى ١٠٧
- ٥ - كتابة التاريخ في العصور الوسطى ١٠٩
- ٦ - الكتابة التاريخية عند المسلمين ١١١

الفصل الرابع

- التاريخ القديم ومناهج البحث فيه ١٥١
- ١ - عصور التاريخ القديم ١٥٣
- ٢ - نشأة علم المصريات ١٥٦
- ٣ - منهج البحث في التاريخ القديم ١٧٠
- ٤ - العلوم المساعدة للبحث في التاريخ القديم ١٧٩

الفصل الخامس

- كتابة الرسائل الجامعية ٢٠٧
- ١ - اختيار موضوع البحث ٢١١
- ٢ - وضع خطة البحث ٢١٥
- ٣ - اعداد بيبليوجرافيا للموضوع ٢١٧
- ٤ - جمع المادة العلمية ٢١٨
- ٥ - نقد المادة العلمية ٢٢٠
- ٦ - اثبات الحقائق التاريخية ٢٣١
- ٧ - العرض التاريخى ٢٣٥
- ٨ - ملحق البحث التاريخى ٢٣٨
- ٩ - الحواشى أو الهوامش ٢٣٨
- ١٠ - طريقة كتابة المصادر والمراجع ٢٣٩
- ١١ - تنظيم الرسالة الجامعية ٢٤٦

الفصل السادس

٢٥٣	مصادر التاريخ المصرى القديم
٢٥٥	اولا : الآثار المصرية
٢٥٩	١ - حجر بالرمو
٢٦٢	٢ - قائمة الكرنك
٢٦٣	٣ - قائمة أبيدوس
٢٦٤	٤ - قائمة سقارة
٢٦٤	٥ - بردية تورين
٢٦٦	٦ - تاريخ مانيتو
٢٧٤	ثانيا : كتابات المؤرخين اليونان والرومان
٢٧٦	١ - هيكاثة الميليتى
٢٧٦	٢ - هيرودوت
٢٨٤	٣ - هيكاثة الابدري
٢٨٤	٤ - ديودور الصقلى
٢٨٥	٥ - سترابو
٢٨٧	٦ - بلوتارك الخيرونى
٢٨٩	٧ - بلينى الاكبر
٢٨٩	٨ - كلوديوس بتولمايوس
٢٩٠	ثالثا : المصادر الاجنبية المعاصرة
٢٩٢	رابعا : المصادر اليهودية
٢٩٢	١ - التوراة
٣٠٤	٢ - كتابات يوسف اليهودى
٣٠٨	خامسا : المصادر الاسلامية
٣٠٨	١ - القرآن الكريم
٣٢٣	٢ - الحديث الشريف
٣٢٦	٣ - كتب التفسير
٣٣٤	٤ - كتب التاريخ والجغرافيا

الفنية للطباعة والنشر

٤٨ شارع حمزة - رأس النبه - الإسكندرية
تليفون ٨٠٣٢٥٠

